مكة والمدينة

في الجاهلية وعهد الرسول

دكتور أحمد إبراهيم الشريف

دار الفكر العربي

دكتور احمد ابراهيم الشريف
أستاذ التاريخ الإسلامي
بالجامعات العربية

مكة والمدينة

في الجاهلية وعهد الرسول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

يتناول هذا الكتاب فترة من أهم فترات تاريخ العرب والإسلام ، بل هي — فى نظرنا — أهم فترات هذا التاريخ ، إذ تمثل القاعدة التى تقوم عليها دراسة التاريخ الإسلامى ، وبدون دراستها دراسة علمية صحيحة لا يمكن الالمام بأحداث التاريخ الإسلامى ، وفهم تطوراته فى الداخل والخارج فهما صحيحاً .

وأحسب أن أحداً لايستطيع أن يزعم أن وصف عصر النبى ، وتصوير البيئة التى نشأ فيها ، وقامت فيها النهضة العربية ، أمر ليس له من الخطورة العظيمة فى تاريخ العرب والإسلام ما يستحق الاهتمام الكبير : فبيئة ظهر فيها النبى ، وقام فيها برسالته ، وتوطدت فيها الديانة الإسلامية ، بما فيها من قواعد ونظم كان لهـــا أعظم الأثر فى حياة العالم . وبيئة قامت فيها النهضة العربية ؛ واندفع منها العرب إلى العالم المتمدن ، فاستطاعوا أن يقوضوا سلطان أكبر امبراطوريتين كانتا تتحكمان فى عالم يومئذ ، وتسيطران على مقدراته . وبيئة خرج منها عباقرة القواد ؛ ونوابغ الساسة والإداريين والحـــكام والقضاة ، هذه البيئة جديرة بأن تفرد لها البحوث ويتخصص لدراستها المتخصصون .

ومع الأهمية العظيمة لهذه الفترة — كقاعدة لدراسة التاريخ الإسلامى — فإنها لم تحظ بالعناية الكافية من المؤرخين القدماء والمحدثين على السواء ، وظلت تدرس على هامش الدراسات الإسلامية .

فالذين كتبوا السيرة النبوية قديماً لم يهتموا إلا بذكر ما له علاقة بالنبى نفسه : من نسب وأسرة وقبيلة ، وولادة وكفالة ، وأسفار وزواج قبل

البعثة . وقلما تطرقوا إلى ذكر شيء مما كان عليه عصره وبيئته من حالات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية ، يستطيع المرء أن يقف منها على صورة وافية لما كانت عليه الحياة فى عصر النبى ، وما كانت عليه الأحوال فى مدينة « مكة » التى ولد فيها وقضى أكثر سنى بعثته . والتى كانت بذاتها مركز النواة من النهضة العربية التى أخذت تباشيرها تظهر فى أواخر العصر الجاهلى . ثم توجها ظهور الإسلام . ومدينة « يثرب » التى هاجر إليها ، وأقام فيها دولة وحدت العرب وقادت نهضتهم الكبرى . والتى كانت بذاتها مستعدة لتلقى هذا الحدث الخطير ثم النهوض بذلك العبء الجليل .

والنتف القليلة التى وردت فى هذه الكتب القديمة مما كانت عليه الحالة قبل الإسلام ، إنما كانت استطرادية من ناحية . وقد غلبت عليها مسحة التعميم والإطلاق من ناحية أخرى . كما أنه لا يخلو كثير منها من طابع الصنعة والوضع والتلفيق . وحتى أقدم هذه الكتب وأكثرها جدية وأمانة . وأشدها رغبة فى التحفظ والتحوط . من أمثال « سيرة ابن هشام » وهى أقدم ما حفظ لنا الزمن مما كتب فى سيرة النبى . و « تاريخ الطبرى » وهو مثل ابن هشام قدما وجدية وأمانة . و « طبقات ابن سعد » وهى كذلك من كتب السيرة القديمة المعتبرة . نجد فى كثير مما روته من الروايات وسردته من الأخبار — ولا سيما فيما يتعلق بالفترة التى سبقت الإسلام - ذلك الطابع ظاهراً من الصنعة والوضع والتلفيق . قد دونوها كما وصلت إليهم . أو نقلوها عن من سبقهم . منها ما أشاروا هم إليه . ومنها ما لم يشيروا إليه . ولكنه لا يخفى على نظر الباحث المدقق .

هذا بالإضافة إلى أن كثيراً مما ورد من روايات وأخبار عن حالة العرب فى الجاهلية ، يقف منها الباحث موقف التحفظ الشديد ، إذ يلمس فيها القصد ظاهراً فى التقليل من شأن العصر الذى سبق البعثة النبوية ، من حيث الحضارة المادية والأدبية والمدارك العقلية . والحقيقة أن المسلمين الأولين أخذوا بالنهضة الإسلامية وفتنوا بما جاء به الإسلام من مثل . وما حققه للعرب من وحدة وحضارة ، فضربوا صفحاً عن كل ما سبقه . وكأنهم حين تخلصوا من الوثنية وعفوا على آثارها ألحقوا بها كل ما كان من نظم

الحياة وشئونها قبل الإسلام ، وكأنما الأمة العربية — عندهم — ولدت بظهور الإسلام ميلاداً جديداً .

وإلى جانب كتب السيرة توجد بعض الكتب والرسائل ، وبعض الفصول والبحوث فى الكتب العربية الأدبية والتاريخية والفنية . عن حياة العرب قبل الإسلام وعاداتهم وتقاليدهم . غير أن هذه كلها قد كتبت بأسلوب عام مطلق ، لم يتناول البيئة العربية التى نشأ فيها النبى وقامت فيها رسالته ، بصورة خاصة ، من ناحية . وأن ما ورد فيها من روايات جاءت متفرقة غير مرتبة ، وقد اختلط فيها الغث بالثمين ، والباطل بالصحيح ؛ بحيث لا يسع الباحث إلا أن يقرأها بتحفظ شديد ، وإلا أن يتردد كثيراً فى أخذها كحقائق تاريخية ؛ أو حتى كروايات موثوق بها . من ناحية أخرى . وذلك لأن هـــذه الروايات ظلت محفوظة فى الصدور تتداولها الألسن ، ولم تدون إلا فى وقت متأخر . كانت الأهواء قد لعبت فيه دوراً كبيراً ؛ بما أصاب الوحدة الإسلامية من تفكك ، بظهور الفرق والأحزاب السياسية . وقد استند أصحاب هذه الكتب والرسائل والبحوث إلى هـــذه الروايات وأخذوها كحقائق تاريخية بنوا عليها أبحاثهم وتقريراتهم دون تمحيص على الأغلب .

وما وصل إلينا من الشعر المنسوب إلى الجاهليين — بغض النظر عن صحة نسبته إليهم أو عدم صحتها — لا يمكن أن نجـــد فيه مرآة صادقة للحياة العربية قبل الإسلام ، وذلك لأن هذا الشعر إنما عنى بحياة البادية ولم يمس حياة الحضر إلا مسا رفيقاً هيناً . فوق أنه نحـــا نحو تمثيل الجانب المثالى فى الخلق العربى من شجاعة وكرم ومروءة ، وذلك لما طبعت عليه حياة الفخر والمباهاة من تمدح وتزيد . كما سلك جانب التطرف حين عدد المثالب والمذام . هذا إلى خلوه تقريباً من تصوير الحياة العامة واقتصاره على الجانب الوجدانى من حياة الأفراد .

والمؤرخون المحدثون الذين تناولوا كتابة السيرة النبوية أو تاريخ الصدر الأول للإسلام ، وتطرقوا إلى وصف مظاهر الحياة العربية فى الجاهلية ، لم يصوروا ذلك العصر وتلك البيئة تصويرا يمكن أن يقال إن فيه غناء ؛

على الرغم مما امتازت به بعض كتبهم من سلامة المنهج وقوة البحث ؛ وذلك لأن بعضهم تناول موضوعاً واسعاً ، وبعضهم قصد إلى معالجة جانب خاص أو تناول تاريخ الرسالة النبوية وحدها دون العناية بالحياة العربية قبلها ، مع أن دراسة تاريخ الرسالة النبوية لا يمكن أن يكون واضحاً ومفهوماً إلا بدراسة العصر نفسه . ولم يتناول أحد — بصورة علمية منهجية — دراسة تاريخ المدينتين الحجازيتين « مكة والمدينة » فى بحث متخصص ، على اعتبار أنهما حاضرتا الحجاز ، وقاعدة البيئة العربية التى قامت فيها النهضة فى الجاهلية والإسلام .

وقد كتب كثير من المستشرقين عن ذلك العصر فى سياق ما كتبوا عن حياة النبي وظهور الإسلام . غير أن للمستشرقين طرائق فى البحث والاستنباط قد تجعل الكثيرين منهم يتحكمون تحكما فى الآراء والنتائج ، ويقعون فى أوهام وأغلاط خطيرة ؛ إما بسبب تعظيم خبر أو رواية قد لا تكون صحيحة فى أصلها ، أو تكون قد فهمت على غير وجهها الصحيح ، أو رجحت دون مبرر صحيح للترجيح . وإما بسبب عدم القدرة على فهم روح اللغة العربية وأسرارها البلاغية . كما أن بعضهم فى كثير من الأحيان يفترضون افتراضات تجعلهم يقيسون مع الفارق ، ويسوغون مالا يمكن تسويغه ؛ بسبب عدم قدرتهم على فهم البيئة العربية فهماً صحيحاً . فوق أنهم استندوا أصلا إلى المصادر العربية القديمة وفيها من المآخذ ما أشرنا إليه ، ولم تكن لهم القدرة اللغوية على تمحيص ما بها تمحيصاً صحيحاً . كما أن بعضهم قد كتب فى تاريخ الإسلام لغرض معين ، فكتب ما كتب بدافع الهوى ، وأحياناً بدافع الحقد ؛ فلجأوا إلى كل شاردة من الروايات مهما كانت ضعيفة أو تافهة فى سبيل تثبيت نظرية خاصة يريدون الإدلاء بها ؛ فتورطوا فى بحوثهم ، وخرجوا بها عن جادة العلم والبحث والأمانة .

لكل ما سبق كان أمراً ضرورياً أن يقوم أحد الباحثين بدراسة علمية لهذه الفترة ، وبخاصة تاريخ المدينتين الحجازيتين « مكة والمدينة » فى

العصر الجاهلى وعهد الرسول ، حتى تسد هذه الثغرة الظاهرة فى الدراسات العربية والإسلامية .

وإذا كنا نريد أن ندرس الحياة الجاهلية دراسة موثقة صحيحة ؛ فعلينا أن ندرسها فى نص لا سبيل إلى الشك فى صحته ، على أن يكون مرآة صادقة لهذا العصر ، وليس هناك مصدر ثابت لا سبيل إلى الشك فيه غير القرآن الكريم ، فضلا عن أنه أصدق مرآة للعصر الجاهلى ولحياة الرسول والدعوة الإسلامية نفسها .

وحين نقول إن القرآن ، « مرآة الحياة الجاهلية » فإنما ذلك لأنه ليس من اليسير أن نفهم أن القرآن نزل ليتلى على ناس لا يفهمونه ولا يقفون على أسراره ودقائقه ؛ فإن الذين تليت عليهم آياته أعجبوا به أشد الأعجاب ، ولا يكون ذلك إلا أن تكون بينهم وبينه صلة ، هى هذه الصلة بين الأثر الفنى البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه . كذلك فإن العرب قد آمن بعضهم بالقرآن ، وناهضه بعضهم الآخر وجادل النبى فيه وقاومه ، ولا يكون ذلك إلا لأن الناس فهموا القرآن ووقفوا على أسراره ، وإلا لما آمن به من آمن وجادل فيه وناهضه من جادل وقاوم ، وليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديداً كله على العرب ، وإلا لمـــا فهموه ولا وعوه ، ولا آمن به بعضهم وناهضه وجادل فيه آخرون . إنما كان القرآن جديداً حقاً فى أسلوبه ، وفيما يدعو إليه ، وفيما شرع للناس من دين وقانون .

وقد عرض القرآن للحياة العربية من جوانبها المختلفة : الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فأما من الناحية الدينية ، فقد رد القرآن على الوثنيين ؛ ورد على اليهود ، ورد على النصارى . وعلى الصابئة ، والمجوس . وهو لم يرد على يهود فلسطين ، ولا نصارى الروم ، ولا مجوس الفرس ، ولا صابئة الجزيرة وحدهم ، وإنما رد على فرق من عرب الجزيرة العربية كانت تمثلهم وتدين بهذه الديانات والنحل كلها ، فهو يبطل منها ما يبطل ؛ ويؤيد منها ما يؤيد ،

وهو يلقى من المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه النحل والديانات من سلطان على نفوس الناس ، وبمقدار ما لأصحابها من قيمة وخطر فى الحياة السياسية والاجتماعية فى بلاد العرب . ولا نجد هذا واضحاً فى أى مصدر من مصادر البحث يمكن أن نرجع إليه غير القرآن الكريم . فالقرآن إذن أصدق تمثيلا لحياة العرب الدينية من كل مصدر آخر ، وهو إذ يصور لنا هذا الجانب من حياتهم إنما يصورهم أصحاب دين يجادلون عنه ويقاتلون فى سبيله .

والقرآن لايمثل الحياة الدينية وحدها ، وإنما تمثل حياة عقلية قوية عند العرب ، فهو يمثلهم ذوى قدرة على الجدل والخصام ، ويشهد لهم فى هذا بقوة الجـــدل والقدرة على الخصام والشدة فى المحاورة ؛ وهم لم يكونوا يجادلون فى أمور بسيطة هينة من أمر الدين ؛ وإنما كانوا يجادلون فى مسائل عويصة معضلة أنفق الفلاسفة وينفقون فيها حياتهم دون أن يوفقوا لحلها : كانوا يجادلون فى الخلق ، والبعث والحساب ؛ وفى إمكان اتصال الله تعالى بالناس ، وفى الوحى والمعجزة وما إلى ذلك . والقرآن يصورهم أذكياء علماء ، ولايصفهم جهلاء ولا أغبياء ؛ ولا يصفهم بالغلظة والخشونة ، كما يصفهم الواصفون .

ولانقول هذا على العرب على الإطلاق : وإنما كان العرب كغيرهم من الأمم القديمة ؛ منقسمين إلى طبقتين : — طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالجاه والمال والذكاء والعلم . وطبقة الذين لا يكادون يملكون حظاً من هذا كله ، وإنما كانوا تبعاً لسادتهم يسيرون حيث ساروا . وكذلك مثل القرآن العرب ؛ فتحدث عن كبرائهم وما هم عليه من نعمة وما لهم من معرفة ، كما تحدث عن جهالهم ، وصور جفاء أعرابهم وغلظة أكبادهم وموت العاطفة عندهم .

والقرآن لا يمثل العرب أمة مدنية مستنيرة فحسب ، بل ويمثلها أمة غير معتزلة لغيرها من الأمم ، فهى ليست قابعة فى صحاريها لا تعرف العالم ولايعرفها العالم ؛ وإنما كانت على صلة وثيقة بجيرانها من الأمم الأخرى ، تشارك فى نشاط العالم السياسى ، وتهتم بسياسات الأمم الكبرى فى ذلك

الوقت من فرس وروم وأحباش ، ولها مع هذه الأمم نشاط اقتصادى كبير ؛ تحمل التجارة العالمية عبر صحرائها بين الشرق والغرب فى رحلتى الشتاء والصيف . بل ويصورها القرآن عارفة بالبحر تتخذه طريقاً وتحصل منه على منافع كثيرة من الصيد والغوص ، واحتفاء القرآن بالبحر وما يجرى عليه من منشآت فى البحر كالأعلام ، ومنّه على العرب بالنعم التى يحصلون عليها من البحر كبير : يقطع بأن عرب الجزيرة العربية لم يكونوا يجهلون البحر ، بل ولهم فيه نشاط ملحوظ وفائدتهم منه عظيمة .

فالعرب إذن لم يكونوا على غير دين ، ولم يكونوا جهالا ولا غلاظاً ، ولم يكونوا فى عزلة سياسية أو اقتصادية بالقياس إلى غيرهم من الأمم .

وكما عرض القرآن لحياة العرب الاقتصادية الخارجية . كذلك عرض لحياتهم الداخلية . وقسمهم فى هذه الناحية كذلك إلى : أغنياء مستأثرين بالثروة مسرفين فى الربا ، وفقراء معدمين ليس لهم من المال ما يقاومون به هؤلاء الأغنياء المرابين . وكما وقف القرآن يأخذ بيد الجهال ينير عقولهم ويرفع من كرامتهم ، كذلك أخذ جانب الفقراء المستضعفين فى صراحة وقوة وناضل عنهم وعن حقوقهم ، وحارب المسرفين فى ظلمهم . وسلك فى ذلك مسالك مختلفة : من القوة والعنف حين حرم الربا وحمل على المرابين وأنذرهم بالحرب من الله ورسوله . ومن اللين والرفق حين أمر بالبر وحبب فى الصداقة . ومن المزاوجة بين اللين والشدة حين فرض الزكاة وجعل للفقراء حقاً فى مال الأغنياء . كما أن القرآن عرض لتنظيم المعاملات ليحفظ الحقوق وليقيم العدالة بين المتعاملين .

وبالجملة فقد عرض القرآن لكل الحياة العربية من كافة نواحيها : لذلك كان مرآة صادقة للحياة العربية فى الجاهلية[1] .

وإذا كان القرآن مرآة للحياة الجاهلية ، فهو مرآة أشد صفاء لحياة النبى

---

(١) أنظر طه حسين : فى الأدب الجاهلى (القرآن مرآة الحياة الجاهلية) ص ٧٠—٨٠ طبع المعارف .

وأطوار الرسالة الإسلامية والأحداث التى مرت بها ، ولا يمكن أن يكون كتاب أوفى من القرآن وأوضح فى تصوير هذه الفترة .

والمصدر الثانى الذى يجب أن نعتمد عليه بعدالقرآن هو الحديث الشريف فإن أحاديث النبى ، بما فيها من أوامر ونواه ، قد تناولت الحياة التى كانت جارية فى ذلك الوقت ، وعرضت لكل ماكان قائماً من نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، فأقرت مارأته صالحاً ، وعدلت مايستقيم بالتعديل ، ونهت عما رأته ضاراً أو فاحشاً من حياةالناس فالحديث الشريف لذلك هو المصدر الذى يلى القرآن فى الأهمية ، على أن يرجع إليه فى كتب الحديث الصحاح ، وعلى أن يلم الباحث بما وضع علماء الحديث من قوانين التعديل والجرح لمعرفة أوثق الأحاديث .

وإذا كنا قد أخذنا القرآن والحديث مصدرين أساسيين ؛ لبحث هذه الفترة من حياة الأمه العربية ، فليس معنى هذا أننا نهمل المصادر الأخرى من شعر وتاريخ وتراجم وأنساب ، وكل ما عرض له القدماء من ذكر للحياة العربية . بل نأخذ من كل منها ما يعطى من طاقة ، لتكون الصورة التى نرسمها واضحة تامة ، بشرط ألا يناقض ما نأخذه منها ماله ذكر فى المصدرين الأساسين .

وأحسب أننى حين التزمت بالقيام بهـــذا البحث — الذى أقدمه للقراء فى هذا الكتاب — قد بذلت ما فى وسعى من طاقة ، وأعطيته ما يتناسب مع أهمية الموضوع من جهد ووقت . وكل أملى أن أكون قد فتحت به باباً لدراسة هذه الفترة العظيمة الأهمية من حياة العرب والإسلام . وحسبى هذا جزاء مكافئاً ، والله وحده هو الذى يتولى الجزاء . ومنه الهدى وهو ولى التوفيق :

أحمد إبراهيم الشريف

القاهرة فى أول نوفمبر ١٩٦٥ .

الباب الأول

جغرافية الجزيرة العربية والتشكيل القبلي

الفصل الأول

شبه جزيرة العرب

هى أكبر شبه جزيرة فى العالم . يبلغ متوسط عرضها سبعمائة ميل ، ومنتهى طولها ألف ومائتا ميل ، ومساحتها تبلغ حوالى مليون ميل مربع(١)

ويطلق العرب عليها تجاوزا اسم « جزيرة العرب »(٢) ، يرون البحار والأنهار تكاد تحيط بها من جميع أقطارها وأطرافها ، فالخليج العربى . والبحر العربى ، والبحر الأحمر تحدها من الشرق والجنوب والغرب ، ويكمل الفرات الحد الشرقى . كما يكمل النيل الحد الغربى ، ليلتقيا بالحد الشمالى وهو البحر المتوسط . وهذا التحديد الذى يقول به الهمدانى يدخل بلاد الشام كلها ، والبادية التى بين العراق والشام ، وبادية سيناء فى جزيرة العرب(٣) ، وهو يتفق مع التحديد الذى قال به هيرودوت حيث اعتبر النيل الحد الغربى لقارة آسيا وجعل صحراء مصر الشرقية كما هى معروفة الآن جزءا من الجزيرة العربية(٤) ، والفارق بين تحديد الهمدانى وهيرودوت أن الأول لم يدخل صحراء

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١ .

L. D. Stamp. Asia a Renional and Economic Geogrophy. p. 133

(٢) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ٤٦ — ٤٧ . الألوسى : بلوغ الأرب ١/١٨٧ . ياقوت معجم البلدان ١/١٠٠ .

(٣) الهمدانى : ٤٧ .

(٤) هيرودت : Herodotas, Book 11—16—17

مصر الشرقية فى جزيرة العرب . وبتحديد الهمدانى أخذ بعض الجغرافيين المحدثين(١) ويختلف الجغرافيون فى الحد الشمالى ، فمنهم من يجعله صحراء النفود ، وبذلك يخرجون بادية الشام من جزيرة العرب ، غير أن طبيعة الأرض الجيولوجية تدخل بادية الشام وسيناء فيها ، إذ أنها جزء لا يختلف من حيث طبيعته الصحراوية وخواصه عن سائر أنحاء بلاد العرب(٢) .

وعلى ذلك فحد جزيرة العرب من الشرق بحر عمان وخليج البصرة (خليج العرب) ونهر الفرات ، ومن الجنوب بحر العرب ، ومن الغرب البحر الأحمر وبرزخ السويس (قناة السويس حالينا) ، ومن الشمال البحر المتوسط .

وتحتل جزيرة العرب موقعا ممتازا بين قارات العالم الثلاث القديمة ، فهى تقع فى الركن الجنوبى الغربى من قارة آسيا ، كما تتصل بالقارة الأفريقية فى ركنها الشمالى الشرقى حيث برزخ السويس قديما وقناة السويس فى الوقت الحاضر ، كما أنها تشرف بحدها الشمالى على شرق البحر المتوسط الذى يصلها بقارة أوروبا . أما من ناحية الخريطة الحضارية للعالم قبيل الإسلام ، فإنها تقع عند نقطة التقاء الحضارتين السائدتين يومئذ وهما حضارة الفرس وحضارة الروم .

وإذا نظرنا نظرة عامة إلى خريطة بلاد العرب رأينا أنها أرضون واسعة تنحدر تضاريسها من الغرب نحو الشرق ، وهى مرتفعة فى الغرب

---

(١) Stamp. Op. cit. P. 133

(٢) حتى : تاريخ العرب ١٧ جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ١/٨٦ .

حيث جبال السراة الممتدة من سورية وفلسطين إلى اليمن : وهى توازى ساحل البحر الأحمر وتقترب منه فى مواضع عديدة . ويتراوح ارتفاع هذه الجبال ما بين عشرة آلاف قدم وثلاثة آلاف قدم ، فتبلغ قمة فى الشمال (فى مدين) وفى الجنوب فى اليمن وعسير حوالى عشرة آلاف قدم ، بينما تكون خلف مكة ثمانية آلاف قدم ، وقرب المدينة تبلغ ثلاثة آلاف قدم(١) ، وتحصر بينها وبين ساحل البحر الأحمر أرضا سهلية ضيقة تعرف بتهامة ، تشرف عليها هذه المرتفعات وتنحدر إليها انحداراً شديداً قصيراً ، وسواحلها المهيمنة على البحر يصعب رسو السفن فيها لخلوها من المرافىء الصالحة ، ولوجود الشعب المرجانية التى تمتد فى بعض المواضع بعيدا فى البحر .(٢)

وتتألف الأراضى الوسطى من هضبة تسمى «نجد» وتختلف فى الارتفاع ما بين ستة آلاف قدم إلى أربعة آلاف قدم ما بين عسير والطائف ، إلى ألفين ومائتى قدم عند العَلا(٣) . وحد نجد الغربى واضح بجبال السراة . أما حدها الشرقى فهو غير واضح وربما امتد إلى قرب خليج العرب .

وتمتد فى الأقسام الجنوبية من شبه الجزيرة سلاسل من الجبال متفاوتة الارتفاع تشرف على المنخفضات الساحلية ، وتكثر فيها الوديان التى تفصل بين هذه السلاسل الجبلية وتأخذ مختلف الاتجاهات ،

---

(١) السراة أعلى كل شى (تاج العرس ١٠/١٧٤ . البلدان ١٠/١٠٤ — ٢٠٥
Stamp. P. 134. K,S. Twlchell, Saudi Arabia. P. 10

(٢) جورج فضلو : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ص ٢٥ .

(٣) Twitchell . op. cit .p, 134 .

حيث تمثل اتجاهات المياه والسيول . ويبلغ ارتفاع الجبل الأخضر الذى يقع فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة : أى فى عمان ، زهاء عشرة آلاف قدم(١) .

وللحِرَار أهمية خاصة فى التشكيل الجغرافى للجزيرة العربية ، وهى تكثر فى شبه جزيرة العرب وخاصة فى الأقسام الغربية . وتمتد حتى تتصل بالحرار التى فى بلاد الشام فى حوران ولاسيا فى الصفاة(٢) . كما توجد فى المناطق الشرقية الجنوبية من نجد : وفى المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية ، وقد ذكر علماء العرب من المؤرخين والجغرافيين أسماء عدد منها . كما عثر السياح الأجانب على عدد منها(٣) .

والحرة أرض بركانية وجمعها حرار : ويقال لها اللابة واللوبة(٤) وقد تكونت من فعل البراكين ، ويشاهد منها نوعان : نوع يتألف من فجوات البراكين نفسها . ونوع يتألف من حممها « اللابة » «lava» التى كانت تقذفها فتسيل على جوانب الفتحة ثم تبرد وتتفتت بفعل التقلبات الجوية . فتكون ركاما من الأحجار البركانية التى تغطى الأرض بطبقات قد تكون رقيقة وقد تكون سميكة . وقد وصفها العلماء فقالوا : الحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار(٥) ، ويكون ما تحتها أرضا غليظة من قاع ليس بأسود ، وإنما

---

(١) جواد على : ١/٨٧ Stamp : op. cit. p. 134

(٢) C, M.Daughty,Travels in Arabia Deserta. vol. 2. p. P. 417 - 42.

(٣) جواد على : ١ / ٨٩ Alics Musil, In the Arabian Dsert

(٤) البلدان ٢/١٧ . لسان العرب ٢/٢٤٢ . الطبرى ٣/٢٢١ .

(٥) البلدان ٢/١٧ . المصباح المنير (طبع وزارة المعارف عام ١٩٢٠) ١/١٧٧

سوّدها كثرة حجارتها وتدانيها . وتكون الحرة مستديرة فإذا كان لها امتداد مستطيل ليس بواسع فذلك الكراع(١) .

وقد اشتهر كثير من مناطق الحرار بالخصب والنماء ، وبكثرة المياه فيها ولاسيما حرار المدينة التى استغلت استغلالا جيدا ، ومنها «خيبر» فكثرت قراها وكثر سكانها ، حتى قيل إنها خير قرى عربية ، غير أن ظهور العيون فيها بكثرة ، جعلها موطناً من مواطن الحمى . اشتهر أمرها فى الحجاز حتى قيل «حمى خيبر(٢)» .

أما من الناحية الهدروجرافية فإن بلاد العرب فى الوقت الحاضر فى جملة البلاد التى تكاد تنعدم فيها الأنهار والبحيرات ، ويندر سقوط الأمطار عليها ، ولذلك صارت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان . غير أنها كثيرة الأودية التى تسيل فى بعضها المياه عند سقوط الأمطار ، وبعضها طويل يسير فى اتجاه ميل الأرض ، كما أن بعضها الآخر وبخاصة التى تصب فى البحر الأحمر قصير عميق المجرى شديد الانحدار ، تنحدر فيه السيول بشدة إلى البحر فتضيع فيه ، وربما كانت فى بعض الأحيان خطراً يهدد القوافل والمدن والأملاك ، ويأتى على الناس بأفدح الخسائر(٣) .

---

(١) الحرار : أفواه البراكين . اللابة أو اللوبة : المناطق التى غطتها حمم البراكين وسالت فوقها وجفت . الكراع : أعناق الحرار . أنظر لسان العرب ٢/٢٤٢ ، ١٠/١٨٢ القاموس ٣/٧٨ المصباح المنير ٢/٧٢٩ (الكراع الأنف السائل من الحمة ، وأكارع الأرض أطرافها ، والواحد أيضا كراع ومنه كراع الغميم أى طرفه) .

(٢) البلدان ٨/٤١٠ .

كأن به إذ جئته خيبرية . يعود عليه وردها وملالها

قلت لحمى خيبر استعدى هاك عيالى فاجهدى وجدى

وباكرى بصالب وورد . أعانك الله على ذا الجند .

(٣) حتى ص ٢٠ البتنونى الرحلة الحجازية س ٢٥٩ (عن السيول أنظر البلاذرى فتوح البلدان والطبرى والأزرق فى أخبار السيول) .

وليس فى شبه جزيرة العرب نهر واحد بالمعنى المعروف من الأنهار(١)، وما فيها من جداول غير صالح للملاحة(٢) ، فهي إما قصيرة سريعة الجريان شديدة الانحدار ، وإما ضحلة تجف فى بعض المواسم . غير أن العلماء يستنتجون من اتجاه الأودية ومن وجود العاديات والخرائب وآثار السكنى على أطرافها ، والترسبات التى تمثل قيعان الأنهر ، أن هذه الأودية كانت فى الحقيقة أنهاراً فى يوم من الأيام ، وأن جوانبها كانت مأهولة بالسكان زاخرة بالحياة ، ويؤيد هذا الاستنتاج ما ورد فى كتب اليونان والرومان من وجود أنهار طويلة فى بلاد العرب ، فقد ذكر هيرودوت اسم نهر دعاه « كورس » قال عنه إنه من الأنهر العظيمة ، وإنه يصب فى البحر الأريتريا(٣) ويقصد به البحر الأحمر .

ويرى بعض العلماء أن المكان الذى ذكره هيرودوت هو « وادى الحمض » المار بشمالى « قرح »(٤) (على مسافة ٤٣ كيلو متراً من الحجر) . وقد كانت عامرة فيما مضى بالزروع والبساتين وهى المعروفة « ببساتين قرح » ، ويوجد بالقرب منها « سقيا يزيد » أو « قصر عنتر » كما تسمى فى الوقت الحاضر على بعد ٩٨ ميلا من شمال المدينة(٥) . كما ذكر بطليموس اسم نهر عظيم سماه لار Lar زعم أنه ينبع من منطقة نجران ، أى من الجانب الشرقى من السلسلة الجبلية ، ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقاً بلاد العرب حتى يصب فى الخليج

(١) الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٢١ .

(٢) حتى ٣١ . جورج فضلو . العرب والملاحة ص ٢٥ .

(٣) جزاد على ١٨/١ . Herodotus : Vol. I. p. 214

(٤) البلدان ١٥/٣٢٠ – ٣٢١ (وكانت من أسواق العرب فى الجاهلية وزعم بعضهم أن بها كان هلاك عاد قوم هود ، ما يدل على أنها من المواضع القديمة فى بلاد العرب) .

(٥) « اصطبر عنتر » وهبة : ٢٠ . البلدان ٢٢٨/١٠ .

العربى(١). ويرى بعض العلماء أن هذا النهر الذى يشير إليه بطليموس هو وادى الدواسر ، والذى تمده بعض الأودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول(٢) .

ومن آثار السدود والنواظم التى ترجع إلى ما قبل الإسلام يمكن الاستدلال على أن العرب كانوا على علم واسع بتنظيم أمور الإرواء ، والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار ، كما تدل كثرة المصطلحات فى اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة العرب بأنواع الآبار ، والسدود ، والمساك ، والنحايت وغير ذلك من الوسائل التى استخدمت للحصول على الماء(٣) .

وإذا كانت البحار تحيط بجزيرة العرب ، فإن الجو البحرى لم يستطع أن يخفف من حدة الحرارة فيها أو يتغلب على جفافها ، فإن الأبخرة المتصاعدة من البحر لا تكاد تصل إلى أواسط الجزيرة العربية ، إذ أن الرياح السمائم الشديدة الحر تقاومها مقاومة شديدة ، وتمنعها فى الغالب من الوصول إلى أواسط شبه الجزيرة(٤) ، على أن الأقسام الجنوبية كثيرة المطر ، تجلبه إليها الرياح الموسمية . ولأهل اليمن عناية بتصريف المياه والانتفاع بها منذ زمن بعيد ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان فى اليمن من حضارة وعمران وخصب ورخاء فقال «لَقَد كانَ

---

(١) جواد على ١/٩٨ .

(٢) وهبة ٥٤ .

(٣) بئر سك = ضيقة الخرق وقيل الضيقة الحفر من أولها إلى آخرها (لسان ٤٠/٤٤٠ والمسك والمساك الموضع الذى يمسك الماء (اللسان ١٢/٣٧٨) . جواد على : ١/١٠١ .

(٤) حتى ٩ . جواد على ١/٨٦ .

لِسَبَإٍ فى مَسْكَنِهِم آيةٌ جنَّتَان عن يَمِين وشِمالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُرُوا له بلدَةٌ طَيِّبَةٌ وربٌّ غفُور »(١) . أما بقية بلاد العرب فتتكون من صحار ، وسهول تغلب عليها الطبيعة الصحراوية .

وتدل البحوث والدراسات التى قام بها السياح والعلماء عن بلاد العرب ، على أن تغييراً كبيراً طرأ على جوها ، وأن هذا الجفاف الذى نعهده الآن فى هذه البلاد لم يكن على النحو الذى كانت عليه فى العصور التى سبقت الإسلام ، وأن ذلك الجفاف أثر تأثيرا كبيراً فى شبه جزيرة العرب ، فجعل أكثر بقاعها صحارى جرداء ، كما أثر فى حالة سكانها ، فقاوم نشوء المجتمعات الكبرى وأثر تأثيرا خطيرا فى تاريخ الأمة العربية ، وفى حدوث الهجرات(٢) .

ويرى العلماء أن الرياح الغربية الباردة المشبعة بالرطوبة كانت تصل إلى أرض شبه الجزيرة العربية وتنزل المطر عليها ، وأن هذه البقاع الصحراوية كانت خضراء آهلة بالسكان . فمثلا المنطقة الواقعة بين «العَلا» و «مُعَان» من المناطق الصحراوية الآن ، وقد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار المملوءة بالحيوانات المفترسة(٣) . وكانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود ؛ كذلك المنطقة الواقعة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشر الميلادى مغطاة بالأشجار وبالعوسج والسلم وهى من الشجيرات الصحراوية

(١) سبأ ١٥ .

(٢) جواد على ١/٩٧ وأنظر عن تغيير المناخ ١ .

Hnzayyin, Aradia and the Far East. p. p. 2-4

(٣) op. Cit. p.5 .

وقد عرف وادى القرى — الذى لابد أن يكون قد سمى بذلك لكثرة القرى فيه — بكثرة بساتينه ومياهه وقراه ، وهو طريق عالى تدلهم تسلكه القوافل فى طريقها بين الشام واليمن ، أما اليوم فقد جفت ينابيعه وفقد أكثر قراه ، واضطر أهله إلى الهجرة أو إلى المعيشة المتنقلة كما يفعل الأعراب(١) . كما أن المسافة بين اليمن والشام كانت عامرة بالقرى زاخرة بالحياة ، حتى إن المسافر لم يكن فى حاجة إلى التزود(٢) ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك فى حديثه عن السبئيين «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ»(٣) . وهناك أمثلة تاريخية كثيرة ذكرت عن أقوام هلكت كعاد وثمود وأصحاب الأيكة(٤) ، ومدن ذكرها الكتاب اليونانيون والرومان لم يبق لها أثر ، وكتابات عثر عليها السياح فى مواضع صحراوية مهجورة(٥) . كل ذلك يدل على مدى التغيير الذى طرأ على بلاد العرب — سواء أكان من الناحية المناخية أم من الناحية الجيولوجية(٦) — فأدى إلى مقاومة الحضارة ، ومنع نشوء المجتمعات الكبرى بها ، وحول أراضيها إلى بقاع صحراوية ، وطبع الحياة فيها بطابع الرحلة والانعزالية الاجتماعية والسياسية . ويميل كثير

---

(١) البلدان ١٥/٢٣٨ .

(٢) الإصطخرى ٢١ .

(٣) سبأ ١٨ تفسير النسفى : ٣/٢٤٧ .

(٤) القرآن الكريم : الفجر ، ٦ — ٩ الأعراف : ٧٣ — ٧٩ . الشعراء : ١٤١ — ١٥٩ الشمس : ١١ — ١٥ .

(٥) جواد على : ١/٢١٥ .

(٦) Huzayyin, oit. p. 5 .

من السياح وعلماء طبقات الأرض الذين جابوا أنحاء شبه الجزيرة إلى تأييد القول بظهور الجفاف فى الألف الثانى قبل الميلاد(١) .

أقسام شبه الجزيرة العربية

قسم العرب جزيرتهم تقسيما مسايرا لطبيعتها الجغرافية إلى خمسة أقسام ، وهى تهامة ، والحجاز ، ونجد ، والعروض ، واليمن . وزاد الإصطخرى وابن حوقل ثلاثة أصقاع هى بادية العراق ، وبادية الجزيرة ، وبادية الشام(٢) :

ويجمل الهمدانى أقوال الجغرافيين العرب عن هذا التقسيم فيما يلى :—

«فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التى نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب فى أشعارها وأخبارها : تهامة — الحجاز — نجد — العروض — اليمن . وذلك أن جبل السراة ، وهو أعظم جبال العرب وأذكرها ، أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف الشام ، فسمته العرب حجازاً لأنه حجز بين الغوروتهامة وهو هابط ، وبين نجد وهو ظاهر . فصار ما خلف ذلك الجبل فى غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعك وكنانة وغيرها ، ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها وغار من أرضها : الغور ، غور تهامة ، وتهامة تجمع ذلك كله . وصار ما دون ذلك الجبل من شرقيه من صحارى نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها : نجدا ، ونجد تجمع ذلك كله :

---

(١) جواد على : نفسه .

(٢) الإصطخرى : ٢٠ — ٢١ . القلقشندى : صبح الأعشى ٤/٢٤٥ .

وصار الجبل نفسه سراته ، وهو الحجاز ، وما احتجز به فى شرقيه من الجبال وانحاز إلى ناحية فيد والجبلين إلى المدينة ، وراجعا إلى أرض مذحج من تثليث وما دونها : حجازا ، والحجاز يجمع ذلك كله .

وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما : العروض ، وفيها نجد وغور لقربها من البحر ، وانخفاض مواضع منها ومسايل أودية فيها ، والعروض يجمع ذلك كله .

وصار ما خلف تثليث وما قاربها إلى صنعاء ، وما والاها من البلاد إلى حضرموت والشحر وعمان ، وما يلى ذلك : اليمن ، وفيها التهائم والنجد . واليمن تجمع ذلك كله(١)» .

هذا إجمال تقسم الجزيرة تقسيما طبيعيا كما يراه جغرافيو العرب . والقسم الذى يهمنا الحديث عنه فى هذا البحث هو الحجاز ، ولذلك نعرض له بشىء من التفصيل :

الحجـــاز

يقول الجغرافيون العرب إن الحجاز هو الجبال الحاجزة بين الأرض العالية نجد وبين الساحل الواطىء تهامة ، فهو إذن الجبال الممتدة من خليج العقبة إلى عسير . لكن اسم الحجاز فى العرف يشمل تهامة أيضاً ، وقد عد بعض العلماء تبوك وفلسطين من أرض الحجاز(٢) . وطول الحجاز من الشمال إلى الجنوب حوالى ٧٠٠ ميل ، وعرضه من

---

(١) الهمدانى : صفحة ٤٧ — ٤٨ .

(٢) البلدان : ٣/٢١٨ (مطبعة السعادة بالقاهرة) .

الشرق إلى الغرب ٣٥٠ ميلا(١) . وتعد جبال السراة العمود الفقرى لشبه جزيرة العرب ، ويجعلها الجغرافيون العرب قاعدة لتقسيماتهم ، كما أشرنا من قبل ، وتتصل السلاسل بسلسلة جبال الشام المهيمنة على البادية . وبعض قمم هذه الجبال الحجازية مرتفعة وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذى يرتفع ٣٠٠٠و٢ م عن سطح البحر ، وجبل وتر ، وجبل شيبان . وتنخفض هذه السلاسل عند دنوها من مكة فتكون القمم فى أوطأ ارتفاع لها ، ثم تعود بعد ذلك للعلو ، فتصل فى اليمن إلى مستوى عال حيث تتساقط الثلوج على قممها(٢) . ومن جبال الحجاز الجبال الواقعة فى منطقة الطائف ومكة والمدينة . وجبال الطائف يبلغ علوها ستمائة متر ، وجبل كرًا فى الطريق بين مكة والطائف ويبلغ علوه مائتى متر . وجبل رضوى بين المدينة وينبع ويرتفع إلى مائتى متر ، وقد قال عنه ياقوت إنه جبل منيف ذو شعاب وأودية . وإنه كثير المياه والأشجار(٣) وقد ذكر الشعراء جبل رضوى كثيراً . واتخذه العرب مثلا للعزة والرسوخ(٤) .

أما منطقة السهول الواقعة بين جبال السراة والبحر الأحمر فهى سهول ضيقة فى الغالب ، تعرف بتهامة ، تتغير فى الاتساع من الجنوب إلى الشمال ، فتكون عند اليمن حوالى ٤٠ ميلا ، ثم تأخذ فى الضيق

---

(١) وهبه : ١٤ .

(٢) حتى : ٢١ ؛ الواسعى : تاريخ اليمن :

(٣) البلدان : ٩/٥١ . الإصطخرى : ٢٥ .

(٤) قال حسان : لنا حاضر فعم وباد كأنه ° شماريخ رضوى عزة وتكرما

وقال أبو العلاء : وقد نطحت بالجيش رضوى فلم تقل ° ولزت براياتٍ الخميس لهاء

وتبلغ أقصى ضيق لها عند العقبة(١) ، وهذه السواحل حارة رطبة فى الغالب غير صحية فى بعض الأماكن(٢) ، ويطلق على إقليم التهائم «الغور» أو «السافلة» لانخفاض بقاعها(٣) ، ويقال للقسم الشمالى من الحجاز أرض مدين وحِسْمَى نسبة إلى سلسلة الجبال المسماة بهذا الاسم(٤) ، وهو ما يلى أيلة إلى الجنوب ، وتتخللها أودية محصورة بين التيه وأيلة من جهة ، وأرض بنى عذرة من ظهر حرة نهيل بقرب خيبر من جهة أخرى ، وكانت تسكنها فى الجاهلية قبائل جذام(٥) .

أودية الحجاز .

وفى الحجاز أودية تسيل من الحرار صوب الشرق والغرب إلى نجد من ناحية ، وتهامة فبحر القلزم (البحر الأحمر) من ناحية أخرى . وأعظم أودية الحجاز . وادى «إضم» ويسمى اليوم وادى الحمض الذى سبق الإشارة إليه ، وهو يسيل من الجنوب الشرقى لحرة خيبر ، ويسير نحو الجنوب الغربى حتى يقارب يثرب ، حيث تتصل به أودية فرعية منها وادى العقيق ، ويتصل به كذلك وادى القرى ، وهو يستمد مياهه من السيول التى تنحدر إليه من العيون التى عند خيبر ، ثم يتجه غرباً حيث يصب فى البحر الأحمر جنوب قرية الوجه(٦) . وعند هذا المصب بقايا قرية يونانية قديمة وبقايا معبد يعرف عند الأهالى

---

(١) Twitchell. op. cit. p. 11.

(٢) Ibid. p. 14.

(٣) البلدان : ٢١٧/١٤ ، ٦٣/٥ .

(٤) البلدان : ٢٥٨/٧ — ٢٥٩ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) البلدان : ٢١٥/٢ ، ٣٠٥/٧ . وص ١٩ ؛ Twitchell. op. cit, p. 11.

باسم « كصر كريم(١) » وهى من بقايا المستعمرات اليونانيه التى اتخذها التجار اليونانيون عند ساحل البحر لحماية سفنهم من القرصان وللاتجار مع الأعراب ، ولتموين سفنهم بما تحتاج إليه من ماء وزاد . ويبلغ طول وادى الحمض زهاء ٩٠٠ كيلو متر .(٢)

ويبدأ وادى الرُّمة بالحجاز عند حرة فدك من التقاء بضعة أودية ، ثم يتجه نحو الشرق حتى يصل إلى القصيم ، ويبلغ طوله أكثر من ٩٥٠ كيلو متراً .(٣)

ومن أودية الحجاز وادى الصفراء ، وهو واد كثير النخل والزرع فى طريق الحاج سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ، وبينه وبين بدر مرحلة ، وعليه قرية الصفراء ، وهى قرية كثيرة النخل والزرع وماؤها عيون تجرى إلى ينبع ، وهى لجهينة والأنصار ولبنى فهر ونهد ورضوى .(٤)

ووادى القرى واد مهم يقع بين تيماء وخيبر ؛ ويمر به طريق القوافل القديم الذى كان شرياناً من شرايين الحركة التجارية فى العالم القديم ، ويقال له وادى «الديدبان(٥)» وكان عامراً جداً تكثر فيه المياه ، وتشاهد فيه إلى اليوم آثار المدن والقرى(٦) ، التى كانت متصلة على

---

(١) عن جواد على : ١/١٠٠ .Morita, S, 23

(٢) .Idid. 24

(٣) البلدان : ٩/٧٢ ويقال له بطن الرمة . وهبة : ٢٠ . الهمدانى : ١٤٤ .

(٤) الهمدانى : ١٤٤ . البلدان : ١٢/٤١٢ . وهبة : ١٥ .

(٥) Daughty, op. oit. Vol. I, p, 189

(٦) البلدان : ١٥/٣٣٨ ، ١٩/٣٤٥ .

طول الطريق من سبأ إلى الشام(١) ، وقد عثر فيه على كتابات كثيرة لحيانية ومعينية وسبئية وغيرها(٢)

مدن الحجاز :

ويشتمل الحجاز على مدن وقرى كثيرة أهمها مصرا بلاد العرب : مكة والمدينة أو يثرب ، كما توجد به الطائف وخيبر ، ووداى القرى .

والاعتبارات الجغرافية والاقتصادية هي التى ساعدت على نشوء هذه المدن الحجازية فالحجاز كما قلنا إقليم جبلى مساير للبحر الأحمر من الجنوب إلى الشمال ، من اليمن إلى فلسطين ، وكان يمر به أحد طريقى التجارة البريين الهامين بين الشرق والغرب مبتدئاً من موانى اليمن مخترقاً تهامة الحجاز . ماراً بمكة ويثرب ، حتى يصل إلى أيلة على خليج العقبة ، ثم موانى البحر المتوسط . والتجارة بين الشرق والغرب هامة جداً وضرورية . وذلك لاختلاف المناخ بين أقطار الشرق الهندي والغرب الأوربى ، مما استتبع اختلاف الغلات وحاجة كل منهما إلى منتجات الآخر ، وفى هذا نجد سر الأهمية الكبيرة التى اتفقت لتدمر المدينة القديمة الواقعة فى البادية ، فكانت تحمى القوافل وتضمن سلامة المواصلات(٣) . وأصبح العرب ، بعد أن خرب الرومان تدمر ، سادة مطلقين لتلك الطرق بالتدريج ، وقد أعانهم معرفتهم بالبادية ودروبها وتعودهم الحياة فيها ، على أن يتصرفوا تصرف السادة فى تلك البقاع

---

(١) سبأ : ١٨ .

(٢) جواد على : ١/١٢٠ .

(٣) جورج فضلو : الملاحة فى المحيط الهندى : ٥٨ .

بلا منازع ، كما مكنتهم تربيتهم للإبل — وهى الحيوان الوحيد القادر على السير فى الصحراء مدة طويلة — من نقل المتاجر والقيام على تنظيم القوافل ؛ والإبل معروفة منذ أقدم الأزمنة التاريخية فى الجزيرة العربيه ؛ فقد وجدت رسومها على النقوش(١) وتحدثت عنها التوراة.(٢) وتنظيم القوافل استتبع اتخاذ محطات ومنازل لإراحتها وتزويدها بما تحتاج إليه من ماء . ومن البديهى أنه عندما تريد قافلة أن تنزل لتريح دوابها ، لابد أن تختار مكاناً مناسباً يتوفر فيه الخصب والماء لتجد الإبل ما تطعمه ولتتزود القافلة بالماء . كذلك يتوفر فيه حصانة الموقع حتى تطمئن إلى حراسة الأموال والتجارة التى معها . وعلى مر الزمن صارت محطات هذه القوافل ومنازلها مدنا شيئا فشيئا . وكانت أغلب هذه المدن فى الحجاز وأهمها :

مكة :

تقع فى وادٍ على شكل سهل منبسط محاط بجبال ذات شعاب(٣) تحيط بالوادى إحاطة كاملة . وقد أغنت على مر الزمن عن بناء سور لحماية المدينة . فمن الممكن للقافلة التى تنزل فى هذه البقعة أن تتحصن فى هذه الشعاب بواسطة حراسها . كما يوجد بها بئر يستقى منه المسافر وهو بئر زمزم . وبمكة وجد البيت الحرام الذى عاصر أولية هذه المدينة بل إنه كما تقول الروايات هو أول بناء فيها . وقد أكسبها حرمة

---

(١) انظر جواد على جـ ١ النقش بين صفحتى ٣٩٢ — ٣٩٣ ، جـ٣ بين ص ٢٩٨ — ٢٩٩ ، ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٢) التوراة ، سفر القضاة إصحاح : ٥ — ٦ .

(٣) الأصطخرى : ٢١ . البلدان ١٨/١٨١ — ١٨٨ . وهبة : ٢٣ .

وقدسية وجعلها مهوى أفئدة العرب جميعا ، الأمر الذى ضمن لها التفوق على غيرها من مدن الحجاز . وإذن فكل ما تتطلبه القافلة المسافرة فى بلاد قاحلة متوافر فيها .

الطائف :

تقع على بعد خمسة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقى من مكة ، على ربوة عالية يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر خمسة آلاف قدم ، على ظهر جبل غزوان(١) . وتحف بها وديان كثيرة تسيل فيها المياه فى موسم الأمطار . وحولها عيون وآبار كثيرة . وهى خصيبة تنبت الأشجار والفواكه والحبوب إلى الوقت الحاضر . كما أن جوها لطيف بالنسبة لعلوها ، فاعتدال الجو وخصوبة التربة حببا إلى المسافر أن ينزل فيها وإلى المستعمر أن ينتجعها .

يثرب :

تقع على بعد ثلاثمائة ميل إلى الشمال من مكة . كما تبعد عن ينبع مينائها على البحر الأحمر مائة وثلاثين ميلا(٢) . وهى فى أرض بركانية بين حرتين ، وقد اشتهرت بالخصب والنماء . وفى شمالها جبل أحد . ومن أوديتها وادى العقيق الذى تصب فيه مياه عذبة . كما أن المزارع تحيط بها من جميع الجهات ما عدا الجهة الغربية(٣) والمسافر يجد فيها كما يجد المقيم حاجته من زاد وأمن .

---

(١) البلدان : ٩/١٣ . الإصطخرى : ٢٤ وهبة : ٣٥ .

(٢) البلدان : ٨٢/١٧ — ٨٨ . الإصطخرى : ٢٣ . وهبة : ١٦ .

Twitchsll, op. Cit, p. 12

(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية : ٢٦١ .

ونحن لا نستطيع تحديد أولية هذه المدن فهى من أقدم العصور ، ولاشك أن التجارة كان لها شأن كبير فى إقامة هذه المدن وظهورها ، وخاصة مكة التى تعتمد اعتمادا كليا فى حياتها على ما يجلب لها من الخارج لعدم وجود الزراعة بها ، فموقع الحجاز بين الشام واليمن ، وكونه ممرا واستراحة للقوافل ، ساعد على أن تقوم به هذه المدن التجارية . وفى أجزاء كثيرة من العالم ، فى أوروبا وأفريقيا وآسيا عرف التاريخ مدناً قامت للتجارة ، وكانت كل مدينة من هذه المدن ذات نظام سياسى مستقل ، عرف فى التاريخ باسم الدول المدينية .

وأظهر مثل لهذه الدول المدينية ، المدن اليونانية فى التاريخ القديم ، والمدن الإيطالية فى العصور الوسطى مثل جنوه والبندقية وفلورنسة .

وكانت مكة والمدينة (يثرب) من هذا النوع من المدن . وكانت مكة لموقعها المتوسط بين الشام واليمن(١) ، وعلى طريق التجارة ، مركزاً هاماً جداً للتجارة ، بل إنها فى القرن السادس الميلادى كانت أهم المراكز التجارية فى شبه جزيرة العرب(٢) ، وأما المدينة (يثرب) فلا بد من أنها كانت منافسة لمكة لوقوعها على نفس الطريق ، غير أن وحدة السكان فى مكة ووجود البيت الحرام بها ، جعلها أقدر من يثرب على التفوق التجارى والثقافى وأظهر فى التنظيم الإدارى — كما سوف نبين فيما بعد — وإن كانت يثرب تتفوق من الناحية الزراعية لوجود زراعات حولها تعتمد على العيون الكثيرة(٣) ، على أن المدينتين غير

(١) البلدان : ١٨٧/١٨ .
(٢) Husayyin, op. cit. p. 142 - 143
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان : ١٦/١ — ١٧ .

قادرتين بمواردهما الخاصة على إعاشة سكانهما ؛ فهما تجلبان الميرة من المدينتين الواقعتين على ساحل البحر الأحمر والصالحتين لتكونا مرفأين لهما ، وهما ينبع ميناء المدينة وجدة ميناء مكة .

المناخ :

وتختلف مناطق الحجاز من الناحية المناخية ، كما تختلف من الناحية الطبيعية ؛ فهناك مناطق جدباء شديدة الحرارة شحيحة المياه ، محاطة بالجبال يعيش أهلها على ما يجلب إليها من الرزق جلباً من الخارج ، ومن هذه المناطق منطقة مكة التي تقوم في واد غير ذي زرع(١) والتي كانت تعتمد في حياتها على ما يجلب إليها من الخارج ، وكان أهلها يرون في حرمة البيت الحرام الذي يقوم فيها ، وهوى أفئدة الناس إليهم ، سبب معاشهم وأمنهم وحرمتهم ، ولذلك لم يسرعوا إلى متابعة محمد لما بعث فيهم نبياً يدعو إلى الإسلام ، مخافة حرمانهم من هذه الميزات التي يستمتعون بها «وقالوا إن نَتَّبِعِ الهُدى معَكَ نُتَخَطَّفْ من أرضِنَا ، أو لم نُمكِّن لهم حَرَما آمنا يُجْبَىَ إليه ثمراتُ كلِّ شيء رِزْقًا من لدُنَّا»(٢) .

كما أنها كانت شديدة الحرارة يهرع أهلها إلى الظلال وإلى أكنان الجبال التي تحيط بها يحتمون بها من الحر(٣) ، وهذا ما أعطى أهمية كبرى لجبال مكة . كذلك كانت مكة شحيحة المياه ، وهذا ما جعل

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٧ .

(٢) القصص : ٧٥ .

(٣) النحل : ٨١ .

مهمة السقاية ، وهى توفير الماء للحجاج ، فضيلة عظيمة فى نظر أهلها(١) ، وهذا يجعلنا ندرك الحفاوة البالغة التى أسبغت على رواية حفر بئر زمزم بها(٢) .

على أنه كانت هناك أجزاء أخرى تجود فيها التربة وتنزل الأمطار التى قد يبلغ من غزارتها أن تتوالى الصواعق وتتهدم البيوت(٣) وتخرب الطرق . وتنبت من كل زوج وصنف من الزروع والأشجار ، وقد تحدث القرآن الكريم فى آيات عديدة منوها بما ينزل الله من الأمطار ويفجر من العيون ، وما ينبت من الزروع والأشجار من أعناب ونخيل ورمان وزيتون وحبوب وكلأ (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه(٤) ... » وهذه الآيات يوجهها القرآن ويخاطب بها أهل الحجاز بل وأهل مكة فى الدرجة الأولى وهى تشير إلى ما كان فى الحجاز نفسه ، وفى الأنحاء المجاورة لمكة بنوع خاص ، من مناطق تجود فيها التربة وتغزر الأمطار وينبت الزرع والأشجار ، والآيات وإن لم تعين هذه المناطق كما عينت منطقة مكة بالبيت الحرام ، فإنها معينة واقعيا وهى الطائف

---

(١) التوبة : ١٩ .

(٢) ابن هشام : ١/١٢١ – ١٢٣ ، ١٤٥ – ١٦٤ .

(٣) البخارى ٤/١٩٥ الأغانى ٢/٣٢٣ ، ٣٢٧ . هيكل : فى منزل الوحى : ٤١٣ .

(٤) الأنعام ٩٩، ١٤١ . النحل : ١٠ – ١١ المؤمنون ١٨–١٩ . الروم ٤٨ – ٥١ . يس : ٣٣ – ٣٤ . ق ٧ – ١١ . الواقعة ٦٣ – ٧٠ . عبس ٢٤ – ٣٢ . وكل هذه الآيات مكية .

وأرباضها ، والوديان التى بين مكة وجدة ، ويثرب(١) وأرباضها . فهذه المناطق لا تزال تحتفظ إلى الآن بكثير من الينابيع(٢) والوديان. وتتمتع بخضرة السهول وجنات النخيل والأعناب ومختلف الفواكه والزروع .

إلا أن الجفاف الذى لحق بلاد العرب جميعا - والحجاز منها - قد جعل أغلب أراضيها صحراء جرداء ، وباعد بين مراكز الاستقرار بها . وقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً على الحياة الاجتماعية والسياسية فى شبه الجزيرة العربية : وعاق نشر المجتمعات الكبرى بها ، ومن ثم اعتمدت فى حياتها السياسية والاجتماعية على النظام القبلى ، سواء فى البادية ، أو فى البلاد التى قامت بها ممالك وحكومات منظمة ، أو فى المدن السياسية (city States) التى نشأت على طرق التجارة مثل مكة والمدينة ، وأصبحت القبيلة هى وحدة المجتمع العربى بوجه عام .

(١) عن الطائف انظر البلدان ١٣/٩ . عن يثرب ١٧/٧٢ وما بعدها .
(٢) البلاذرى ١/١٦ ، ١٧ أنظر عن خصب مكة : أسد الغابة ١/١٠١ .

الفصل الثانى

القبيلة العربية

لم تكن بلاد العرب قبل ظهور الإسلام دولة عربية بالمعنى الذى نفهمه الآن من الدولة ، فإن الدولة (state) من حيث هى نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها فى وظيفته ، ومن حيث أن لهذا النظام سلطانا يخضع له الناس ، لم يكن موجوداً فى بلاد العرب . وإنما كانت الدولة عندهم هى الجماعة فى جملتها ، ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص ولا كانت لها أرض محددة ، فليس هناك موظفون يدبرون شئون الجماعة بالمعنى الذى نعرفه فى الدولة : بل كان هناك كيان اجتماعى طبيعى بالغ درجة النماء عرف باسم « القبيلة » يقوم فيه رؤساء العشائر والبطون برعاية شئون الجماعة ، ويذكر الرحالة « دوتى Daughly » أنه رأى فى أهل البادية فى هذا القرن العشرين من لا يتصور الدولة إلا على أنها قبيلة ويقيس قوتها بما تملك من الإبل(١) .

وكذلك الحال بالنسبة للمدن : فلم تكن المدينة (Polis) هى الوحدة السياسية كما كان الحال عند اليونان . بل كانت القبيلة هى هذه الوحدة مثل قريش فى مكة وثقيف فى الطائف ، وقد جرى عرف

---

(١) Daughty, op. cit. Vol. I. p. 230

العرب على الانتساب إلى القبائل لا إلى المدن ، بل لم يعرف الانتساب إلى المدن إلا فى القرن الثانى للهجرة .

أما مفهوم الأمة عندهم ، فلم تكن تتميز عن الأسرة إلا أنها أكبر ، وكانت اللحمة التى تؤلف بين أفرادها هى نفس اللحمة التى تربط بين أفراد الأسرة ونعنى لحمة الدم ، فكانت وحدة الجماعة تقوم على تقديس الدم ، وعلى تقديس هذه اللحمة تقديسا تلقائيا دون حاجة إلى قوة من خارج تقهر الجماعة على التماسك ، وكان الاشتراك فى النسب ، أو الاعتقاد بهذا الاشتراك — وهما من حيث النتائج العملية شىء واحد — بمثابة الروح التى تجعل القبيلة كالجسد الحى(١) .

وقد وجد نظام حضرى تام فى أطراف الجزيرة العربية . فقد قامت ممالك اليمن فى الجنوب ، كما قامت مملكة الحيرة فى الشمال الشرقى ، ومملكة غسان فى الشمال الغربى ، لكن القبيلة كانت وحدة النظام السياسى والاجتماعى فى هذه الممالك ، فلم تنصهر الجماعة فيها فى شعب واحد كالشعب المصرى أو الشعب الرومانى مثلا ، وإنما ظلت القبائل وحدات قائمة متمسكة بكيانها .

من كل ذلك نرى أن الفكرة القبلية هى جوهر الحياة السياسية والاجتماعية ثم ضاعت منها القوة السياسية ، وظلت وحدة المجتمع العربى فى الإسلام .

والقبيلة العربية مجموعة من الناس ، كانت تؤمن بوجود رابطة تجمعهم تقوم على أساسين : من وحدة الدم ، ووحدة الجماعة . وفى

---

(١) أنظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية (ترجمة أبو ريدة) ص ٣ — ٤ .

ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفى ينظم العلاقة بين الفرد والجماعة على أساس من التضامن بينهما فى الحقوق والواجبات ، وهذا القانون العرفى كانت القبيلة تتمسك به أشد التمسك فى نظامها السياسى والاجتماعى على السواء .

النظام السياسى للقبيلة العربية :

كانت الروح الديمقراطية تسود المجتمع القبلى ، فكان لكل قبيلة رئيس يقال له السيد أو شيخ القبيلة ، وأحيانا يطلقون عليه تجوزا الأمير أو الملك . وهذا السيد تنتخبه القبيلة ، ولكنه لم يكن انتخابا بالمعنى المفهوم لدينا الآن ، وإنما كان اختيارا تلقائيا ؛ فكل رجل فى القبيلة فاق الآخرين فى الفضائل التى منها الشجاعة والجود والغيرة وسعة الثروة وسداد الرأى وكمال التجربة مع كبر السن . يمكنه بهذه الصفات الممتازة الكفيلة بتحقيق مصالح القبيلة ، أن يكون سيد قبيلته . وإن كان الواجب أن يكون شيخ القبيلة من صريح نسبها ، لنفور طباع العرب من أن يحكم فى القبيلة أحد من غيرها (١) . وقد راعى النبى ذلك حين كانت تأتيه وفود القبائل ، فكان يسوِّد على كل قبيلة رجلا منها ويجعله عليها لامتناع طباعهم أن يسودهم غيرهم (٢) كما يجب أن يكون شيخ القبيلة من أقوى بطونها وأذكرها شرفا وأكثرها عصبية : حتى يكون له من الانتصار بعصبيته والاعتزاز بهم ما يُمكِّن له من الرياسة ومن إطاعة القبيلة له واحترامها لرأيه (٣) . فإذا مات هذا

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ١/١٣٦ .

(٢) نفسه : ١/١٨٣ — ١٨٤ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة : ١٤٨ — ١٥٠ . أنظر الضبى : المفضليات : القصيدة ١٠٤ حيث يقول معاوية بن مالك سيد بنى كلاب :

السيد أو فقد بعض الصفات انتقلت السيادة إلى الآخر الذى تكتمل له ، وهذا معنى القول بأن القبيلة تختار سيدها .

وكما يتجلى المظهر الديمقراطى فى اختيار شيخ القبيلة وهو رأس حكومتها ، كذلك يتجلى فى رقابة الجماعة على هذا الرئيس ؛ وهذه الرقابة تتمثل فيما يسمونه «مشيخة القبيلة» أو مجلسها الذى يجمع رجالها بفضائلهم الذاتية ؛

ولقد كانت مشيخة القبيلة هى الركن السامى حقاً فى نظام القبيلة العربية ؛ إذ أن سلطة رئيس القبيلة كانت محدودة بواسطة هذا المجلس الذى يمثل الرأى العام فى القبيلة .

وكانت مشيخة القبيلة تتألف من أصحاب الرأى فيها ؛ وهنا نجد الكفاية والفضائل الذاتية هى المرجع ؛ فشاعر القبيلة من أفراد هذا المجلس ، بل هو فى مقدمة رجاله . إذ أنه الذى يتغنى بمناقب القبيلة ، ويرثى موتاها ، ويهجو أعداءها ، ويدفع عنها بلسانه . وسلاحه هذا أمضى من سلاح السيف وأفتك فى الخصم من السهام(١) ؛ ولذلك كانت القبيلة تفرح إذا نبغ فيها شاعر وتعتز به وتحفظ شعره . وكانوا يجعلون موهبة الشعر من صفات الكمال . فالرجل إذا كان شاعراً شجاعاً كاتباً سابحاً رامياً دعى الكامل لوجود هذه الخصال

- إنى أمرؤ من عصبة مشهورة   حشد لهم مجد أشم تليد
ألفوا أباهم سيدا وأعانهم   كرم وأعمام لهم وجدود

(١) أنظر : أسد الغابة ٢/٤ - ٦ .

فيه(١) . وكذلك الخطيب ، وهو لسان القبيلة فى منافراتها ومناظراتها(٢).
ثم حكامها الذين يفصلون فى الأقضية بين الناس ويحكمون بينهم إذا تشاجروا فى الفضل والنسب والمواريث والدماء ، وكان لكل قبيلة حكم أو أكثر ؛ لأنه لم يكن دين يرجع إلى شرائعه ، فكانوا يحكّمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرياسة والسن والتجربة والمعرفة بالعرف.
ثم كان من رجال المجلس الشجعان المشهورون بالفروسية . وبعض الأفراد من أصحاب المكانة كالكاهن والعراف والقصاص . هذا بالإضافة إلى شيوخ العشائر وكبار السن فى القبيلة ممن اكتملت لهم تجارب الحياة . كل هؤلاء يمثلون مشيخة القبيلة ، ومن اجتماعهم تكون السلطة التى يرجع إليها سيد القبيلة .

ولهذه الهيئة أندية(٣) ومجامع للمداولة فى شئون الحرب والسلم والفصل فى الخصومات ودفع الديات وكل ما يهم القبيلة . وفى ذلك يقول مهلهل فى رثاء كليب :

نُبئت أن النار بعدك أوقدت ۞ واستبّ بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا فى أمر كل عظيمة ۞ لو كنت حاضر جمعهم لم ينبسوا

ولم يكن لمجلس القبيلة موعد معين يجتمع فيه ، وإن كانت العادة أنهم يجتمعون مساء فى المنازل التى يحل بها رئيس القبيلة للسمر ، وكلما دعت الضرورة إلى الاجتماع . ولم يصلنا شىء يذكر — ويا للأسف — من المناقشات التى كانت تجرى فى هذه المجالس القبلية ؛ لأنه لم يكن

---

(١) الأغانى ٣/٢٥ .
(٢) اليعقوبى ١/٢١٤ : ٢١٧ .
(٣) النادى . المجلس الذى يجتمع فيه القوم ويقضون فيه أمورهم : ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/٢١٠ سورة مريم ٧٣ . النمل ٢٩ — ٣٢ العنكبوت ٢٩ .

هناك مدونات تسجل فيها أحاديث القوم ومناقشاتهم ، لأن طبيعة هذه المجالس لم تكن تحتمل هذا . وإن كانوا يتناقشون ويتحاورون فى كل ما يهمهم ، وكثيراً ما كان يخطب الخطباء ، أو ينشد الشعراء قصائدهم التى نظموها ، وفى أثناء ذلك يدلى سادتهم بحكمهم وتجاربهم فى الحياة ، وهذا يجعلنا نتصور مقدار ما كان لهذه المجالس من وقار ومنزلة كبرى يقضى بها العرف . وإلى ذلك يشير زهير بن أبى سلمى إذ يقول فى مدح هرم بن سنان(١) :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

وكانت قرارات هذه المجالس نافذة فجميع أفراد القبيلة فى الغالب يذعنون لها ولا يشذون عليها .

كما أن القيد الثانى الذى يحد من سلطة رئيس القبيلة هو أن الرياسة لم تكن وراثية ، وإنه لمن النادر أن تجد فى قبيلة بقاء السيادة فى ثلاثة أفراد متعاقبين ، ويفلسف ابن خلدون هذا الوضع فيقول «إن الرياسة تأتى من قوة العصبية وشرف النسب والخلال الكريمة . وهذه خلال تضعف من الابن إلى الحفيد . حتى إذا كان الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها ، وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو أمر موجَب لهم منذ النشأة بمجرد انتسابهم ؛ فيربأ بنفسه عن أهل عصبته ويرى الفضل له عليهم ، وثوقا بما رُبى فيه ، وجهلا بما أوجب ذلك الاستتباع

---

(١) ديوان زهير (طبع دار الكتب) ١١٣ .

من الخلال التى منها التواضع لهم والأخذ بمجامع قلوبهم ، فيحتقرهم بذلك ؛ فينتقضون عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت ومن فروعه فى غير ذلك العقب(١) » وإلى ذلك يشير عامر بن الطفيل أحد سادات العرب فى الجاهلية(٢) :ـ

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر ... وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى ... أذاها وأرمى من رماها بمنكبى

وشيخ القبيلة هو الذى يقودها فى حروبها، ويقسم غنائمها. ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمحالفات ، ويقيم الضيافات ، ولذلك كان لابد من أن تتوفر فيه صفات الشجاعة والكرم والنجدة وحفظ الجوار وإغاثة المعوز والضعيف ؛ ولابد من أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات ، كما كان عليه أن يصلح ذات البين فيها ويلم شعثها ويعمل على حفظ وحدتها ، مستعينا فى ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها ؛ جريا على مبدأ ممارسة السلطان ممارسة جماعية ، ودون أن تكون لديه هيئة إدارية أو تنفيذية أو قضائية . كما يجب أن يكون حليما متسامحا . وهكذا نرى أن شيخ القبيلة ليس ملكا متسلطا عليها ، بل هو أب أكبر لكل أفرادها . وإلى ذلك يشير معاوية بن مالك سيد بنى كلاب(٣) :

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٥٣ — ١٥٤ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ٢/٥٥ (طبع القاهرة ١٩١٨).
(٣) المفضليات : القصيدة ١٠٤ ص ١٥٥ .

نعطى العشيرة حقها وحقيقها ... فيها ، ونغفر ذنبها ونسود
وإذا تحملنا العشيرة ثقلها ... قمنا به ، وإذا تعود نعود
وإذا توافق جرأة أو نجدة ... كنا ، سُمَىٌّ ، بها العدو نكيد
بل لا نقول إذا تبوأ جيرة ... إن المحـــلة شعبها مكدود

وللزعماء فى هذه المجالس القبلية أثر خطير فى الحياة : فبحنكتهم السياسية وبحكمتهم وكفايتهم تقرر الأمور ، ورب كلمة من زعيم أو هفوة منه تثير حربا أو تسبب كارثة له ولقبيلته أو للحلف الذى يتزعمه ، ذلك أن أعصاب رجال البادية مرهفة حساسة تثيرها الكلمة ولاسيما إذا كانت تتعلق بالشرف والجاه .

وشيخ القبيلة إذا كان ضعيفاً أثر ضعفه فى قبيلته : وإذا كان قويا أثرت قوته فى القبيلة . وقد تقوم الزعامه بما تعجز عنه الكثرة ومما ينوء به عدد القبيلة ، ولهذا تكون مكانة القبيلة أو الحلف بمكانة الرئيس ، ولهذا أيضاً نجد قبائل تظهر فجأة فتجتاح القبائل الأخرى وتتزعمها ، ونجد قبيلة تتضاءل وتنهار فجأة فتتجزأ وتذوب أو تذبل لأن زعيمها ضعيف الشخصية خائر القوى(١) .

ولشيخ القبيلة حقوق أدبية ومادية ، فأما الأدبية فأهمها توقيره واحترام شخصه ورأيه(٢) ؛ كما أن له الإمرة العامة على الجند . أما حقوقه المادية . فقد كان له فى كل غنيمة تغنمها القبيلة «المرباع» وهو ربع الغنيمة ، «والصفايا» وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل

---

(١) جواد على : ٤/٢١٥ — ٢١٦ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٤٣ .

القسمة ، و « النشيطة » وهو ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء ، وكذلك « الفضول » وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة . وقد أجمل ذلك عبد الله بن عنمة الضبي فى رثائه بسطاما بن قيس سيد شيبان : —

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وهذه كلها حقوق الرياسة فى الجاهلية(١) . كما كان العزيز منهم ينفرد بالحمى لنفسه كما فعل كليب بن ربيعة سيد بنى تغلب(٢) .

على أن المظهر السياسى للقبيلة يظهر فى الحرب أكثر من ظهوره فى السلم ، فالقبيلة تعيش متفرقة بمراعيها وحالتها الخاصة ، إلى أن تشتبك مع قبيلة أخرى فى حرب ، وهنا يتجلى المظهر السياسى ؛ فإن عشائرها وبطونها تتجمع كلها تحت لواء واحد ، كما تجتهد فى أن تجد لها حلفاء من القبائل الأخرى لتتقوى بهم على عدوها ، لذلك كانت الحرب هى مظهر الحياة السياسية بين القبائل لما تتطلبه من جهود خاصة وتبعيات تجعل كل أفراد القبيلة يشعرون بحاجتهم إلى التجمع والتضامن ، ولما يلابسها من أحداث سياسية خاصة توجب اتصال القبيلة بغيرها من القبائل .

التشكيل الاجتماعى للقبيلة العربية :

كانت القبيلة العربية وحدة الحياة الاجتماعية كما كانت وحدة الحياة السياسية . وكانت كل قبيلة تؤمن بوجود رابطة تجمع بين أفرادها على أساس من وحدة الدم ووحدة الجماعة . وفى ظل هذه الرابطة

(١) ابن الأثير : الكامل ١/٣٧٥ وحاشيتها . العقد الفريد ٥/٢١٣ الألوسى ١/٢٩٣
(٢) العقد الفريد : ٥/٢١٣ — ٢١٤ . الأغانى ٥/٣٤ — ٦٤ الألوسى ٢/٣١—٣٦ .

وفى ظل القانون العرفى الذى نشأ على أساسها : انقسم المجتمع القبلى إلى طبقات اجتماعية ثلاث

١ — طبقة الأحرار أبناء القبيلة الصرحاء(١) : وهم الذين يجمع بينهم الدم الواحد والنسب المشترك .

٢ — طبقة الموالى : وهم من انضموا إلى القبيلة من العرب الأحرار من غير أبنائها عن طريق الجوار أو الحلف أو العتقاء من الأرقاء فيها .

٣ — طبقة الأرقاء ؛ وهم المجلوبون عن طريق الشراء ، أو أسرى الحروب .

ولكل من هذه الطبقات منزلته فى السُّلم الاجتماعى ، فنحن أمام مجتمع طبقى تفصل بين طبقاته حدود واضحة .

طبقة الأحرار الصرحاء :

وهى الطبقة التى يعتبر أفرادها بنية القبيلة : فهم أبناؤها الذين يجمعهم نسب واحد ودم مشترك لم تلحقه هجنة . وكانت هذه الطبقة تتمتع بحقوق مدنية كثيرة ، يقابلها كثير من الواجبات ، نظمها القانون العرفى على أساس من التضامن التام بين الفرد والجماعة ، فالحر يتمتع بحماية القبيلة حيا وميتا ، فهى المسئولة عن أى جريرة يرتكبها أحد أبنائها ، عليها واجب الانتصار له مظلوما ، والوقوف إلى جانبه ظالما ، وكان يكفى أن يستغيث فإذا السيوف مصلتة والرماح مشرعة وإذا الدماء تتصبب لأقل الأسباب :

---

(١) العقد الفريد : ٥/٢٢٩ .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا(١)

وهكذا تسبغ القبيلة حمايتها كاملة عليه حيا ، أما حمايته ميتا ، فإنها تأخذ بثأره إذا قتل ولا تترك دمه يُطل(٢) : كما أن للحر أن يتصرف فى بعض شئون القبيلة ، وتقر القبيلة هذا التصرف ، وكان أهم حق له فى هذه الناحية هو حق الإجارة ، وهو أبرز حقوق المواطنة فى القبيلة العربية وأخطرها ، إذ أنه يدخل فى القبيلة أفراداً ليسوا منها فيلحقهم بها ويحملها تبعاتهم ، فكل حر فى القبيلة أجار رجلا آخر من قبيلة أخرى أو من قبيلته ، يتعين على القبيلة أن تقر ذلك : ولو كان المجير صغيرا أو كان امرأة ما دام من صميمها(٣) . ويصبح لهذا الجار ما لأفراد القبيلة من حقوق ، كما أن عليه ما عليهم من واجبات ، وكانت حماية هذا الجار فرضا على القبيلة كلها ، تدافع عنه وتقاتل طلبا لثأره كما تقاتل طلبا لثأر الصريح منها ، وكان يبلغ بها الأمر أن تُقيد من القاتل حتى وإن كان من صرحائها(٤) ، أو تأخذ منه الدية(٥) ، على أن الناس كانوا يعرفون أقدارهم ؛ فلا يجيرون إلا إذا كانوا قادرين ، فإنهم يعلمون أنه قد يجر إلى إثقال كاهل القبيلة بمسئوليات ضخمة منها فقد المال والعرض والحياة (٦) . كما أن العرب الأحرار فى القبيلة كانوا يستطيعون الانتقال من قبائلهم إلى قبائل

---

(١) ديوان الحماسة ١/٥ .
(٢) نفسه ١/٣٤٢ .
(٣) إبن هشام ٢/٢٣ — ٢٤ . العقد الفريد ٥/١٧٢ .
(٤) الأغانى : ٣/٤٩ — ٦٠ .
(٥) البلاذرى : أنساب الأشراف ١/٧٣ — ٧٤ .
(٦) ابن الأثير : الكامل ١/٣٤٢ العقد الفريد ٥/١٤٧ . عن الجوار . أنظر . الأغانى ٢/١٢٦ ، ٣/٥٩ ، الألوسى : بلوغ الأرب ٣/١٣٣ ، ١٤٤ .

أخرى يجاورونها ، بخلاف الرقيق الذى كان مملوكا ليس له حرية التصرف فى نفسه .

وإزاء تلك الحقوق التى يتمتع بها الحر ، فإن عليه أن يتضامن مع قبيلته ، ويعمل من أجلها ، ولا يتصرف إلا فى حدود النطاق الجماعى الذى يحفظ عليها وحدتها ، فلا يخرج على إجماعها ، ولا يحملها ما لا تطيق ، وعليه من أجل ذلك أن يرفع من إحساسه بالرابطة الجماعية وأن يهدر فى سبيلها كل نزعة فردية أو انفصالية من نفسه ؛ فهو يضحى لها بنفسه كما يضحى بماله ، فهى حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بشخصيته وحريته ، يعيش لها وتحت إطارها(١) ، وخير ما يصور ذلك قول دريد بن الصمة (٢) :

وهل أنا إلا من غزية ، إن غوت غويت ؛ وإن ترشد غزية أرشد

فإذا حدث لسبب من الأسباب أن تصرف فى انفصالية فردية خارج ذلك النطاق الجماعى ، أو سلك سلوكا معيبا من شأنه أن يسىء إلى سمعة القبيلة بين القبائل ، كان من حق القبيلة أن تتحلل من العَقد الاجتماعى القائم بينه وبينها ، فتهدر حقوقه عليها وتتخلى عن حمايته ونصرته ، فتطرده من حماها وتعلن بين القبائل أنها خلعته ، أو بعبارة أخرى سحبت منه الجنسية القبلية ـ كما نقول بتعبيرنا الحديث ـ

---

(١) يشعر الإنسان حين يقرأ الشعر الجاهلى ، أن الشاعر فى الغالب ، اندمجت شخصيته فى قبيلته حتى كأنه لا يشعر لنفسه بوجود خاص ، وخير مثل معلقة عمرو بن كلثوم . وقل أن نعثر على شعر جاهلى ظهرت فيه شخصية الشاعر ووصف فيه ما يشعر به وجدانه وأظهر فيه أنه يحس لنفسه بوجود مستقل عن قبيلته .

(٢) ديوان الحماسة ١/٣٢٧ . الأصمعيات . (طبع المعارف) ص ١١٣ . العقد الفريد ٥/١٦٩ .

فلم تعد مسئولة عنه ولا سائلة أيضاً . وكان إعلان الخلع أمراً خطيراً بالنسبة للأفراد ؛ فإن الخليع يخرج من حمى قبيلته ليجد نفسه فى موقف ضيق ووضع شاذ ، فلقد سحبت منه الجنسية القبلية وأصبح فرداً منفصلا عن قبيلته فى مجتمع لا يؤمن بالانفصالية الفردية . وفرص الحياة فى الصحراء محدودة ، ومن المستحيل أن يعيش الفرد فيها إلا مرتبطا بجماعة ، ولا يرى الخليع فى هذه الحالة أمامه إلا أحد طريقين : — إما أن يلجأ إلى قبيلة أخرى يعيش فى حماها جاراً لها أو مولى من مواليها ، وإما أن يلجأ إلى الصحراء ليتخذ من الغزو والسلب وقطع الطرق وسيلة للحياة وأسباب الرزق ، معتمداً على قوته الشخصية فى فرض نفسه وإثبات وجوده فى مجتمع قطع كل صلة بينه وبينه (١) .

ومن أهم الواجبات التى تقع على أفراد القبيلة : الأخذ بالثأر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدى على أحد أبنائها ، مهما كلف ذلك من جهد ومال ودماء ، ولم يكونوا بطبيعة الحال يفرقون بين القتل العمد والقتل الخطأ أو الضرب الذى يفضى إلى الموت ، أى أنهم لم يعرفوا القصد الجنائى ولم يتبينوا النية الإجرامية ، ولكنهم كانوا يعالجون القتل بالقتل ، حتى صار الأخذ بالثأر عقيدة ثابتة ، ولقد كانت مسألة الأخذ بالثأر من المسائل الهامة فى حياة القبيلة العربية قبل الإسلام ، والغرض منها حمايتها ، فالقبيلة إذا لم تأخذ بثأرها تسقط بين القبائل . ومن هنا نجد أن الحرص على الأخذ بالثأر لا يعدله حرص على شىء آخر ، وهذا أمر طبيعى وضرورى فى مجتمع لا تحكمه حكومة منظمة تقيم الحدود وترعى القانون بسلطانها ، وإنما كان المجتمع

---

(١) أنظر ابن الأثير ١/٣٥٩ ، ابن هشام ١/١٩٩ — ١٠٢ ، الروض الأنف ١/ ١٢٠ — ١٢١ ، أنساب الأشراف ١/١٠٠ — ١٠١ ، الألوسى ٣/٢٧ — ٢٩ .

يعتمد فى صيانة حقوقه على قوة الأفراد والجماعات ، فمن لم يستطع الانتصاف لنفسه لم يجد قوة تنتصف له ، ولذلك فإن الاحتفاظ بوحدة القبيلة والأخذ بالثأر كان أمراً مقدسا أشبه بأن يكون نظاماً دينياً من أن يكون نظاماً عادياً . وكان على الثائر أن يدرك ثأره أو يموت دونه ، وفى هذه الحالة ينتقل واجب إدراك الثأر إلى ابنه أو حفيده(١). ولقد كان العرف يجعل الثائر يلتزم باتخاذ شارات خاصة : فهو يبتعد عن كل ملذات الحياة : فلا يقرب النساء ولا يتطيب أو يتدهن(٢) ، ولا يشرب الخمر(٣) ، ولا يقول الشعر إلا فى هجاء أو رثاء ، ويظل على هذه الحال أياماً وشهوراً وأحياناً أعواماً ، فإذا أخذ ثأره حل له ما حرمه على نفسه . فنظام الثأر كان هاماً جداً فى حياة القبائل العربية قبل الإسلام ، ولقد قاومه الإسلام مقاومة شديدة ، ولكنه لم يمت ، ولتأصله فى نفوس العرب ظل يحيا فى المجتمع العربى حتى يومنا هذا .

وكان العرب يعتقدون أن المقتول إذا لم يُدرك ثأره ينبعث على قبره طائر اسمه الهامة ينادى بثأره شاكياً الظمأ ، ولا يسكت حتى يؤخذ بثأره :

- يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى(٤)

- نه هامة تدعو ، إذا الليل جنها بنى عامر ، هل للهلالى ثائر ؟

---

(١) الأغانى : ٢/٩٩ ، ٣/٦٠٤ - ٦٠٥ . العقد الفريد ٥/١٧٥ .

(٢) العقد الفريد ٥/١٧٦ ، ٢١٥ . ابن هشام ٢/٤٢٢ .

(٣) أنظر : سيدة تأبط شراً ، ديوان الحماسة ١/٣٤٦ وحاشيتها :

حلت الخمر وكانت حراماً وبلأى ما ألمت تحـــل

اليعقوبى ١/١٨٠ .

(٤) الأغانى ٣/١٠٥ .

وكان الأمر ينتهي بالثائر إلى ثلاث حالات :

إما أن يثأر ولى الدم من القاتل أو من عشيرته ، وإما أن يأخذ الدية ، وإما أن يعفو .

وعند أخذ الدية يلاحظ مكانة الرجل المقتول ، فالرجل الحر الشريف غير المولى . ومتوسط الدية مائة من الإبل(١) . ودية الحليف نصف دية الصريح(٢) . أما دية السادة فقد تصل إلى الخمسمائة وإلى الألف(٣) . على أن هناك نوعاً من الدية يعرف بديه الخفارة ؛ وهى أنه إذا أجار شخص شخصاً آخر فقتل فى جواره ولم يمنعه ، كان عليه أن يدفع لوليه سبعين عُشراء (وهى الناقة مضى على حملها عشرة أشهر)(٤) .

وكانت العرب تعيب من يأخذ الدية ويرضى بها دون درك ثأره وشفاء غيظه ، إذ أنها تعتبر الاكتفاء بالدية دليلا على الجبن والخوف من القاتل ؛ ولذلك لم تكن الديه تقبل إلا عند الشعور بالضعف ، أو عند التفانى بين القبائل ، أو إيثار السلم ، كما فعلت قريش فى حرب الفجار ؛ فيقوم الصلح على أساس حساب القتلى ؛ ودفع دية الزيادة .

طبقة الارقاء :

كان فى المجتمع العربى طبقة كبيرة من الأرقاء ، وكانت كل قبيلة لا تخلو من أفراد من الرقيق من الرجال والنساء ، البيض والسود

---

(١) نفسه ٦٣ ، ٦٥ . (٢) نفسه ١٩ ، ٤٠ .

(٣) العقد الفريد ٥/١٤٨ . الألوسى ٣/٢٢ — ٢٤ .

(٤) الأغانى ٤/١٥٥ .

على السواء . والمصدر الأصلي للرقيق هو الحرب ، فالقبيلة التي تنتصر على الأخرى تأخذ الأسرى وتستعبدهم . وإلى جانب الحرب وجد الاتجار بالرقيق ، وكان هذا النوع من الاتجار شائعاً : فكان العرب يأتون بهم من شواطىء أفريقيا ويبيعونهم فى أسواق العرب بالمال ، وإذا لاحظنا أنهم يؤخذون بالعنف ، تبينا أن الحرب والغزو والقوة هي السبب الأول . كما كانت القبائل المنتصرة تتصرف فى بعض الأحيان فى أسراها بالبيع(١) . وقد يغيرون على القوافل المسافرة إلى العراق أو إلى الشام ويتغلبون عليها ويأسرون من فيها ويسترقونهم وهذا أصل رق سلمان الفارسي إذ خرج من العراق إلى الشام فاسترق وبيع لبعض يهود المدينة .(٢) وقد ألحقت القبائل العربية بعض أبنائها بهؤلاء الأرقاء ، فإن مقياس الشرف عند العربي ألا يجرى فى عروقه دم أجنبي . وأن يكون من أب عربي وأم عربية ، ومن هنا كان حرصه على أن يحفظ لسلالته نقاء الدم وصفته وامتيازه : وفى سبيل هذا الحرص كان يرفض الاعتراف بأبنائه أو إلحاقهم بنسبه إذا جاءوا ثمرة لصلة غير متكافئة بينه وبين إمائه ، ومن أجل ذلك أطلق المجتمع الجاهلي على أبناء الإماء من العرب الصرحاء اسم «الهجناء» ؛ وكان أسوأ أبناء الإماء حظاً فى الحياة أبناء الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم وأطلق عليهم العرب اسم «الأغربة»(٣) .

وكانت طبقة العبيد من بيض وسود ، ومن تجرى فى عروقهم

---

(١) ابن هشام ٣/٢٣٤ .

(٢) أنساب الأشراف ١/٤٨٦ - ٤٨٧ .

(٣) ديوان الحماسة ١/١٥٨ حاشية .

شائبة من دمائهم من الهجناء والأغربة ، فى وضع اجتماعى سيىء ، فقد سلبتهم الأرستقراطية العربية ، المؤمنة إيماناً عميقاً برابطة الدم ، كل ما يمكن أن يكون لهم من حقوق ، وفرضت عليهم من الواجبات ما أرهق كواهلهم وأهدر إنسانيتهم ، وباعدت بينهم وبين الحياة الإنسانية الكريمة . وضيقت عليهم النطاق فى حياة مهينة ذليلة على هامش المجتمع . فلقد كانت هذه الطبقة محرومة مما نسميه الآن الحقوق المدنية ، فليس لها حقوق الملكية والمقاضاة ، وليس للعبد أن يتزوج إلا بإذن سيده على أن يتزوج رقيقاً مثله . كذلك كان أفراد هذه الطبقة يزاولون فى المجتمع العربى المهن والصناعات التى يستنكفها العربى الصميم ، ففى البادية يرعون الماشية ، ويقومون بخدمة المنزل ، وفى الحواضر يقومون بممارسة الصناعات الموجودة هناك كالحدادة والنجارة والحلاقة والحجامة وغيرها ، إذ أن العرب كانوا يأنفون من أمثال هذه الصناعات . وكان وجود هذه الطبقة أمراً عاماً فى المجتمع القديم كله يحتمه الوضع الاقتصادى فى ذلك الوقت .

على أن العبد كان يمكنه أن يسترد حريته ، وذلك بأن يؤدى لسيده خدمة عظيمة ، كأن ينقذه هو أو أهل بيته من هلاك محقق - وهذا فى الغالب شرط الحرية - أو يظهر شجاعة نادرة فى موقعة من المواقع ، فتكون هذه الشجاعة شفيعه للتحرر ، أو بأن يتفق مع سيده على أن يشترى حريته بالمال وهذا ما يسمونه بالمكاتبة ، والرقيق الذى يتحرر بهذا يقال له المكاتب (١) . أو بأن يوصى سيده بعتقه بعد وفاته

(١) أنساب الأشراف ١/٤٨٧ .

تقرباً للآلهة ويسمى هذا بالمدبَر(١) .

ولقد كان للوضع السيء لهذه الطبقة أثر كبير فى سرعة استجابتها للدعوة الإسلامية ونجاحها فى أطوارها الأولى ، إذ أن الأرقاء والموالى هم الذين سارعوا لتلبيتها ، لأن الإسلام قام بثورة اجتماعيه فسوى بين السيد والعبد «إن أكرمكم عند الله اتقاكم» «الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» . «ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى» . وقد أنعشت هذه المبادىء نفوس هؤلاء المستضعفين والمحرومين فلبوا الدعوة التى تنتشلهم من الوهدة التى كانوا فيها .

طبقة الموالى :

إن كلمة مولى كلمة مرنة فى اللغة ، إذ أنها تسع كل المتناقضات ؛ فهى من باب المشترك اللفظى ؛ ففى القاموس : الوَلْىُ الدنو والقرب ، والولاية النصرة ، واستولى عليه غلب عليه وتمكن منه . والمولى الحليف . والمولى المعتق . والوَلِيُّ المحب الصديق والنصير والملك .

والمولى يطلق على المالك والعبد ، والمعتق ، والصاحب والجار والحليف ، وأولياء الرجل عصبته من إخوته وبنى عمه وعشيرته ، وتولاه اتخذه وليا(٢) ، وقد ذكرت كلمة مولى فى القرآن الكريم كثيراً ، وأريد بها النصير أو الحليف «يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَضُرُّهُ ولا يَنْفَعُهُ ذلك هُو الضَّلالُ البَعيدُ . يدعو لَمَنْ ضرُّه أقرب من نَفْعِه

(١) المصباح المنير ١/٢٥٦ (طبع وزارة المعارف) أسد الغابة ١/٤٣ – ٤٤ .
(٢) المصباح المنير ٢/٩٧٢ .

لَبِئْسَ المولى ولَبِئْسَ العشير(١)» . «واعْتَصِمُوا بالله هُوَ مَوْلاكُم فَنِعْمَ المولى ونِعمَ النَّصير»(٢) .

هذا هو المعنى اللغوى للكلمة ولكن الاصطلاح حدد معناها ، ومع تحديد معناها نجدها شائعة وفيها شىء من الغموض ؛ والمقصود من الموالى هم الجار والحليف المعتق .

الجوار : إذا سلك فرد من قبيلة مسلكا شائنا يضر بسمعة قبيلته ؛ فإن القبيلة تخلعه ، أو أنه هو يخلع نفسه منها إذا خاف على نفسه أن يُثأَر منه إذا كان قد قتل من القبيلة ، أو أن يكون قد ضاق بحياته فيها ، وعندئذ لا يقربه أحد ، ولما كان لا يستطيع أن يعيش منفرداً فإنه يلجأ إلى قبيلة أخرى يتصل بها ويعيش فى حماها على أساس الموالاة بالجوار . كذلك قد يجد المرء نفسه غريباً فى أرض قبيلة ويخاف على نفسه فيلجأ إلى طلب الجوار من أحد أبناء هذه القبيلة ؛ وكذلك قد يخرج لطلب ثأر من قبيلة أخرى ويجد فى نفسه ضعفاً عن أن يبلغ غايته فيلجأ إلى جوار أحد يحميه حتى يأخذ بثأره(٣) . وكما يجاور الأفراد تجاور القبائل أو البطون من ترى فيهم الحمية والعزة لحمايتها والاعتزاز بجوارها(٤) . وقد ورد فى القرآن معنى الجوار على أنه نتيجة للضعف طلباً للحماية العزة(٥) . هذه هى الحالات التى تقوم فيها

---

(١) الحج ١٢ ، ١٣ .   (٢) الحج ٧٨ .

(٣) الأغانى ١/٦٠٤ — ٦٠٥ ابن الأثير ١/٣٤٢ .

(٤) ابن الأثير : نفسه ٣٧٠ . العقد الفريد : ٥/١٧٠ — ١٧١ .

(٥) الإسراء : ١١١ . التحريم : ٤ .

علاقة الجوار . أما كيف يتم عقد الجوار ، إذا جاز لنا أن نطلق هذه التسمية على هذه العلاقة العرفية ، فإن الجوار كان يتم بالطلب الصريح والإجابة ، أو بإتيان عمل يفهم منه قيام هذه الرابطة ، فالمؤاكلة ودخول البيت ولمس الخيمة أو مجاورتها يقيم رابطة الجوار ، وقد توسعوا فى هذا فاعتبروا علوق الدلو بالدلو فى بئر يلزم حرمة الجوار والذمة(١) ، وإلى هذا أشار أبو تمام يخاطب ابن الزيات(٢) :

لى حرمة بك لولا ما رعيت وما أوجبت من حقها ما خلتها تجب

بلى : لقد سلفت فى جاهليتهم للحق ليس كحق نصره عجب

أن تعلق الدلو بالدلو القريبة أو يلامس الطُّنُبَ المستحصدَ الطنبُ

وغالوا فى الجوار حتى شمل الوحش والهوام(٣) ، حتى إنهم كانوا يسمون بذلك «مجير الجراد – مجير الغزال – مجير الذئب» ومن الأمثال «أحمى من مجير الجراد» قالوا هو مدلج بن سويد الطائى ؛ وقد يكون هذا نوعا من العزة وتحريم الصيد فى أرض القبيلة . كما كان الجوار أحياناً يعبر عن نوع من الفروسية والمروءة الإنسانية ، كإجارة كل ظعينة تمر بأرض القبيلة ، ومثال ذلك ربيعة بن مكدم الكنانى الذى ضربوا به المثل فقالوا «أحمى من مجير الظعن»(٤)

وحقوق الجار المترتبة على قيام الجوار تتلخص فى قول هانىء ابن مسعود سيد بنى شيبان حين أجار النعمان بن المنذر «قد لزمنى

---

(١) الأغانى : ٢/١٢٦ ، ٣/٥٩ . (٢) الألوسى ١/١٣٣ .

(٣) العقد الفريد ٥/٢٢٤ . (٤) الألوسى : ١٤٤ .

ذمامك ، وأنا مانعك مما أمنع منه نفسي وأهلي وولدى ، ما بقى من عشيرتى الأدنين رجل(١) » . وكان المجير يعلن إجارته على ملأ من الناس ليكونوا على بينة من الأمر ، وبذلك يصبح المستجير فى ذمته وحماه كأنه فرد من ذوى قرابته ، يتمتع بكل حماية عائلية أو قبلية ، وتجيز القبيلة ذلك إقرارا لحق الفرد فى الإجارة — كما أشرنا من قبل — ويصبح هذا الفرد واجب الحماية منهم جميعاً فقد أصبح لهم جارا ، وحينئذ يتحاشى الناس الإساءة إليه حرمة لعصبية مجيره ؛ وقد كانت العرب تطلب بثأر الجار كما تطلب بثأر الصريح من أبنائها . وتقيد من القاتل حتى ولو كان من صرحائها ؛ بل كانت تقاتل رعاية لحق الجار وحفظا على كرامته ؛ وقد قتل كليب سيد ربيعة نتيجة لاعتدائه على حرمة الجوار بأن قتل ناقة للبسوس جارة جساس بن مرة البكرى(٢) وذلك لأنهم كانوا يرون فى ذمة الجوار أمراً خطيراً فيه كرامتهم بل وحياتهم ومماتهم(٣) .

وكما يحمى المجير جاره ما دام فى كنفه . فإن على الجار أن يلتزم حدود اللياقة فى تصرفه فلا يسىء إلى سمعة القبيلة التى أجارته .

ورابطة الجوار رابطة مؤقتة وليست دائمة ، فهى تُحَل نتيجة لخروج الجار من أرض القبيلة التى يحتمى بها ، أو حين يرد المستجير على صاحبه جواره ويبرىء له ذمته على ملأ من الناس ، وعندئذ لا يتحمل المجير تبعات ما يقع عليه من اعتداء(٤) ، أو إذا ارتكب الجار

---

(١) الأغانى : ٢/١٢٦ . (٢) ابن الأثير ١/٣١٤ .
(٣) نفسه ٣٤٢ . العقد الفريد ٥/١٣٩ — ١٥٠ .
(٤) ابن هشام ١/٣٩١ — ٣٩٢ ، ٣٩٦ .

ذوى رحمه وقبيلته بالولاء ، ويسمى الشخص الملتحق مولى الشخص الملتحق به ، وكان أحيانا يتبنى الرجل مولاه فينتسب له(١). وقد كان الرجلان يشهدان على أنفسهما ويعقدان الحلف بالمواثيق والأيمان والعهود. وقد أورد الطبرى فى تفسيره مأثورا عن الميثاق الذى يشهد عليه الملأ بين الملتحق والملتحق به «دمى دمك ، وثأرى ثأرك ، وحربى حربك ، وسلمى سلمك ترثنى وأرثك ، وتطلب بى وأطلب بك ، وتعقل عنى وأعقل عنك»(٢).

وقد كان الحليف يرث حليفه إذا مات . بهذا الحلف : فى الجاهلية ثم استمر فى الإسلام (٣) . «وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِىَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيداً»(٤) حتى نسخ بآيات الميراث «وأولوا الأَرْحَامِ بعضُهم أَوْلَى بِبَعْضٍ فى كِتَابِ اللهِ»(٥) وكان قد جعل له السدس من جميع المال فى أول الإسلام ، ثم نسخ ونقل من الإرث إلى الهبة(٦) وبقيت عليهم النصرة والنصيحة والرفادة والعقل والولاء والمشورة ؛ ومن هنا ندرك عمق هذه الصلة وبلوغها حد النسب الصحيح . وكان الحليف كالصريح يخلع من القبيلة إذا أتى بعمل مشين . وكما يكون الحلف بين فرد وفرد . وبين فرد وقبيلة ، كذلك كان يحدث كثيراً أن يلتحق بطن

---

(١) البخارى ٥/٨٢ . الأغانى ٥/٣ — ٤١ . الروض الأنف ١/٣٩ .
(٢) جامع البيان : ٨/٢٧٥ — ٢٧٦ .
(٣) البخارى : ٥/٨٢ . (٤) النساء : ٣٣ .
(٥) الأنفال : ٧٥ . تفسير النسفى ٢/٨٧ .
(٦) الأحزاب : ٦ .

أو عائلة من قبيلة . بقبيلة أخرى ، فيكون أفرادها موالى القبيلة الجديدة (١) ، وتقطع تبعاتها إزاء وحدتها الأولى ، وتنتقل إلى تبعات القبيلة الجديدة من حروب ودماء وعقل ومصالح مشتركة ما عدا الميراث الذى كان يقوم عند الحلف الفردى . وفى كتب التاريخ والسير والتراجم أسماء كثيرين يذكرون فيقال مثلا القرشى ولاء أو الثقفى ولاء ، ويراد بذلك هذا الولاء الذى أشرنا إليه وليس ولاء العبودية والرق .

وكذلك كانت تقوم المحالفات بين القبائل ؛ فتحالف قبيلة قبيلة أخرى أو عدة قبائل . وهذا التحالف يشبه المعاهدات السياسية فى الوقت الحاضر ؛ فإذا أحست قبيلة بضعفها أمام القبائل القوية انضمت إلى قبيلة قوية لتحميها ، وقد تمر الأجيال وتنسى القبائل المتحالفة أسماءها وشخصياتها وتنضم تحت اسم واحد .

ويظن أن هذه المحالفات لعبت دوراً كبيراً فى تكوين القبائل العربية ، إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها ؛ ويقول البكرى « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس فى الماء والكلأ والتماسهم المعاش فى المتسع ، وغلبة بعضهم بعضا على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الذليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم فى ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم(٢) » . ومن القبائل التى تمثل ذلك خير تمثيل قبيلة «تنوخ»

---

(١) الأغانى : ٢/٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣١٦ . ٣/٣٨ . ابن الأثير ١/٣٧٠ .
(٢) البكرى : معجم ما استعجم (طبعة السقا) ١/٥٣ .

التى قامت على أساس حلف عقدته بعض البطون الشمالية مع غيرها من قبائل الجنوب ، واتخذت القبيلة اسمها من تنخ «تنأ» أى أقام واستقر وكثر ماله ، وذلك لاستقرارها فى بادية العراق(١) .

وبمجرد أن تدخل القبيلة فى حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ، ويلبون دعوتها إذا اعتدى عليها ، وقد تنفصل بعض القبائل عن الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق لها مصالحها ، ومن ثم كنا نرى أحلافا تضعف وتحل محلها أحلاف أخرى ، وقد انتشر التحالف بين القبائل العربية بصورة واسعة قبيل الإسلام ، ولم تبق إلا قبائل قليلة لم تدخل فى أحلاف ، اعتمادا على قوتها الذاتية وعلى بطولة أفرادها ، ولذلك سميت هذه القبائل « جمرات العرب »(٢) ولكنها كثيراً ما كان يؤول أمرها إلى أن تنهك فى الحروب ، أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب فلا يعتدى عليها .

وانتشار المحالفات بين القبائل العربية كان إحساساً من القبيلة العربية بأنها لا تستطيع أن تعيش فى مجالها الضيق وأنها بحاجة إلى غيرها من القبائل تؤاخيها وتربط مصيرها بمصيرها ، وكان هذا بدء نهضة قومية ، استفاد منها الإسلام فى توحيد العرب فى أمة واحدة .

وقيام علاقة الحلف تقترن عادة بمراسيم وطقوس خاصة تحرص

---

(١) أنظر عن أحلاف الأفراد والقبائل : الأغانى ٢/٢٤٢ – ٢٤٣ ، ٣١٦ ، ٣/٣٨ . القلقشندى : نهاية الأرب ١٨٩ . فجر الإسلام ٤ . الألوسى ١/١١٨ . بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ١٢٤ . وانظر ابن الأثير حـ ١ عن أيام العرب وفيه كثير ذكر للمحالفات بين القبائل ، دائرة المعارف الإسلامية عن تنوخ . المصباح المنير ١/١٠٧ .

(٢) المحبر ١٣٤ . جواد ٤/٣١٦ العقد الفريد ٣/٣٣٦ – ٣٣٧ ، ٣٦٧ . المصباح المنير ١/١٤٩ . شوقى ضيف : العصر الجاهلى ٥٨ . ابن خلدون القسم الثالث المجلد الثانى ٣/٦٤ .

القبائل على اتباعها نظراً لأهمية النتائج المرتبة عليها ؛ فقد اتخذت الأحلاف صبغة دينية وطقوساً خاصة ، إذ كانوا يغمسون أيديهم فى طيب أو دم ، وربما أوقدوا ناراً عند تحالفهم ودعوا الله على من ينكث العهد بالحرمان من منافعها . وكانوا يقولون «الدم الدم ، والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شداً ، وطول الليل إلا مداً ، ما بل بحر صوفه ؛ وأقام رضوى فى مكانه . إن كان رضوى جبلهم وإلا ذكروا ما يجاورهم من الجبال(١)» .

ومن الأحلاف التى ذكرها التاريخ فى مكة حلف المطيبين وحلف الأحلاف ، وحلف الفضول(٢) . ومن أحلاف العرب المشهورة حلف الرِّباب(٣) وهو بين خمس قبائل (ضبة وثور وعكل وتيم وعدى) وحلف عبس وعامر ضد بطن ذبيان وأحلافهم من تيم وأسد(٤) . وحلف الحُمْس بين قريش وكنانة وخزاعة(٥) وكذلك حلف قريش والأحابيش ثم إن الإسلام منع أن تقوم أحلاف جديدة ولكنه أكد الأحلاف التى تمت فى الجاهلية .

قال صلى الله عليه وسلم «لا حلف فى الإسلام وكل حلف فى الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة ، وما يسرنى أن لى حمر النعم وأنى نقضت الحلف الذى كان فى دار الندوة(٦)» .

---

(١) الجاحظ ، الحيوان ٤/٣ .
(٢) ابن هشام ١/١٤٣ — ١٤٤ .
(٣) ابن الأثير ١/٣٧٦ .
(٤) العقد الفريد : ٥/١٤١ .
(٥) ابن الأثير ١/٣٥٩ . الألوسى ١/٢٤٢ — ٢٤٣ اليعقوبى ١/١٩٩ — ٢٠٠ .
(٦) تفسير الطبرى ٨/٢٦٩ — ٢٨٨ (يعنى حلف الفضول) .

العتـــق :

هو النوع الثالث من الولاء وهو يلى الحلف فى درجته الاجتماعية . والمعتَق عبد أعتقه سيده لسبب من الأسباب ، فإذا أصبح العبد مُعتَقاً صار حراً ، ولكن تبقى هناك صلة بينه وبين معتقه ؛ وهذه الصلة تسمى الولاء ، ويظل المعتق ينسب إلى معتقه فيقولون «فلان مولى فلان» كما كانوا يقولون «زيد بن حارثة مولى رسول الله» أى عتيقه(١) وإن كانت أمة فهى مولاته ، والجمع موال . وكان المولى أحياناً ينسب إلى قبيلة المعتق فيقولون مثلا مولى بنى هاشم ، وأحيانا يعبرون عن ذلك بقولهم الهاشمى بالولاء ؛ وقد كانوا أحياناً يبيعون الولاء(٢) .

وكان بين الحر المعتَق وبين سيده واجبات وحقوق ، فعلى المعتِق أن يساعد مولاه إذا ألمت به كارثة أو إذا اعتدى عليه أحد ؛ كما أن على المعتق أن يقوم بنصرة سيده . وبينما نرى الحليف يرث حليفه فإن المعتَق لا يرث سيده ، وللسيد الحق فى أن يرث مولاه إذا مات من غير وارث . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يتخذ المعتِق مولاه ابناً أى يتبناه ، وفى هذه الحالة كانوا يطبقون ما يطبق بالنسب ، بمعنى أنه لا يجوز لمعتق أن يتزوج من زوجة متبناة إذا طلقها أو مات عنها . وهذا هو الباب المفتوح لترقى طبقة العتقاء فى السلم الاجتماعى . وقد ظلت هذه الحالة فى الجاهلية حتى إذا جاء الإسلام ألغى نظام التبنى هذا كله(٣) ؛ فرد المتبنين إلى آبائهم «أدْعُوهُمْ لآبائِهم هو أقْسَطُ عندَ

---

(١) البخارى ٥/٨٢ .
(٢) الأغانى ٧/١٨٨ . فجر الإسلام ٨٨ — ٩٠ .
(٣) البخارى ٥/٨٢ .

اللهِ ، فإن لم تَعْلَمُوا آباءَهُم فإخوانُكم فى الدينِ ومَوَالِيكم (١)» ولقد كانت هذه العادة شديدة الاستحكام حتى احتاج أمر إبطالها إلى قوة نفسية خاصة مما جعل النبي يقوم بذلك بنفسه ومع نفر من آل بيته ، ومع ذلك فقد داخل النبي كثير من الإشفاق وداخل زينب بنت جحش — وهى ابنة عمته التى زوجها لمتبناه زيد ثم طلقها زيد فتزوجها محمد — وأهلها كثير من التردد حتى احتاج الأمر إلى نذير من القرآن «وما كانَ لِمُؤمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قضَى اللهُ ورسولهُ أمراً أنْ يكونَ لهم الخيرَةُ من أمْرِهِمْ» وحتى عُوتب النبي على إشفاقه «وتخْشَى النَاسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ منها وطَرًا زَوَّجْناكَهَا لِكي لا يكُون على المؤْمنينَ حَرَجٌ فى أَزْوَاجِ أدْعِيائِهِم إذا قَضوْا مِنهُنَّ وَطراً» وحتى نزل القرآن رداً على الذين تحدثوا فى هذا الأمر ونقدوه على النبي بقوله «مَا كَانَ مُحمَّدٌ أبَا أحَد من رجَالِكُم ولَكنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتم النَّبيِّين» (٢) .

دستور القبيلة

كان للقبائل العربية دستور عرفى عام ، يشترك فيه كل أفراد القبيلة ، وهذا الدستور ينحصر فى كلمة واحدة هى «العصبية» . وإذا كان الدستور هو القانون الأساسى ، فإن قواعده كلها انبنت على العصبية ، وهذه الكلمة مذكورة كثيراً فى كتب التاريخ والأدب ، فما مدلولها ؟

إذا بحثنا عن المعنى اللغوى لهذه الكلمة فى معاجم اللغة نجد أن :

---

(١) الأحزاب ٥ .	(٢) الأحزاب ٣٧ — ٤٠ .

العَصب هو الطي الشديد ، وكل شيء استدار بشيء فقد عَصَبَ به ، ويقال عصب القوم بالرجل عصباً أى أحاطوا به لقتال أو حماية ، وعضب القوم بالنسب أحاطوا به ، وعَصبة الرجل بنود الأقربون(١) . والعصبية أن يدعو إلى نصرة عصبته والوقوف إلى جانبهم ظالمين أو مظلومين . هذا هو المعنى المفهوم من كلمة عصبية . ولقد كان شعار العصبية فى الجاهلية «انصر أخاك ظالما أو مظلوماً» فالعصبية تعبر عن غريزة الدفاع الكامنة فى كل كائن مادى أو معنوى بصرف النظر عن العدالة وعلمها .

والعصبية فى الفطرة بمنزلة القومية أو الوطنية فى العصور الحديثة ، وهذه الروح هى روح التضامن الشديد التى يعتز بها المجتمع القبلى ، ولقد كانت قوية جداً فى القبائل العربية على خلاف المعروف فى المجتمعات الحضرية .

وإذا بحثنا عن مصدر القوة الوطنية فى أمة حية ، نجده المصلحة العامة ، لأنه لو تُرك الأمر لكل فرد من أفراد الأمة فى أن يعمل كما يرى فى المسائل العامة ، لانهدم النظام وانهارت الأمة ، فالمصلحة العامة أساس هذا الروح الذى يجعل كل فرد من الأمة يسهم بنصيب وافر فى طريق واحد لغاية واحدة يصبو إليها الجميع . لكننا نلاحظ — حتى فى المجتمعات الحديثة — شيئاً آخر غير المصلحة العامة ، والحقيقة أن المصلحة مقياس جاف ، إذ أن الوطنية تقوم على شيء آخر يُذْكيها إلى جانب المصلحة ، ذلك هو عامل الشعور ، لأن عاطفة الوطنية إذا لم

---

(١) لسان العرب ، مادة عصب . المصباح المنير ٥٦٤ — ٥٦٥ .

تغذ بالشعور تصبح فاترة . فالوطنية الملتهبة هي التي يذكيها ويحركها الشعور ، وللشعراء والكتاب والأدباء نصيب كبير في إذكاء هذا الشعور وإذن فالمصلحة العامة والشعور هما قوام العصبية العربية كما أنهما أساس القومية الحديثة .

ولقد كان من مصلحة القبيلة أن تكون يداً واحدة فى كل الأحوال، لأنها إذا انقسمت على نفسها فى أمر ما تلاشت ، فالمصلحة كانت —وما زالت— تقتضي وجود التضامن الشديد ، إذ أن القبيلة محاطة بالأعداء ، فانقسامها معناه ضعفها وتلاشيها . أما عن عامل الشعور ، فكان كل فرد فى القبيلة يحس بأنه مدين فى كل شيء عنده إلى قبيلته ، فهى التى حمته وترعرع بين ظهرانيها حتى صار رجلا ، فكان لزاما عليه أن يخلص لها ويتفانى فى الدفاع عن شرفها ، ومن يطالع الشعر الجاهلى يجد الشاعر قد أذاب شخصيته أو كاد فى شخصية القبيلة ، ففضائلها ومحامدها العامة هى فضائله ومحامده الذاتية(١) . وكان الشعور بالاندماج فى القبيلة أقوى من مثيله فى المجتمعات الحديثة وذلك يرجع إلى تصورهم الخاص للقبيلة . فنحن إذا ذكرنا دولة من الدول فإنما نعنى جمعاً من الناس ينزلون أرضاً واحدة ، ويستظلون سماء واحدة ينتفعون بخيرات مشتركة ، وقد يكون من هؤلاء المتجنسين بجنسية هذه الدولة المتمتعين بحقوق المواطنة فيها من هم فى أنفسهم من أجناس أخرى ومنابت أخرى . بينما نجد الحال على عكس ذلك

(١) انظر معلقة عمرو بن كلثوم حيث لم يتحدث الشاعر عن نفسه إطلاقاً وإنما اندمج فى حديث عن قبيلته ومحامدها العامة وهو بذلك كأنما يتحدث عن نفسه ويفخر بمحامده الشخصية ، وهذه المعلقة تعبير صادق عن روح التفانى فى الجماعة القبلية . (جمهرة أشعار العرب ص ١٥٧ وما بعدها : الطبعة الأولى . مصر . ١٣٣) .

فى المجتمع العربى ، فقد كانت القبيلة صورة تامة بالمعنى الحرفى لكلمة أسرة . فإذا قيل بنو أسد مثلا كان معنى ذلك أن رجلا اسمه أسد عاش فى الزمن القديم ، تowالدت عنه هذه الأسرة التى أصبحت قبيلة اتخذت اسم رئيسها الأول كنية لها ، فكل أفراد هذه القبيلة إخوة بالمعنى الصحيح يتغلغل فى عروقهم دم واحد هو دم أبيهم القديم . حقيقة كان فى القبيلة من ينتمى إليها من غير أبنائها عن طريق الولاء إلا أن صلب القبيلة كان من أبنائها الذين يردون نسبهم إلى أصلها ؛ ثم إنه كان من ناحية أخرى النسب العربى العام الذى يرد العرب أنفسهم جميعاً إليه ، فهولاء الموالى يجتمعون مع القبيلة فى النسب العام وتربطهم بها المصلحة المشتركة . والحق أن الإنسان إذا شعر بأنه من أسرة فإن شعوره نحوها يكون أشد من شعوره إذا كان فردا من أمة ، لأن المسألة حينئذ تكون أبوة أو أخوة أو عمومة ، ويكون موقفه هنا غير موقفه هناك(١) . فإذن مصدر قوة العصبية عند العرب هو شعورهم بأنهم أفراد أسرة واحدة . والعصبية كانت قوية شديدة الأثر فى حفظ التوازن بين الجماعات القبلية التى يتألف منها المجتمع العربى ، وفى دفع الناس بعضهم ببعض وصيانة حقوقهم وكرامتهم ، بل وحياتهم . وبالرغم من أن الإسلام جاء بالقضاء على العصبية القبلية ، وجعل المسلمين كلهم إخوة بغض النظر عن قبائلهم ، فإن سلطان العصبية وشدة رسوخها ظل قويا ، وكان لها أثر فعال فى كثير من أحداث التاريخ الإسلامى وسيره وتطوره حتى القرن الثالث الهجرى ، أى حتى ضعف العنصر العربى ، وإن ظل أثرها باقيا بعد ذلك فى أقاليم المغرب الإسلامية

---

(١) أنظر : ابن خلدون ، المقدمة ١٤٣ — ١٤٤ .

وذلك بالرغم من تندر القرآن بها وتحذيره منها استهدافا لخلق مجتمع إسلامى أساسه إطار أعم من الأخوة الدينية العامة : والمصلحة المشتركة بين الذين يتألف منهم هذا المجتمع ، وولاية المسلمين بعضهم بعضا بغض النظر عن اختلاف البطون والقبائل والأجناس(١) .

وإذن فإن مِلاك الكيان القبلى هو قرابة الدم والإيمان بالقبيلة وتقديس مصالحها .

مستويات العصبية الاجتماعية

للعصبية مظاهر تبدو ما فيها نستطيع الوصول إليه من قراءة الأخبار التى وردت فى أيام العرب ، ومن خلال أشعارهم ، ومن الآيات القرآنية التى وردت فيها . وهذه المظاهر هى :

— عصبية العشيرة وذوى الأرحام :

كان أفراد العائلة الواحدة أو الفخذ أو البطن ، أى أفراد الوحدة الاجتماعية الصغرى ، الذين تجمع بينهم الأرحام القريبة يتضامنون فى الدفاع عن بعضهم والاستنصار لبعضهم فى مختلف المواقف : فهم ، أفرادا وجماعة ، مطالبون بالتضامن فى الدفاع عن سمعة الوحدة وشرفها ومصلحتها المشتركة ؛ وحفظها من العدوان عليها فى داخل القبيلة أو خارجها : كما أنهم جميعا مطالبون بجريرتها ، حتى ولو كانوا متنافرين فى العقيدة والميول : فهى عندهم أقوى من الإيمان الدينى ، ولقد ظهر هذا النوع من العصبية واضحا جدا فى أول ظهور الإسلام ،

---

(١) آل عمران ، ١٠٣ . النساء ، ١٤٤ . المائدة ، ٥٥ — ٥٧ . الأنفال ، ٦٢ — ٦٤ ، ٧١ — ٧٢ ، ٧٥ . التوبة ، ٢٣ ، ٧١ . الحجرات ، ٩ . الممتحنة ، ١ . المجادلة ، ١٢ .

وكان له أثر كبير فى الأحداث التى وقعت فى حياة النبى ، فلقد وقف بنو هاشم يحمون النبى فى مكة ضد بقية بطون قريش استجابة لعصبية الرحم والقربى ، بالرغم من بقائهم على دين آبائهم «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عنه وَيَنأَوْنَ عنه وإن يُهلكُون إلا أنفُسَهُم وَمَا يَشعرون(١) » حتى لقد قاطعتهم قريش من أجل ذلك وحصرتهم فى أحد شعاب مكة ثلاث سنوات(٢) . وحتى أبولهب عم النبى الذى كان قد شذ ومالأ قريشا ، فإنه لما مات أبو طالب ذهب إلى محمد يقول له « يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعا إذا كان أبو طالب حيا فاصنعه : لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت(٣) » .

ولقد أبقى الإسلام على رابطة العشيرة والأرحام فلم يمحها بل جعلها داخل النطاق العام : فقد بقيت على العشائر النفقات التى ليست ذات صيغة خاصة محضة وخصوصا دفع الدية وفداء الأسرى ، كذلك أبقى للعشيرة مسألة الولاء(٤) . كذلك أراد الإسلام الانتفاع بسلطان هذه العصبية العشيرية فى تقريب الناس للإسلام بدعوة المخالفين إلى مهادنة المسلمين . «واتَّقُوا اللهَ الذى تسَاءلون بِهِ والأَرْحَامَ»(٥) فهو يهتف بهم أن يتقوا الأرحام التى يتساءلون بها ويعز عليهم أمرها ويتأثرون بها فى حياتهم المادية والمعنوية ، ثم إنه كان يُذكر قريشا بالرحم التى بينها وبين النبى ، وبأنه لا يحرص على إيمانهم وهداهم إلا استجابة لعاطفة

---

(١) الأنعام ٢٦ . تفسير الطبرى ١١/٣١٢ — ٣١٤ .
(٢) ابن هشام ١/٣٧١ وما بعدها .
(٣) ابن سعد : الطبقات : ١/١٩٥ .
(٤) أنظر الصحيفة التى كتبها النبى بالمدينة . ابن هشام ، ٢/١٢١ — ١٢٣ .
(٥) النساء ، ١/ . تفسير الطبرى ، ٧/٥١٨ — ٥٢٠ .

الرحم التى تدعوه إلى الحرص على خيرهم ، كما يجب أن تدعوهم لتصديقه واتباعه ، فهو غير متهم فى مصلحة أهله «قل لا أسألكم عليهِ أجراً إلا المودَّة فى القُرْبى(١)» كما أنه دائما كان يُذْكِى روح المسلمين ، ويعيرّ المنافقين والمتخاذلين بأنهم إنما يقطعون أرحامهم بجبنهم عن نصرة إخوانهم «فهل عسيْتُم إنْ توليتم أنْ تُفْسدوا فى الأرضِ وتُقطّعُوا أرحامكم(٢)» ومع أن رسالة النبى كانت شاملة عامة ، إلا أنه كُلف أول ما كلف بأن ينذر عشيرته الأقربين «وأنْذِرْ عشيرَتكَ الأقربين»(٣) حتى إذا آمنوا انتصروا له فكانوا درعا يحول دون أذى الناس له ، ولقد جرى الإسلام فى هذا على مفهوم الوضع الاجتماعى فى المجتمع العربى على أن موقف أقاربه من عدم تصديقه كان له أثر كبير فى مقابلة أهل مكة الدعوة بالفتور والاستخفاف ، إذ قد جرت العادة أن يتابع الشخص أقرباؤه بدافع العصبية فهم ينتصرون له ويتفاخرون به ويفاخرون به غيرهم .

ولقد واجه المسلمون كثيراً من الحرج والمشاكل نتيجة لعصبية الأرحام خاصة ، فقد كان يحدث أن يكون الابن أو الأخ أو الأب فى صفوف المسلمين ، والأب أو الأخ أو الابن فى صفوف المشركين فى عهد النبى ، فيحدث الحرج ، وتبدو الميول العصبية ؛ مما اقتضى نزول القرآن بالزجر الشديد عن متابعة هذه الميول : «لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حَادَّ اللهَ ورسُوله ولوْ كانُوا آباءهم أو

(١) الشورى : ٢٣ .
(٢) محمد : ٢٢ .
(٣) الشعراء : ٢١٤ .

أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه» (١) والروايات المتواترة تذكر مواقف لبعض المسلمين دفعتهم إليها عصبية الرحم ، فتذكر كيف ظهر القنوط والأسف على وجه أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة حينما رأى مصرع أبيه فى معركة بدر (٢) ، وكذلك موقف حاطب بن أبى بلتعة حينما كتب لقريش ينبئها باستعداد النبى لغزو مكة مصانعة لها على أهل له وولد بين قريش(٣) . وتظهر شخصية العشيرة فى بعض المواقف مثل :

ولاية الدم :

كان من المعروف فى التقاليد العربية أن للقتيل ولياً أو صاحب دم يطالب به . ويكون حقه فى هذا الطلب معترفاً به من الجميع من القبيلة أو من غيرها ، بحيث يكون له بذلك سلطان . أى حق واجب يجب نصره للحصول عليه «ومن قُتِل مظلوماً فقد جَعَلْنا لوَلِيّه سُلطاناً فلا يُسْرِفْ فى القتل إنه كان مَنْصورا »(٤) والولى أو صاحب الدم إنما يكون من عَصَبة القتيل القريبة . وليس من الضرورى أن يكون ابن القتيل أو أباه أو أخاه — وإن كان هؤلاء هم أصحاب الحق الأول — بل يكون رئيس العشيرة باعتباره ممثلا للعائلة التى يعد القتيل قتيلها والدم دمها . وهذا التقليد هو الذى حدا بمعاوية بن أبى سفيان . دون أبناء عثمان ، أن يقوم مطالباً بدم الخليفة المقتول على اعتبار أنه ولى الدم بصفته

---

(١) المجادلة ٢٢١ .
(٢) ابن هشام ، ٢/٢٨٢ — ٢٨٣ . ابن الأثير ، ٢/٩٠ .
(٣) ابن هشام ٤/١٦ — ١٧ . ابن الأثير ٢/١٦٣ .
(٤) الإسراء ٣٣ .

رئيساً للبيت الأموى(١) .

العقـل :

وكما يتضامن ذوو القربى والأرحام فى الأخذ بالثأر . كذلك يتضامنون فى العقل ـ والعقل هو توزيع وجمع الدية عن قتيل ـ إذا تم صلح أو حكم قاض بدفع الدية والكف عن الثأر بالدم ـ فيجمع ذوو القربى والأرحام هذه الدية ؛ التى تدفع كذلك إلى أهل القتيل الذين هم ذوو رحمه وقرباه ؛ والذين تجعلهم تقاليد عصبية الأرحام القريبة أصحاب الحق بدمه . فتوزع الدية عليهم . كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك «ومن قتل مُؤْمنًا خطأً فتحريرُ رقبة مؤمنة ودية مُسَلَّمَة إلى أهله إلا أن يَصَّدقُوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبة مؤمنة ؛ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ فدية مُسَلَّمةٌ إلى أهله وتحريرُ رقبة مؤمنة » (٢) وهذه الآية تلهم وجود هذا التقليد على الوجه الذى أشرنا إليه . وبخاصة وهى توجب تسليم الدية إلى أهل القتيل . وهو تعبير يمكن أن يكون أوسع نطاقا من أب أو أم أو أخ أو ابن .

٢ ـ عصبية القبيلة :

كان أفراد القبيلة ببطونها وعشائرها يتضامنون تجاه القبائل الأخرى

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٧/٢٢٧ ، ٢٥٦ .

(٢) النساء ٩٢ .

أسد الغابة ١/٩٩ « حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال : إن عمر كان يقول الدية على العاقلة لا ترث المرأة من دية زوجها . حتى أخبره الضحاك بن سفيان الكلابى ، أن رسول الله كتب إليه أن ورث امرأة أشم الضباب من دية زوجها » .

فى الحروب والدماء ، والدفاع عن المصالح والتبعات المشتركة ، ويتناصرون حسب الشعار القبلى «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» ويتعاونون على المغارم ، فكل فرد فى القبيلة يرى أن الاعتداء على فرد منها إنما هو اعتداء واقع عليه ، وأن من واجبه أن ينتصر له ويدفع عنه ، أو يأخذ بثأره إذا قتل ممن اعتدى عليه أو من أى فرد من أفراد قبيلته ، وإذا نشبت حرب بين قبيلتين تضامن أفراد كل قبيلة فى الدفاع والهجوم مهما كان الباعث على هذه الحرب ، حتى ولو كانت ميولهم وعواطفهم متباينة ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة يمكن أن نستخلص منها ما كان للعصبية القبلية من شأن كبير فى المجتمع العربى ، ظهر أثره فى الصراع بين مكة والمدينة فى أيام النبى . فقد كان فى المدينة منافقون ومشركون لم يمنعهم أن يشاركوا المسلمين فى القتال أنهم كانوا يخالفونهم فى الدين وفى الميول ، وذلك بدافع العصبية القبلية . وتشير الآية «وليَعْلم الذين نافقوا وقِيل لهم تعَالَوا قَاتِلوا فى سبيل اللهِ أو ادفَعُوا قَالوا لَوْ نَعْلمُ قتالاً لاتَّبَعْنا كُم (١)» إلى أن بعض المسلمين قد ذكَر المنافقين بأنه لا يجوز لهم أن يخذلوا قومهم . وأنهم إن لم يقاتلوا فى سبيل الله ففى سبيل الدفاع استجابة لداعى العصبية القبلية : وكان جوابهم أنهم لو تأكدوا من وجود القتال لتضامنوا معهم (٢) . كذلك تذكر الروايات أن رجلا يدعى «قزمان» قاتل يوم أحد قتالا شديداً وقتل عددا من المشركين ، حتى إذا خلصت إليه الجراح وسقط حُمل إلى إحدى الدور ، وعاده بعض المسلمين وقال له أحدهم «أبشر يا

(١) آل عمران ١٦٧ .
(٢) تفسير الطبرى ٧/٣٧٨ — ٣٧٩ .

قزمان» فأجابه «بماذا أبشر ! فوالله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى(١)» .

وقد كانت بعض بطون من القبائل الضاربة حول المدينة تريد مسالمة المسلمين والدخول فى عهدهم . ولكنها كانت يصيبها الحرج ، فتشترط حسن الصلة مع المسلمين على ألا تتضامن معهم ضدقومها أو ضد حلفاء قومها ، وإلى هذا تشير الآية القرآنية «إلا الذين يَصلون إلى قوم بينَكم وبَيْنهُم ميثاقٌ أو جاؤُوكم حَصِرَت صُدُورُهم أن يقَاتِلُوكم أو يقَاتِلوا قَوْمَهم ولو شاء الله لسلَّطَهُم عَليكم . فَلقَاتَلوكُم . فإن اعتَزلُوكم فلم يُقَاتلوكم وأَلْقَوْا إليكم السَّلَمَ فما جَعَل اللهُ لكم عليهم سبيلا(٢)» فالعشيرة كانت تدين بالولاء للقبيلة ولا تخرج عليها لظروف قاهرة ، كما أن القبيلة كانت ملتزمة بتأييد عشائرها : فإذا حدث خلاف فإنه كان من الممكن أن توقع القبيلة جزاء على العشيرة فتخرجها أو تقاطعها ، كما حدث فى مقاطعة قريش لبنى هاشم ، وقد تعلن القبيلة هذا القرار بالنسبة للعشيرة كما كانت تعلن قرار الخلع بالنسبة للأفراد ، وقد يحدث أن تكتب بذلك صحيفة . وقد سقنا هذه الأمثلة عن الحالة قبيل ظهور الإسلام لأن ذلك أوضح وأثبت . مع أنه يمكن الإتيان بأمثلة كثيرة من أيام العرب وما كان يحدث بين بطونها من منافسات وخلافات تجعل البطن أو العشيرة يخرج من القبيلة أو أن القبيلة تخرجه .

كل هذا يدل على قوة العصبية القبلية وأنها كانت راسخة قوية ، واحتاج المسلمون للقضاء عليها إلى تحذير شديد من جانب القرآن

---

(١) ابن هشام ٣/٣٧ - ٣٨ .

(٢) النساء ٤ ٩٠ أنظر أسد الغابة ١/٨٩ .

وإلى تكرار الآيات التى تنهى عنها ، ومع ذلك ظلت آثارها زمناً طويلاً وأثرت تأثيرا خطيرا فى حياة الدولة الإسلامية بعامة والعنصر العربى فيها بنوع خاص .

٣ – عصبية الأحلاف القبلية أو الأحزاب :

كثيرا ما كانت تقوم بين القبائل محالفات ومواثيق لتقف صفا واحدا متساندا أمام بعض الدواعى . فتنشأ الأحلاف بين القبائل لصيانة المصالح المشتركة أو لضرورة السلم بين المتجاورين أو عن طريق المعاهدة بين رجالها . فتنشأ بذلك عصبية بين هذه القبائل المتحالفة تدفعها إلى التضامن فى الحروب والتعاون فى تبعات الدماء(١) . وكان الحلف بين القبائل قد يستمر جيلا بعد جيل ولا ينقضى إلا بسبب أحداث جسيمة وعندئذ يصبح صلة لاحمة بين القبائل المتحالفة . وقد استمر هذا النوع من التحالف وتبعاته إلى ما بعد البعثة النبوية . وقد ورد فى القرآن آيات كثيرة تتحدث عن الأحزاب والمحالفات «وَلَمَّا رأى المؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قالوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ ورسُولُه(٢)» وتعنى هذه الآية قريشا وحلفاءها من القبائل التى تحالفت معها على غزو المدينة فى موقعة الخندق . كما أن اليهود فى المدينة كانوا متحالفين مع العرب فيها قبل الإسلام ، بعضهم حالف الأوس وبعضهم حالف الخزرج ووقف كل فريق مع حليفه فى الحرب بالرغم من تعارض هذا مع أحكام التوراة ، وقد ندَّد القرآن بموقفهم هذا وعيَّرهم بمخالفتهم للتوراة فى

---

(١) أنظر ابن الأثير ٢١٠/١ وما بعدها . العقد الفريد ١٣٣/٥ وما بعدها (عن أيام العرب وفيه ذكر لمحالفات القبائل) كذلك الأغانى ٢٤٢/٢ ، ٢٤٣ ، ٣١٦ ، ٣٨/٣ .

(٢) الأحزاب ٢٢ .

تحالفهم بعضهم جريا وراء مصالحهم الذاتية التى يجلبها الحلف القبلى(١) كما أن هذه المحالفات قد ظل أثرها بعد الهجرة . حيث ظل الأوس والخزرج متمسكين بحلفهم مع اليهود . وتشير بعض الآيات إلى هذا التمسك(٢) ، كما تشير إلى ثبات المنافقين من أهل المدينة فى تحالفهم هذا ووعدهم اليهود بالمناصرة إذا قُوتلوا وبالتضامن إذا أُخرجوا « أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نَافَقُوا يقولُونَ لإخوانهم الذينَ كفرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَاب لَئِنْ أُخْرِجتُمْ لَنَخرُجَنَّ معكم ولا نُطِيعُ فيكم أحداً أبداً وإن قُوتِلتُم لَنَنْصُرَنَّكم ..(٣) » . ولم يكن هذا قاصراً على المنافقين بل ظل بعض المؤمنين متأثرين به بالرغم من موقف اليهود تجاه الإسلام . ولعل هذا سبب من أسباب صبر النبى على اليهود بالرغم من لجاجهم معه وظهور العداوة منهم . وذلك لعوامل الحلف التى كانت تربط بينهم وبين الأوس والخزرج ، حتى يستقر الإسلام فى يثرب ويصبح سلطانه على النفوس أقوى من سلطان الحلف ، مما استدعى تشديد النهى عن موالاة اليهود فى آيات متعددة(٤) . كما أن النبى قد عقد كثيراً من المحالفات بينه وبين القبائل العربية الضاربة حول المدينة وبينها وبين مكة ، كما تحالف مع اليهود . ومما يلفت النظر فى المعاهدات التى وقعها النبى أنه كان بعضها لمدة معينة كما يشير القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : فأَتِمُّوا إليهمُ عهْدَهم إلى مدَّتِهم(٥) ». ولعله لاحظ فيها تطور الدعوة الإسلامية وإمكانياتها المقبلة .

---

(١) البقرة ٨٤ — ٨٥ . (٢) آل عمران ١١٩ .

(٣) الحشر ١١ .

(٤) آل عمران ٢٨ . أنظرتفسير الطبرى ٦/٣١٤ . آل عمران ١١٨ — ١١٩ . النساء ١١٤ . المائدة ٥١ .

(٥) التوبة : ٤ . الأنفال ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٢ . التوبة ١/٧٤ ابن هشام ٢/٢٢٤، ٢٣٦

على أن عصبية التحالف القبلى ليست أصيلة ، إذ أنها حالة طارئة اقتضتها ظروف المصلحة المشتركة ، وذلك على عكس عصبية الأرحام أو العصبية القبلية فإنها عصبية أصيلة تستمد وجودها من القرابة والدم ، والمصلحة المتحدة الطبيعية بين أبناء القبيلة الواحدة الذين يكونون في الغالب من أرحام وقربى وإن تباعدت فى النسب ، ثم بين أبناء العشيرة الواحدة الذين تجمعهم صلة الدم والرحم القريبة .

وعلى هذا فالعصبية تتدرج فى قوة التأثر بها والاستجابة إليها من عصبية الأسرة ، إلى عصبية العشيرة ، إلى عصبية الفخذ ، إلى عصبية البطن ، إلى عصبية القبيلة ، إلى العصبية الناشئة عن الحلف (١) . وهذا التفاوت فى قوة العصبية والتأثر بها والاستجابة لها متسق مع طبائع الأشياء ، وقد جرى الإسلام حين جاء على هذا الأساس ، فقد كلف النبي أن يتدرج فى دعوته من عشيرته الأقربين ، وهم أمس به رحما والمظنون أن يكونوا أقرب استجابة له ، ثم لينذر أم القرى (مكة) ومن حولها (العرب) ، ثم الناس جميعا .

ونحن إذا نظرنا إلى القبائل من ناحية الترابط المتبادل بينها فإننا نخطىء إذا اتهمنا العرب بالفردية ، والمجتمع العربى بالجمود والتشتت ، فالواقع أن القبائل كانت متصلة متداخلة ، وكذلك كانت متحركة متقلقلة ، لا تكاد تتخذ شكلا معينا حتى يعرض لها من ضرورات الصلة والجوار ومؤالفة المجتمع ما يجعلها تندغم فى غيرها ، أو تدخل معها فى شكل معين من الحلف أو الجوار ، فقد كانت هناك حركة نشيطة فيما بين أفراد القبائل ، كما كانت حركة نشيطة فيما بين القبائل

---

(١) أنظر ابن خلدون المقدمة ، ص ١٤٤ – ١٤٥ .

نفسها ، تلتقى ، وتتباعد ، ويؤلف بينها الحلف أو الجوار ، كما تفرقها العداوات والحروب . على أن تقليد التضامن الاجتماعى والعصبية الاجتماعية كان ركناً من أركان حياتهم الاجتماعية ، بل أقوى أركانها . على أن العصبية الاجتماعية سواء منها عصبية الأرحام أو عصبية القبيلة أو عصبية التحالف ، حاجة طبيعية فى حياة الأمة التى تعيش فى طور البداوة بوجه عام ، لأنه لا يمكن حفظ التوازن والحقوق والدماء فى هذا الطور بدونها . ولقد أخذت عصبية التحالف فى الازدياد قبيل البعثة النبوية أى فى أواخر العصر الجاهلى ، فقد أخذت القبائل تتكتل فى مجاميع كبيرة ، وكان هذا إحساسا من القبيلة العربية بأنها لا تستطيع أن تعيش فى مجالها الضيق ، وأنها بحاجة إلى غيرها من القبائل تؤاخيها وتربط مصيرها بمصيرها ، وكان هذا الميل إلى التحالف والتجمع مسايراً للنهضة العربية التى بدت تباشيرها فى القرن الأول قبل البعثة وشملت الحالة السياسية والدينية والفكرية عند العرب ، والتى مهدت لظهور النهضة الكبرى التى جاء بها الإسلام بعد ذلك .

عصبية التقاليد :

كان العرب يتعصبون لتقاليدهم وموروث عاداتهم تعصباً شديداً ، يرون فى ذلك فضيلة لا معدى عنها ، وجزءاً لا ينفصل من حياة المجتمع ، ولو أدى إلى الحرب وإراقة الدماء والمواقف المهلكة ، وقد بلغ من قوة العصبية للتقاليد، أن أصبحت عندهم دينا يرون الأخذ بها من أمر الله «وإذَا فَعلُوا فَاحِشَةً قالوا وَجَدْنَا عليها آباءَنَا واللهُ أَمَرَنَا بها (١)»

(١) الأعراف ٢٨ . تفسير الطبرى ١٢/٣٧٩ .

« وإذا قِيلَ لهم اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالوا بل نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عليه آباءَنَا أَو لَوْ كان أَباؤُهُم لا يَعقلُون شيئا ولاَ يَهتَدُون »(١) .

وكانوا يعتبرون ما هم عليه من تقاليد دينية واجتماعية متنوعة هى من مشيئة الله ورضاه ، ولذلك فهى الأهدى والأصلح ، وقد توارثوها أباً عن جد ، ولو لم تكن كذلك لمنعهم الله عنها(٢) . وهذا يفسر لنا الموقف الشديد الذى اتخذه أهل مكة ضد الدعوة الإسلامية وضد النبى والمسلمين ، فإن قوة العصبية للتقاليد كانت من العوامل المؤثرة فى ذلك من غير شك . كما أنها حالت دون كثير من ذوى قربى النبى والدخول فى الإسلام استجابة لعصبية التقاليد ، فى الوقت الذى كانوا ينصرونه فيه ويقفون إلى جانبه ويحمونه استجابة لعصبية الرحم ، وعلى رأس هؤلاء عمه أبو طالب الذى غلبته عصبية التقاليد على أمره (٣) بالرغم من معرفته لصدق النبى وبالرغم من إعجابه وإعجاب بنى هاشم به ، وما كان لهم من الفخر بظهور نبى ورجل عظيم منهم ، إلا أن سلطان عصبية التقاليد كان شديداً لدرجة أنه تغلب على سلطان عصبية الرحم فى نفس واحد من بنى هاشم ، هو أبو لهب الذى شذ على عشيرته وانضم إلى مناوئيهم استجابة لعصبية التقاليد الموروثة .

وهناك حالة تثبت قوة عصبية التقاليد ، وهى زواج النبى من زينب بنت جحش مطلقة متبناه زيد بن حارثة ، وقد كان مثل هذا الزواج محرما فى الجاهلية - إذ كان المتبنى يعامل كالابن بالنسب -

---

(١) البقرة ١٧٠ . لقمان ٢١ . وأنظر تفسير الطبرى ٣/٣١٧ ، ١١/١٣٧ .
(٢) النحل ٣٥ . الأنعام ١٤٨ . تفسير الطبرى ١٢/٢٠٨ .
(٣) أنظر ابن هشام ٢/٢٧ .

وكان إلغاؤه من الأمور الجسيمة التي تحتاج إلى قوة نفسية كبيرة ، حتى ليتولى كسر هذا التقليد النبي نفسه ومع ناس من أهل بيته أولا ، والنبي نفسه قد تحرج من هذا الأمر وأشفق من الرأي العام حتى عوتب في القرآن ، كذلك أشفقت زينب - وهي ابنة عمة النبي - وأخوها ، واحتاج الأمر إلى شيء من الإنذار للمؤمنين بأن يخضعوا لأمر الله (١) . وكذلك اشتبه في وقوع قتال في الشهر الحرام في إحدى السرايا التي أرسلها النبي في آخر رجب من السنة الثانية من الهجرة إلى بطن نخلة بين الطائف ومكة لتتعرف أخبار قريش ، فالتقت بعير لقريش فقتلت أحد حراسها واستولت عليها . وانتهزت قريش هذه الفرصة فشنت حرباً من الدعاية ضد النبي والمسلمين لتثير الرأي العام العربي لحرمة التقاليد ، وقد أثرت هذه الضجة التي أحدثتها قريش في المسلمين أنفسهم في المدينة ؛ حتى احتاج الأمر إلى بيان من القرآن الكريم يوضح الموقف ويرد على دعاية قريش (٢) .

ومن قوة التعصب للتقاليد نستطيع أن ندرك الحكمة في الإبقاء على كثير من التقاليد التي كان عليها العرب قبل البعثة ، سواء ما كان منها متصلا بحياة الناس الاجتماعية والعائلية أو ما كان له صبغة دينية فقد كانت التقاليد راسخة بحيث كان الناس يعتبرونها جزءاً من كيانهم الاجتماعي والديني . وكان إلغاؤها يمكن أن يحدث كثيراً من العقبات في سبيل انتشار الدعوة الإسلامية . لذلك تدرج التشريع

---

(١) الأحزاب ٣٦ - ٤٠ .

(٢) البقرة ٢١٧ - ٢١٨ . تفسير الطبري ٤/١٩٩ - ٢١٦ . ابن هشام ٢/٢٤٠ - ٢٤٢

الإسلامى فألغى ما لابد من إلغائه مما يتعارض مع جوهر الدعوة وأهدافها ، أو كان فيه فحش ينبو عنه الذوق الحسن ، أو كان متنافياً مع المصلحة العامة كالزواج من زوجة الأب والجمع بين الأختين والزنا والتخادن والمسافحة ، والطواف العارى بالكعبة والذبح للأنصاب ، وحرمة صيد البحر عند الإحرام . واكتفى بتهذيب الباقى تهذيباً يجعله مفيداً ومنسجماً مع أسس الدعوة الإسلامية وأهدافها ، أو غير متناقض معها ، وكذلك تدرج فى التحريم — مثل تحريم الخمر — حتى لا يصطدم التشريع بتقاليد الناس وراسخ عاداتهم اصطداما شديداً ، كذلك وضع من الأسس ما يسمح بالتصرف بما يكون هو الأصلح كالاكتفاء بزوجة واحدة نتيجة لعدم استطاعة العدل بين الزوجات المتعددات ، كذلك بجعل أمر الأسرى للسلطان يمن عليهم أو يفاديهم ، حتى يقضى على الرق فى المستقبل .

فنحن إذن أمام بيئة محافظة تحرص على التمسك بعرفها القديم وتدافع عنه وتستميت فى هذا الدفاع حفاظاً على كيانها .

أثر العصبية فى المجتمع العربى من الناحية السياسية

إذا كانت العصبية ذات أثر شديد من الناحية الاجتماعية فى حفظ التوازن بين الجماعات القبلية التى يتألف منها المجتمع العربى وفى إقامة الروابط بينها ، وفى دفع الناس بعضهم ببعض ، وصيانة حقوقهم وكرامتهم بل وحياتهم ، فإن هذه العصبية الضيقة قد حالت دون تكوين مجتمع واحد كبير تصهر فيه جميع الوحدات القبلية ، بل إنها على العكس من ذلك أوجدت مجتمعات صغيرة لكل منها كيانه السياسى

الخاص ، فغاية ما فكر فيه العصبي الجاهلي من الناحية السياسية أنه إنسان ينتمي إلى قحطان أو عدنان ، وذلك إذا تساهلنا وقلنا إن مصطلحي «قحطان وعدنان» ظهرا قبل الإسلام . بل حتى في صدر الإسلام كانت هذه النظرة الجاهلية الضيقة التي حاربها الإسلام لا تزال مستحوذة على عقلية أكثر الناس وقد عمل بها حتى رجال الدولة الذين كان من واجبهم محاربتها ومقاومتها . وذلك لأغراض سياسية ، وكان من نتائجها إضعاف القومية العربية واستغلال قحطان وعدنان لإسقاطهما على السواء . أما الأحلاف القبلية فلم تكن غايتها قومية بعيدة وإنما كانت لمنافع ومصالح ذات أهداف ضيقة .

وكذلك ساعدت العصبية الضيقة على عدم الاستقرار ؛ لكثرة الأطراف وحتمية التنازع بينها نظراً لظروف البيئة العربية من الناحية الطبيعية والاقتصادية ، وقد أدى التنافس والخلافات بين القبائل إلى الانزلاق في كثير من الأحيان إلى مستوى المنافسات التافهة ، الأمر الذي أدى إلى الشعور بعدم الرضا ، وأوجد الرغبة لدى العقلاء وأصحاب الرأي إلى ضرورة توجيه العصبية توجيها قوميا ودينيا . وقد أحس المجتمع العربي بهذه الضرورة إحساسا واضحا قبيل ظهور الإسلام ، وما إقرار هدنة الأشهر الحرام ومنع القتال فيها وإقرار الأمن ، وكذلك الاتجاه نحو كثرة المحالفات وقيام الكتل الكبرى ، ومحاولة رد العرب أنسابهم إلى أصل واحد أو أصلين كبيرين ، إلا ظاهرة من ظواهر هذا الإحساس الذي أحس به المجتمع العربي كضرورة اجتماعية وسياسية ، وكان ظهور الإسلام آخر الأمر متوجاً لهذا الإحساس العربي .

النسب

إذا كانت القبيلة العربية قد اتخذت العصبية دستور حياتها ، فإن هذه العصبية إنما هى ثمرة للنسب ، فالعصبية آتية من فكرة القرابة وصلة النسب الحقيقى أو ما يجرى مجراه من حلف أو ولاء أو جوار . وهذا المعنى هو الذى نعقد لإبرازه هذا العنوان . وقد كتب ابن خلدون فصولا إضافية عن العصبية واتخذ النسب وصلة الدم أو مايقوم مقامه أساساً لها . وقد أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم» بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذى يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة . وما فوق ذلك مستغنى عنه (١) .

ولقد كان أفراد القبيلة يعتقدون أنهم أفراد أسرة واحدة توالدت من أب واحد . بل ردوا أصول القبائل كلها إلى أب واحد وعنه نشأت هذه المجاميع الهائلة . ولكن بعض المؤرخين يشك كثيراً فى نسب القبائل ، فإنه ليس من السهل معرفة الجد الأول لأسرة تتوالد منذ مئات السنين ، وهم لم يخرجوا بعد عن عهد الفطرة ، بل ذهب بعض المؤرخين إلى أكثر من ذلك ، وتساءلوا هل ترجع العصبية حقيقة إلى أسرة أم إلى شيء آخر ؟

وقد تناول هذا الموضوع المؤرخ الإنجليزى «روبرتسون سميث « Robertson Smith » فى كتابه : « Kinship and Marriage in Early Arabia » الذى يعد نموذجا للبحث العلمى بالطريقة المستقصاة .

---

(١) عن العصبية والنسب : أنظر مقدمة ابن خلدون من ١٤٥ — ١٥٢ .

وتتلخص نظريته فى أن القبيلة ليست أسرة ، بل إنها خليط من الناس كـكل الجماعات الأخرى ، لا يربطها رابطة النسب ، بل رابطة الصلة والتضامن ، ثم رابطة الديانة الفطرية التى تسمى طوطمية Totemism وهذه الديانة عبارة عن مرحلة من مراحل الاعتقادات الفطرية توجد فى المجتمعات الأولية « Primitive Societies » ولا تزال موجودة عند القبائل التى لم تتحضر فى أفريقيا وآسيا وأمريكا . وقد وجدت عند الأمم القديمة كاليونان والرومان واليهود وربما عند المصريين (١) .

وكان هذا الطوطم « Totem » . حيوناً أو نباتاً أو جماداً . تعبده القبيلة وتعتقد أنها تناسلت منه بشكل خفى غامض ، وأن دمه يجرى فى عروقها ويقول هذا المؤرخ سميت ويقول، إن هناك ثلاثة شروط أساسية لوجود الطوطمية Totemism (٢) :

١ — أن توجد قبائل ذات أسماء حيوانية أو نباتية أو جمادية .

٢ — أن تعتقد هذه القبائل تناسلها من هذه الكائنات .

٣ — أن تعبد هذه الكائنات .

ويقول إن هذه الأدلة متوفرة فى المجتمع العربى القديم : فبنو كلب وبنو نمر وبنو أسد أسماء حيوانية ، وبنو حنظلة اسم نباتى ، وبنو صخر وبنو جندل اسمان جماديان . أما الشرط الثانى الذى يدل على التناسل فهو الكُنية الموجودة فى اسم القبيلة «بنى» فقبيلة كلب وقبيلة أسد مثلا تقول إنهم بنو كلب وبنو أسد ، وهذا راجع لاعتقادهم أن القبيلة من

(١) (أنظر) : Smith, p. 217-251

(٢) Op. Cit. p. 219

أصل واحد(١) . وأما الشرط الثالث فإنه وُجِد فى المجتمع العربى القديم قبائل كانت تقدس حيوانات أو نباتات ، ومعنى التقديس هنا هو أن يحرموا ذبح ذلك الحيوان أو النبات ويمنعوا أكله ، وإذا مات الحيوان فإنهم يحتفلون بدفنه عند موته . ومن معبودات العرب القدماء يغوث وكان على صورة أسد(٢) ، ونسر وكان على صورة نسر(٣) ، كذلك كانوا يعتقدون فى العُزّى تحل فى ثلاث شجرات ، فلما ظهر الإسلام أمر النبى بهدم معبد العزى وبقطع الشجرات .

كذلك كانت القبيلة العربية تعتقد أن دمها مقدس يجب المحافظة عليه ، مما يدل على اعتقادها بأنها متناسلة من معبودها ، ولذلك فإن أى قتل من القبيلة يعتبر اعتداء على القرابة الروحية التى تربط القبيلة بعضها ببعض ، ومن هنا تتضح قوة الثأر عند العرب القدماء . كذلك كان لا يدخل فى القبيلة أجنبى إلا بعد إجراءات وطقوس للعمل على امتزاج دم هذا الأجنبى بالقبيلة نفسها .

وإذا ناقشنا نظرية سميث رأينا أنها لم تطبق تطبيقاً صحيحاً على المجتمع العربى ، فإنه حقيقة توجد قبائل لها أسماء حيوان أو نبات أو جماد ، لكن هذه الأسماء أسماء أشخاص وليست أسماء رموز أو طواطم ، فإن القبائل التى تسمت بهذه الأسماء لم تعتقد بانحدارها عن حيوان أو نبات أو جماد ، فبنو أسد مثلا يعتقدون أنهم من نسل رجل يسمى

---

(١) op. cit. p. 223-224

(٢ ، ٣) ليس عند ابن الكلبى ما يشير إلى أن يغوث كان على صورة أسد أو أن نسرا كان على صورة النسر وإنما هو يذكر أنهما ، وودا وسوعاً ويعوق ، كانوا على صورة الناس (الأصنام ٥١) . وأن يغوث كانت تعبده مذحج ونسرا كانت تعبده حمير (نفسه ٢٥) .

«أسد» وليس من نسل الأسد الحيوان أو الأسد الرمز الإلهى «الطوطم» ، فقد ردوا «أسد» نفسه إلى أب وإلى جد أعلى ، ولم يعتبروه جدا إلا لهذه القبيلة التى هى فرع من أصل كبير مردود إلى أب أعلى معروف بإنسانيته . وكذلك الحال فى بنى فهد وبنى حنظل وبنى صخر وغيرهم . وهذه الأسماء مشهورة متعددة عند العرب وليست أسماء آلهة ، كما أن هذه القبائل لم تعبد آلهة بهذه الأسماء بل لا يوجد من الأصنام العربية من هو بهذه الأسماء ، وإذا كان «سميث» قد أشار إلى يغوث على أنه كان على صورة الأسد أو إلى نسر على أنه كان على صورة النسر ، فإن ابن الكلبي لا يصفها بهذه الصفات وإنما وصفها بأنها على صورة الآدميين ، كما أن بنى أسد لم يعبدوا «يغوث» ولم يوجد من يسمى بنو نسر . هذا إلى أن تقديس العرب لبعض الأشجار أو الأصنام لم يستتبعه انتسابهم لها ، كما أن عبادة الحيوان أو الطير لم تكن موجودة فى بلاد العرب ولم يقدس العرب حيوانا أو طيرا فيحمونه ويحتفلون بدفنه كما هو الحال عند غيرهم . أما رابطة العصبية فقد دعت إليها ظروف المجتمع القبلى وحاجة الناس فيه إلى التضامن الشديد حفظا لدمائهم وأموالهم ، فى مجتمع لا توجد فيه حكومة مركزية تقيم القانون وتحمى الحقوق . وغاية ما فى الأمر أنه وجدت آثار تشبه ما لهذا النظام الطوطمى فى بلاد العرب ، وليس ببعيد أن يكون هذا النظام قد مر فى طور من أطوار بعض القبائل ، إلا أنه لم يرتبط بأنساب العرب إطلاقا .

وهناك مسألة أخرى تتصل بهذا الموضوع ، وهى أنه كان فى القبائل العربية ما يعرف بالخؤولة والعمومة ، والأولى هى القرابة من ناحية

الأم ، والثانية هى القرابة من ناحية الأب . ولقد كان للخؤولة شأن جليل فى العصر الجاهلى بخلاف ما كان لها فى الإسلام . ومسألة الخؤولة رابطة يردها «سميث» إلى الطوطمية فيقول : إن نظرية الطوطمية فى المجتمعات العربية القديمة تحرم الزواج من داخل القبيلة نفسها ، أى أن الإنسان لا يتزوج من قبيلته ، بل يتزوج من خارجها . ولقد كانت المرأة تمكث فى قبيلتها ، ولذلك نجد أن الطفل ينشأ فيجد نفسه بين أخواله ومن هنا كانت القبيلة تتعصب لزوج المرأة ، والأولاد يتعصب لهم أخوالهم : ولما انتقلت الزوجة إلى قبيلة زوجها أصبح الأولاد يفخرون بأخوالهم عند اللزوم . ومع تقدم المجتمع انتقلت المرأة إلى قبيلة زوجها ، وتخلفت عن ذلك ذكريات هى الأصل فى الفخر بالخؤولة والتعصب لها . إنما أخذت تظهر قوة العمومة نتيجة لوجود الزوجة بقبيلة زوجها . ولقد أدى ذلك إلى أنه بعد أن كان الزوج ضعيفا بالنسبة لزوجته أصبح سيدا عليها ، وارتفع شأن العمومة لدى الأولاد الناشئين(١) .

ولكن نظرة إلى أنساب العرب تنقض هذا القول ، فإن العرب ذكروا نسب المرء لأمه كما ذكروه لأبيه ، ونجد زواجا كثيرا وقع بين الأقارب والقريبات من بنات العم ، وليس هذا فى الجاهلية القريبة فحسب : وإنما هو موجود فى الجاهلية البعيدة ؛ الأمر الذى ينقض نظرية الطوطمية فى هذا الموضوع . ثم إن العرب لم يكونوا يتجافون عن زواج القريبات تحت تأثير الفكرة الطوطمية ، وإنما كان ذلك تحت تأثير فكرة الوراثة التى تقول أن التزاوج بين الأقارب يورث الأولاد أضعف صفات النوع .

---

(١) Geralp de Gaury, Rulers of Mecca, p. 25. Smith, p. 92

قال الشاعر العربى :

تجاوزتُ بنت العم وهى حبيبة   مخافة أن تُضْوى على وليدى

على أن التصنيف المعروف للقبائل العربية هو حاصل عرف جرى عليه النسابون . ونحن لا نعرف تدويناً للأنساب عند أهل الجاهلية ، وإن عرفنا أُناسا اشتهروا بمعرفة النسب فى الجاهلية وفى أول الإسلام من أمثال أبى بكر الصديق وغيره . وإنما نعرف أن أول تدوين رسمى هو التدوين الذى تم فى زمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب حين وضع ديوان الجيش ، وظهرت الحاجة إلى تسجيل القبائل فسجلت ؛ ولم تصل إلينا – ويا للأسف – سجلات هذا الديوان ؛ ولم يصرح أحد من النسابين أنه أخذ مادة أنسابه من تلك السجلات . وإنما الذى بين أيدينا هو خلاصة وجهة نظر النسابين فى أنساب القبائل ؛ وعلى هذا التقسيم اعتمد المعنيون بهذا الموضوع .

على أن أمر تقدير النسب فى حد ذاته أمر بالغ غاية الصعوبة ، وذلك لما يعرض له من التداخل ، نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت تحياها القبائل العربية . فلم يكن المجتمع العربى من التحاجز والتباعد بحيث تعيش كل قبيلة منفصلة عن غيرها فى إطارها الخاص وفى جوها المتميز ، لا يكاد يكون بينها وبين غيرها إلا الغارات أو الحذر من الغارات ، وإنما كان هناك حركة دائمة تسوق هذه القبائل وتقارب بينها ، فإن القبائل كانت متصلة متداخلة ، وكانت كذلك متحركة متقلقلة ، لا تكاد تتخذ شكلا معينا حتى يعرض لها من ضرورات الصلة ومصالح الجوار ومؤالفة المجتمع ما يضطرها إلى أن تنصهر أو تندغم فى قالب جديد ، فكثيرا ما كانت بطون من

القبائل تضطرها الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية إلى أن تفارق قبائلها وتتصل بقبائل أخرى عن طريق الحلف أو الجوار ، ثم لا تلبث أن تندمج فيها وتنتسب إليها ، ثم قد يطرأ لها ما يجعلها تخرج عنها إلى أخرى فتعدل نسبها إليها(١) ، كذلك كان يحدث أن تهاجر بعض البطون من قبائل متعددة ثم تلتقى فى مكان واحد فيجمعها الجوار وتربط بينها المصلحة المشتركة ، وقد يكون بعضها من الشمال وبعضها من الجنوب ، ثم يقع بينها الحلف فتصبح قبيلة واحدة ، قد تتخذ اسمها من المكان أو الإقامة أو التجمع ، كما تكونت قبيلة تنوخ على أطراف العراق(٢) . وقد يختلط الأمر على النسابين حين تتشابه أسماء القبائل وتتعدد هجراتها فينسبون إلى الشمال قبائل من الجنوب ، وينسبون إلى الجنوب قبائل من الشمال ، ويقع لذلك بينهم كثير من الخلاف(٣) .

وكما كانت الحركة نشيطة بين القبائل ، كانت كذلك أشد نشاطاً بين الأفراد(٤) ، فلم تكن تبعية الأفراد للقبائل فى مثل الصرامة التى استقرت فى الأذهان ، ولم تكن نسبة الفرد إلى قبيلته هذه النسبة الحادة التى لا تعرف التحول ولا تستطيع الإفلات ، وإنما يبدو أنه كانت هناك حرية واسعة يستطيع معها الأفراد من قبيلة أن يغادروها إلى قبيلة أخرى ، فينزلون عليها وينتمون إليها ويبنون بنساء منها وتكون لهم هذه القبيلة مجتمعاً جديداً ، ويختلط بنوهم بنسبها ، وأكبر مثل

---

(١) الأغانى ٤/٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٢) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ص ١٢٤ .

(٣) ابن هشام ١/٥ — ١٢ ، الأغانى ٤/٣٠٣ — ٣٠٧ . القلقشندى نهاية الأرب عن بجيلة ص ١٧١ وعن خثعم ص ٢٤٣ . صبح الأعشى ١/٣٢٩ — ٣٣٠ . الروض ١/٦٠ .

(٤) ابن الأثير ١ — ٣٣٩ — ٣٤٣ .

لذلك شأن قبيلة بجيلة حين ولى عليهم الخليفة عمر « عرفجة بن هرثمة » فسألوه الإعفاء منه ، وقالوا هو فينا لصيق ، أى دخيل ، وطلبوا أن يولى عليهم جريراً بن عبد الله(١) ، فسأل عمر عن ذلك فقال عرفجة «صدقوا يا أمير المؤمنين ، أنا رجل من الأزد أصبت أدما فى قومى ولحقت بهم» فانظر كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم حتى رشح للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشائجه ، ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسى وعُدَّ منهم بكل وجه ومذهب(٢) وكذلك الحال فى أمر قيس بن مكشوح المرادى : إنما هو حليف لمراد(٣) وكان الحطيئة الشاعر إذا غضب على بنى عبس يقول أنا من ذُهْل ، وإذا غضب على ذهل قال أنا من بنى عبس(٤) . ولقد كانت المرأة تطلق من زوجها ، وهى حامل ، أو يموت عنها فتتزوج رجلا آخر فتلد مولودها فى بيته فيسمى به ، وكثير من قبائل العرب انتسبوا إلى حاضنهم وإلى رابهم (زوج أمهم)(٥) وكان من تبنى رجلا فى الجاهلية دعاه الناس إليه ، وورث ميراثه ، حتى جاء الإسلام وأنزل الله تعالى قوله «ادعوهم لآبائهم»(٦) .

وهكذا كان أمر تقرير الأنساب ، وبخاصة الأنساب البعيدة ، أمراً بالغ الصعوبة . على أن سلامة النسب وصراحته إنما تكون فى القبائل المتبدية أكثر منها فى القبائل التى تعيش فى مناطق الحضارة وتجاور

---

(١) الطبرى ٢/٦٤٦ .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ١٤٧ .
(٣) الروض ١/٣٩ .
(٤) الأغانى ٢/١٥٨ .
(٥) نفسه ٢/٥ - ٤ .
(٦) الروض ١/١٣ ، ١٦ البخارى ٥/٨٢ .

الأمم الأخرى ، وذلك لبعد القبائل المتبدية عن الاختلاط والتصاهر والانصهار . واعتبر ذلك من مضر فى قريش وكنانة وثقيف وأسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ؛ لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ، فكانت أنسابهم صريحة محفوظة ولم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب(١). هكذا يقرر ابن خلدون . وإن كان الاختلاط موجوداً فى مثل هذه الحالات بنسبة ضئيلة .

على أنه مهما يكن فى الأنساب من الشك — فإنه إذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد . لأنه لا معنى لكون الفرد من هؤلاء أو من هؤلاء إلا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم(٢) . وسواء أصحت الأنساب أم لم تصح ؛ فقد اعتنقها العرب ولاسيما متأخروهم . وبنوا عليها عصبيتهم وقد جاء الإسلام وكان قد تم اعتقاد العرب أنهم فى أنسابهم يرجعون إلى أصول ثلاثة : مضر . وربيعة . واليمن(٣) .

مهمة الدفاع لدى القبائل

١ — نظام الجندية وطبيعة الأعراب :

لقد طبعت حياة الصحراء العربى على الحرية المطلقة إلى أقصى حد . والنفرة من القيود ، وأصبح من طبع البدوى الذى ينتقل مع الكلأ والماء أن ينفر من الحضر . لأنه بطبيعته صار يكره الاستقرار فى مكان واحد ويمل منه ، وبديهى أن تؤثر هذه الطبيعة فى نظرته إلى السياسة . وفى طريقة حربه ؛ فهو مع كبير مهارته فى حروب العصابات المبنية على

---

(١) المقدمة ١٤٥ .
(٢) المقدمة ١٤٦ .
(٣) فجر الإسلام ص ٨ .

الكر والفر ، والتى مرن عليها فى حياة الصحراء التى طبعته بطابع الحذر والاستعداد دائماً ، والتى كانت الغارة والغزو السريع المفاجىء من طبيعة الحياة فيها ؛ فإنه لم يكن يستطيع المكوث فى الحرب صابرا حتى تنجلى عن نتيجة ؛ ولا يُظهر تعاونه مع بقية المحاربين على ما تقتضيه قوانين الجندية ونظمها ؛ ثم إنه لا يبالى بترك موقعه فى المعركة متى شاء ومتى ظن أن النصر قد تحقق ؛ ولو كان ذلك مخالفاً للأوامر الصادرة إليه من القيادة ؛ وما حدث فى موقعة أحد خير شاهد على ذلك . فإن الرماة الذين وضعهم النبى خلف جيش المسلمين ليحموا ظهره . وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم مهما كانت الظروف إلا بأمره ، ما كادوا يرون تقهقر جيش العدو حتى ظنوا أنه النصر وتركوا أماكنهم بالرغم من شدة الأوامر الصادرة إليهم ؛ وسببوا بذلك هزيمة للجيش .

ولما كان النظام العسكرى يتطلب تدريباً خاصاً ومعيشة فى ثكنة أو معسكرات وقتية للتدريب والتعليم أمداً ، والتثقيف فى كيفية استعمال الأسلحة ، وهو أمور لا يميل الأعرابى إليها : صار الأعرابى أقصر باعاً من الجندى النظامى فى الحروب الكبيرة المنظمة وأقل حيلة منه ، كما أن عدم احتماله صبر الحرب ، وعدم تقيده بأوامر رؤسائه إليه ، جعله يخسر بعد نصر ويفر بعد هجوم كما لم تدرك القيادات فى الجاهلية معنى إحكام الحصار والصبر عليه ، ولا معنى احتلال المدن بعد هزيمة الجيش المدافع ، فلم يدرك أبو سفيان بن حرب وهو على قيادة جيش قريش يوم أحد قيمة نصره ، فلم يدخل المدينة ويحتلها مع أن الفرصة كانت مؤاتية له بعد هزيمة المسلمين وتفكك جيشهم ، كما لم تستطع قريش وأحلافها الصبر على الحصار طويلا فى معركة

الخندق ، فتراجعت دون أن تحقق شيئاً . وكما أن البدوى يعمل فردياً ، كذلك كانت البطون تعمل فردية عند اشتباك القبائل ؛ فقد يرتد بطن من المعركة أو قد يتركها قبل أن تتم .

ولمحاربة هذه العادات عند العرب احتاج تدريبهم فى أيام النبى إلى استغلال العاطفة الدينية . فذخر القرآن بالآيات المنظمة للقتال ، وتفضيل التراص فى الحرب على الفردية «إن اللهَ يُحِبُّ الَّذِين يقَاتِلونَ فى سَبِيله صَفًّا كأَنهمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ» والمحذرة من عدم الصبر والهزيمة عند استمرار القتال ، كما توعد المخالفين للأوامر والفارين عند اللقاء بالعذاب الشديد ، كما نَدَّد بدُعاة الهزيمة والمتخاذلين الذين يعتذرون بشتى الأعذار عند رؤية العدو (١) . ولقد كانت الحروب التى وقعت فى أيام النبى وفى حروب الردة فرصة طيبة لتعويد العرب التنظيم الحربى وخوض المعارك الكبيرة ، وتدريب القادة ؛ حتى إذا ما اندفع العرب إلى المجال الخارجى أيام الفتوح بعد انتهاء حروب الردة ، كان الجندى العربى أكثر قدرة على القتال من عدوه الفارسى أو الرومى ، ذلك لأن خشونة البدو وروح المغامرة مع الحذر المتأصلة فيهم انضاف إليها التدريب والتنظيم ، فكانوا قوة ساحقة لم تستطع جيوش فارس والروم الوقوف فى وجهها .

٢ — الجيش عند القبائل :

لم يكن لدى القبائل جنود نظاميون مدربون ، وإنما كان كل فرد من رجال القبيلة ، متمكن وذى قدرة على القتال ، جندياً محارباً عليه

(١) آل عمران ١٣٩—١٧٠ ، النساء ٧١ — ٧٢ ، ١٠٤ ، التوبة ٣٥—٣٨ ، ٤١ ، ٩٤ ، الأنفال ٢ — ١٢ . النمل ٩٢ الفتح ١٦ ، الأحزاب ١٢ — ١٦ .

تلبية النداء حين يُدعى إلى الدفاع عن قبيلته أو لغزو قبيلة أخرى . وكانت العصبية تدعو العربي إلى الوقوف فى صفوف عشيرته إذا كانت القبيلة تقاتل قبيلة أخرى وفى صفوف قبيلته إذا كان هناك قتال تشترك فيه قبائل متعددة . هذا فى القبائل المتبدية . أما فى أماكن الحضارة والاستقرار كما هو الحال فى اليمن أو فى الحيرة أو عند الغساسنة ، فقد كانت المشيخات أو الإمارات تعتمد فى الدفاع أو الهجوم على قبائلها ؛ كما كان على القبائل أن تقدم للملك عددا معينا من الرجال للخدمة العسكرية ، كما هو الحال فى المنطقة الغربية الجنوبية (مملكة اليمن) أو فى مملكة الحيرة ، ومن هؤلاء يتألف الجيش النظامى للدولة وهو جيش دائم يستخدم فى السلم والحرب ، أما فى أيام الحروب فتشترك القبائل المتحالفة والمؤيدة للدولة كلها فى الحرب ، وقد حدث هذا فى أيام النبى كما حدث فى حروب الردة وكذلك فى الفتوح الإسلامية . ولقد كانت القبائل تقاتل تحت رايتها متساندة تحت إمرة رجال منها يخضعون للقيادة العامة .

على أن العرب قد عرفوا علم الحرب كما علمته دول الحضارة فى عصور الجاهلية العربية ؛ فقد كانت غسان على مقربة من الروم وكانت تدخل معهم فى الفرق المتطوعة على حالى الدفاع والهجوم ، وكذلك كان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يشاركون فى تكوين جيوشهم وفى حروبهم ، وكان للملك الحيرة فرقتان إحداهما هى الشهباء والأخرى عربية تحمل شعار الدولة الفارسية (الأسدان) وتسمى به « الدوسر »(١) . والعربى لا يحتاج إلى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط

(١) النويرى ١٥/٤٣٢ .

الفنون التى يحتاج إليها فى تعبئة الجيوش ، وللفطنة إلى المخاوف التى يتقيها فى مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة ، وقد تبين هذا فعلا فى موقعة ذى قار التى تغلب العرب على الفرس فيها(١) . وقد كان العرب فى هذه الموقعة أبرع قيادة وأخبر بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية ؛ فلم يغفلوا قط عن حيطة واجبة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية ؛ بعثوا الطلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم ، إلى ميمنة يتولاها بنو عجل ، وميسرة يتولاها بنو شيبان . وقلب تولته بطون من بكر بن وائل عليهم رئيسهم هانىء ابن مسعود . وحاولوا إفساد الموقف على العدو بضم بعض القبائل الموالية له ، وهى قبيلة إياد التى اتفقوا معها سرا على أن تنهزم عند اللقاء . ففرت فى الميعاد المتفق عليه . كما كانوا يتشاورون فى المواقف . وعرفوا كذلك نظام الكراديس والكمائن ، ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والأنفة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه بالروح المعنوية .

فالعرب قد برعوا فى حرب العصابات بالمرانة الطويلة ، ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم ، فلم يخسروا بذلك إحدى الطريقتين ، بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما فى موضعها ، فأضافوا سرعة العمل فى طريقة العصابات إلى إحكام التنظيم فى طريقة الجيوش . وكانوا يقاتلون بفنين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون ما يدعون . ومن المحقق أن قبائل العرب التى أقامت فى الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين إما بالقدوة أو التلقين أو التعليم المقصود .

---

(١) ابن الأثير ١/١٨٩ – ٢٩١ ، النويرى ١٥/٤٣٢ .

الوضع الاقتصادى

يتميز المجتمع العربى إلى بدو وحضر . والبدو سكان البادية ، وفى البادية يتميز نوعان من الأراضى : الأرض التى وإن كانت صحراوية رملية عديمة المطر فى الصيف إلى أنها فى الشتاء بعد فصل الأمطار القليلة كانت تغطى ، وبخاصة فى الوديان ، بالأعشاب الخضراء التى تعتبر مجالا طيبا لرعى الماشية من الماعز والضأن ، وبخاصة الجمال التى كان البدو يعتمدون عليها فى حياتهم ؛ ينتقلون عليها ويشربون ألبانها ويتغذون بلحومها وينتفعون بأوبارها وجلودها فى نسج ملابسهم وإقامة خيامهم . والأراضى الأكثر خصوبة والتى تتميز بوجود بعض الآبار والعيون بها حيث تنبت أشجار النخيل والشجيرات ذات الروائح العطرية . وكانت هذه الأراضى ملجأ أهل البادية فى الصيف ، حيث تجف الأعشاب ، فيجدون فيها الماء والغذاء لجمالهم ، والتمر لغذائهم .

من أجل ذلك اتسمت حياة البادية بالرحلة والتنقل . وكثر تشاحن القبائل للاستيلاء على قطعان الماشية وممتلكات الغير جزءاً من مقومات الحياة البدوية . وأصبح السلب والنهب لا يعد جريمة فى نظر البدوى سواء أكان ذلك غارة على واحة أو على قافلة . ومن هنا اتسمت حياة البادية سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية بالتقلقل الشديد ، كما اتسمت بالقسوة وموت العاطفة عند الأعراب الفقراء حتى ليقتلون أولادهم خشية الإملاق . كما قلت قيمة المرأة عن قيمة الرجل : وإن كانت تسهم فى الحياة العامة ، فتشارك الرجل فى حمل أعباء الحياة المدنية من القيام على المنزل وأعمال النسج والحياكة وإعداد الطعام ، إلا أنها أقل غَناء فى الحرب : وفى هذا الجو المتغلغل اعتبرت عالة وتبرم

بها الناس وعيلادها «وإذا بُشِّرَ أحدُهُم بالأُنثى ظلّ وجْهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظِيمٌ يَتوارَى من القوم من سُوءِ ما بُشِّرَ به أيُمْسِكُهُ على هُونٍ أم يَدُسُّهُ فى التُّرابِ ألاَ سَاءَ ما يَحْكُمُون»(١) وقد بلغ ببعضهم الأمر فعلا أن يدسها فى التُّراب ؛ فقد كان الجفاة من فقراء الأعراب يئدون بناتهم كراهية أن تشاركهم فى طعامهم ؛ لشدة الفقر أو كراهية أن تتعرض للسبى والمعرة فى حالة الضعف .

ثم الجهات الحضرية فى الواحات التى تكثر فيها الينابيع والأودية وتنمو فيها أشجار الفاكهة والنخيل والحبوب ، وفى المحطات التجارية التى كانت تقوم فيها القرى والمدن ، وتستقر الحياة معتمدة على نتاج الأرض أو ما تجلبه التجارة من الرزق .

ولفقر البادية وضآلة مواردها اضطر الأعرابى إلى التفتيش عن رزقه بالغزو ، ولهذا لاقت القرى والمواقع الخصبة خاصة عنتا شديدا من الأعراب ، الذين أصبحوا ذوى بأس شديد لتعودهم على مثل هذه الغارات وتخصصهم فى سرعة المباغتة والفرار ، ولما لم تكن هناك حكومات كبيرة تدفع الأذى عن المتحضرين وتكبح جماح البدو ، فقد اضطر هؤلاء إلى مصانعة القبائل البدوية بدفع الإتاوات لها مقابل عدم التحرش بهم ، ولحماية قطعانهم ومساكنهم ، ولتمرير قوافلهم آمنة من القبائل الطامعة فى الربح السهل عن طريق الغزو . وقد كانت هذه الإتاوات مصدر دخل ثابت لكثير من البدو فى كثير من الأحيان ، كما كان رؤساء القبائل القوية يفرضون أحيانا إتاوات على القبائل

---

(١) النحل ٥٨ ، ٥٩ .

الصغيرة الخاضعة لهم ، وكان هذا مصدراً من مصادر التذمر والحروب إذا اشتط بعضهم فى جمعها ، وقد كانت القبائل تدفعها مكرهة مقهورة حتى إذا وجدت فرصة أو ظروفا مناسبة تساعدها على التخلص من ذلك انتهزتها ولو عن طريق الاغتيال والقتل ، كما حدث لزهير بن جذيمة العبسى ، فقد كانت هوازن تدفع له إتاوة ، فلما عنف عليها فى جمعها ووجدت فرصة مناسبة تمكنت فيها منه قتلته(١) .

والمجتمع القبلى بوجه عام - من وجهة النظر الاقتصادية - مجتمع بسيط التكوين يتألف من طبقتين اقتصاديتين : طبقة أصحاب الأموال من التجار وأصحاب الإبل الذين تتركز فى أيديهم الثروة وتتحكم أموالهم فى الحياة الاقتصادية . وطبقة الفقراء الذين لم يستطيعوا المشاركة فى النشاط التجارى الجارف فى المدن ، والذين أوصدت طبيعة الحياة الرعوية فى مجتمع البادية أبواب الثراء فى وجوههم . وقد كانت الملكية تنقسم قسمين : ملكية ثابتة وهى الأراضى والدور . والأراضى فى الواحات الزراعية يملكها الأفراد ملكية خاصة ، أما أرض المراعى الصحراوية فملكيتها شائعة للقبيلة كلها ، أو هى للأقوى والأسبق عليها . وأما الدور فهى فى المدن ملكية ثابتة تباع وتكرى وتوهب ، وعند البدوى لا توجد المبانى وإنما تقوم الخيام ، وكل يملك خيمته التى ينقلها معه فى ترحاله . وملكية سائلة وهى إما حيوانية من جمال وماشية وأغنام ، وإما عروض تجارة ، وإما رقيق من رجال ونساء .

ويوجد فى المدن من يمتلك الأراضى والدور والماشية ومن له مال

---

(١) ابن الأثير ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨ .

للتجارة ورقيق ، وهؤلاء الأغنياء على درجات فى الثروة ، كما يوجد إلى جانبهم فقراء لا يملكون شيئاً . وفى البادية يوجد من يملك ألوف الإبل كما يوجد من لا يملك شيئا إلا خيمته وأحيانا لا يمتلكها . وعلى ذلك وجدت فى المجتمع العربى طبقتان اقتصاديتان ، غنية وفقيرة ، على درجات متفاوتة بين أفرادها فى كثرة الغنى وشدة الفقر .

وكانت الهوة الاقتصادية بين هاتين الطبقتين بعيدة الغور إلى حد كبير مما أدى إلى اختلال التوازن الاقتصادى بينهما اختلالا شديدا ، وهذا الاختلال الاقتصادى وقف منه القرآن الكريم موقفاً حاسما حين حمل حملة شعواء على طبقة المرابين المنتشرين فى المدن التجارية الذين زادوا بجشعهم فى عمق هذه الهوة بين الناس ، وحين توعد بالويل والعذاب أولئك التجار الذين كانوا يلجأون إلى الغش فى البيع والشراء ، وسماهم المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، وحين نعى على الأعراب قسوتهم وتحجر نفوسهم حتى ليئدون بناتهم ويقتلون أولادهم خشية الإملاق . كما حاول أن يضع حداً لهذا بما فرضه من الزكاة والصدقات والكفارات ، وما قرره من حقوق على الأغنياء للفقراء وبما نظمه من علاقات بين المتداينين.

وبقدر ما كان الفرق الاقتصادى بعيداً بين هاتين الطبقتين ، كان الفرق النفسى بينهما قريباً ، فقد كانت الطبقات الفقيرة تؤمن فى قرارة نفسها بأنها لا تقل شيئا عن الطبقات الغنية ، وإذا كانت الحياة قد أغدقت على غيرهم وحرمتهم فتلك خطيئة المجتمع الذى يعيشون فيه وليست خطيئتهم ، وماذا يملكون لتغيير حظهم فى الحياة فى مجتمع صحراوى موارد الرزق فيه محدودة ومجال العمل فيه ضيق ، إن تلك

القوافل التجارية التي تسيل بها شعاب الصحراء ؛ وهذه القطعان من الماشية التي يضيق بها حمى القبيلة ، كان من الممكن أن يكون لهم فيها نصيب لو أن المجتمع سار على قواعد عادلة غير القواعد التي يسير عليها.

على هذا النحو كان بعض الفقراء المتمردين على وضعهم الاقتصادى يتصورون مشكلتهم التي لم يجدوا لها حلا إلا بالفرار من مجتمعهم القبلى إلى الصحراء ، ليشقوا طريقهم فى الحياة معتمدين على قوتهم . وفى أعماق الصحراء الغامضة . وعلى مرتفعاتها الواعرة التي تستعصى على المطاردين ، على طول الطرق التجارية التي تسير بها القوافل المحملة بالأموال والأرزاق . وعلى مقربة من مواطن الخصب والثراء ومراكز النشاط التجارى فى الجزيرة العربية ، انتشرت عصابات الصعاليك ممن نفتهم ظروف الاقتصاد أو ظروف الاجتماع عن الحياة العامة : من مخلوعى القبائل وشذاذها ومن هجنائها وأغربتها ومن فقرائها المتمردين ليؤلفوا فيما بينهم . بعيداً عن المجتمع النظامى : مجتمعاً فوضوياً متمرداً يتخذ من الغزو والغارة والفتك وسائل للحياة . ومن السلب والنهب وقطع الطريق وسائل للعيش : مؤمناً بأن الحق للقوة : وأن الغاية تبرر الوسيلة . ومن الحق أن نسجل أن هذا المجتمع الفوضوى المتمرد لم يكن من حيث وسائله إلا صورة من المجتمع القبلى من حوله والذى كان يؤمن بالغزو وسيلة مشروعة من وسائل الحياة وأسلوبا معترفا به من أساليب العيش ، غاية ما فى الأمر أن هذه الحركة المتمردة (حركة الصعاليك) كانت حركة فردية . تتم خارج النطاق الجماعى الذى كانت القبائل تتصرف فى داخله ، فى حين كانت حركات القبائل حركات جماعية تتم فى داخل هذا النطاق . وقد انتشرت هذه العصابات

المتمردة فى أرجاء الصحراء وقد جمع بينها التشرد والفقر ، والتمرد على النظام القبلى وما كان يؤمن به من وحدة الدم ووحدة الجماعة ، والكفر بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى تسيطر على مجتمعات القبائل من حولهم(١) ، والإيمان بأن الأوضاع فى حاجة إلى ثورة تغير منها .

أسواق العرب

لكل قبيلة فائض من الثروات تحتاج إلى الاتجار به أو استبداله بما هى فى حاجة إليه ، ويتم ذلك فى الأسواق . وقد كان للعرب أسواق عامة يجتمعون فيها للبيع والشراء وتبادل المنافع ، وكانت هذه الأسواق تقوم فى أيام معينة من السنة ، كما كانت تعقد فى أماكن فسيحة يتوفر فيها الماء لسد حاجة المجتمعين . كما كانت تقوم بقرب المراكز الحضرية والتجارية ، وكان الأعراب يفدون إلى هذه الأسواق يعرضون سلع البادية ، وأحيانا يعرضون ما وصلت إليه أيديهم عن طريق الغارة على القوافل أو على المسافرين . وليتزودوا من هذه الأسواق بما يلزمهم من مئونة وملابس وغيرها

وكان أهم هذه الأسواق فى الحجاز سوق عكاظ . وكانت تقوم فى سهل منبسط بين مكة والطائف . وهى أذكر سوق وأعرفها فى الجزيرة العربية كلها ، وكانت سوقاً عظيمة يغشاها العرب من كافة أنحاء الجزيرة العربية ، وإن كانت قبائل مضر أكثر غشيانا لها من غيرها

(١) عن الصعاليك ، أنظر شوقى ضيف العصر الجاهلى ٣٧٥ — ٣٨٧ .

لوقوعها فى منطقتها(١) ، وقد ساعد على نمو هذه السوق قيامها فى الأشهر الحرم التى كان يحرم فيها القتال ويأمن الناس فيها على أموالهم وأنفسهم(٢) ، وقد حتمت الضرورات الاقتصادية أن تحاط الأسواق بما يضمن للناس الأمن فيها . وفى هذه السوق كانت تباع مختلف التجارات والسلع الثمينة التى كانت تحملها قوافل التجارة من الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وكان لتجار قريش فيها أكبر النصيب ، لقربها من مكة ، ولسيطرة مكة وخصوصا فى الخمسين سنة التى سبقت ظهور الإسلام على قوافل التجارة : وحتى البضائع المسروقة كانت تباع فى هذه السوق . ولذلك وفد إليها من سرق منهم أو انتهبوا للبحث عن بضائعهم المنهوبة أو المفقودة ، وقد عثروا فعلا على ما فقدوه يباع إلى الناس ، وكثيرا ما أدى عثور أصحاب الأموال على بضائعهم المسروقة إلى نزاع وإلى حروب بسبب الدماء التى سبقت سرقة المال وسلب القتيل(٣) .

وكذلك كانت توجد فى منطقة مكة سوق مجنة وذى المجاز ، ويقضى العرب فى هذه الأسواق حوائجهم ثم يرتحلون إلى مكة لحجهم (٤) . كما كانت توجد أسواق أخرى فى أنحاء شبه الجزيرة العربية منها دومة الجندل وصحار والشحر وعدن وصنعاء . وعدة أسواق أخرى محلية تأتيها القبائل للامتيار(٥) .

وقد كانت عكاظ ، كما قلنا ، أعظم هذه الأسواق وأشهرها

---

(١) أنظر عبد الوهاب غزام : موقع عكاظ .

(٢) اليعوبى ١/٢٢٧ . (٣) الأغانى ١٩/١٠٥ .

(٤) اليعقوبى ١/٢٢٧ . (٥) نفسه . جواد ٤/٢٢٦ .

وطالما خرجت هذه السوق عن وظيفتها الأصلية التي يفهمها الإنسان من السوق ، وهي البيع والشراء ، إلى أمور أخرى لا علاقة لها بالسوق التجارية ، وهي المفاخرات والمباهاة والمسابقات في قول الشعر ، وافتداء الأسرى . وكثيرا ما كانت تعقد فيها مجالس الصلح والتحكيم بين القبائل فتحل المشاكل المعقدة . والناس مطمئنون إلى حرمة الأشهر الحرم التي تنعقد فيها السوق . فهي مجتمعات سياسية ذات أهمية ، ومؤتمرات تقرر فيها كثير من الأمور التي لها صلة بسياسة القبائل وبصلاتها بعضها ببعض . كما كانت القبائل تعلن فيها تبرءها ممن تخلعهم لجرائم ارتكبوها وأعمال أتوها لم ترض عنها ، ليعرف الناس ذلك فلا يؤاخذوها على جرائم يقترفها هؤلاء الخلعاء (١) . وفي عكاظ كانت تحمل الديون والإتاوات إلى أصحابها . فيذكرون مثلا أن هوازن كانت تحمل إتاوتها إلى عكاظ لتدفعها إلى زهير بن جذيمة العبسي (٢) . وأن حيًّا من الأزد كان يحمل إتاوته إلى عبد الله بن جعد (٣) على أن من العرب ، وبخاصة الخلعاء والصعاليك . من لم يرع حرمة الأشهر الحرم وكان يغشى هذه الأسواق يلتمس الرزق السهل . بسلب الناس والاعتداء عليهم عند قدومهم إلى السوق أو ارتحالهم منها ؛ ومنهم من كان يجرؤ على السلب والنهب حتى في عكاظ نفسها (٤) . كما لم ينج موقع عكاظ من الحروب ، فوقعت فيه عدة أيام أهمها حرب الفجار ، ولا يمكن أن ينجو مثل هذا المكان من الفتن والمعارك

---

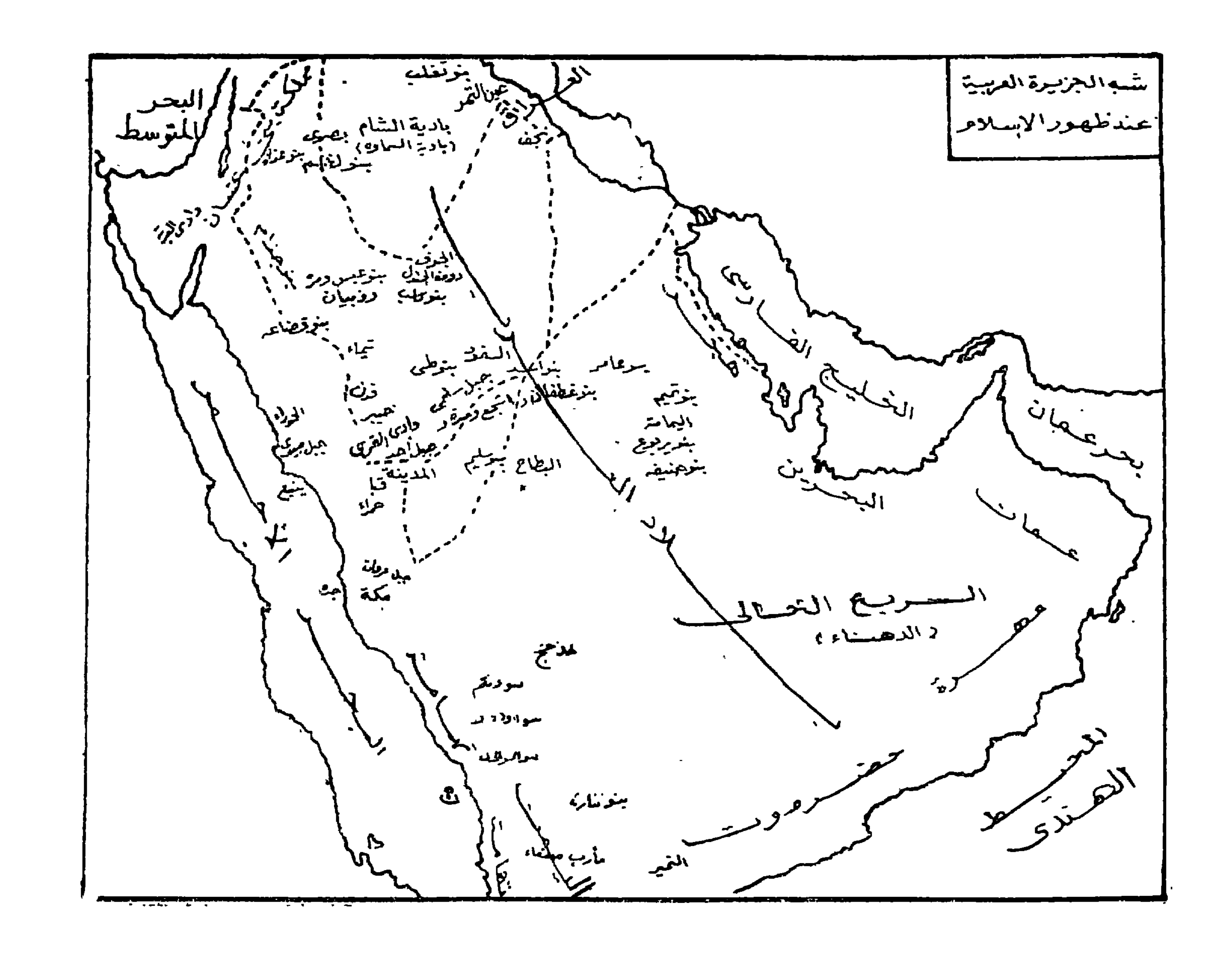
(١) نفسه ٤/٢٢٣ — ٢٥٥ .
(٢) الأغاني ١٠/١١ . ابن الأثير ١/٣٣٧ . العقد الفريد ١/٩٣٥ .
(٣) الأغاني ٥/٢٤ .
(٤) اليعقوبي ١/٢١٧ . جواد ٤/٢٢٥ .

وهو محل يجتمع فيه الناس من مختلف القبائل والعشائر ، ومنهم الخصوم والأعداء والقتلة والسفاكون .

وكما كانت عكاظ مجالا للنشاط الاقتصادى والاجتماعى ، كذلك كانت مجالا لتبادل الأفكار وتصفية اللغة وتوحيدها : فقد كان يأتى إلى هذه السوق الشعراء والخطباء والحكماء ، يعرضون شعرهم ويخطبون ويتساجلون . ويلقى الحكماء بحكمهم . وكان كل صاحب رأى وفكرة يجد فى مجالها فرصة لعرض رأيه أو الدعاية لفكرته . وكان بعض المبشرين يغشون هذه السوق وغيرها للدعاية لدياناتهم . فكانت فى الحقيقة منتدى عاما يحوى كل نواحى النشاط الإنسانى فى الجزيرة العربية من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية .

وتدل كثرة هذه الأسواق ، وتدل الحاجة إلى تنظيمها فى كل مناطق الجزيرة العربية ، ويدل النشاط المتنوع الذى كانت تقوم به هذه الأسواق على أن الثروات القبلية كانت قد استطاعت أن تنظم لنفسها نطاقا أكبر من النطاق القبلى ؛ بل سنرى فيما بعد أنها استطاعت أن تنظم نشاطها على نطاق دولى .

* * *



شبه الجزيرة العربية
عند ظهور الإسلام
البحر المتوسط
بادية الشام
بنو تغلب
عين التمر
النجف
دومة الجندل
تيماء
المدينة
مكة
ينبع
الحوراء
البحرين
الخليج الفارسي
بحر عمان
عمان
الربع الخالي
(الدهناء)
حضرموت
البحر الهندي
اليمامة
بنو تميم
بنو حنيفة
بنو عامر
بنو سليم
وادي القرى
جبل أحد
قبا
حراء
خيبر
فدك
مأرب
صنعاء

الباب الثاني

مدينة مكة

مكة قبل الإسلام

فى بداية القرن السادس الميلادى ، كانت مكة مدينة ذات كيان مالى وتجارى مستقل ، ومركزاً دينياً مرموقاً أقيم حول الكعبة التى كانت محط أنظار كثير من الحجاج الذين كانوا يؤمونها لزيارة البيت الحرام والتقرب للأصنام المنصوبة هناك . وكان أهل مكة قد أجروا الترتيبات المفصلة التى كانت تتضمن سلامة طرق الحج المؤدية إلى مدينتهم ، وبيع المؤن والتجهيزات للوافدين إليها ، وتكفل حفظ النظام ومراعاة الآداب العامة أثناء تأدية الشعائر الدينية عند الكعبة . ولما كانت العناية بالحج وتصريف المعاملات التجارية هما المهنتان الرئيسيتان عند أهل مكة ، فإن حياة البلد كانت تحت طبقة من المتنفذين الأكفاء ، رجال لم يؤمنوا بالعنف ، واعتمدوا على حل كل المشاكل بالطرق السلمية .

وظلت مكة مدينة ذات كيان مالى وسياسى مستقل ، لأن شبه الجزيرة العربية لم تقع فى يوم ما – بصورة فعالة – تحت حكم سلطة مركزية ، فإن تأثير البيئة الجغرافية كان يقف دائما فى وجه نمو الإشراف المركزى فى شبه الجزيرة العربية . وكانت الخصائص الأساسية لتلك البيئة ، هى العلاقات المزعزعة بين مجتمع متوطن يسوده الاستقرار وآخر لا يزال بدويا رحالا ، والتغلغل المتداخل بين ذينك المجتمعين . فإن الجماعات التى تم استيطانها تتأثر – إلى حد كبير –

بما يحدث لجيرانها من البدو الرحل ، وقد انحدرت هذه الجماعات المستوطنة - عادة - من تلك القبائل الرحل التى رأت أن تستوطن يوما ما وكانت بعد أن تستوطن بصفة تجار أو مزارعين تحاول فرض سيطرتها على جيرانها من القبائل المتبدية - بالقوة أو الاستمالة - محاولة منها اتخاذ بعض الإجراءات لحفظ السلم والأمن ، وربما نجحت فى ذلك أحيانا .

ومن المهم أن نذكر أن البدو - وهم يستقرون ويستوطنون ويتخذون لهم نمطا جديداً من الحياة - كانوا يحتفظون بالكثير من عاداتهم القديمة ويتمسكون بها ، ولم يفارقهم حنينهم إلى حياتهم الصحراوية الأولى ، فتراهم يميلون إلى الخروج إلى الصحراء لممارسة الرياضة والترويح عن أنفسهم وأجسامهم ، كما يرسلون أبناءهم إلى البادية ليشبوا فى أحضانها وبين خيامها ، صيانة لهم من أوضار حياة المدن ، وكانت أحاديث الصحراء وأساطيرها تشغل أمسياتهم فى روايتها والتلذذ بسماعها .

ومكة مثل طيب لظاهرة التداخل هذه ، ولكى نفهم مركز مكة فى القرن السادس وعند ظهور الإسلام ، وهو الوقت الذى بلغت فيه مكة ذروة مجدها ، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار لا دور القبائل الرحل وبطونها فحسب ، بل ينبغى أن نلم بالعلاقات الخارجية للجزيرة العربية فإن الجزيرة العربية كانت تزود المناطق المجاورة لها بالمنتجات المرغوب فيها من حاصلات الجزيرة نفسها ، كما كانت موانيها حلقات اتصال للتجارة الدولية . والحركة التجارية قائمة على قدم وساق تروح وتغدو بين مناطق البحر المتوسط والشرق الهندى ، وذلك عبر الطرق التجارية التى تتخلل شبه الجزيرة العربية ، والكثير منها يخترق مكة . ومكة

نفسها وقعت فى دائرة التنازع الدولى الذى كان قائماً بين الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية ، وقد بُذلت محاولات من جانب الأحباش والروم للسيطرة عليها ، لكن رجال مكة ، الحريصين على موقف الحياد ، عارضوا كل تدخل فى شئونهم ، وكانوا يتعاملون مع رجال الدولة من الفرس ومن الروم على السواء كما كانوا يحذقون التعامل مع الأعراب من أهل البادية .

يشير العرف الإسلامى إلى العصر الذى ولد فيه النبى : ويدعوه «الجاهلية» . وكلمة «جاهلية» لا تعنى «عكس المعرفة» بل إنها تعنى بالأحرى «مخالفة القانون والتمرد» أو «الجهل بما هو أفضل» ، وهى كلمة إسلامية أطلقت على العصر الذى سبق الإسلام مباشرة والذى كانت تسوده حرية العصبية القبلية بما فيها من نزق وطيش وحمق واستجابة لداعى العصبية مهما تكن الأسباب والظروف ، فهى كلمة مأخوذة من الحمية العصبية . قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحـد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا(١)

وهى لذلك كلمة تعبر عن روح العصر بما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر . وقد استعملت كثيراً فى القرآن الكريم بهذا المعنى «وعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا وإِذَا خاطَبهُمْ الجَاهِلُونَ قالُوا سَلاَمًا(٢)» . «قالُوا أَتَتَّخِذُنَا هزواً قالَ أَعُوذُ باللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ(٣)» . «خُذْ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعرِضْ عن الجَاهِلِينَ(٤)» . وفى الحديث أن النبى قال لأبى ذر الغفارى وقد عيَّر

(١) معلقة عمرو بن كلثوم .

(٢) الفرقان ٦٣ .

(٣) البقرة ٦٧ .

(٤) الأعراف ١٩٩ .

رجلا بسواد أمه . «إنك امرؤ فيك جاهلية» والكلمة بهذا المعنى تقابل المثل الإسلامى الذى يتلخص فى كلمة «التقوى» .

وعلى كل من أراد أن ينظر لمهمة الرسول من وجهتها الصحيحة أن يتفهم بوضوح ما كانت عليه حالة مكة فى زمن النبى ، إذ بينما كانت رسالته توكيداً وتحديداً لما أمر به من سبقه من الأنبياء ليبلغوه إلى مختلف الأمم ، كانت من ناحية أخرى إحياء لدين إبراهيم ، وكان لبُّ رسالته — فوق كل شىء — خلق مجتمع يعبد الله ويسير فى طريق الخير والصلاح . وكان محمد يأمل أن يرى قومه — قبيلة قريش — ينقلبون جماعة تعيد للكعبة طهارتها الأُولى وصفاءها الفطرى . لكن ذلك لم يحدث إذ لم يستجب أهل مكة لدعوته .

وإنه لدليل على قوة تضامن ذوى القربى أن وقف الناس مع أقاربهم الذين غيروا دينهم وأسلموا ، على الرغم من عدم موافقتهم على ذلك . وأخيراً لم يتوسم محمد صلى الله عليه وسلم أملا فى أن تستجيب قريش لدعوته ، فهاجر إلى المدينة(١) .

---

(١) الإسلام الصراط المستقيم (كتب فصوله مجموعة من الأساتذة) . أنظر الفصل الثانى «الآراء والحركات فى التاريخ الإسلامى» (للمرحوم شفيق غربال) من ص ٦٢ — ٦٨ .

الفصل الأول

نشأة مكة

في منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام ، تقوم مكة في واد منبسط من أودية جبال السراة ؛ تحيط به الجبال الجرداء من كل جانب(١) وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ . يصله أحدها بطريق اليمن ، ويصله الثانى بطريق قريب من البحر الأحمر عند مرفأ جدة ، ويصله الثالث بالطريق المؤدى إلى فلسطين(٢) . ومكة مدينة قديمة ورد اسمها فى المصادر اليونانية والرومانية القديمة . فذكرها بطليموس الإسكندرى باسم «ماكورابا macoraba» (٣) ولكنها لابد أن تكون أقدم عهداً من هذا الجغرافى الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد(٤) فقد أشار المؤرخون الكلاسيكيون إلى وجود مواضع عدة فى القسم الغربى من الجزيرة العربية كانت ذات حرمة وقدسية فى أنظار العرب . وكانوا يقصدونها من أماكن بعيدة للتبرك بها ؛ ومع أن هؤلاء الكتاب لم يذكروا أسماء هذه الأماكن ، فإنه لا يستبعد أن تكون مكة فى جملة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ١٨/١٨٧ .

(٢) هيكل ، حياة محمد ٨٣ .

(٣) ياقوت ١٨/١٨١ . بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ١/٣٢ .

Ptolemy, Georgra ph. VI 7. 32. Gerald de Gaury, Rlers of Mecca. p. 24.

(٤) جواد على ، تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/١٨٨ .

هذه الأماكن التى قصدوها . وقد ذهب «أوغست ميلر» Auguat muller إلى أن المعبد الذى قال عنه ديودور الصقلى إنه معبد مشهور بين العرب، هو مكة(١) . ولما لم يُعثر حتى الآن على كتابات جاهلية تفصح عن اسم هذه المدينة القديمة ولا عن تاريخها البعيد ، فإنه من العسير معرفة تاريخ قيامها وتحديد الزمن الذى أصبح فيه هذا المكان بلداً ؛ وأكثر الظن أنه يرجع إلى ألوف من السنين مضت ؛ وإذا كان بدء سكنى هذا الوادى يرجع إلى أيام إبراهيم وإسماعيل ، فإن ذلك يعنى القرن التاسع عشر قبل الميلاد(٢) . والثابت أن واديها اتخذ من قبل أن تبنى موئلا لراحة رجال القوافل القادمة من الشمال والجنوب ، بسبب ما كان به من العيون ، فعلى طول الطرق التجارية عبر الصحراء وجدت بضعة أماكن مبعثرة اتخذها التجار المسافرون مؤئلا لراحتهم . وبالتدريج أصبحت منازل الراحة هذه مستودعات للتجارة . وصار بعضها مقاما للهياكل والمحاريب يتابع التاجر فى حمايتها تجارته ؛ ويلجأ الحاج إليها لالتماس العون منها . ووادى مكة إحدى هذه المحطات التى جعل منها رجال القوافل مضارب لخيامهم سواء منهم القادمون من اليمن إلى فلسطين أو القادمون من فلسطين إلى اليمن(٣) .

وإذا كان من الثابت — كما ورد فى القرآن الكريم — أن إبراهيم وإسماعيل قد أقاما البيت الحرام فى واديها ، فإنه من الراجح أن إسماعيل

---

(١) عن جواد على ٤/٥٠٤ .
A. Muller. Du Islsm I. 5. 30. هيكل ٩١
(٢) جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ١٨٨ .
(٣) هيكل ، حياة محمد ٨٤ .

هو أول من اتخذها مقاما وسكنا ، بعد أن كانت مجرد محلة للقوافل وسوقا لتبادل التجارة بين الآتين من الشمال والآتين من الجنوب .

وتجرى رواية الأخباريين إلى أن إبراهيم حمل زوجه هاجر وابنهما إسماعيل نحو الجنوب حتى وصل إلى هذا الوادى الذى كان مضرب خيام القوافل . ثم تركهما فيه وعاد من حيث أتى . بعد أن ترك لهما ما يتبلغان به من التمر والماء ؛ واتخذت هاجر لها عريشا إلى جوار ربوة حمراء بهذا الوادى - لعلها كانت مقدسة يتبرك بها رجال القوافل(١) - آوت إليه هى وابنها ؛ فلما نفد الماء وكادا يهلكان عطشا ذهبت تبحث عنه ، وفى خلال هذا البحث انفجرت عين زمزم ، فأقامت عليها وابنها . ترد عليهما القوافل فى رحلاتها فينالان من العيش ما يكفيهما . على أن زمزم التى تفجر ماؤها قد استهوت بعض القبائل للمقام على مقربة منها . وتجرى بعض الروايات بأن قبيلة جرهم اليمنية هى أولى القبائل التى أقامت ، وأنها أقامت بعد أن تفجرت زمزم(٢) . بينما تجرى رواية أخرى بأنها كانت موجودة قبل ذلك وكان معها حول مكة قوم من العماليق(٣) . ثم شب إسماعيل وتزوج فتاة جرهمية ولدت له أولاده . وفى هذا المكان أقام إبراهيم وابنه إسماعيل القواعد من البيت الحرام وجعله محجا للناس . وفى هذا المكان قامت مكة حول البيت ومنه أخذت اسمها . وقد فسر المؤرخون واللغويون العرب اسم مكة تفسيرات كثيرة لغوية وغير لغوية استنبطوها من مكانة الكعبة وقدسيتها فى نفوس العرب(٤) وهذه التفسيرات متأخرة بطبيعة الحال ؛ واسم مكة

---

(١) الازرق ١/٦ اليعقوبى ٣/١٦ ابن كثير ١/١٥٥ . الطبرى ١/١٧٨ .
(٢) ابن هشام ١/١٢٣ - ١٢٤ . (٣) الطبرى ١/١٧٩ - ٢/٣٧ .
(٤) ابن هشام ١/١٢٥ - ١٢٦ . الروض الانف ١/٨١ - ٨٢ .

سابق على هذه المفهومات . ولما كانت قبائل الجنوب هى أول من استعمر هذا الوادى فالأرجح أن اسمها أخذ من لغة الجنوب(١) مستنداً إلى البيت الحرام ، فمكة أو «مكرب» كما ذكرها بطليموس كلمة يمنية مكونة من «ملك» و «رب» وملك بمعنى بيت فتكون مكرب بمعنى «بيت الرب» أو بيت الإله ، ومن هذه الكلمة أخذت مكة أو بكة بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب . ويقول اۆرخ بروكلمان : إنها مأخوذة من كلمة «مقرب» العربية الجنوبية ومعناها الهيكل ، وفى التعليق على هذه الكلمة يقول صاحب الحاشية «لقد سمى القرآن مكة وبكة ، وبكة هى الوادى ومكة لغة أخرى ، ومنه «بعلبك» بمعنى وادى البعل ، وهذا أدل على مركز مكة ، لأن مكة فى واد غير ذى زرع . ثم إن «ماكورابا» - أو على الأصح «ماكارابا» حسب اللهجة الآرامية الشرقية لا السريانية الغربية - يصح أن تعنى الوادى العظيم أو وادى الرب ، ولعل بطليموس أخذ الاسم من طريق الآراميين»(٢) .

ويرتاب سير وليم موير Sir W. muir فى قصة ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز ويرى أنها من صنع اليهود ابتدعوها قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بينهم وبين العرب برابطة قرابة ، توجب على العرب حسن معاملة اليهود النازلين بينهم ، وتيسر لتجارة اليهود فى شبه الجزيرة(٣). ويستند إلى أنه لا صلة بين أوضاع العبادة فى العرب وبين دين إبراهيم ، لأنها وثنية مغرقة فى الوثنية وقد كان إبراهيم حنيفاً مسلماً .

---

(١) Gerald de Gaury, Ol. cit. p. 24.

(٢) بروكلمان ١/٣٢ .

(٣) W. Muir, Life of Mahomet and History of Islam V. I, p. cxci.

وهو إذ ينفى قصة ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز يقول بإمكان انتقال جماعة من أبنائهما بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب واتصالهم وإياهم بصلة النسب(١) . ويرد الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله على رأى موير بأن ما يسوقه من دليل لا يكفى لنفى واقعة تاريخية ؛ وأن وثنية العرب بعد موت إبراهيم وإسماعيل بقرون كثيرة لا تدل على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز وحين اشتركا فى بناء الكعبة ؛ على أنه لو وجدت وثنية يومئذ لما أيد ذلك رأى سير وليم موير ، فقد كان قوم إبراهيم وثنيين ولم ينجح فى تحويلهم ، فاذا لم ينجح فى تحويل العرب فلا بدع ولا عجب . ويرى هيكل أن المنطق يؤيد رواية التاريخ ، فإبراهيم الذى خرج من العراق فاراً بأهله إلى فلسطين ومصر ، رجل قد ألف الارتحال واجتياز الصحارى ؛ والطريق ما بين فلسطين ومكة كان مطروقاً من القوافل منذ أقدم العصور ، فلا محل إذن للريبة فى واقعة انعقد الاجماع على جملتها . وإذا جاز انتقال بعض أبناء إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز ، فكيف لا يكون جائزاً فى شأن الرجلين بالذات ؛ بل كيف لا يكون ثابتاً جازماً ورواية التاريخ تؤكده ، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم وتحدثت به بعض الكتب السماوية(٢) . على أن إبراهيم الذى خرج من العراق فاراً بدينه ضارباً فى الأرض إلى فلسطين ومصر ، ولم يجد استجابة بين كل الأقوام الذين ارتحل إلى أرضهم ، كان لابد يعلم أمر هذا الطريق التجارى المطروق وأمر المحطات التى تقوم عليه ، ولابد أن

---

(١) Muir, Ol. cit. P. cx, ocix.

(٢) هيكل ٨٩ - ٩٠ .

راودته فكرة التبشير بدينه بين القبائل الضاربة على جنبات هذا الطريق ، بعيداً عن مجال الحكومات القائمة وديانات شعوبها ومعابدها الوثنية العريقة ، وأنه لابد أن علم بأمر هذه المحطة التجارية المتوسطة والتي تلتقي عندها الطرق وتغشاها القوافل ، ولا شك أن الآية القرآنية «وإذْ بوَّأنا لإبرَاهيمَ مَكانَ البيت(١)» تشير فى ثناياها إلى هذا التفكير من إبراهيم ، وإلى إلهامه فكرة بناء البيت فى هذا المكان الذى من المحتمل أن يلقى فيه استجابة من المقيمين والغادين الرائحين . «وَطَهِّرْ بيتِىَ للطائفينَ والقائمينَ والرُّكَّع السجود . وأذنْ فى النَّاس بالحجِّ يأتوك رِجَالاً وعلى كلِّ ضامر يأتينَ منْ كلِّ فجٍّ عميق ، ليشهدُوا منافعَ لَهم ويذكُروا اسمَ اللهِ فى أيام مَعلومات(٢) . »

على أن إبراهيم لم يكن ليحمل زوجه وابنه إلى مكان قفر لا زرع فيه إلا لسبب واضح لديه محدد عنده ، وهو القيام بأمر العبادة عند هذا البيت الذى ينوى أن يقيمه لله ، والتبشير بهذا الدين الذى بعث به . وتشير الآية القرآنية «ربنا إنِّى أسكنتُ منْ ذُريتى بواد غير ذى زرْع عند بيتكَ المحرَم . ربَّنا ليُقيموا الصلاةَ فاجعل أفْئدةً من الناس إليهم وارزُقهم من الثمرات لعلَّهُم يشكرون»(٣) إلى ذلك فى صراحة واضحة ، كما تشير إلى ما يرتجيه إبراهيم لهذه المحلة التجارية من نمو وازدهار على مر الأيام ، نظرا لموقعها المتوسط ولحصانتها بالنسبة للنازل والمقيم . وإبراهيم الرحالة الخبير . لاشك كان عالما بقيمة المواقع وأهميتها لطول ما تمرس به من الرحلات والأسفار . ولقد كرر إبراهيم زيارته — كما تجرى الروايات — إلى زوجه وولده فى المكان . للاطمئنان

(١ ، ٢) الحج ٢٦ — ٢٨ .   (٣) إبراهيم ٣٧ .

على سلامة تقديره ، وليرقب نمو هذه النواة التى وضعها للإقامة فى هذا الوادى الحصين ، فلما اطمأن إلى أنها نبتت وامتدت جذورها ، تعاون هو وابنه على بناء البيت الحرام «وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعِدَ مِنَ البيتِ وإسماعيلُ رَبنا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العليمُ ، ربَّنا واجعلنا مُسلِمَيْنِ لَكَ ومِن ذُرِّيَّتِنا أمةً مِسلمةً لك وأَرِنا مناسِكَنا وَتُبْ علينا إنَّكَ أنتَ التوابُ الرَّحيمُ(١)» ولما شهد إبراهيم قيام البلد الذى كان يرجو قيامه حول البيت . واطمأن إلى أن عمله قد آتى ثماره : دعا ربه «رَبِّ أجعلْ هذَ البلدَ آمِنا واجنُبني وَبَنِى أن نعبُدَ الأَصنام(٢)» . وهكذا يمكن أن نتصور قيام مكة فى هذه البقعة على ما يمكن أن نستنتج من آيات القرآن وكما تجرى به الروايات .

استمرت جرهم تلى أمر البيت فترة من الزمن . وأبناء إسماعيل مع أخوالهم لا يرون أن ينازعوهم أمر البيت لخؤولتهم وقرابتهم(٣) : إلى أن قدمت قبيلة يمنية أخرى هاجرت من الجنوب فى الهجرة التى تفرقت بها قبائل الأزد مهاجرة نحو الشمال : بعد اضمحلال حالة اليمن وتهدم سد مأرب(٤) ، واستقر بطن من بطون الأزد حول مكة وعرف بقبيلة خزاعة ، واحتكت خزاعة بجرهم فتقاتلت القبيلتان وانتصرت خزاعة

(١) البقرة ١٢٧ — ١٢٨ .   (٢) إبراهيم ٣٥

(٣) ابن هشام ١/١٢٥ .

(٤) يشير القرآن إلى حادث السيول الجارفة التى اكتسحت السد فى أيام سبأ ، كما تشير النقوش إلى تهدم السد عدة مرات ، منها مرة فى سنة ٤٥٠ ميلادية (جواد ٣/١٥٦ — ١٥٧) ومرة سنة ٥٤٢ (جواد ٣/١٩٧ — ١٩٩ . والنقش المنشور بيهما) . ولعل قبائل الأزد هاجرت فى حوالى منتصف القرن الخامس أو ربما قبل ذلك .

ووليت أمر البيت ، وخرجت عن هذا الوادى جرهم ، كما خرج أبناء إسماعيل حيث تفرقوا حول مكة وفى تهامة(١) .

وقد بدأت مكة تتطور أيام خزاعة ، فقد عمل زعيم خزاعة «عمرو بن لحى» على تنشيط الحج إلى الكعبة ، بعد أن كان أمر مكة قد تدهور ، والحج إليها قد قل ، بسبب بغى جرهم واعتدائها على القوافل والتجار والحجاج الذين يمرون بمكة أو يفدون إليها للمتاجرة والحج(٢) ، وبعد إهمال بئر زمزم التى يسرت المقام فى هذا الوادى القفر ، فأخذ عمرو بن لحى يقيم موائد الطعام فى موسم الحج وييسر جلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة ، ونال بذلك منزلة كبيرة بين قومه وبين القبائل الضاربة حول مكة(٣) . ولما كانت قبائل العرب البعيدة لا تعرف شيئاً عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقد عمل عمرو ابن لحى على جلب الأصنام من الجهات الأخرى وإقامتها حول الكعبة ، حتى يرغب القبائل العربية ، وبخاصة قبائل الشمال ، فى الحج إلى بيت مكة للتقريب لأصنامها ، وقدطوع لعمرو بن لحى أن يُدخل على البيت هذه العبادة ، ذلك المركز الذى أشرنا إليه ، ويبدو أن الحنيفية كان قد ضعف أمرها حتى بين أبناء إسماعيل أنفسهم ، فقد ذكر اليعقوبى أن «إلياس بن مضر ، وقد شرف وبان فضله ، كان أول من أنكر على بنى إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم(٤)» . حتى وجد عمرو ابن لحى استجابة وموافقة لفعله بين القبائل العربية سواء منها البعيدة أو القريبة .

---

(١) الطبرى ١/١٨٧ . (٢) ابن هشام ١/١٢٥

(٣) ابن كثير ٢/١٨٧ .

(٤) اليعقوبى ١/١٥٨ ابن كثير ٢/١٨٧ .

وظلت خزاعة فترة طويلة من الزمن - قدرها بعضهم بخمسمائة سنة (١)- تلى أمر مكة وتقوم على سدانة البيت ، وتُعشر التجارة المارة بمكة ، وإن ظلت بعض مناصب الحج فى يد بطون كنانة التى تنتسب إلى إسماعيل والتى بقيت حول مكة(٢) .

وتاريخ مكة الحقيقى يبدأ من أيام قصى بن كلاب بن مرة القرشى الذى تولى أمر مكة حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى . أما ما قبل ذلك فليس لدينا ما نعتمد عليه فى إثباته أو نفيه غير روايات الأخباريين ، وهم إسلاميون أو مخضرمون ، والمدة بعيدة بينهم وبين هذه العهود ، بخلاف الأمر فى حال قصى وقبيلة قريش التى استقرت فى مكة ونهضت بها وجعلت منها مدينة ذات مركز اقتصادى ودينى وأدبى ممتاز ، وأصبحت فى عهدها تتمتع بتوجيه عربى عام فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع حين ظهر الإسلام ، وبين قصى وظهور الإسلام مدة لا تزيد على مائة وخمسين سنة ، وهى مدة كانت حال قريش فيها متصلة فى مكة ؛ ولا يمكن أن تنسى فيها الأحداث ، وبخاصة إذا قدرنا ما للذاكرة العربية من قوة ، وما لقيمة التمسك بالنسب ولحمة الدم من سلطان يجعل الناس يحتفظوا بذكر آبائهم والأحداث التى ارتبطت بهم ، وقد يعطون ذلك بعض المبالغة ، ولكنا على أى حال نستطيع من مختلف الروايات أن نصور الوضع تصويراً نقرب به كثيراً من الحقيقة إن لم نصل إليها .

قصى بن كلاب وعودة قريش إلى مكة :

وتجرى الرواية بأن أم قصى تزوجت برجل من بنى عذرة ، بعد وفاة كلاب بن مرة والد قصى ، وحملها العذرى إلى قبيلته فى بادية

---

(١) ابن كثير ٢/١٨٣ .   (٢) ابن هشام ١/١٣١ - ١٣٦ .

الشام ، وأخذت معها ابنها الطفل «زيد» الذى لقب «قصى» لبعده عن دار قومه ، حيث تربى فى حجر رابه حتى صار شابا ، ولما علم بحقيقة نسبه عاد إلى قومه ، واستقر بمكة ، وفيها أظهر من النشاط والتفوق ما جعله يصهر إلى زعيم حزاعة «حُلَيل بن حبسية» فيتزوج ابنته «حُبىّ»(١) ويكثر مال قصى وولده . ويعلو مركزه بمكة . ويقوى تبعاً لذلك طموحه ، فيرتب للاستيلاء على الحكم وسدانة البيت فى مكة .

وقد رتب لخطته ترتيباً يدل على قوة شخصية ودهاء . فإنه اتصل سراً بعشائر قريش وبطونها التى كانت متفرقة فى تهامة وحول مكة . فوحد كلمتها وجمعها حوله ، كما حالف بطون كنانة . ثم راسل أخاه لأمه «رَزَاح بن ربيعة بن حرام العذرى القضاعى» . ليمده إذا لزم الأمر . فلما تم له ذلك انتهز فرصة موت صهره الذى كان بيده سدانة الكعبة ، فاستولى على مفتاح البيت الحرام وأعلن أحقيته بولايته ، وعارضت خزاعة أن يكون لغيرها منصب من المناصب المتصلة بالبيت الحرام . فاستنفر قصى قريشاً وكنانة ، واستمد أخاه فقدم فيمن قدر عليه من قضاعة ، واستطاع قصى بمن معه أن يهزم خزاعة وحلفاءها من بنى بكر ، وأن يجليها عن مكة(٢) . كما استطاع أن يفرض سلطانه على بطون كنانة التى كانت تلى بعض طقوس الحج . وأنزل قريشاً مكة وقسمها بينهم ، فأقر له القوم جميعاً بالملك عليهم . واجتمعت مناصب مكة كلها فى يده(٣) .

---

(١) ابن هشام ١/١٣٠ .
(٢) الطبرى ٢/١٥ ابن هشام ١/١٣٠ - ١٣٦ .
(٣) ابن هشام ١/١٣٧ .

ويذهب بعض الأخباريين إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة ، إلى أن تولى قصى أمرها . ويعللون ذلك بأن جرهم وخزاعة لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله بيت غيره ، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم وإنما كانوا يذهبون إلى الحِل(١) . فلما تم الأمر لقصى جمع قريشاً واستقر بها فى الحرم وأمرها بألا تبرحه ليلا . وأنه لكى لا يثير شعور القبائل ضده أقام الموائد ومد الطعام على أبواب الطرق الموصلة لمكة فى موسم الحج . فلما تأكد من عدم الاعتراض على فعله ، بنى داره بمكة واتخذها مقرا لندوة قريش فعرفت بدار الندوة . يجتمع فيها كبراء مكة تحت إمرته للتشاور فى أمور بلدهم . وأمر قومه من قريش فبنوا دورهم بعد أن قسم البلد بينهم . فنزلت قريش كلها بالأبطح وهو وادى مكة ، خلا بنى محارب والحارث ابنى فهر وبنى تيم بن غالب وهو الأدرم وبنى عامر بن لؤى . فإنهم نزلوا الظواهر(٢) ومنذ ذلك التاريخ أخذت مكة فى طور التحضر والاستقرار والتنظيم فى شئون الحكم والاقتصاد . حتى أصبحت زعيمة الجزيرة العربية فى نهاية القرن السادس . هذا مجمل ما ذكره المؤرخون العرب وأصحاب الروايات عن نشأة مكة وعن قيامها كمدينة على يد قصى بن كلاب القرشى .

وكأنما يريد هؤلاء المؤرخون أن يقولوا إن مكة ظلت على بداوتها إلى أن اجتمع أمرها لقصى فى منتصف القرن الخامس الميلادى . على أن بعض المؤرخين الغربيين يتشككون فى وجود قصى نفسه(٣) ،

---

(١) اليعقوبى ١/١٩٧ . (٢) اليعقوبى ١/١٩٦ - ١٩٨ .

(٣) جواد على ٤/١٩٤ - ١٩٥ .

M. Watt, Mohamad ot Mecca p. 4.

Lammens, La Mecque a la veille de l'Hégire. p. 148-194.

يقول لامانس عن قصى إنه محارب أجنبى جاء من الشمال من السهوب المحيطة بسوريا .

ويرون أنه شخصية خيالية ابتدعها خيال الأخباريين الإسلاميين . وعلتهم فى ذلك أن ما يروون عنه يشبه ما يروى فى الأساطير عن الأشخاص الذين ينسب إليهم إنشاء المدن ، ويرفض البعض روايات المؤرخين العرب عن تجميع بطون قريش من تهامة وشعاب مكة ، ويرون أن قبيلة قريش التى حكمت مكة واستطاعت أن تنقلها من حال البداوة إلى هذه الحال التى تدزعم فيها الجزيرة العربية . وتنشىء لها من التنظيم السياسى والدينى والاقتصادى ما يكفل لها هذا التقدم ، وما يدل على معرفة كبيرة بشئون الحكم والاستقرار : لا يمكن أن تكون إحدى هذه القبائل المتبدية فى تهامة أو الحجاز ، وأنها لذلك لابد أن تكون قدمت من الشمال أو من بادية العراق بعد أن عرفت الاستقرار ، ونالت قسطاً كبيراً من التقدم والمعرفة بشئون الحكم ، ولا يستبعد أن تكون من بقايا النبطيين الذين حكموا فى الشمال وكان لهم دولة مزدهرة كانت تقوم على التجارة ، والذين تراجعوا نحو الجنوب بعد غزو الرومان لبلادهم (١) . وبخاصة وأن القرشيين قد برعوا فى التجارة إلى حد كبير ، كما أن لغتهم التى سادت وتفوقت على لهجات القبائل الأخرى كانت لهجتها أقرب إلى لهجات الشمال منها إلى لهجات الجنوب .

وليس من الممكن الموافقة على ما يقول به المؤرخون العرب . من أن مكة بقيت على بداوتها حتى اجتمع أمرها لقصى بن كلاب ، فهذا أمر عسير التصور أن تبقى بلد له ما لمكة وبيتها العتيق من القدسية ، فى حالة البادية . مع ما يثبته هؤلاء المؤرخين من أن البيت بقى بعد إسماعيل

---

(١) شوقى ضيف : العصر الجاهلى ٤٩ . Lammens, op. oit. p. 149

فى يد جرهم أخوال بنيه أجيالا متعاقبة أقاموها حوله ؛ ثم انتقال أمرها بعد ذلك لخزاعة . وهى قبيلة يمنية قدمت من بلاد عرفت الحضارة والاستقرار وشئون الحكم ، وهى حين وليت أمر مكة حاولت تنظيم الحج والتوسع فيه وإغراء القبائل العربية بالقدوم إلى مكة . ومع أن مكة كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيرة وإلى الشام ، وأنها اتصلت بتجارة العالم عن هذا الطريق وعن طريق البحر الأحمر . كما يشير هؤلاء المؤرخون إلى احترام التبابعة لمكة ؛ فيذكرون مثلا أن التبع أسعد أبا كرب الحميرى قدم مكة ووضع الكسوة على البيت الحرام(١) . عسير أن يتصور بقاء بلد له هذه المكانة من غير أن يدنيه اتصاله بالعالم من مراتب الحضارة(٢) . لذلك كان من الحق أن نقول إن مكة وقد دعاه إبراهيم بلداً ودعا الله أن يجعله آمنا مطمئنا ، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالا طويلة قبل قصى . ولقد أطلق القرآن الكريم على مكة اسم «أم القرى» (٣) ومعنى هذا أنها كانت عاصمة للمنطقة التى كانت فيها . ولا ريب أن هذه التسمية كانت جارية مألوفة قبل نزول القرآن . ومن إطلاق أم القرى على مكة يمكن أن يستدل على أنها كانت مدينة كبيرة ، كما أنها كانت تتمتع بمركز محترم وتوجيه عام من سائر الأنحاء حولها ؛ ولا يمكن أن يتم ذلك فى مدة وجيزة لا تتجاوز المائة عام . على أن الطبرى يشير إلى أن «قصى» حين قاتل خزاعة «أخذتها العدسة حتى كادت تفنيهم . فلما رأت ذلك جلت عن مكة . فمنهم من وهب مسكنه ومنهم من باع ومنهم من

---

(١) ابن هشام ١/٢٠— ٢١ . الأزرق ١/١٦٥ .

(٢) هيكل : حياة محمد ٩٢ — ٩٣ .

(٣) الشورى ٧ . القصص ٥٩ .

أسكن . فولى قصى البيت وأمر مكة والحكم بها . وجمع قبائل قريش فأنزلهم أبطح مكة وكان بعضهم فى الشعاب ورؤوس الجبال فقسم منازلهم بينهم(١) » وهذه الرواية التى ذكرها الطبرى تقطع مع ما ذكرنا بأن مكة كانت قائمة قبل مجىء قصى . ولعل ما دعا هؤلاء المؤرخين إلى هذا القول هو محاولتهم نسبة شرف إنشاء مدينة مكة إلى قصى القرشى الذى هو الجد الخامس للنبى . ولِمَا وَقَر فى الأذهان من تعظيم قريش والإشادة بفضلها . وبخاصة وأن هؤلاء المؤرخين والأخباريين مسلمون نشأوا فى ظل حكم قرشى .

وهذا القول نفسه هو الذى حدا بالمؤرخين الغربيين إلى التشكك فى روايات الأخباريين العرب وإلى التشكك فى وجود قصى نفسه . على أنه ليس من الصواب المغالاة فى هذا التشكك . فإن العهد بقصى ليس بعيداً . وليس من الحق نفى وجود شخصية تاريخية قامت بدور كبير فى حياة مكة . ومهما تكن المبالغة فى تصوير هذا الدور : فإن مائة وخمسين سنة ليست عهدا طويلا بحيث تدخل حوادثها وأشخاصها فى حيز الأساطير . وبخاصة إذا قدرنا قيمة الذاكرة العربية : ومقدار اهتمام الناس بأنسابهم وأعمال آبائهم فى تلك الأيام . على أن معالم الآثار قد بقيت فترة طويلة فى العصر الإسلامى . فقد بقيت دار الندوة — وهى دار قصى التى جعلها منتدى القبيلة — معروفة باسمها حتى حتى اشتراها معاوية بن أبى سفيان من صاحبها بمائة ألف درهم . وجعلهادار الإمارة بمكة . ثم أمر الخليفة المعتضد باللهالعباسى بهدمهاوإدخالها

---

(١) الطبرى ١٦/٢ .

فى المسجد الحرام .(١) أما القول بنسبة قريش إلى الشمال . فإنه مهما بدا معقولا من وجهة التدليل المنطقى . فإنه يفتقر إلى الدليل التاريخى ؛ فلا يوجد فى المصادر العربية القديمة ولافى غيرها ، ما يشير إلى هذه الهجرة الشمالية إلى وادى مكة والإقامة حوله ، فى الوقت الذى تؤكد فيه هذه المصادر . وجود بطون قريش حول مكة (٢) .

ونحن إذا تتبعنا جداول الأنساب وجدنا أن أمهات أجداد قصى من قبائل كانت تعيش فى منطقة مكة أو حولها . فأم كنانة من قيس عيلان . وأم مالك بن النضر من قيس عيلان كذلك . وأم فهر بن مالك ـ الذى هو قريش ـ من جرهم . وأبناء فهر أمهم ليلى بنت سعد ابن هذيل ، وأم لؤى بن غالب بن فهر هى سلمى بنت عمرو الخزاعى ، وأم مرة من كنانة ، وأم كلاب والد قصى هى بنت سرير بن ثعلبة الكنانى الذى كان أول من نسأ الشهر الحرام(٣) . فهذا التزاوج المتصل لا يكون إلا بالمجاورة . والمخالطة . الأمر الذى يقطع بوجود بطون قريش فى منطقة مكة ومخالطتهم للقبائل الضاربة حولها . قبل قصى بأجيال طويلة . على أن قريشا فرع من كنانة وقبائل كنانة مقيمة حول مكة لم تفارقها .

أما هذا التقدم الذى نالته مكة على يد قبيلة قريش . وأغرى

---

(١) عبد الحميد العبادى : صور من التاريخ الإسلامى (العصر العربى) ص ١٢ . ابن الأثير ٢/١٤ .

(٢) ابن هشام ١ / ١٠٣ وما بعدها . الطبرى ٢ / ٣٩ . ابن الأثير ٢/١٥ – ٢٣ . ابن كثير ٢/١٨٧ ، ٢٠٦ . اليعوبى ١/١٩٦ .

(٣) ابن هشام ١/١٠١ – ١١٦ ، السهيلى ١/٧٠ – ٧١ . ابن الأثير ٢/٢٢ . الطبرى ٢/١٩ – ٢٤ .

المؤرخين بهذا الفرض ، فإنه استمرار لحالة قدبدأت من قبل حكم قريش لمكة ، فقد بينا أن مكة لابد أن تكون قد أخذت بأسباب الاستقرار والتحضر قبل حكم قريش ، فى عهد خزاعة على الأقل ، وأن قريشا قدوجدت بداية سارت عليها.. على أن ما أقرته قريش من نوع الحكم والتنظيم فى مكة إنما هو فى جوهره تنظيم قبلى موجود فى تشكيل القبيلة العربية(١) ، ثم تطور تدريجياً بحسب مقتضيات ظروف الاستقرار فى مكة وبحسب اتصالات قريش الواسعة وقيامها على التجارة واحتكاكها بالعالم المتحضر . فافتراض أن قبيلة قريش قدمت من الشمال فى عهد النبط . افتراض لا يقوم على أى دليل تاريخى ، أما عن الدليل اللغوى وهو أن لغة قريش لغة شمالية فإن الشمال هنا يحدد بالنسبة لكل ما يقع شمال اليمن ؛ ولهجة الحجاز هى فى نظرنا اللهجة الشمالية مهما امتدت شمالا .

---

(١) انظر الباب الأول — الفصل الثانى من هذا البحث .

الفصل الثانى

حكومة مكة وسياستها الداخلية

تولى قصى حكم مكة طول حياته ، وجعل مركز هذا الحكم دار الندوة التى أنشأها . واهتم بعمارة البيت الحرام وجعل وظيفة السدانة من أهم الوظائف ، كما نظم سقاية الحاج إلى الكعبة فى موسم الحج ، وجعلها وظيفة ثابتة عرفت باسم «السقاية» وقد بقيت هذه الوظيفة من أجَل الوظائف فى مكة وذلك لطبيعة البلد وشح المياه بها ، ولأن كفالة الماء فى هذا البلد القفر الحار مما ييسر مهمة الحج ويجعل الإقبال عليه أمراً ميسورا . كما فرض على قريش خَرْجا تدفعه له يصنع به طعاما للحجاج فى موسم الحج ، وجعل هذا الفرض أمراً مقررا وجعل له وظيفة ثابتة عرفت باسم «الرفادة» ، كما كان له الرياسة العامة وله القيادة واللواء (١) .

وقد جمع قصى هذه الوظائف كلها فى يده . وظل طول حياته محترما مطاعا يرى الناس أمره فيهم كالدين المتبع : ولما مات خلفه بنوه على هذه المناصب وزادوا فيها إرضاء للبطون القرشية حتى وصلت إلى ست عشرة وظيفة(٢) .

---

(١) ابن هشام ١/١٣٧ ، ١٤١ - ١٤٢ الطبرى ٢/١٨ - ١٩ . ابن كثير ٢/٢٧ - ٢٩ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣/٣١٣ - ٣١٥ . الألوسى : بلوغ الأرب : ١/١٤٩ - ٢٠٠ .

أفكانت هذه المناصب كلها أو بعضها موجودة قبل قصى ، أم هو الذى استحدثها ؟ . لا نستطيع الجرى مع الأخباريين العرب فى أن «قصى» هو الذى أنشأ مكة واستحدث لها هذه المناصب كلها . فالواقع أن القرية المكية انتظمت منذ عهد عمرو بن لحى زعيم خزاعة . وقد دخلت فى طور النظام الاجتماعى بعد أن مرت بطور الاضطراب والحروب والرحلات والغزوات والقتال على السيادة(١) . وكان أساس الحياة فى هذا الوادى يقوم على قبول الهجرة من القبائل القادمة من الجنوب . وقد استمر النظام الحكومى قبل قصى عدة قرون . وكانت الوظائف الاجتماعية موجودة ؛ ولكنها كانت لا تزال فى حالة أولية . وبقى على «قصى» أن يكمل التشريع الذى بدأه عمرو بن لحى وبنوه . ويخلق الوظائف الحكومية ويشيد دار الندوة ؛ ويميز الحمس والدخيل والضيف واللاجىء . ومنذ كانت خزاعة حاكمة فى مكة ، كانت قريش فى بنى كنانة متفرقة (٢) . على أن التنظيم الحكومى فى مكة سواء فى عهد خزاعة أو فى عهد قصى إن هو إلا تنظيم قبلى فى جوهره ، وإن بدا نظاما جمهوريا من حيث أنه لم يكن الزعيم أو المتنفذ يلقب بالملك . وبالرغم من أن الحكم كان شوريا يخضع لرأى الجماعة ورقابتها ؛ فلا ينبغى أن نبالغ مبالغة «الأب لامانس Lammens» فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية(٣) ؛ فالواقع أنه مع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فى مكة فإن مجتمعها كان مجتمعاً قبلياً . فهو لا يعدو أن يكون اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض لغرض سدانة الكعبة من جهة . والقيام

---

(١) ابن هشام ١/١٢٣ - ١٢٩ . الطبرى ٢/٣٧ - ٣٨ ابن كثير ٢/١٨٥ - ١٩٠

(٢) ابن هشام ١/١٣٠ .

(٣) انظر : Lammens, La Republique Marchande de la Mecque .

على تجارة القوافل من جهة أخرى . ولا سلطان لعشيرة على أخرى بل كانت كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة مفروضة عليها لأحد . وكل ما فى الأمر أن اشتراكهم جميعا فى مصلحة واحدة خفف غلواء هذه الحرية . ولكنه تخفيف لم يخرج بقريش عن النظام المعروف فى الجاهلية ، ووجود مجلس الملأ فيها لا ينقض هذه الحقيقة ، فإن عمله لم يكن يعدو عمل مجالس القبائل . ولم يكن رأيه ملزما إلا حين توافق عليه العشائر كلها . ومع ذلك فإن العشائر كان يمكنها التخلص منه إذا رأت ذلك . فمثلا بنو زهرة تراجعت ولم تشارك فى معركة بدر برغم موافقتها وخروجها(١) . وكذلك بنو عدى لم تخرج إلى القتال برغم الإجماع عليه (٢) . كذلك كان الفرد يستطيع الخروج على هذه القرارات ولم تكن هناك عقوبة تفرض على الخارجين عليها . وعلى حين كان التضامن القبلى قائما ، كانت أحيانا تبرز النزعات الفردية . فبرغم أن الحياة التجارية فى مكة كانت تزيد من الترابط فى القبيلة ؛ فقد وجد من الأشخاص من يفضل مصلحته الذاتية على مصلحة القبيلة . وبرغم أن الأمن كان يتوقف على نظام العشيرة نجد أشخاصا يعملون ضد مصلحة العشيرة . فأبو لهب عم النبى خرج على إجماع العشيرة وانضم إلى باقى بطون قريش حين أجمعت على مقاطعة بنى هاشم(٣) . والعباس بن عبد المطلب برغم تضامنه مع عشيرته(٤) فإنه ظل على علاقته الودية مع باقى البطون القرشية حرصا على تجارته وأمواله(٥) وإلى جانب مجلس الشيوخ «الملأ» كان للعشائر أنديتها

(١ ، ٢) ابن هشام ٢/٢٥٨ . الواقدى : مغازى رسول الله ٣٠/ - ٣١ الطبرى ٢/١٤٣ .

(٣) ابن هشام ١/٢٨٢ . (٤) الطبرى ٢/١٥٩ .

(٥) ابن هشام ١/٢٣٧ .

التى تجتمع فيها حين تدعو الضرورة لمناقشة الأمور الخاصة بالعشيرة ، وكان يمكنها أن تتخذ قرارا يخالف رأى مجلس القبيلة : ومثال ذلك اجتماع بنى هاشم والمطلب للتشاور والاتفاق على حماية محمد ومواجهة قريش(١) .

وبالرغم من أن مجلس الشيوخ «الملأ» كان وسيلة الحكم فى مكة ، ينظم شئونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فإنه لم يخضع لقانون مكتوب وإنما كان ينظر فى هذه الشئون حسب قوانين العرف والعادة ، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد ، فكل فرد كان متمتعا بحريته مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة ؛ وهذا هو نفس النظام الذى كان سائدا فى القبيلة العربية فى كافة أنحاء شبه الجزيرة ؛ فللفرد حريته وللجماعة حقوقها التى لا تتناقض مع هذه الحرية . وعلى ذلك كانت القرارات الحاسمة فى «الملأ» هى القرارات الجماعية . ويرجع الفضل الأول فى قوة مكة إلى قوة زعمائها وقدرتهم على تكوين رأى عام ؛ وحل المنافسات الداخلية التى تنشأ بين العشائر على أساس المصلحة العامة : والمحافظة على وحدة القبيلة التى كانت تتطلبها ظروفها كقبيلة تجارية مستقرة فى بلد يعتمد فى حياته على التجارة وما تجلبه لأهله من وسائل الرزق ، كما يعتمد على قدسية البيت الحرام الذى يقوم فيه ويجلب إليه الحجاج من كافة أطراف الجزيرة العربية ، وما يترتب على ذلك من حصول القبيلة على مركز أدبى ممتاز بين القبائل ، ومن تجارة داخلية واسعة تدر على سكان البلد الحرام الرزق والثروة . وكان أى تفكك فى داخل المدينة يعرض مركز مكة للانهيار ، ولذلك

(١) نفسه ١/٢٨١

كان لابد أن يضع له أهله من الأنظمة والقوانين ما ينظم حياته ، ويقر الأمن فيه ويحفظ الحقوق ، ويضمن حماية من يفد إليه من الأذى ، لدوام مجيء الحجاج إليه . ولقد نجح ملأ قريش في المحافظة على تماسك القبيلة ، فاستطاعوا حل الخلافات الداخلية حلا سلميا ، مثال ذلك الخلاف بين المطيبين والأحلاف الذي أوشك أن يثير حرباً داخلية بين عشائر قريش(١) ، كما استطاعوا أن يرضوا شعور العشائر ويحدوا من تنافسها على السلطة بأن توسعوا في قاعدة الحكم ، فأنشأوا الوظائف وأسندوا لكل عشيرة وظيفة خاصة تمارسها في نطاق القبيلة ، ومع أن بعض هذه الوظائف لم يكن ذا قيمة إلا أنه أرضى شعور العشائر وأشعرها بمشاركتها وحفظ تماسك القبيلة .

ودار الندوة هي الدار التي بناها قصي بن كلاب ، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشآمية من الكعبة ، وكانت فسيحة وسيعة ، وفيها كانت قريش تقضي شئونها العامة وقد سميت الندوة لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر ندوا إليها للتشاور(٢) . والندوة الجماعة ، ودار الندوة دار الجماعة(٣) وأهم خصائص دار الندوة أنها كانت دار مشورة قريش . فيها يجتمع ملؤها للتشاور في أمورها ، ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بني قصي إلا ابن أربعين سنة ، في حين كان يدخلها بنو قصي وحلفاؤهم . على أنه كانت تقضي في دار الندوة أمور أخرى غير المشاورة . ففيها كانت قريش تعقد لواءها إذا خرجت للحرب ،

(١) ابن هشام ١/١٤٢ - ١٤٤ .
(٢) الأغاني ٤/٣٨٤ (الحاشية) . ياقوت ١٩/٢٧٩ .
(٣) الالوسي ١/٢٤٨ . ياقوت ٨/ ٤٢٣ ، ١٩/٢٧٩ .

ومن دار الندوة كانت ترحل قوافلها للتجارة ؛ وفي فنائها تحط هذه القوافل حمولتها إذا رجعت ، وإذا بلغ غلام لقريش عُذر «أى ختن» فيها . وإذا بلغت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها (أى قميصها) ثم درعها إياه ثم انقلبت إلى أهلها فحجبوها . والظاهر أن الغرض من الأمرين الأخيرين مجرد تعريف بالبالغين من قريش الذكور والإناث(١) . ودار الندوة في مكة تشبه الإكليزيا Ėkylesia في أثينا ، إلا أن الملأ المكى كان أكثر تعقلا وشعوراً بالمسئولية من الاكيزيا اليونانية ، وأقل تأثرا بالانفعالات العاطفية ، وذلك لأن الملأ كان يتكون من رؤساء العشائر وأولى الرأى والحكمة فيها . وعلى حين كان الأثينيون يقبلون في الإكليزيا كل رجل أمين مستقيم ؛ كان أهل مكة حريصين على أن يكون للشخص مهارته العملية وقدرته على القيادة(٢) . وإنشاء دار الندوة وتخصيصها لهذه الوظيفة يعتبر بداية لمرحلة جديدة تبلورت فيها النظم القبلية القديمة .

أما أهم المناصب الأخرى في مكة بعد دار الندوة . فكانت السدانة ، والسقاية . والرفادة ، وكلها مناصب متصلة بالكعبة والحج إليها . والسدانة هي رعاية البيت والقيام على إعداد للزائرين : ولقد كانت هذه الوظيفة هامة جداً نظراً لمركز الكعبة عند العرب . ولأن البيت الحرام هو الذى أعطى مكة قدسيتها ومكانتها وجلب إليها الحجاج من كافة الأنحاء . وعلى الحجاج يقوم جزء كبير من حياة مكة الاقتصادية فإن قريش تضرب في مشارق الأرض ومغاربها لتجلب التجارة التى

---

(١) ابن هشام ١/١٣٧ . الطبرى ٢/١٨ . العبادى : العصر العربى ٨ - ٩ .

(٢) Watt, Mohmmed at Mecca. p. 9

تبيعها للحجاج فى مكة وفى الأسواق التى تقوم حولها فى موسم الحج وتجنى من وراء ذلك ثروة كبيرة . من أجل ذلك اهتمت قريش برعاية البيت الحرام والدعاية له فى كافة أنحاء شبه الجزيرة ؛ وجلبت إليه أصنام القبائل فأقامتها حول الكعبة . ولما كانت الكعبة فى نظر العرب هى فى بيت الله الذى بناه إبراهيم الذى يردون أنسابهم إليه ، وهى أول بيت وضع للناس ؛ فإن وضع الأصنام به يعتبر تكريماً للأصنام ومن ثم يعتبر تكريماً للقبائل التى تتقرب إليها وتعبدها : وفى ذلك إغراء للعرب على الحج إلى الكعبة ؛ حيث يطوفون بالبيت ويقربون لأصنامهم فى نفس الوقت . ولم يستحدث قصى هذه الوظيفة وإنما هى وظيفة قديمة ترجع إلى بناء الكعبة نفسها ، فإنه من الطبيعى أن يكون لكل معبد سادته .

ووظيفة السقاية لا تقل أهمية ، وهى مرتبطة بالكعبة والحج إليها وتأتى أهميتها من أن مكة بلد شحيحة المياه : وأن الحاج إليها يلقى عنتا شديدا إذا لم تيسر له المياه وخصوصا فى موسم الحج ، حيث يكثر الوافدون إلى مكة لأداء هذه الفريضة ، وقد أصبحت مهمة السقاية بالغة الخطورة خصوصا بعد أن طمرت بئر زمزم التى يسرت المقام فى هذا الوادى القفر . نتيجة لإهمال جرهم لها ، أو لأن زعيم جرهم قد طمرها ، بعد أن هزم أمام قبيلة خزاعة واضطر للخروج عن مكة(١) . حتى يضايق خزاعة ويجعل مهمة الحج عسيرة . ومن المؤكد أن الزعماء الخزاعيين اهتموا بتوفير المياه لإرواء الحجاج فى موسم الحج ، وإن لم يفكروا فى إعادة حفر زمزم التى تثوى أمر هامع الزمن ، وجهل الناس موضعها ، وإن لم نسمع أنهم جعلوا من هذا الاهتمام وظيفة خاصة . وقد اهتم قصى بهذا

(١) ابن هشام ١/١٢٦ .

الأمر حين ولى مكة اهتماما كبيرا ، نتيجة لاهتمامه بتنشيط الحج الذى يبدو أنه فتر فى العهد الأخير من حكم خزاعة ، وقام بحفر الآبار فى وادى مكة ، كما حفرت عشائر قريش آبارا كثيرة بعد قصى(١) ، وإن لم يفكر أحد فى إعادة حفر بئر زمزم . حتى كانت أيام عبد المطلب ابن هاشم الذى آلت إليه هذه الوظيفة الهامة ، وأصبح يجد مشقة كبيرة فى توفير المياه للعدد المتزايد من الحجاج نتيجة للاتجاه العام نحو مكة المستقلة ، بعد ما أصاب الدويلات العربية فى الجنوب والشمال من تدهور سياسى وأدبى وقد ألهمت الحاجة عبد المطلب التفكير فى حفر بئر زمزم ، بئر إسماعيل ، التى لابد كانت الأخبار لا تزال تروى عنها ، والبحث عن مكانها حتى اهتدى إليها وأعاد حفرها(٢) ، ومن ثم أصبحت عملية إمداد الحجاج بالماء أقل مشقة . وقد عد المكيون وظيفة السقاية فضيلة عظيمة وشرفا كبيرا ، واعتبروها ووظيفة السدانة من أعظم الوظائف فى مكة ، وكانت قريش تفاخر بهما(٣) ، وقد تولت هاتين الوظيفتين أعظم العشائر القرشية . وحين فتح النبى مكة ألغى كل المناصب بها ولم يبق إلا على هاتين الوظيفتين تقديرا لأهميتهما .(٤)

والرفادة هى إطعام الحاج فى أيام الحج ، وقد فرض قصى على قريش خرجا تخرجه من أموالها وتدفعه إليه ؛ فيصنع به طعاما يقدمه

---

(١) نفسه ١/١٥٩ - ١٦٢ (ذكر ابن هشام أسماء أكثر من عشرة آبار حفرتها بطون قريش بمكة) .

(٢) ابن هشام ١/١٥٤ وما بعدها .

(٣) القرآن الكريم : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر . . . » .

(٤) ابن هشام ٤/٣٢ . الطبرى ٢/٣٢٧ .

للحجاج فى أيام عرفات ومنى ، على اعتبار أن الحاج هم ضيفان الله وأن أحق الضيف بالكرامة هم ضيف الله ، وأن على قريش ، وهى تسكن فى حمى بيت الله وتقوم عليه ، أن تقوم بهذا الواجب السامى(١) . وكان هذا العمل من قصى ينطوى على حكمة سياسية كبيرة . فإن إمداد الحاج بالطعام يدعو إلى الإقبال على القدوم إلى مكة . وخصوصا إذا قدرنا بعد الشقة وصعوبة حمل المؤن والزاد مع السفر فى الصحراء مسافات طويلة(٢) . كما أن البادية كانت فقيرة . وكان إطعام الطعام فضيلة من أكبر الفضائل التى يتمدح بها العرب وينال صاحبها عن طريقها الاحترام العام والمنزلة الرفيعة . كما أن المؤاكلة تعد عقد جوار عند العرب ، فإذا أطعمت قريش القبائل القادمة إلى مكة فى موسم الحج فإنها تنال بذلك احتراما عاما ومنزلة سامية فى نظر هذه القبائل ، كما تعتبر أنها تعاقدت معها برابطة الجوار والأمن نتيجة لهذه المؤاكلة ، وبذلك يصبح فى إمكان قريش أن تسير آمنة فى أراضى هذه القبائل . ولذلك كانت الرفادة وظيفة سامية فى مكة ، وكانت توكل إلى العشائر العريقة من قريش . على أن هذه الوظيفة ليست مستحدثة كلية ، فإن الأخباريين يروون أن عمرو بن لحى زعيم خزاعة كان يطعم الحاج ويقيم موائد الطعام فى أيام الحج ، وقالوا «إنه ربما ذبح أيام الحج عشرة آلاف بدنة وكسى عشرة آلاف حلة فى كل سنة ، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم

---

(١) نفسه ١/١٤١ - ١٤٢ .

(٢) البخارى ٢/١٣٤ . (وكان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس » .

السويق» .(١) ولكن يبدو أن هذا التقليد لم يصبح وظيفة مقررة إلا فى عصر قصى بن كلاب .

هذه الوظائف الثلاثة (السدانة والسقاية والرفادة) لم تكن وظائف قبلية ، وإنما هى وظائف استلزمها وجود الكعبة بمكة وقيام الحج إليها والرغبة فى تيسيره ؛ حتى تجنى مكة من وراء ذلك الفوائد المادية والأدبية التى كانت ضرورية لحياتها كبلد يعتمد على التجارة وعلى الاتصال بالقبائل من حوله . ولم تكن هذه المناصب تشكل إدارة محلية ، وإنما كانت مزايا تعطى فرصاً للكسب المادى والمنزلة الأدبية .

والوظيفتان الرئيسيتان بعد ذلك فى عهد قصى هما اللواء والقيادة ، والأولى هى الراية تعقد فيجتمع إليها المحاربون ؛ ويسلمها قصى لمن يتولى القيادة العامة . والقيادة هى قيادة الجيش عند الحرب وقد يتولاها بنفسه أو ينيب عنه من يتولاها . وهاتان الوظيفتان كانتا موجودتين فى تنظيم القبيلة العربية ؛ فشيخ القبيلة هو الذى يعلن الحرب على القبائل الأخرى ويدعو المحاربين إلى الاجتماع ؛ كما أنه يقود القبيلة فى حروبها أو ينيب عنه من يقودها . وكل ما استحدثته قريش فى هذه الناحية أنها وكلت أمر هذه الوظائف إلى عشائر معينة تتوارثها ؛ وذلك لأنه لم يصبح لقريش بعد موت قصى زعيم عام ترجع إليه القبيلة ؛ وإنما أصبح يحكمها «الملأ» وهم رؤساء العشائر الذين اعتبروا أنفسهم متساوين من حيث المبدأ واقتسموا المناصب فيما بينهم .

هذه هى المناصب الرئيسية الستة التى برزت فى عهد قصى ، والتى

---

(١) ابن كثير ٢/١٨٢ .

اقتسمها بعد ذلك أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف ابنى قصى . ولكن تطلع البطون القرشية إلى التقدم والمشاركة فى شئون مكة ، وحرص الملأ على وحدة القبيلة وإرضاء العشائر ، أدى إلى أن يستحدثوا عشر وظائف أخرى هى : العمارة وهى مراعاة الأدب والوقار فى البيت الحرام فلا يتكلم فيه بهجر ولا رفث ولا ترفع فيه الأصوات . والحجابة وهى قفل البيت وفتحه للزائرين . والمشورة وهى أنهم لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحبها . والأشناق وهى جمع الأموال الخاصة بالديات والمغارم والقيام على أدائها . والقبة وهى خيمة تجمع فيها أسلحة الجيش . والأعنة وهى قيادة الخيل . والسفارة وهى الاتصال بالقبائل الأخرى فى المنافرات والمفاوضات . والأيسار : وهى الأزلام التى يضرب بها عند هبل كبير الأصنام فى جوف الكعبة . والحكومة وهي الفصل فى المنافرات والخصومات . والأموال المحجرة . وهى الأموال المسماة للآلهة (١) .

وحين ظهر الإسلام كان الشرف فى قريش قد انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن وهم :

١ - العباس من بطن هاشم . وإليه كانت السقاية وبقى له ذلك فى الإسلام .

٢ - أبو سفيان من بطن أمية . وعنده العقاب راية قريش ، فإذا اجتمعوا على أحد سلمها له وإلا فهو صاحبها . وهذه الوظيفة هى وظيفة القيادة .

---

(١) العقد الفريد ٢/٣١٣ - ٣١٥ .

٣ - الحارث بن عامر من بطن نوفل ، وكانت إليه الرفادة .

٤ - عثمان بن طلحة من بطن عبد الدار : وكانت إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال إن الندوة أيضاً كانت فى بنى عبد الدار .

٥ - يزيد بن زمعة بن الأسود من بطن أسد ، وكانت إليه المشورة .

٦ - أبو بكر الصديق من بطن تيم : وإليه كانت الأشناق فى الجاهلية .

٧ - خالد بن الوليد من بطن مخزوم . وإليه كانت القبة والأعنة .

٨ - عمر بن الخطاب من بطن عدى . وإليه كانت السفارة فى الجاهلية .

٩ - صفوان بن أمية من بطن جُمح . وإليه كانت الأيسار .

١٠ - الحارث بن قيس من بطن سهم . وإليه كانت الحكومة والأموال المحجرة .

وقد استمرت هذه المناصب حتى فتح مكة حين ألغاها النبى جميعاً إلا سدانة البيت والسقاية(١) : وبعض هذه المناصب تفريع لبعض الوظائف السابقة : وبعضها ليست له قيمة كبيرة : على أنها جميعا من صميم التنظيم القبلى إلا ما كان منها متصلا بالكعبة والبيت الحرام ، ولم تكن المناصب توكل إلى الأفراد . وإنما كانت توكل إلى البطون ، وكل بطن يرشح للوظيفة من تكتمل له صفات الرياسة : على ما كان

(١) العقد الفريد ٣/٣١٣ - ٣١٥ - الألوسى ١/٢٤٨ - ٢٤٩ .

يجرى فى النظام القبلى من أن الفضائل الشخصية هى الأساس فى تولى مناصب الرياسة .

النزعات العشائرية ووحدة القبيلة فى مكة

أنزل قصى بطون قريش بمكة ، وقريش على أرجح الروايات هو فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكل من تجمع إلى قصى هو بطون فهر(١) ، وقد تميزت قريش إلى قسمين رئيسيين . قسم نزل وادى مكة وهو الأبطح واستقر به ، وعرف بقريش «البطاح» وقسم نزل بظاهر مكة وعرف بقريش «الظواهر» . وقد كانت قريش البطاح هى عامة بطون قريش : أما قريش الظواهر فهم أربعة أبطن وهم : بنو بغيض بن عامر بن لؤى ، وبنو الأدرم بن غالب ، وبنو محارب بن فهر ، وجماعة من بنى الحارث ابن فهر . وقد عاشت قريش الظواهر متبدية أو شبه مستقرة ، ويبدو أن حالتها المالية لم تكن حسنة ، فكانت لذلك تغير وتغزو . أما قريش البطاح فلزمت الحرم واستقرت به وعرفت لذلك بقريش الضب(٢) ، واتخذت من التجارة ورعاية البيت الحرام موردا تتعيش منه ، وحصلت بذلك على مال عظيم . وقد كثرت بطون قريش البطاح وتعددت حتى كان عدد البيوت الظاهرة فى نهاية القرن السادس الميلادى أحد عشر بطنا . خمسة من ولد قصى ، هم : هاشم بن عبد مناف ومعهم بنو المطلب بن عبد مناف ، وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ونوفل ابن عبد مناف ، وعبد الدار بن قصى ، وأسد بن عبد العزى بن قصى .

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ١١ . القلقشندى : نهاية الأرب ٣٩٤ .
(٢) ابن الأثير ٢/١٣ .

والباقون من ولد كعب بن لؤى وهم : عدى بن كعب بن لؤى ، وزهرة بن كلاب بن مرة بن كعب ، وتيم بن مرة بن كعب ، وسهم ابن عمرو بن هُصَيْص بن كعب ، وجُمَح بن عمرو بن هصيص بن كعب ، ومخزوم بن يَقَظة بن مرة بن كعب . وتحت لواء هذه البطون الظاهرة انضوت بقية العشائر الأخرى من قريش (١) . وبين هذه البطون انقسمت المناصب فى مكة ، وقد جاء الإسلام والأمر مستقر عليها .

حكم قصى مكة بعد أن أجلى خزاعة عنها ، وجمع فى يده المناصب الستة التى أشرنا إليها ، وأقرت له العرب بذلك ، ودانت له قريش وعظمته وأصبح أمره كالدين المتبع فيهم(٢) . فلما أسن قصى ، عهد بالأمر من بعده لابنه الأكبر عبد الدار ، وأسند إليه هذه المناصب كلها. ويعلل الأخباريون ذلك بان عبد الدار كان بكر قصى ، وكان أضعف إخوته الذين نبه ذكرهم وشرفوا فى عهد أبيهم ، فأراد قصى أن يرفع من قدر ابنه الأكبر ويلحقه بشرف إخوته ، فعهد إليه هذا العهد ، وخضع بنو قصى لهذا الأمر احتراماً لرأى أبيهم (٣) . لكن هذا الذى يقول به الأخباريون يخالف القواعد التى جرى عليها العرف عند القبائل العربية ، فإن الكفاية الشخصية كانت هى الأساس فى تولى الرياسة فى القبيلة العربية ، ولابد من وجود علة أخرى غير التى قال بها هؤلاء الأخباريون ، وعندى أن « قصى » الذى اتصف بالحكمة وبعد النظر ، قد أراد أن يحتفظ بوحدة القبيلة القرشية ، ويبعد عنها أسباب

---

(١) الطبرى ٢/٤٠ .

(٢) ابن هشام ١/١٢٧ . الطبرى ٢/١٨ .

(٣) ابن هشام ١/١٤٣ - ١٤٤ .

التنافس والشقاق الذى أشفق من وقوعه ، والقبيلة لا تزال حديثة عهد بحكم مكة ، وأعداؤها من خزاعة وبنى بكر لا يزالون يعيشون منفيين حول مكة ، ومن المحتمل أن يعودوا لمناوأتها إذا دب خلاف بين صفوفها ، ولقد قدرت بطون قريش هذه الحكمة من قصى وأدرك بنوه ما يرمى إليه — هذا إذا كان عبد الدار على ما وصفه به أصحاب الأخبار من الضعف ، وهو أمر من المحتمل أن يكون هواهم قد مال بهم إليه ؛ لتعظيمهم لبنى عبد مناف الذين جاء النبى منهم — فلم ينازعوا عبد الدار طول حياته ، ولكن الخلاف ما لبث أن ثار ، ورأى بنو عبد مناف أنهم أحق بالأمر من بنى عمهم عبد الدار ، أو أنهم لا يقلون عنهم نباهة وشرفاً ، لذلك نازعوهم الأمر ، وانقسمت قريش تبعاً لذلك إلى معسكرين متعاديين انقسمت بينهما بطون قريش ، فانضم إلى معسكر بنى عبد مناف ، بنو أسد بن عبد العزى . وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو الحارث بن فهر ، وانضم إلى معسكر بنى عبد الدار ، بنو مخزوم بن يقظة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص ، وبنو جمح ابن عمرو ، وبنو عدى بن كعب . وخرجت عامر بن لؤى ، ومحارب ابن فهر من قريش الظواهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين . وعقد كل واحد من المعسكرين حلفاً توكيدا لترابطهم وتضامنهم . فعقد بنو عبد مناف حلفاً سموه حلف «المطيبين» لأنهم قدموا طيبا فى جفنة وضعوها فى فناء الكعبة وغمسوا أيديهم فيها ومسحوها فى جدار الكعبة توكيداً لحلفهم . كما عقد بنو عبد الدار حلفا سموه «الأحلاف» . وتَعَبَّت قبائل الحلفين لبعضها وأوشكت الحرب الأهلية أن تقع فى مكة . لكن الملأ من قريش أدركوا ما يتعرض له مركز القبيلة من

خطر وما يعود عليها من أضرار لو نشب القتال وسالت الدماء ، فإن وحدة القبيلة ستتمزق وحرمة مكة التي يحرصون عليها ويسعون لإقرارها فى نفوس العرب ستضعف ، ومن ثم تتعرض مكة للاعتداء عليها وتهون قريش فى نظر القبائل ، لذلك سارعوا إلى القضاء على هذا الخطر بفض هذا النزاع ، فأعطوا بنى عبد مناف الرفادة والسقاية ، وأبقوا المناصب الأخرى فى يد بنى عبد الدار . وبذلك رضى الطرفان وحسم النزاع ، لكن الطرفين ثبت كل منهما على حلفه(١) ، ولم تذهب آثار هذا النزاع من النفوس ، كما أن هذا الأمر فتح عيون البطون القرشية كلها على الرغبة فى المشاركة فى شئون الحكم فى القبيلة القرشية داخل مكة ، ولما كانت قريش قد تميزت بوجود رجال أكفاء رأسوا عشائرها ووضعوا نصب أعينهم دائماً المحافظة على وحدتها وحل مشاكلها فقد اصطنعوا من الوظائف ما أرضوا به شعور البطون القرشية كلها ، وبعد أن كانت وظائف مكة ستة توزعت بين بنى عبد الدار وبنى عبد مناف ، بلغت فى نهاية القرن السادس ست عشرة وظيفة توزعت على بطون قريش البطاح . ومن ثم احتفظت قريش بوحدتها ، ونجت من التفكك الذى كان يصيب القبائل العربية ويخلق منها فى كثير من الأحيان بطونا متعادية متحاربة . وقد دعم هذا الترابط مركز مكة ، وضمن لها التفوق على المدن العربية الأخرى التى كانت تقع على طريق القوافل ، وكان من شأنها أن تنافس مكة فى التجارة .

وكما حرص رجال قريش على وحدة القبيلة وتضامنها ، كذلك

---

(١) ابن هشام ١٤٣/١ — ١٤٤ .

حرصوا على إقرار الأمن فى مكة ، سواء لأهلها أو للقادمين عليها ، ووقفوا فى وجه كل من تحدثه نفسه من أهلها أو من غيرهم بالاعتداء على حرية الناس وأمنهم ، أو ظلم القادمين إليها للمتاجرة والمبادلة . وذلك أن مكة كانت تعتمد فى حياتها على ما تجلبه إليها التجارة من الرزق سواء منها الخارجية أو الداخلية . وإذا كانت تجارة قريش الخارجية قد اتسعت بحيث ضمنت العشائر الغنية التى تشارك فيها ثروة كبيرة ، فإن رجال قريش قد حرصوا على سلامة التجارة الداخلية ؛ حتى تضمن العشائر التى لم تشارك بصورة قوية فى التجارة الخارجية ، ما يضمن لها أسباب الرزق فى التجارة الداخلية ، لذلك وقفوا فى وجه كل ما من شأنه أن يعطل هذه التجارة أو يحد من نشاطها ، ومن أجل هذا قام حلف «الفضول» . وكان سببه المباشر أن العاص بن وائل السهمى اشترى بضاعة من رجل يمنى قدم مكة ، وأبى أن يدفع الثمن ، ولجأ اليمنى إلى بطون الأحلاف فلم تنصفه ، فأدى هذا إلى رد فعل قوى بين البطون القرشية الأخرى التى كانت تعتمد على التجارة الداخلية ، ورأت فيه محاولة من العشائر الغنية ، التى تهيمن على التجارة الخارجية نتيجة لثروتها الواسعة ، للهيمنة على التجارة الداخلية أيضاً بمضايقتها للتجار الخارجيين من غير قريش(١) . لذلك تنادى بنو هاشم وأسد وزهرة وتيم لعقد حلف للوقوف فى وجه هذا الاتجاه ،

(١) لدينا أمثلة أخرى على مضايقة أغنياء قريش للتجار الغرباء ، منها ما ذكره ابن إسحاق من أن أبا جهل بن هشام اشترى إبلا من رجل جاء إلى مكة يبيع إبلا ومطله بأثمانها حتى اضطر الرجل إلى أن طلب الإنصاف من رجال قريش (ابن هشام ١/٤١٦) . وما رواه ابن كثير من محاولة نبيه بن الحجاج ظلم رجل خثعمى جاء مكة مما اضطر الرجل إلى طلب الإنصاف . (ابن كثير ٢/٢٩٢) .

ومنع كل ظلم يقع فى مكة سواء على أهلها أو على الغرباء ، فاجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى الأمر ، ثم انتقلوا إلى دار عبد الله بن جدعان أحد أثرياء مكة من بنى تيم الذى صنع لهم طعاما ، حيث عقدوا حلفاً سموه «حلف الفضول» تعاهدوا فيه على أن يكونوا يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه «وعلى التأسى فى المعاش(١)» . وإن هذه الفقرة الأخيرة لتبين بوضوح أغراض الحلف وهو الوقوف فى وجه الظلم الذى قد يجر إلى أن تحرم هذه البطون من أسباب معاشها . وقد حقق هذا الحلف نتيجته المباشرة فقد دفع العاص بن وائل ثمن البضاعة التى أخذها ، كما استقرت الحرية العامة فى مكة . وقد بقيت آثار هذا الحلف إلى ما بعد الإسلام ، وإن كان قد تعطل فترة من الزمن عند بدء ظهور الإسلام فى أثناء الدور المكى من حياة الرسول — كما سنشير إليه فيما بعد — . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن حلف الفضول إن هو إلا امتداد لحلف المطيبين ، على اعتبار أن الذين انضموا للحلف هم نفس البطون التى كانت فى حلف المطيبين ، باستثناء بعض عشائر عبد مناف وهم بنو نوفل وبنو عبد شمس الذين أصبحوا فى ذلك الوقت من العشائر الغنية التى اتخذت جانب الفريق الآخر تحقيقاً لصالحها(٢) . ولكن لا يمكن التسليم بهذا الرأى فإن حلف المطيبين عقد لظروف أخرى وهى التنازع على المناصب فى مكة ، وكان بنو عبد مناف يملكون ناصية الثروة وناصية التجارة الخارجية ، فإن على يد هاشم بن عبد مناف وإخوته خرجت قريش إلى نطاق التجارة الخارجية ،

---

(١) ابن هشام ١/ ١٤٤ — ١٤٥ . ابن كثير ٢/٢٩٢ . ابن الأثير ٢/٢٦ — ٢٧ . اليعقوبى ٢/١٢ — ١٣ .

(٢) Watt, op. oit. p. 6. 13-14

وإلى تنظيم القوافل لنقل التجارة بين الجنوب والشمال والشرق والغرب . وهم الذين أجروا الاتصالات الخارجية بالبيزنطيين والأحباش والفرس واليمن(١) . أما حلف الفضول فتختلف ظروفه ودواعيه كما تختلف ظروف القائمين عليه . وإن كانوا هم بعض نفس البطون التي اشتركت في الحلف الأول ، وإذا كان الحلف الأول لتقسيم المناصب فإن الحلف الثاني قام لإقرار العدل والأمن وتدعيم مصالح التجارة الداخلية في مكة ذاتها . وقد قدر الإسلام الأهداف السامية التي عقد من أجلها هذا الحلف وأقره وقال النبي فيه « لقد شهدت في دار ابن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ؛ ولو أدعى به في الإسلام لأجبت(٢) » . وقد بقيت آثاره بعد الإسلام ، حتى لقد نادى به الحسين بن علي حين وقعت بينه وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة منازعة في مال كان بينهما ، وقد تداعت أطراف الحلف لنصرة الحسين مما اضطر الوليد إلى إنصافه(٣) .

وأوشك خلاف آخر أن يدب بين صفوف القبيلة قبيل ظهور الإسلام حين هدمت قريش الكعبة ، وتنافست البطون على من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه من البناء ، وقد تحزبت لذلك بنو عبد الدار وبنو عدى وعقدوا بينهم حلفاً على ألا يدعوا أحداً يقوم بهذا غيرهم ، وقدموا جفنة فيها دم غمسوا أيديهم فيه توكيدا لحلفهم فسموا « لعقة الدم » ، لكن الخلاف ما لبث أن حسم بالتحكيم على يد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذي لم يكن بعث نبيا بعد (٤) .

---

(١) ابن هشام ١/١٤٧ . اليعقوبي ١/٢٠١ .
(٢) ابن هشام ١/١٤٥ . ابن كثير ٢/٢٩٣ .
(٣) ابن هشام ١/١٤٦ . ابن كثير ٢/٢٩٣ . ابن الأثير ٢/٣٧ .
(٤) ابن كثير ٢/٣٠٣

وقد ذكر المؤرخون تنازعاً وقع بين عشيرة هاشم وعشيرة أمية بن عبد شمس ، وهما بيتان من بيوت بطن عبد مناف ، وأفاضوا فى ذكر هذا التنافس بين البيتين ورتبوا عليه نتائج كبيرة ، واعتبروه أساساً للنزاع بين بنى هاشم وبنى أمية بعد ظهور الإسلام ، وقد احتل ذكر هذا التنازع جانباً كبيراً من اهتمام الكتاب والمؤرخين سواء منهم القدماء أو المحدثون ، وأفرد له بعضهم كتبا خاصة به . وأول ذكر لهذا التنازع ما ذكره ابن سعد فى كتاب «الطبقات الكبرى» عند حديثه عن هاشم ابن عبد مناف وابنه عبد المطلب بن هاشم ، وعن ابن سعد أخذ من تلاه المؤرخين القدماء ثم تبعهم المحدثون .

تحدث ابن سعد عن مركز هاشم بن عبد مناف بين قومه وما نالته قريش على يده من خير ، ثم قال : «أخبرنى هشام بن محمد قال ، فحدثنى معروف بن الخربوذ المكى ، قال حدثنى رجل من آل عدى ابن الخيار بن عدى بن نوفل بن عبد مناف عن أبيه ، قال : «فحسده (يعنى هاشما) أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، وكان ذا مال ، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش ، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة ، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره ، فلم تدعه قريش وأحفظوه ، قال فإنى أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضى أمية ذلك ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى ، فنفَّر هاشما عليه ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضر ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم

وأمية »(١) ثم تحدث عن منافرة أخرى وقعت بين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية قال : «وأخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال : أخبرني رجل من بني كنانة يقال له ابن أبي صالح ورجل من أهل الرقة مولى لبني أسد وكان عالما ، قالا : تنافر عبد المطلب ابن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي الحبشي ، فأبى أن ينفر بينهما ، فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب فقال لحرب : يا أبا عمرو أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ،وأعظم منك هامة ،وأوسم منك وسامة وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولد ، وأجزل منك صفدا ، وأطول منك مذودا . فنفره عليه فقال حرب : إن من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما» (٢) هذه رواية ابن سعد ، وتابعه عليها البلاذرى(٣) والطبرى(٤) وابن الأثير(٥) ، وكتب المقريزى كتابا خاصا بهذا النزاع سماه «النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم» رد فيه أصل الخصومة التي قامت بين بني هاشم وبني أمية في عهد على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وماتلاها من صراع بين البيتين إلى هاتين الحادثتين(٦) ، ثم سار على ذلك من تناولوا هذا الموضوع من المؤرخين والكتاب المحدثين(٧) ونحن لا نستطيع مجاراة هؤلاء المؤرخين ونرفض القصتين من أساسهما.

---

(١) ابن سعد ١/٥٥ — ٥٦ . (٢) نفسه ١/٦٧ — ٦٨ .
(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ١/٦٠ — ٦١ ، ٧٢ — ٧٣ .
(٤) الطبرى ٢/٢٣ . (٥) ابن الأثير ٢/٩ — ١٠ .
(٦) المقريزى : النزاع والتخاصم ص ٢ — ١٧ .
(٧) بودلى . محمد الرسول ١٤٣ . العقاد : معاوية فى الميزان . ص ٣١ وما بعدها ، أبو الشهداء ص ٢٤ وما بعدها . مطلع النور ص ١٦٢ وما بعدها . الخربوطلى : المختار الثقفى ص ١٦٤ — ١٦٥ . إبراهيم الأبيارى : معاوية ص ٩ وما بعدها .

وأول ما يطالعنا فى هذا الشأن أن ابن إسحاق وهو أقدم من تناول السيرة لم يذكر شيئا عن هاتين القصتين ، بل لم يشر إلى أى نزاع وقع بين بنى هاشم وبنى أمية قبل الاسلام ، وكذلك لم يشر إليهما أحد من كتاب السيرة المحققين من أمثال ابن كثير وابن سيد الناس . بل إن ابن إسحاق يثبت الترابط بين بنى عبد مناف فى مواضع كثيرة . فهو حين يتحدث عن إعادة حفر زمزم على يد عبد المطلب بن هاشم يقول : إن بنى عبد مناف افتخرت بها على قريش كلها وعلى سائر العرب ، ويروى قصيدة لمسافر بن عمرو بن أمية بن عبد شمس وهو يفخر على قريش بما ولوا عليهم من السقاية والرفادة وما أقاموا للناس من ذلك ، وبزمزم حين ظهرت لهم . وقد كانت هذه المناصب كلها فى يد عبد المطلب بن هاشم . ويعلق ابن إسحاق على ذلك بقوله «وإنما كان بنو عبد مناف أهل بيت واحد ، شرف بعضهم لبعض شرف ، وفضل بعضهم لبعض فضل»(١) .

وحين خاصمت قريش عبد المطلب على بئر زمزم وخرجوا ليحاكموه لدى كاهن بنى سعد هزيم بأشراف الشام «ركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أبيه من بنى عبد مناف»(٢) ثم أن عبد شمس بن عبد مناف كان صاحب أمر بنى عبد مناف فى خصومتهم ضد بنى عبد الدار ، وقد قبل عبد شمس أن توكل السقاية والرفادة إلى أخيه هاشم ، لأن عبد شمس كان رجلا سفاراً قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد(٣) . ويستمر الترابط بين البيتين وتقوم الصداقات بين أفرادهما ؛ فقد

(١) ابن هشام ١/١٦٢ .
(٢) نفسه ١/١٥٥ .
(٣) نفسه ١/١٤٧ .

كان العباس صديقاً حميا لأبي سفيان بن حرب ، وقد ظل صديقاً له حتى بعد ظهور الإسلام ، بالرغم مما قامت به قريش جميعاً ضد النبي وبني هاشم ، والعباس هو الذى أخذ الأمان لأبي سفيان من النبي عند فتح مكة ، وقد اشتد على عمر حين طلب إلى النبي أن يضرب عنق أبي سفيان ؛ فقال العباس «مهلا يا عمر . فو الله أن لو كان من رجال بني عدى ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال عبد مناف(١) » . ولم يبد رجال بني عبد مناف حماسة شديدة للقتال حين خرجت قريش لقتال المسلمين فى بدر ، بل كانوا يسايرون إجماع القبيلة على الخروج بل إن بعضهم حاول تخذيل قريش عن لقاء المسلمين ، وكان أبرز من قام بهذا الدور عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، حتى اتهمه أبو جهل بالممالأة فقال «إن عتبة يشير عليكم بهذا (يعني الرجوع) لأن ابنه مع محمد ، ومحمدا ابن عمه ، وهو يكره أن يقتل ابنه وابن عمه(٢) » .

وهكذا يثبت ابن إسحاق والواقدى ومن أخذ عنهما أن الترابط كان موجودا بين بني عبد مناف جميعا ، وأن قريشا كانت تعتبر بني عبد مناف عصبية واحدة ، حتى ليقول أبو جهل وقد سئل عن رأيه فيما يقول محمد «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً »(٣) . وهكذا نجد أنه ليس هناك ذكر لما ذهب إليه ابن سعد . والأمر الثانى الذى يطالعنا أن الرواية فى كلتا

---

(١) نفسه ٤/٢١ .
(٢) الواقدى : مغازى رسول الله ص ٤٦ .
(٣) ابن هشام ١/٣٣٨ .

الحادثتين رواية مفردة مقطوعة السند ، وهى عن هشام بن محمد ابن السائب الكلبي ، وهو غير منزه عن الشبهات لأنه لا يحقق ما يصل إلى يده(١) . ثم إن من أخذوا بهذه الرواية من أمثال ابن الأثير الذى أخذها عن الطبرى الذى أخذها بدوره عن ابن سعد ، قد مهدوا لهذه الرواية بقصة أسطورية : فقد ذكر ابن الأثير أن هاشما وعبد شمس توأمان وأن أحدهما ولد قبل الآخر ، وأصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه فنحيت ، فسال الدم(٢) ، فقيل يكون بينهما دم ، وذكر اليعقوبى حادث الولادة فقال «كانا توأمين فخرج هاشم وتلاه عبد شمس وعقبه ملتصق بعقبه فقطع بينهما بموسى : فقيل ليخرجن بين ولد هذين من التقاطع ما لم يكن بين أحد» .(٥) ويزيد ابن الأثير والبلاذرى الوضع غرابة ، فإنهما يذكران أن هاشما مات بغزة وله من العمر عشرون سنة أو خمس وعشرون سنة(٤) ، فإذا كان عبد شمس والدأمية توأم هاشم ، فكم يكون سن أمية حين نافر عمه ؟ . وفى تحكيم النجاشى بين عبد المطلب وحرب غرابة شديدة ، إذ كيف ينتقل الخصمان إلى الحبشة وما مدى علم النجاشى بمواهب الرجلين ومنزلتهما وهو هنا موضوع المنافرة . على أن هؤلاء المؤرخين يثبتون مع ذلك استمرار الصداقة بين أولاد أمية وأولاد هاشم : فيذكرون صداقة عبد المطلب وحرب بن أمية ، وكان حرب بن أمية على قريش وحلفائها فى الفجار لمكانه من عبد مناف سناً ومنزلة(٥) . ويذكرون صداقة العباس بن

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١٩/٢٨٧ – ٢٨٨ .

(٢) ابن الأثير ٢/١٠ . (٣) اليعقوبى ١/٢٠٠ .

(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف ١/٢٣ . ابن الأثير ٢/١٠ .

(٥) ابن الاثير ١/٣٦٢ .

عبد المطلب وأبى سفيان بن حرب . وإذا كان أبوسفيان قد عادى النبى وقاد قريشاً لحربه بعد معركة بدر سنة ٢ هـ إلى فتح مكة سنة ٨ هـ ، فإن القبيلة كلها أجمعت على هذه الحرب إذ أن مكة كانت تقاتل دفاعاً عما تراه مصلحتها . وبنو هاشم أنفسهم خرجوا للقتال يور بدر وأسر من رجالهم العباس وعقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن عبد المطلب(١) وكان أبولهب بن عبد المطلب(٢) وأبوسفيان بن الحرث بن عبد المطلب من أشد الناس عداوة لرسول الله وللإسلام(٣) ، وهما من بنى هاشم ومن أمس الناس قرابة بالرسول .

من كل ما تقدم يمكن القول بأن هذا التنازع الذى ذكره المؤرخون بين بنى هاشم وبنى أمية فى الجاهلية لم يكن له وجود ، وأنه لم يثر بين البيتين خلاف إلا بعد مقتل عثمان . وهذا العداء الذى قام بين على ومعاوية واستمر بعد ذلك بين البيتين هو الذى سحبه المؤرخون على الماضى ؛ فحاولوا الرجوع بأصوله إلى أيام الجاهلية . وإلى أيام ظهور هاشم بن عبد مناف على مسرح الحياة فى مكة .

على أنه مهما تكن المنازعات العشائرية قد وجدت فى قريش . فإن رجال قريش استطاعوا أن يحافظوا على وحدة القبيلة وتماسكها ، ولم يقبلوا إطلاقا أن يحدث تفكك فى صفوفها . أو ينشب خلاف يؤدى إلى تعارك العشائر : وهذه الرغبة فى تماسك القبيلة هى التى جعلت قريشاً تنظر إلى رسالة محمد هذه النظرة القاسية ؛ وتعامل المسلمين

---

(١) ابن هشام ٢/٣٦٢ .

(٢) نفسه ١/٣٧٢ . (٣) نفسه ٤/١٨ .

وبنى هاشم تلك المعاملة الشديدة ، كما أنها هى نفسها التى منعت وقوع الحوادث الدموية فى الدور المكى من حياة الرسول وصانت القبيلة من التفكك والحرب الداخلية .

قوة الزعامة فى مكة وأثرها

يرجع الفضل الأكبر فى تقدم مكة وتفوقها فى عهد قريش إلى قوة زعمائها وقدرتهم على حل المنافسات التى تنشأ بين الأفراد والعشائر للمصلحة العامة . وفى بلد تجارى مثل مكة كانت قوة العشيرة ونفوذها مرتبطا إلى حد كبير بثروتها المادية . كما كانت أهمية الفرد فى هذه البيئة تتوقف على ثروته وعلى نفوذ عشيرته وقوتها . لكن هذا لم يكن أمراً مطلقاً : فالثروة والنفوذ العشائرى لم يكن إلا بداية لظهور الفرد ، فإن الثروة فى بلد تجارى كانت عرضاً يمكن أن يزول بين عشية وضحاها فى إحدى المضاربات التى كان يزاولها أهل مكة : ومن ثم كان الأفراد كما كانت العشائر تتردد ما بين الغنى والفقر . أما العامل الرئيسى الذى يتوقف عليه تفوق الفرد ونفوذه فهو المواهب الشخصية والمزايا الذاتية . فذكاؤه التجارى والمالى ومهارته فى معاملة العشائر والقبائل الأخرى ، وقدرته على أن يحمل الآخرين فى عشيرته وفى خارجها على أن يتقبلوا زعامته ، كان المؤهل الحقيقى للزعامة فى مكة.

وأول زعيم فى قريش هو قصى بن كلاب الذى جمع قريشاً وأقامها فى مكة وثبت وظائف مكة فى يدها . ولعمله الجليل الذى قام به كان موضع الإجلال والتقدير طوال حياته وبعد مماته ، فكان شريف أهل مكة لا ينازع فيها ، وكانت داره هى دار الندوة وفيها كان يبرم أمر

مكه كله ، وكانت قريش تتيمن برأيه وتتبع أمره كالدين المتبع لا يعمل بغيره فى حياته وبعد موته . وفى يده تجمعت كل مناصب مكة وحكمها ، وفى عهده نمت مكة واتسع عمرانها واستقلت بها بطون قريش ، فكان يعشر من دخل مكة سوى أهلها(١) ، كما عمل على تنشيط الحج إليها فاتسعت تجارتها الداخلية مع القبائل العربية الوافدة إليها وبدأت تعظم ثروتها .

وحين أسن قصى عهد بالمناصب كلها إلى ابنه عبد الدار ، ولم تتحدث المصادر عن نشاط عبد الدار ولا عن أثره فى مكة ، ولابد أنه سار على نهج أبيه ، ولكن يبدو أنه لم يكن على جانب كبير من المقدرة لا هو ولا أحد من بنيه ، الأمر الذى جعل بنى عمهم عبد مناف ينازعونهم زعامة مكة ويرون أنهم أحق بها منهم لشرفهم وفضلهم(٢) . وقد أدى هذا التنازع إلى قيام حلفى المطيبين والأحلاف وكادت الحرب تقع بين بطون قريش — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — ثم اقتسمت المناصب فآل لبنى عبد مناف الرفادة والسقاية . وهما أهم وظيفتين فى مكة لارتباطهما بالحج ووفود الحجاج إلى مكة من قبائل العرب المختلفة . الأمر الذى كانت مكة تعتمد عليه فى حياتها الاقتصادية . وقد وُكل أمر هاتين الوظيفتين إلى هاشم بن عبد مناف الذى يبدو أنه كان واسع الثروة جم النشاط(٣) ، فقد نالت مكة على يديه هو وإخوته تقدما كبيرا ، وبعد أن كانت تجارتها قاصرة على التجارة الداخلية

---

(١) ابن سعد ١/٥٠ . (٢) ابن هشام ١/٢١١ .

(٣) ابن هشام ١/١٤٦ — ١٤٧ . اليعقوبى ١/٢٠١ — ٢٠٢ .

مرتبطة بالحرم(١) ، فتح لها هاشم وإخوته مجال التجارة الخارجية ، فقد رحلوا إلى الشام وإلى اليمن وإلى الحبشة وإلى العراق ، وقاموا باتصالات قوية مع حكام هذه المناطق أدت إلى عقد معاهدات تجارية ، فقد أخذ من الروم عهدا بالسماح لتجار قريش أن يدخلوا الشام وبلاد الدولة الرومية فى سلام . وكذلك أخذ إخوته المطلب وعبد شمس ونوفل عهوداً مماثلة من الأكاسرة والنجاشى والحميريين . وبذلك بدأت قريش تسيطر شيئاً فشيئاً على التبادل التجارى بين الشمال والجنوب . وقد قام هاشم بتنظيم رحلات القوافل إلى الجنوب شتاء وإلى الشمال صيفاً ، وقد عرف هذا النظام برحلتى الشتاء والصيف(٢) وإلى هاتين الرحلتين وأثرهما يشير القرآن الكريم «لإِيلاَفِ قُرَيْش إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتَاء والصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا ربَّ هذَا البَيْتِ الَّذى أَطْعَمَهُمْ من جُوع وآمَنَهُمْ من خَوْف(٣)» ، كما وضع هاشم نظاماً لتأمين مرور القوافل بين القبائل العربية . وذلك بإشراك زعماء القبائل فى قوافله ، فيحمل لهم بضائعهم دون أن يتحملوا فى نقلها شيئاً(٤) ، وبذلك اتسعت تجارة قريش وعظمت ثروتها وأصبح هاشم بن عبد مناف زعيما لمكة كلها . وإن لم تجتمع له كل المناصب كما كان الحال عند جده قصى . لكن موته المبكر(٥) حرم مكة من جهود هذا الزعيم المفكر النشيط . وقام إخوته من بعده على تدعيم تجارة مكة الخارجية . لكنه لم يكن لأحدهم من

---

(١) اليعقوبى ٢٠١/١ . (٢) ابن هشام ١٤٧/١ .
(٣) سورة قريش .
(٤) ابن أسعد ٥٨/١ . اليعقوبى ٢٠٢/١ . ودل : الرسول ص ٣٥ — ٣٨ .
(٥) ابن الأثير ١٠/٢ .

المكانة ما كان لهاشم . وبدأت تظهر شخصيات أخرى فى البطون القرشية لم تبلغ منزلة أحدهم مكانة الزعامة المطلقة . وترتب على ذلك أن برزت قوة الملأ فى قريش . وهو مجلس القبيلة المكون من زعماء العشائر . وأتيحت الفرصة لظهور رجال متعددين كانت تقوم العلاقة بينهم على أساس التكافؤ . وكانوا يشاركون جميعا فى إدارة شئون مكة.

وكان أبرز هؤلاء الزعماء فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى هو عبد المطلب بن هاشم . ولم يكن عبد المطلب فى منزلة أبيه . وإنما كان أحد هؤلاء الرجال النظراء الأكفاء الذين حفل بهم ملأ مكة فى هذه الفترة . وكان أكبر عمل أظهر شخصية عبد المطلب . هو إعادته حفر بئر زمزم التى كانت قد غاضت مياهها وطمست فى أواخر أيام جرهم(١) . وقد يسر حفر زمزم مهمة السقاية التى كان يقوم عليها عبد المطلب . كما رفع من مكانته الأدبية لما يحيط بزمزم من تعظيم على أنها بئر إسماعيل المبارك الذى فجره الله له . وفى أيام عبد المطلب وقع الغزو الحبشى على مكة . وقد حاول عبد المطلب أن يرد الغزاة عن مكة عن طريق المفاوضة فلم يفلح(٢) ، كما لم يفلح فى تعبئة قريش لقتال الأحباش(٣) . لأن قوة جيشهم وما أتوا به من عدة وسلاح وما كان معهم من الفيلة التى لا عهد للعرب بقتالها أفظعتهم فثبطت همتهم، وبخاصة بعد ما علموا بما أصاب القبائل التى تصدت لهم من هزيمة(٤) . وتقول الروايات إن عبد المطلب لم يفارق الكعبة حين تفرقت قريش

---

(١) ابن هشام ١/١٥٤ – ١٥٨ . البتنونى ١٢٧ .

(٢) ابن هشام ١/٥١ .

(٣) اليعقوبى ١/٢٠٩ – ٢١٠ .

(٤) ابن هشام ١/٤٩ .

فى شعاب مكة وجبالها خوف الغزاة ، بل أخذ يستعد لمقاومة الغزو بمن أطاعه من قومه ، وهو مع ذلك يدعو ربه ليرد كيد المغير عن بيته الحرام(١) . ولما تفشى المرض فى جيش أبرهة وارتد عن مكة : علت مكانة عبد المطلب الأدبية والدينية بين قومه ؛ حتى كانت قريش تقول «عبد المطلب إبراهيم الثانى(٢)» ، كما علت منزلة قريش كلها بين القبائل العربية وقال العرب عنهم «أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم(٣)» وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحادث «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ(٤)» .

وكانت لعبد المطلب وفادات على الجنوب ، فكان ينزل على عظماء اليمن ؛ وقد وفد على سيف بن ذى يزن مع وفد مكة لتهنئته بعد انتصاره على الأحباش : ففضله على من معه وآثره(٥) .

وأبرز شخصية من رجال الملأ ظهرت بعد عبد المطلب بن هاشم هو أبو سفيان بن حرب بن أمية ؛ ولم يكن لبنى أمية من مناصب مكة إلا منصب واحد هو «العقاب» وهو راية قريش . ولا يمكن تحديد الوقت والمناسبة التى أسند إليه فيه هذه الوظيفة ؛ ولكن يبدو أنها أسندت إلى بنى أمية فى فترة متأخرة ، ومن الراجح أن يكون ذلك بُعيد ظهور

(١) نفسه ١/٥١ . اليعقوبى ٢/٧ . الطبرى ١/٥٥١ - ٥٥٧ .
(٢) اليعقوبى ٢/٧ . (٣) ابن هشام ١/٥٩ .
(٤) سورة الفيل .
(٥) اليعقوبى ٢/٨ . ابن سعد ١/٦٧ .

الإسلام فى مكة . ولم يكن أبو سفيان من رجال قريش المشهورين بالجود والكرم ، وإنما كان يغلب على طبيعته الشح(١) ، وكل ما اشتهر به أنه كان تاجراً قاد بعض قوافل قريش التجارية نحو الجنوب والشرق والشمال(٢) . وقد تعرضت إحدى القوافل الكبرى التى كان يقودها إلى الشام لتصدى المسلمين لها بعد هجرة النبى إلى يثرب بسنتين ، فاستطاع أبو سفيان بمهارته وحذره أن يتجنب الخطر وأن يعود بالقافلة سليمة إلى مكة ، لكن هذا التصدى أدى إلى وقوع معركة بدر التى قتل فيها معظم زعماء قريش البارزين . ولم يبق إلا الزعماء الثانويون ، وكان أبرزهم جميعاً أبا سفيان ، الذى أبدى كثيراً من ضروب المهارة فى نجاة القافلة ، وفى جمع شمل القبيلة بعد هذه المعركة ؛ وتعبئة كل قوتها للأخذ بثأرها من المسلمين ؛ ومن ثم كتبت له الزعامة العامة فى قريش ، وأخذ على عاتقه تنظيم القبيلة ؛ وقيادة جيوش مكة فى حروبها ضد يثرب ست سنوات بعد ذلك انتهت بفتح مكة وتغيير الأوضاع كلها .

على أن هؤلاء الرجال الأفذاذ ، سواء منهم من نالوا زعامة عامة فى القبيلة كلها أو من كانوا زعماء فى عشائرهم ، قد حرصوا دائما على مصلحة القبيلة وحفظوا على مكة وحدتها ، وجنبوها ما كان يقع فى القبائل والمدن الأخرى من حروب عشائرية ؛ ووقفوا ضد كل طيش ونزق ، وحرصوا حتى فى أحرج الظروف على صيانة الدماء ، فلم تقع أى ثارات بين بيوتاتها المختلفة ، وحتى فى وقت ظهور الإسلام حرصوا

---

(١) البخارى ٣/٧٩ . أسد الغابة ٥/٥٦٢ .

(٢) نفسه ١/٥٦٤ ، ٤/٣٦ ، ٤٥ . ابن الأثير ٢/٢١٨ - ٢١٩ الألوسى ١/٢٢٠ .

طيلة ثلاث عشرة سنة قضاها النبي فى مكة على ألا تسفك دماء القرشيين وألا تقع حرب بين بطون قريش بسبب دخول من دخلوا فى الإسلام بالرغم من الموقف الشديد الذى وقفته القبيلة تجاه الدعوة الإسلامية ومن دخل فيها . ومحاولة فتنة المسلمين من قريش عن دينهم بكافة أنواع المقاومة دون القتل ، وحتى حين أجمع الملأ من قريش على التخلص من محمد بالقتل . حرصوا على أن يكون تنفيذ القرار جماعياً حتى لا تحدث حرب أهلية فى مكة . وقد عدوا النبي مفرقاً لجماعة قريش مهدداً لمركز الكعبة الذى يتوقف عليه مركز مكة إلى حد كبير ، وقد حاولوا إثناءه عن موقفه بكافة أنواع الترغيب والوعيد . كما حاولوا أن يرجعوه عن دعوته باللجوء إلى عشيرته . فقد أصر بنو هاشم على الوقوف إلى جانب محمد وحمايته . أوقعوا عليه وعليهم عقوبات اقتصادية شديدة . ولكنها على كل حال دون القتل والقتال . ولم يتورطوا فى أحلاف تجر إلى الحرب . كما لم يتورطوا فى خوض الحرب إلا مرتين ، مرة إلى جانب حلفائهم من بنى بكر ضد هوزان وقيس فيما عرف بحرب الفجار . وقد جُروا إلى هذه الحرب جراً دون أن تكون لهم يد فى إشعالها . ومع ذلك فقد كانوا هم الداعون للصلح فيها ، وقدموا من أجل السلام كافة التسهيلات ، حتى قدموا أربعين رجلا رهنا لتوفية دية القتلى . والمرة الثانية هى الحرب التى دخلوها ضد المسلمين فى يثرب ، وقد بدأوها حرصا على مكانة مكة وصيانة لمصالحها .

وكما حفظوا على مكة وحدتها الداخلية ، كذلك حافظوا على حسن الصلة بينها وبين القبائل الأخرى فى أنحاء الجزيرة العربية ، وبخاصة القبائل الضاربة حول مكة ، وتلك التى تنتشر على جوانب طرق

القوافل ، الأمر الذى مكن قريشاً من القيام على تنظيم القوافل التجارية وتسييرها آمنة بين هذه القبائل .

كما حافظوا على خطة الحياد التى انتهجوها بالنسبة للصراع الدولى الذى قام بين الفرس والبيزنطيين ، ودخل فى دائرته أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية كاليمن فى الجنوب والمناذرة على أطراف العراق ، والغساسنة على أطراف الشام ، واستطاعوا بمهارة أن يسالموا الدول المتصارعة ، وأن يفيدوا من هذا الموقف الحيادى فى السيطرة على نقل التجارة بين الشرق والغرب . وجنوا من وراء ذلك ثروة كبيرة ومركزا ممتازا .

* * *

الفصل الثالث

قوة قريش الحربية وعلاقتها بالقبائل الخارجية

لم يكن فى مكة جيش نظامى ثابت ؛ فهى مجتمع قبلى تستغنى بالتشكيل الحربى القبلى عما تعرفه المجتمعات الكبيرة من الجيوش النظامية . وكان جيشها يتألف من رجال القبيلة أنفسهم ومن ينضم إليهم من رجال القبائل الأخرى التى ترتبط معهم برباط الحلف .

ومكة كمدينة تجارية لم يكن أهلها يميلون إلى استخدام وسائل العنف ، وقد حرصوا دائماً على حل مشاكلهم سلمياً ، إذ أن سلامة تجارتها تتوقف إلى حد كبير على حسن صلاتها مع القبائل المجاورة لها أو الضاربة على جانبى طرق التجارة التى كانت تسير فيها قوافلها بين الشمال والجنوب والشرق والغرب . كما كان من مصلحتها أن يسود السلم فى منطقتها حيث تعقد الأسواق التجارية ؛ لتستطيع فى جو السلم أن تصرف بضائعها ، التى تجلبها من الجهات المختلفة ، بين الوافدين إليها من سكان البادية ، وللتبادل التجارى مع من يفد من رجال الشمال والجنوب لهذه الغاية . ولكنها فى الوقت نفسه كانت محتاجة إلى قوة حربية . تشعر بقدرتها على الضرب إذا هدد أمنها أو حدث اعتداء على قوافلها . وبالرغم من أن رجال قريش وبخاصة أصحاب الأموال منهم كانوا دائماً ضد استعمال القوة المسلحة وتسيير

الحملات العسكرية : فإن ذلك لا يعنى أنهم كانوا جبناء . فقد أثبت كثير من رجال قريش شجاعة فائقة ، وقاتلوا ببسالة كبيرة حينما اضطرتهم الظروف إلى القتال سواء فى الجاهلية أو الإسلام . وقد نالت قريش نفوذاً كبيراً بين قبائل العربية الغربية والوسطى ؛ ولكن هذا المركز الممتاز الذى بلغ أوج قوته فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، لم يكن يرجع إلى شجاعة محاربيها فى المقام الأول ، وإنما يرجع سر هذا النفوذ إلى القوة العسكرية التى كانت تستطيع أن تضرب بها ، ونعنى بذلك قوة الحلف الذى بنته على أساس ارتباطاتها التجارية ، وقيامها فى الوقت نفسه بأمر تنظيم الحج وسدانة البيت ؛ فقد كانت القوافل التى تسير إلى الشمال وإلى الجنوب فى حاجة إلى خدمات البدو باعتبارهم أدلاء وحراسا وحمالين . وكانت القوافل تدفع إتاوة لرؤساء القبائل على أن يدلوها أو يمدوها بالماء وبالتموينات الأخرى ، ومن هنا فإن قبائل البدو كانت تشارك فى تجارة مكة على نحوما ، وبذلك كانت القبائل الضاربة على جنبات الطرق التجارية ترى مصالحها مرتبطة بمصالح مكة ؛ فرخاء مكة يعنى رخاءها وخسارة مكة تعنى خسارتها . وكذلك قوى الشعور بالتضامن مع مكة المحالفات القائمة على المصاهرة بين أبرز رجال مكة ومختلف القبائل العربية(١) ، كما أن

(١) انظر نسب قريش للمصعب الزبيرى (تحقيق بررفنسال) . أصهر عبد مناف إلى بنى سليم وهوازن وزوج بناته فى كنانة مما أدى إلى حلف الأحابيش (ص ١٤ - ١٥) وأصهر ابنه هاشم إلى الخزرج فى يثرب وإلى بنى المصطلق من خزاعة وإلى ثقيف (ص ١٥ - ١٦) وأصهر عبد المطلب بن هاشم إلى النمر بن قاسط وإلى عامر بن صعصعة وإلى خزاعة (ص ١٨) كما أصهر عبد شمس إلى بنى حنظلة من زيد مناة وإلى بنى أسد (ص ٩٨) وأصهر أمية الاكبر إلى بنى عامر وإلى هوازن (ص ٩٩) وأصهر حرب بن أمية إلى بنى تميم (١٢٣) وأصهر أبو سفيان إلى الازد (ص ١٢٦) وأصهر خويلد بن أسد إلى بنى مازن إخوة سليم (ص =

زعماء القبائل كانوا يشاركون مشاركة مادية فى قوافل مكة التجارية ومن هنا كان فى استطاعة أهل مكة أن يستأجروا المحاربين للدفاع عنهم(١) ، ولكن ليس معنى ذلك أن هؤلاء كانوا جنوداً مرتزقة ، بل إنهم كانوا حلفاء ، دخلوا فى محالفات قريش على أساس التكافؤ وكان أبرز هؤلاء الحلفاء أولئك الذين عرفوا بالأحابيش . وقد ذهب لامنس(٢) Lemmens إلى أنهم كانوا زنوجا من بلاد الحبشة . وأن رواة السيرة تعمدوا القول بأنهم عرب ؛ أنفة من أن يقولوا إن قريشاً كانت فى الجاهلية تستعين بالسودان فى الدفاع عن حريتها . وهو قول مردود ، فإن الأحابيش كانوا بطونا من القبائل العربية الضاربة حول مكة من كنانة وخزيمة بن مدركة وخزاعة ، تجمعوا وتحالفوا معاً ، وأخذوا فى الاندماج والتكتل فى طريقهم إلى تكوين قبيلة عربية ، بواسطة الحلف الذى كان سبباً فى تكوين كثير من القبائل العربية القديمة ثم تحالفوا مع قريش فى النصف الثانى من القرن السادس(٣) وقد ظلوا طوال عصر النبوة قوة عربية لها كل خصائص القبيلة من سيد

= ٢٢٩) وأصهر هشام بن المغيرة فى بنى نهشل بن دارم (ص ٢٠٢) وأصهر أبو جهل بن هشام إلى بنى هلال بن عامر وإلى بنى تميم وإلى بنى عبس (ص ٣١١ — ٣١٢) والامثلة على مصاهرات قريش مع القبائل كثيرة جداً يجدها كل من تتبع أنساب قريش .

(١) ابن هشام ٢/٤ — ٥ ، ٢٣٠ . الواقدى ٧٩٠ (يقول الواقدى عند الكلام عن الخندق « إن قريشا جمعوا الجموع واستأجروا حيا من قبائل العرب ، فسارت غطفان وأسد وسليم وقريش ومن دخل فيها فاجتمع منهم نفر جم »)

Oleary. Arabia before muhammad. p. 181

(٢) Lamoms. les Ahabis et lorganisotion militaire de la Meoque (journal asiatiqne. VII. 1916 P. 425—482) O'lcary, P. 185-

(٣) انظر ابن الأثير ١/٢٥٨ ، ٢٦٥ . العقد الفريد ٣/٣٤٠ . نسب قريش ص ٩ .

يتزعمها(١) ؛ وأرض تنزلها ، وراية تحف بها عند الحرب : وأنها كانت من حيث علاقاتها السياسية مع قريش تنزل منها منزلة الحليف من الحليف والند من الند . وأنها كانت مسموعة الكلمة فى الشئون العامة لقريش(٢) . وقد استخدمت قريش قوة الأحابيش فى الحرب التى خاضتها ، وكانت قوة الأحابيش ذات أثر كبير فى الحروب التى وقعت بين مكة ويثرب فى عهد النبى ، حتى إن قريشا حين خرجت للحرب بمفردها فى موقعة بدر منيت بهزيمة شديدة . وقد عرف النبى كيف يفل قوة الأحابيش التى كانت تعتز بها قريش ؛ بأن اجتذب إلى جانبه القبائل التى كانت تنتمى إليها أحياء الأحابيش . كما غزا بعض هذه البطون(٣) ؛ وبذلك انكسرت شوكة الأحابيش وانتهى حلفهم نهائياً بعد فتح مكة (٤) .

كما كان لقريش عدد كبير من العبدان والموالى الذين يقاتلون فى صفوفها .(٥) ولم تكن قوة قريش الذاتية التى تستطيع أن توجهها إلى ميدان القتال لتزيد على ألف ونصف من المحاربين . ولكنها كانت تستطيع أن توجه إلى القتال أربعة آلاف مقاتل وقوة من الفرسان

---

(١) ابن هشام ٤/٤٤ ، ٣٦٠ .

(٢) نفسه ٣/٣٦٠ . ابن الأثير ١/٣٦٢ .

(٣) ابن هشام : (اجتذب النبى إلى جانبه قبائل خزاعة ، فيروى ابن إسحاق أن خزاعة كانت مسلمهم ومشركهم عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم – أى موضع سره – بتهامة صفقهم معه – هواهم له – لا يخفون عنه شيئاً (٣/٥٣) كما أن غفارا وهى من كنانة ، وأسلم وهى من خزاعة أخذتا جانبه (٣/٣٩٤ ، ٤/٢٦) . وكذلك غزا بنى المصطلق ثم صالحهم وضمهم إلى جانبه (٣/٣٧٣ ، ٣٤٠) .

(٤) انظر عن الأحابيش . العبادى : صور من التاريخ الإسلامى ١/١٣ – ٢١ .

(٥) البخارى ٣/١٤٧ .

لا تزيد على أربعمائة ، إذا انضم إليها أحابيشها ومواليها وحلفاؤها من قبائل كنانة وبعض بطون هذيل وخزاعة من قبائل تهامة . وأكبر قوة استطاعت قريش أن تجمعها فى معركة من المعارك منها ومن كل أحلافها هى عشرة آلاف مقاتل ، وهى التى حاصرت بها المدينة فى غزو الخندق ، وجمعت فيها كل حلفائها من القبائل العربية التى ارتبطت مصالحها بمصالح قريش ، وهى قوة كبيرة لم تعتد مثلها الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى .

كذلك كانت قريش حليفة قديمة لبنى كنانة وبنى بكر ، ويرجع حلفها مع كنانة إلى أيام قصى بن كلاب . حينما جمع قريشا وحالف كنانة لحرب خزاعة . وقد اضطرت قريش إلى القتال إلى جانب كنانة ضد قيس وهوازن فى حرب الفجار استجابة لهذا الحلف ، وقد أثبتت حرب الفجار مقدار تماسك قريش واتحاد بطونها ورجالها ، وأنهم لم يكونوا متهورين تهور غيرهم فى الحروب . بل كانوا يميلون إلى التعقل والتدبر قبل الإقدام على الحرب . وبالرغم من رجحان كفتها فإنها دعت إلى الصلح وأفلحت فى إعادة حسن العلاقات بين الطرفين ؛ لأن مصالحها التجارية كانت تستلزم هذه العلاقات الطيبة . وكذلك ظلت كنانة إلى جانب قريش عند ظهور الإسلام ؛ فقد اشتركت مع قريش فى الحلف ضد بنى هاشم وحصرهم فى أحد شعاب مكة(١) ، وكذلك قاتلت إلى جانب قريش فى حروبها ضد يثرب . كما كانت قريش على علاقات طيبة ودية مع القبائل الضاربة على جنبات الطريق

---

(١) البخارى ٢/١٤٨ ، ٤/٧١ .

التجارى مثل جهينة ومزينة وغطفان وأشجع وسليم وبنى سعد وبنى أسد ، وكان لهم من هذه القبائل حلفاء يعيشون فى مكة ويعتبرون أنفسهم من القبيلة جريا على النظام القبلى(١) . وكذلك كانت قريش على صلات طيبة ببنى عذرة من قضاعة على أطراف بادية الشام من أيام قصى بن كلاب ، وقد أعان بنو عذرة القضاعيون «قصى» فى الوصول إلى حكم مكة . وكانت صلات مكة طيبة كذلك وقوية بالقبائل التى تعيش إلى جنوبها ، مثل قبيلة خثعم التى كانت تعيش فى الهضبة الممتدة من الطائف إلى نجران عند طريق القوافل الممتد من اليمن(٢) . وتتحدث الروايات عن صداقة عبد المطلب بن هاشم مع ذى نفر الحميرى الذى تصدى لقتال أبرهة دفاعا عن مكة . كما تصدى له نفيل بن حبيب الخثعمى بقبيلتى خثعم «شهران وناهس» (٣) .

على أن الاحتفاظ بود القبائل البدوية والحلف معها أمر يحتاج إلى حنكة ومهارة ، ودراية بنوازع نفوس البدو الحساسة . وأنفتها الشديدة التى قد تثيرها أمور بسيطة يعدها الحضرى تافهة . ولكنها فى نظر البدوى عظيمة قد تثير الحروب وتسفك من أجلها الدماء ، فكلمة شديدة أو تصرف يبدو فيه بعض الإهانة قد يثير عواطف البدو فتسل السيوف وتسيل الدماء ؛ وعند ذلك تقع الغارات وتثور الأحقاد وتتفانى القبائل . فلم يكن المال وحده كافياً للحفاظ على حسن الصلات بهذه القبائل البدوية . وإنما هى السياسة الحكيمة الصبور التى

---

(١) الذهبى : سيرة أعلام النبلاء ١/٢٢١ - ٢٢٣ .

(٢) جواد على ٤/٢٦٢ .

(٣) ابن هشام ١/٤٧-٤٨ . الأغانى ٢/٢٤٢ - ٢٤٣، ٣١٦ .

اشتهرت بها قريش وضمنت بها ولاء القبائل لها ؛ بل ضمنت بها تفوقها عليها واعترافها بسيادتها .

وكما حالفت قريش قبائل البادية ، فإنها كانت على علاقات طيبة مع المدن الأخرى الموجودة فى الحجاز ، فكانت صلاتها وثيقة بقبيلة ثقيف فى الطائف . وقد كانت الطائف مصيف أهل مكة ، ولا يوجد غنى فى مكة إلا وله فى الطائف بستان ، وكان تجار مكة يجلبون من الطائف الخمور والزبيب والأدم (الجلود المدبوغة) ، وكان أهل مكة يستهلكون كثيراً من أعناب الطائف ورمانها ، كما أن الثقفيين كانوا يشاركون فى قوافل مكة التجارية ، كما كانت سوق عكاظ ، وهى أكبر أسواق العرب ، تقوم على مقربة من الطائف بينها وبين مكة . وتشير الآية القرآنية «وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ(١)» إلى خطورة شأن رجال الطائف ، وأنهم يماثلون أهل مكة قوة وجاها ، وفى هذا إشارة لما كان بين مكة والطائف من ترابط بحيث لو كان - كما زعموا - قد نزل القرآن على عظيم من أيهما لاتبعوه جميعا . ولقد كان كثير من رجال الطائف حلفاء للقرشيين وقد بلغ بعضهم مبلغ السيادة فى البطون القرشية . كالأخنس بن شريق حليف بنى زهرة الذى كان مسموع الكلمة فيهم مطاعا(٢) ، كما كانت قريش تشرك رجال الطائف فيما يهمها من الأمور الكبيرة ، وقد كان عروة بن مسعود الثقفى أحد الرسل الذين بعثت بهم لمفاوضة النبى عند نزوله بالحديبية (٣) .

---

(١) الزخرف ٣١ .
(٢) ابن هشام ٢/٢٥٨ .
(٣) نفسه ٣/٣٦١ - ٣٦٢ .

- كذلك كانت صلات قريش طيبة بمدينة يثرب ، وقد أصهر هاشم بن عبد مناف إلى بنى النجار الخزرجيين من أهل يثرب ؛ وظل ابنه عبد المطلب على صلة وثيقة بأخواله هؤلاء . كما كان لغيره من زعماء مكة صداقات مع زعماء يثرب ، فقد كان أمية بن خلف الجمحى صديقاً لسعد بن معاذ الأشهلى زعيم الأوس(١) ، كما كان العاص بن وائل السهمى وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس وغيرهم على صلات طيبة ووثيقة بأهل يثرب(٢) . ولكن على الرغم من هذه الصلة الوثيقة فإن قريشا لم تشأ أن تتورط فى حلف مع اليثربيين قد يجر إلى أن تتدخل فى الحرب الداخلية التى نشبت بين الأوس والخزرج قبيلتى يثرب . وقد ظلت علاقاتها طيبة برغم ما كان يمكن أن يحدث من تنافس بين المدينتين الواقعتين على طريق التجارة . ولم تحدث الجفوة والعداء بينهما إلا بعد هجرة الرسول إلى يثرب وتكوين الدولة الإسلامية بها ، وشعور قريش بالخطر الداهم على تجارتها . والذى أصبح يكمن فى يثرب بهذا الوضع الجديد الذى أحدثته الهجرة . فقد عد المكيون إيواء النبى والمهاجرين تحديا لهم وتهديداً لمصالحهم ؛ ومن أجل ذلك وقع الصدام بين المدينتين(٣) .

وكانت صلات مكة باليهود جميعاً طيبة فى يثرب وخيبر وتيماء ووادى القرى ، وكان القرشيون يحترمون اليهود ويرون أنهم أهل العلم

---

(١) البخارى ٥/٧٣ .

(٢) الذهبى ١/٢٠٣ - ٢١٩ .

(٣) البخارى ٥/٧٢ .

والكتاب الأول(١) ؛ كما كان اليهود يجلون القرشيين ويعتبرونهم سادة العرب وملوك الناس(٢) . ولم يكن اليهود فى جزيرة العرب يحفلون كثيراً بتعاليم التوراة التى تأمرهم بالبعد عن الوثنيين وتلزمهم عداءهم ومحاربتهم . وإنما كانوا يجرون وراء مصالحهم المادية . وجريا وراء هذه المصالح تورطوا فى الإثم حينما سألهم المكيون أدينهم خير أم ما يدعو إليه محمد . فناصروا الوثنية على التوحيد الذى جاء به الإسلام ، والذى حملوا هم لواءه آلاف السنين ولقوا فى سبيله كثيراً من الاضطهاد والعذاب(٣) . ولقد نعى عليهم القرآن هذا التورط فى الضلال ولعنهم فقال «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً(٤)» .

كذلك مالأ اليهود فى يثرب القرشيين منذ بدأ الصراع بينهم وبين المسلمين . بالرغم من العهد الذى عقده النبى معهم . وانبرى شعراؤهم يمدحون المكيين ويرثون قتلاهم ويؤلبون قريشاً والعرب لحرب المسلمين . وانتهى الأمر بأن عقدوا حلفا مع القرشيين وجمعوا إليه قبائل العرب لحرب المسلمين فى غزوة الخندق .

---

(١) ابن هشام ١/٣٢٠ (« بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبرهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ») .

(٢) نفسه ٢/٤٣١ .

(٣) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ١٤٢ — ١٤٣ . التوراة : تثنية ، إصحاح ٧ آية ٣ — ٦ .

(٤) النساء ٥١ — ٥٢ .

بهذه الصلات الحسنة أمنت مكة عادية القبائل العربية ، كما أمنت خصومات المدن الحجازية ، ولما كانت قد استطاعت المحافظة على وحدة القبيلة الداخلية وتوطيد السلام فى مكة . فقد نالت تفوقا كبيراً وحظيت باحترام عام من كافة أنحاء الجزيرة العربية وأصبحت تنافس صنعاء فى زعامة الجزيرة العربية ، بل إنها تفوقت عليها فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، وأصبحت العاصمة العربية التى تتجه إليها نفوس العرب وعواطفهم القومية ، وبخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها ، وكذلك تضعضعت مملكة الحيرة ومملكة غسان .

* * *

الفصل الرابع

علاقات مكة الخارجية

شهد القرن السادس الميلادى ذروة الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية ومن لفّ فى فلكها . كدولة الأحباش . وبين الإمبراطورية الفارسية : وكان ميدان هذا الصراع بلاد الشرق الأوسط ، وهدفه بسط نفوذ الدولتين على ربوع هذا الشرق ؛ بغية السيطرة على طرق التجارة العالمية التى تمر ببلاد هذا الشرق . وقد وصل هذا الصراع إلى ذروته العظمى فى نهاية هذا القرن ، وبلغ غايته بانتهاء الربع الأول من القرن السابع . حيث انتهى نهاية أبدية . وذلك لأن دولة جديدة فتية قامت فى جزيرة العرب . وهى منطقة لم تشهد قيام دولة موحدة من قبل ، ولم يخطر ببال أحد أن تقوم بها مثل هذه الدوله . فوضعت حداً أبديا لهذا النزاع . فإنها لم تلبث بعد أن قامت إلا قليلا حتى خرجت إلى المجال الخارجى . واصطدمت بالإمبراطوريتين الكبيرتين اللتين كانتا تتحكمان فى مصير العالم وقتذاك ؛ فالتهمت إحداهما وهى الإمبراطورية الفارسية . وطردت الأخرى عن هذه المنطقة فلم تعد إليها مرة أخرى ، بل ما لبثت أن تعقبتها فى عقر دارها حتى سقطت على يد رجال يدينون بدين هذه الدولة الفتية ويخضعون خضوعا معنويا لها ، فقد سقطت القسطنطينية عاصمة بيزنطة فى يد الترك العثمانيين المسلمين سنة ١٤٥٣م

والصراع على الاستيلاء على تجارة الشرق بالسيطرة على طرقها صراع قديم سابق على ميلاد المسيح بقرون طويلة ؛ ربما يرجع إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية (١٥٨٠ ق . م) التى سيرت أساطيلها فى البحر الأحمر إلى أرض البخور على شاطىء البحر الأحمر فى الجنوب .(١) ثم جاء العصر الإغريقى فحاول الإسكندر الأكبر حين فتح بلاد الشرق أن يمد نفوذه على بلاد الغرب حيث تمر طرق التجارة فلم يتم له ما أراد(٢) . ثم نجح البطالمة خلفاء الإسكندر فى مصر ، فوصلت أساطيلهم إلى الجنوب . واستطاعت أن تحول جانبا كبيرا من تجارة الشرق إلى طريق البحر الأحمر ثم مصر . ثم لم تلبث الأساطيل الرومانية -بعد البطالمة- أن مخرت عباب البحر الأحمر لنقل هذه التجارة(٣) . ولكن الطريق البرى ظل مفتوحا . فأرسل الرومان حملة بقيادة أليوس جالوس سنة ٢٤ ق . م فى عهد القيصر أغسطس للاستيلاء على الطريق البرى بالاستيلاء على رأسه الجنوبى (اليمن) بعد أن أصبح فى أيديهم رأسه الشمالى (الشام) ولكن هذه الحملة باءت بالفشل(٤) .

ولما حل البيزنطيون محل الرومان ؛ وقامت فى المشرق دولة الفرس الساسانية ، اشتبكت الدولتان فى صراع امتد على الزمن وتعددت وسائله فقد استخدمت فيه القوة المسلحة ، كما استخدمت السياسة والدين(٥) .

---

(١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس ٢/٣٧٧ ، ٤٦٠ - ٤٦٢ . جورجى زيدان . العرب قبل الإسلام ص ١١ .

(٢) جورجى زيدان نفسه ١١٥ .

(٣) جواد على ٣/١٩ ، ٢٠ حتى تاريخ العرب ٧٢ .

(٤) حتى نفسه ٧٠ .

(٥) نفسه ٦٢ ٧٣ - ٧٥ .

وكانت بلاد الشرق الأوسط محور هذا النزاع وميدان التصارع بين الدولتين . وقد دخلت أطراف الجزيرة العربية الجنوبية والشمالية فى مجال هذا الصراع ، بل إن الاستيلاء عليها باعتبارها رؤوس طرق التجارة الشرقية كان هو الهدف من وراء هذا التطاحن بين الدولتين الكبيرتين ، وشهد القسم الشمالى من الجزيرة العربية أعنف المعارك الحربية بينهما ، كما شهد القسم الجنوبى أنواع الصراع السياسى والدينى . أما داخل شبه الجزيرة العربية فلم يدخل فى دائرة الصراع إلا فى القرن السادس الميلادى ، إذ أن التجارة كانت فى يد اليمنيين الذين قاموا على نقلها منذ زمن مبكر جدا ، فى عهد الدولة المعينية (١٣٥٠ ق . م) ثم السبئية والحميرية ، ولم يكن فى فتح داخل شبه الجزيرة الصحراوى مطمع لفاتح ، لقلة خيراتها وصعوبة تسيير الجيوش إليها ، كما لم تكن مدن الحجاز لتزيد على كونها محطات تجارية تنزلها القوافل للراحة والتزود ، ولذلك لم نسمع عن غزو وجه إلى داخلية شبه الجزيرة أو إلى مدنها الواقعة على طرق التجارة ، ومع أن حملة أليوس جالوس سنة ٢٤ ق . م اخترقت شبه الجزيرة ووصلت إلى منطقة مأرب(١) ، فإنه لم يذكر أنها توقفت عند مكة أو عند يثرب أو الطائف ، كذلك لم نسمع عن جيوش رومية أو فارسية قصدت هذه المنطقة ؛ لبعد الشقة وصعوبة وصول الجيوش إليها ، فظلت بعيدة عن متناول يد الدول الكبرى . وحتى فى القرن السادس الميلادى لم تفكر بيزنطة فى إرسال جيوشها عبر جزيرة العرب ، حين طلب إلى القيصر أحد الفارين المسيحيين من نجران النجدة ضد الملك اليهودى الذى

---

(١) جواد على ٢/٣٨٤ — ٣٨٦ .

نكل بالمسيحيين فيها ؛ فقد اعتذر له القيصر بأن بلاده بعيدة(١) ، وظهر أن الروم لم ينسوا الدرس الذى تلقته حملة أليوس جالوس من قبل . كذلك تردد كسرى فى إجابة ملتمس سيف بن ذى يزن حين طلب إليه تسيير جيوشه لتخليص اليمن من حكم الأحباش . برغم أن «سيف» عرض حكم بلاده على كسرى(٢) . وقدتحالفت بيزنطة مع الحبشة القريبة من بلاد العرب واتخذت منها أداة لبسط نفوذها على بلاد اليمن . كما اتخذت الدولتان من الدين وسيلة لإضعاف هذه البلاد وبسط نفوذهما عليها . فحاولت بيزنطة نشر المسيحية بين أهل اليمن : وردت فارس على هذا بأن شجعت الديانة اليهودية المعادية للمسيحية . وقد كان من نتيجة ذلك أن قامت الخلافات الداخلية ؛ مما أدى إلى إضعاف دولة الحمريين . ثم أدى إلحاح الأحباش عليها بالغزو إلى سقوطها فى أيديهم سنة ٥٢٥ م . ثم سقوطها بعد ذلك تحت الحكم الفارسى سنة ٥٧٥ م (٣) .

وبسقوط اليمن تحت الاحتلال الحبشى ثم الفارسى . وقيام الخلافات الداخلية فيها ، فقدت قدرتها على النهوض بدورها الذى اضطلعت به قرونا طويلة فى نقل التجارة العالمية . ولما كان النزاع بين الفرس والروم قد أدى إلى قفل طريق التجارة الشرقى المار ببلاد العراق إلى الشام ، وكان الطريق البحرى عبر البحر الأحمر قد خلا من سفن الروم ، ولم تقو البحرية الحبشية على سد الفراغ فيه ، وأصبح ميدانا لسفن القراصنة فوق صعوبة الملاحة نفسها فى هذا البحر بسبب

---

(١) ابن هشام ١/٣٦ .
(٢) نفسه ١/٦٦ .
(٣) ابن هشام ١/٢٣ .

الرياح الشمالية التى تعاكس السفن فى إبحارها نحو الشمال ، ولوجود الشعب المرجانية وخلو شواطئه من المرافىء الصالحة لرسو السفن وحمايتها وقلة الماء والمؤن على جانبيه ؛ فإن الطريق البرى عبر تهامة والحجاز أصبح هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة ، وكان لابد بعد زوال النشاط اليمنى أن يوجد من يسد الفراغ ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين لنقل هذه التجارة (١) .

وقد وجد هذا الوسيط المحايد ممثلا فى مدينة مكة ، التى حظيت بنوع من التنظيم والاستقرار على يد قبيلة قريش منذ منتصف القرن الخامس الميلادى ، وقد حظيت بمكانة سامية بين عرب الشمال الذين بدت فيهم نهضة قومية فى ذلك الحين ، وأخذوا يتطلعون إلى زعامة عربية تتجه إليها عواطفهم ، وبخاصة بعد أن وقعت أطراف الجزيرة العربية الجنوبية والشمالية ، ممثلة فى اليمن والحيرة والغساسنة ، تحت النفوذ الأجنبى .

وبقيام مكة على نقل التجارة بدأت تطرق المجال الخارجى ، وبدأت تتخذ لها علاقات مع الدول المحيطة بالجزيرة العربية والتى أصبحت هى الوسيط فى نقل التجارة منها وإليها . وقد عمل رجال قريش على ألا يزجوا بأنفسهم فى مجال هذا الصراع الدولى ، بل حرصوا على الحيدة التامة بين المتنازعين ، وقد أعانهم على اتخاذ موقف الحياد رغبة المعسكرين فى وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية ، وبعد مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى ، ومع ذلك فلم تسلم مكة من

---

(١) Husayyen. Arabia and the Ear East B, 142—143

محاولة السيطرة عليها محاولات حربية وسياسية باءت بالفشل ؛ بفعل عوامل خارجة عن قدرة المكيين مرة ، وبإصرار رجال مكة على حيادهم واطمئنانهم إلى موقفهم مرة أخرى (١) .

علاقة مكة بالجنوب :

علاقة الحجاز باليمن قديمة جداً ترجع إلى أيام الدولة المعينية ثم السبئية والحميرية (١٣٥٠ ق.م - ٥٢٥ م) الذين امتد نفوذهم إلى شمال بلاد الحجاز ، حيث أسسوا لهم مستعمرات على طول الطريق التجارى ، فى مُعان والعَلا كما تشهد بذلك النقوش التى وجدت فى هذه المناطق(٢) . وفى أيام هذه الدول لم تكن مكة أكثر من محطة تمر بها القوافل ويجد معبدها الاحترام وبخاصة من ملوك التبابعة ، حيث تذكر الروايات أن التبع تبان أسعد أبا كرب الحميرى كان أول من كسا البيت الحرام وعظمه وأوصى بتعظيمه وكسوته(٣) . وقد كانت القبائل الجنوبية هى أول من سكن مكة ، وكان لقبيلة خزاعة ، التى هى فرع من الأزد ، دور فى عمارة مكة وتنشيط الحج إلى بيتها الحرام .

وفى عهد قريش اتصل أحد رجال مكة وهو المطلب بن عبد مناف بأقيال اليمن الحمريين وعقد معهم اتفاقاً على أن تقوم قريش بالمتاجرة فى أرضهم ، وقد اتصلت تجارة قريش باليمن منذ ذلك الوقت - حوالى بداية القرن السادس - وسيطرت قوافلها التجارية تماماً على نقل هذه

(١ ، ٢) حتى : نقوش أشار إليها ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٤ . جواد على ١/٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨ . Gerald do Gaury, Rulers of Mecca P. 24

(٣) ابن هشام ١/١٩ - ٢١ .

التجارة . وقد تضاءل شأن تجار اليمن واكتفوا بالتجارة مع قريش ؛ وكان قصاراهم أن يبيعوا بضائعهم لتجار مكة إذا قدموا إلى الشمال .

وكما حظيت مكة وبيتها الحرام بنفوذ كبير بين عرب الشمال ، كذلك أصبح لها مكانة عظيمة فى نفوس عرب الجنوب الذين فقدوا استقلالهم وتطلعوا بدافع القومية إلى هذا البلد العربى المستقل ، حتى لقد غضبوا حين جهز أبرهة حاكم اليمن الحبشى حملة لغزو مكة . وتصدت له بعض القبائل اليمنية وقاتلته . وقد قامت علاقات صداقة ومودة بين زعماء مكة ورجالات اليمن ؛ فتحدثنا الروايات عن صداقات عبد المطلب بن هاشم وبعض أقيال اليمن ووفاداته عليهم(١) . وقد قدم وفد مكة لتهنئة سيف ذى يزن بعد انتصاره على الأحباش . وربما كان قدوم هذا الوفد تعبيراً عن الابتهاج بهزيمة الحبشة التى كانت قد غزت مكة من قبل . ولكنه كان على كل حال تعبيراً عن الغبطة بانتصار رجل عربى على أعدائه . وذليلا على حسن الصلة والمودة . وقد أكرم سيف الوفد وحَبَاه وحظى عبد المطلب زعيمه بعظيم عطفه وكرمه(٢) .

أما علاقة مكة بالحبشة فإنها بدأت منذ خرجت مكة بتجارتها إلى المجال الخارجى ، فإنه فى الوقت الذى اتصل فيه المطلب بن عبد مناف بأقيال اليمن ، اتصل أخوه عبد شمس بالنجاشى ، وأبرم معه اتفاقاً مماثلا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحبشة لقريش وجهاً ومتجراً(٣) .

---

(١) ابن كثير ٢/١٧١ – ١٧٢ (كان عبد المطلب صديقاً لذى نفر الحميرى وهو الذى تصدى لحملة أبرهة عند خروجها متجهة إلى مكة وقاتلها ولكنه هزم، وكان ذو نفر من أشراف أهل اليمن وملوكهم) .

(٢) ابن كثير ٢/٣٢٩ .

(٣) الأغانى ٨/٥٢ .

وكانت الحبشة مصدراً هاماً من مصادر التجارة الشرقية ؛ فقد كانت تنتج البخور واللادن والأطياب وريش النعام والعاج والجلود والتوابل — كما كانت منطقتها المصدر الأول لتجارة الرقيق الأسود . وكانت قريش إذ تحصل منها على هذه السلع الهامة تحمل إليها ما تحتاج إليه من حاصلات الشام ومصنوعاته . ومن حاصلات الجزيرة العربية نفسها .

ولما استولت الحبشة على اليمن ، لم تستطع أن تقوم بدور كبير فى التجارة التى أصبح نقلها يتم على أيدى التجار المكيين : الذين أصبحوا الوسطاء المسيطرين على قوافل التجارة الخارجية . كما كفل لهم قيام البيت الحرام وإقرار هدنة الأشهر الحرم وقيام الأسواق فى منطقة مكة — السيطرة على تجارة شبه الجزيرة العربية الداخلية . وقد فكر حاكم اليمن الحبشى أبرهة أن ينافس مكة فى هذه المكانة لعله ينتزع منها التجارة الداخلية ؛ فأقام كنيسة فى صنعاء ، حرص على أن تكون غاية فى الفخامة والروعة ؛ ليجلب إليها العرب للحج والمتاجرة(١) . ولكن عمله هذا لم يأت بنتيجة ، وذلك لأن الكتلة العظمى للقبائل العربية كانت وثنية ، وقد كانت مكة مأوى أصنام العرب ثم إن البيت الحرام كان محل تعظيم العرب جميعا . لأنه البيت الذى بناه إبراهيم وإسماعيل اللذان يرد العرب أنسابهم إليهما ، فكان اتجاههم إلى مكة يرضى عاطفتهم الدينية والقومية على السواء . وقد دعا الفشل واحتقار العرب للكنيسة التى أقامها أبرهة .. إلى قيامه بحملة ضد مكة لتدمير بيتها الحرام فتسقط بذلك مكانتها الدينية ؛ ومن ثم تذهب مكانتها بين العرب من ناحية ، وليسيطر على هذه المحطة التجارية من ناحية

---

(١) حتى ٧٦ .

أخرى ؛ ليتم اتصال الحبشة عبر الطريق البرى بحليفتها بيزنطة التى كانت تسيطر على بلاد الشام ، والتى ربما كانت من وراء هذا الغزو الحبشى ، ليصبح هذا الطريق الهام فى يدها ويد حلفائها ؛ وإن كانت لم تظهر على مسرح الحوادث فى هذا الموضوع(١) . وقد فشلت حملة أبرهة بظروف بعيدة عن عمل المكيين(٢) ؛ فقد تفشى المرض فى جيش أبرهة وهو على أبواب مكة بعد أن عجزت القبائل عن التصدى لهذا الجيش . كما عجزت مكة عن تهيئة قوة لحربه والوقوف فى وجهه . وقد زاد هذا الحادث من مكانة مكة الأدبية وأكد زعامتها السياسية والروحية .

وعلى الرغم من هذا العمل العدوانى من جانب الحبشة ؛ فإن العلاقات ظلت قائمة بين البلدين ؛ لحاجة كل منهما إلى الآخر ، ولأن الحبشة لم تفكر بعد ذلك فى تكرار هذا العمل العدوانى ؛ وبخاصة بعد أن تغيرت الظروف بطردها من اليمن ، ولأن قريشا اطمأنت لمركزها بعد تراجع الأحباش عنها وبعد خروجهم من الجزيرة العربية كلها بعد هزيمتهم أمام الفرس . ولم يصبح أمام الحبشة إلا هذا الوسيط العربى الذى يقوم على التجارة ؛ فإنه لم يكن من المستطاع أن تخلق تجارة مع الفرس أعدائها وأعداء حلفائها الروم .

وفى أيام البعثة النبوية كانت علاقة مكة مع الحبشة علاقة وطيدة ، وكان تجار قريش على صلة دائمة وعلاقات طيبة مع هذه البلاد وعلى

---

(١) لا يستبعد أوليرى O'leary أن بعض التجار الروم فى مكة كانوا يقومون بأعمال التجسس لحساب بلادهم .

(٢) سورة الفيل .

معرفة بأحوالها ، الأمر الذى جعل النبي يفكر أول ما يفكر فى الحبشة حين اضطر إلى أن يشير على أصحابه بالهجرة ؛ فهاجروا إليها ووجدوا فيها ملجأ وحماية ، وفى حسن استقبال هؤلاء المهاجرين ورعايتهم ، وفى إرسال قريش سفارة قابلت النجاشى وفاوضته فى رد هؤلاء المهاجرين(١) ؛ ما يدل على أن العلاقة كانت وطيدة بين البلدين . وقد ظلت العلاقات الطيبة قائمة بينهما بعد ذلك مدة طويلة .

ولابد أن صلة مكة التجارية بالجنوب قد ازدادت بعد قفل طريقها الشمالى إلى الشام بعد هجرة النبي إلى يثرب ودخوله فى صراع مع قريش ، فإن بلداً مثل مكة لا يقوى على عدم المتاجرة وإلا أكل رؤوس أمواله وهدد بالخراب .

علاقة مكة بالشمال :

علاقة مكة بالشمال قديمة ترجع إلى أيام النبطيين الذين كانوا يقومون على التجارة فى شمال بلاد العرب . والذين امتد سلطانهم إلى شمال الحجاز . وقد عمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز بين النبطيين فوضعوا فى الكعبة تماثيل أرباب كان يعبدها النبطيون . يعد الرواة منها : هُبل . كما استقدموا إلى منطقتها آلهة أخرى منها اللات ومناة والعزى(٢) ؛ ولاشك أن قصة عمرو بن لحى الذى اتفقت الروايات

---

(١) ابن هشام ١/٢٤٣ ، ٣٥٦ – ٣٦١ . O'leary, p. 184

(٢) ابن الكلبى : الأصنام ٢٨ . الأزرقى : تاريخ مكة ١/٦٨ وما بعدها . ابن هشام ١/٦٢ – ٦٣ هامش الروض .

(كان الصنم مناة منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة ، وكان معظما خاصة عند الأوس والخزرج ، وكذلك كانت تعظمه القبائل الأخرى وفى جملتها قريش

على أنه نقل الأصنام من بلاد النبط إلى الكعبة إنما هى وسيلة من وسائلهم لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال ، وإيناسهم بها كلما رحلوا إلى الحجاز ، وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام .

ولما قدم قصى إلى مكة وجمع قريشاً ونازع بها خزاعة للاستيلاء على مكة ، استعان بقضاعة . وهى إحدى القبائل التى كانت تقيم فى بادية الشام وتخضع للغساسنة الذين كانوا تحت النفوذ البيزنطى .

وحين ورثت بيزنطة سلطان الرومان فى المشرق ورث معه البيزنطيون رغبة الرومان فى الاستيلاء على طريق التجارة عبر الحجاز ، إذ أن الطريق عبر العراق كان فى يد خصومهم الفرس . وفى الوقت الذى حصلت فيه مكة على عهود من الحميريين والأحباش على غشيان بلادهم للمتاجرة ، حصل أحد زعماء مكه «هاشم بن عبد مناف» على عهد من الغساسنة والروم على المتاجرة فى أرض الدولة البيزنطية(١) ، لكن

وهذيل وخزاعة وأزد شنوءة وسدنة من الأزد . والصنم مناة هو « منوتن أو منوت Manavat » عند النبط . وأما الصنم اللات فإنه من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب وهو « أليلات Alelat » الإله الرئيس عند العرب فى أيام المؤرخ هيرودوت ، ويدل على ذلك أن عبادة كانت منتشرة عند العرب الشماليين وهو « اللت » فى نصوص الحجر وصلخد وتدمر أى فى النصوص النبطية التى عثر عليها فى هذه الجهات ، وقد تسمى به « وهب اللات » ابن الزباء ملكة تدمر (انظر النقش المنقول بين صفحتى ٩٢ ، ٩٣ من الجزء الخامس — جواد على) وقد عد النبط « اللات » أما الآلهة والعزى صنم أنثى كذلك وهو أحدث عهداً فى نظر ابن الكلبى من اللات ومناة . قد وضعت بواد من نخله الشآمية يقال له حرض ، وكانت قريش تتعبد للعزى وتخصها بالإعظام ، وكان أهل الحيرة يتعبدون لها ، ويمنون بالعزى كوكب الصباح . أما هبل فقد ذكر الرواة أنه كان أول صنم جاء به عمرو بن لحى من مؤاب من أعمال البلقاء أو من هيت بالعراق ، وقد ورد اسم هبل فى الكتابات النبطية التى عثر عليها فى الحجر) انظر : جواد على : ٥/٨٩ — ١٠٤ .

(١) الطبرى ٢/١٢ .

البيزنطيين عملوا من ناحية أخرى على أن يضعوا أيديهم على الرأس الجنوبي لهذا الطريق والاتصال مباشرة بمنابع التجارة الشرقية ، ولما لم يكن في الإمكان تسيير جيوشهم إليه فقد اتخذوا الحبشة حليفة لهم لتقوم بهذا الدور ، واصطنعوا الدين وسيلة لذلك . وحين استطاعت الحبشة الاستيلاء على اليمن ، عمل الحليفان على الاتصال عبر هذا الطريق ، وبذلا محاولات للسيطرة عليه وإزالة ذلك الوسيط التجاري وهو مكة . ولاشك أن حملة أبرهة كانت إحدى هذه المحاولات العسكرية(١) . كما بذل الروم محاولة سياسية أخرى لتمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لدولة الروم . فارتضى قيصر لملك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى القرشي ، وكان عثمان ممن تمردوا على الوثنية من حكماء مكة وبحثوا عن ديانة أخرى أفضل منها . وقد قدم عثمان على قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده(٢) وملّك قيصر عثمان على مكة ومنحه براءة بذلك وكتب له كتبا يبلغها قومه . فعاد بها . وجمع قومه إليه يرغبهم في حسن الجزاء من قيصر . وينذرهم بسوء العاقبة في الشام إذا اهم عصوه . وأهون ما هنالك أن يغلق قيصر أبواب الشام في وجوههم . وهم قد نظموا قوافلهم على الذهاب إليها والمتاجرة فيها في صيف كل عام . قال « يا قوم إن قيصر قد علمتم مكانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه . وقد ملكني عليكم . وأنا ابن عمكم وأحدكم ؛ وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن ؛ والاهاب : فأجمع ذلك ثم أذهب إليه . وأنا

---

(١) جواد على ٤/١٦٥ .

(٢) الروض الأنف ١/١٤٩ . ابن هشام ١/٢٤٣ . الأغاني ٣/١١٢ . ابن كثير ٢/٢٤٣ . المشرق (السنة الخامسة والثلاثون) ١٩٣٧ ص ٢٧٠ . جواد على ٦/٢٠٤ Lammens. la Mecque p. 270-279. 366-375.

أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه (١) » وقد يبدو الأمر غريباً أن يملك قيصر رجلا على مكة وليس للبيزنطيين نفوذ على هذه الجهات ، فإن نفوذهم الفعلى لم يتجاوز فى وقت من الأوقات أعالى الحجاز ، ولكن ذلك لا يمنع من حصول عثمان أو غير عثمان على براءات وأوراق اعتراف من الروم بملك سيد على قبيلة أو أرض ليس للروم عليها سلطان ، فقد كان حصول المشايخ والأمراء على أمثال هذه الأوراق وبراءات الاعتراف نوعا من أنواع الإكرام والتقدير الأدبى يكسب حاملها قوة معنوية ، ثم هى تجعله فى جملة أصدقاء الروم وحلفائهم والحائزين على تقديرهم ومنحهم ، وقد كان الروم يشجعون هذا النوع من التودد السياسى لكسب العرب وجرهم إلى جانبهم ، إذ به يتمكنون من بسط نفوذهم على القبائل(٢) . وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظاهر كغرض المحاولة العسكرية التى قامت بها الحبشة . ولم يجد عثمان من يوافقه على خطته من أهل مكة ، ورأى زعماؤها أنه ليس من مصلحة بلدهم أن يرتبط ارتباطاً خاصاً بأى من المعسكرين المتعاديين فى هذه الأوقات التى وصل فيها الصراع بين الدولتين إلى مرحلة حادة مما يبرز أهمية الحياد ، وقد كان أهل مكة يزون الغلب فى هذه المرحلة معقودا لفارس على الروم ويعتقدون أن النتيجة النهائية ستكون فى مصلحتها(٣) . وقد شجعهم على معارضة هذا الاتجاه الرومى اطمئنانهم إلى بعد بلدهم

---

(١) المحبر ص ١٧١ . Watt p. 15

(٢) جواد على ٦/٤٠٤ .

(٣) سورة الروم ١ — ٢ .

عن متناول الروم ، وقوة مركزهم بإزاء حاجة البيزنطيين للبضائع التى كانوا يحملونها . ولم يترتب على رفض العروض البيزنطية أى نتائج خطيرة بالنسبة لمكة ، باستثناء السجن الموقت لبعض الرجال(١) . على أن العلاقات التجارية استمرت بعد ذلك فى حالة طيبة . بل إن تجارة مكة ازدادت نشاطا واتساعا بعد ذلك ، إلى أن كانت الهجرة النبوية إلى يثرب حيث هددت تجارة قريش وأصبحت شبه متوقفة مدة أربع سنوات ؛ نتيجة للصراع الذى قام بين مكة والمدينة منذ معركة بدر سنة ٢ هـ حتى صلح الحديبية سنة ٦ هـ .

علاقة مكة بالفرس والحيرة :

فى نفس الوقت الذى حصلت فيه مكة على عهود من الروم والحبشة واليمن للمتاجرة فى بلادها ؛ حصل أحد رجال مكة وهو نوفل بن عبد مناف ، على عهد مماثل من كسرى للمتاجرة فى بلاد الدولة الفارسية(٢) وقد اتصلت تجارة مكة بالعراق(٣) ؛ ولكنها لم تكن تكن بنفس القوة التى كانت عليها بالنسبة للجنوب أو للشمال ، وذلك لأن الفرس كانوا يتصلون اتصالا مباشرا بطريق التجارة الهندية ؛ فقد كان الطريق الشمالى يمر ببلادهم ، وقد احتكر الفرس التجارة الشرقية المارة ببلادهم وبخاصة تجارة الحرير ؛ وكانوا يحصلون عليها ضرائب باهظة ، ولم يسمحوا بوصولها إلى يد الروم إلا بأثمان غالية جداً ، وكان احتكار

---

(١) السهيل ١/١٤٦ . Watt. op. cit. p. 16

(٢) الطبرى ٢/١٢ .

(٣) ابن هشام ١/١٥٠ . المصعب الزبيرى : نسب قريش ص ١٣٦ .

الفرس للتجارة الشرقية ومغالاتهم فى قيمة الضرائب ورفع الأسعار من الأسباب التى روجت تجارة مكة وقوّت مركزها لدى البيزنطيين . كما أن تجارة الفرس مع الجزيرة العربية كانت بيد الحيرة : التى كانت تتسلمها ثم تجيزها إلى أسواق العرب نظير جُعل تدفعه لرؤساء القبائل لحماية هذه التجارة . كما أن ملوك اللخميين كانوا يرسلون متاجرهم إلى أسواق مكة كل عام فى حماية بعض رؤساء القبائل العربية(١) . الأمر الذى جعل تجارة قريش قليلة مع هذه الجهات . ومع ذلك فقد كانت قوافل قريش تتصل بالحيرة ويقال إن قريشا تعلمت الكتابة من الحيرة(٢) . وقد ازداد نشاط التجارة القرشية نحو هذه البلاد بعد أن تضعضع ملوك الحيرة . وكثرت اعتداءات القبائل على تجارة الفرس المارة عن طريقهم . وعلى تجارة المناذرة أنفسهم . ثم ما تلى ذلك من سقوط سلطان الحيرة بعد مقتل النعمان بن المنذر وهزيمة الفرس أمام العرب فى معركة ذى قار(٣) . وقد حاولت قريش أن تحول نشاطها التجارى ناحية العراق بعد أن توقفت تجارتها نحو الشمال بعد موقعة بدر سنة ٢ هـ ، فأرسلت قافلة بلغ ثمن ما بها من بضاعة مائة ألف(٤) . ولكن المسلمين تصدوا لها واستولوا على القافلة . فلم تستطع قريش أن تفلت من الحصار الذى ضربه عليها المسلمون من الشمال والشرق .

---

(١) ابن الأثير ١/٣٥٩ — ٣٦٠ النويرى نهاية الأرب ١٥/٤٢٥ . فجر الإسلام ١٤
(٢) ابن هشام ١/١٩٠ . هامش الروض . الألوسى ١/٢٥٠ : المصعب الزبيرى : نسب قريش ص ١٢٦
(٣) ابن الأثير ١/٢٩١ . النويرى ١٥/٤٣٣ .
(٤) ابن هشام ٢/٤٢٠ — ٥٣٠ . ابن كثير ٤/٥ .

الفصل الخامس

الحج وأثره

اتصلت نهضة مكة بقيام الكعبة فيها . فإن اهتمام العرب بالبيت الحرام وتعظيمهم له والحج إليه هو السبب الأساسى فى قيام هذه المدينة وتقدمها ؛ كما أن موقع مكة كان عاملا قوياً فى ارتفاع شأن البيت الحرام نفسه .

الكعبة البيت الحرام :

وجد فى بلاد العرب بيوت عرفت ببيوت الله أو البيوت الحرام يقصدها الحجيج فى مواسم معلومة تشترك فيها القبائل من سكان البقاع العربية ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها ، وكان أشهرها فى الجزيرة العربية : بيت الأُقيصر . وبيت ذى الخلصة . وبيت صنعاء ، وبيت رضاء . وبيت نجران . وأذكرها جميعاً وأبقاها بيت مكة ، عدا بعض البيوت الصغار التى تحج إليها القبائل القريبة ولا تقصد من مكان بعيد .

وكان بيت «الأُقيصر» فى مشارف الشام مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة . يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده(١) .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٣٨ .

وبيت «ذى الخلصة» كان يسمى «الكعبة اليمانية» وهو بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة (بين مكة واليمن) . والذين كانوا يسمونه الكعبة اليمانية كانوا يسمون كعبة مكة «الكعبة الشامية» ؛ وقد أمر النبي جريراً بن عبد الله البجلى بهدمه بعد فتح مكة . فهدمه بعد أن دافعت عنه خثعم دفاعاً شديداً(١) .

وكان بصنعاء «بيت رئام» يحجون إليه وينحرون عنده ويُكلَّمون منه ؛ حتى هُدِمَ بعد انتشار اليهودية فى اليمن(٢) .

و «رضاء» بيت كان لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم . وقد هدمه بأمر النبي المستوغر بن ربيعة بن سعد(٣) .

أما «كعبة نجران» فهى بيعة بنوها على بناء الكعبة . وعظموها مضاهاة لها ؛ وسموها كعبة نجران ؛ ويقول ابن الكلبى إنها لم تكن بناء وإنما كانت قبة من أدم من ثلاثمائة جلد ؛ كان إذا جاءها الخائف أمن أو طالب الحاجة قضيت حاجته أو المسترفد رفد . وكان فيها أساقفة مُعتملون وهم الذين جاءوا إلى النبي ودعاهم للمباهلة(٤) .

وقد اجتمع لبيت مكة من بين هذه البيوت الحرام ما لم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة العربية ، لأن مكة كانت ملتقى طرق القوافل بين الجنوب والشمال والشرق والغرب . وكانت محطة لازمة لمن يحمل التجارة من الشمال إلى الجنوب . وكانت القبائل تلوذ منها

(١) ياقوت ٣٨٣/٧ - ٣٨٤ . الأغانى ٣/هـ ص ١٧٢ .
(٢) ياقوت ٣٨٣/٩ - ٣٨٤ . الأغانى ٣/هـ ص ١٧٢ .
(٣) نفسه ٥٠/٩ .
(٤) نفسه ٥٠/٩ . ياقوت ٢٦٨/١٩ .

بمثابة مطروقة تتردد عليها . وقد رغّب القبائل فيها أن مكة لم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو رحلاتها ، فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن أو مملكة المناذرة فى الحيرة أو الغساسنة فى الشام ، وليس من وراء أصحاب الرياسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو الفرس أو الحبشة وراء الإمارات المتفرقة على الشواطىء أو بين بوادى الصحراء ، فهى مثابة عبادة وتجارة ، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالى من عداه ، فلم تكن قيصرية ، ولا كسروية ولا نجاشية . وإنما كانت مكة عربية لجميع العرب ، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها : ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه .

والكعبة قديمة سابقة لأسفار العهد القديم فى التوراة . وقد توارث العرب أن أول من رفع قواعدها هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وتلهم الآية القرآنية «إنَّ أَوَّلَ بَيْت وُضع لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَاركاً وهُدَى للْعَالمين فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ومَنْ دَخَلَهُ كان آمنًا»(١) هذا المعنى ؛ كما تلهم أنها نالت قدسية عامة منذ إنشائها . والآيات القرآنية «وإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهيم مَكَانَ البَيْتِ(٢) . . . . » «وإِذْ يَرْفعُ إِبْرَاهِيم القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسماعِيلُ» تلهم أن هذه المنطقة كانت معروفة ، وأن الكعبة ربما قامت على أنقاض معبد قديم ،(٣)

(١) آل عمران ٩٦ .
(٢) سورة الحج ٢٦ .
(٣) الطبرى ١/١٢٨ « إن الله لما بوأ لإبراهيم مكان البيت ومعالم الحرم فخرج وخرج معه جبريل يقال كان لا يمر بقرية إلا قال بهذه أمرت ياجبريل ، فيقول جبريل: أمضه ، حتى قدم به مكة وهى إذ ذاك عضاه وسلم وسمر وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها ، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة ثم تركهما (ابنه وزوجته) عند البيت » .

وأنه ربما جرت عليه أحداث تاريخية وجغرافية غيرت من طبيعة المكان وهمل هذا المعبد : حتى هيىء لإبراهيم أن يرفع قواعده من جديد . وقد ذكرت المصادر القديمة مكة كما تحدثت عن البيت الذى تعظمه العرب فى العربية الغربية . لقد كانت الكعبة منذ القدم : كما هى معروفة فى عهد قريش ـ مثابة للناس جميعاً وأمنا . لا يمنع أحد من التعبد فيها : فقد كانت قريش تسمح لكل الناس على اختلاف نحلهم بالطواف حولها والتعبد فيها على اعتبار أنها بيت الله(١) . فالوثنيون على اختلاف أربابهم . واليهود والنصارى والصابئون كان يمكنهم زيارتها والتعبد فيها . حكمهم فى ذلك حكم القبائل البادية التى وجدت فيها محلا لعبادة أوثانها فى مواسم الحج والإحرام (٢) . ولقد حاولت الدول الكبرى أن تهدم هذا البيت وتحول أنظار العرب عنه فلم تفلح .(٣) وبقيت للكعبة مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها .

والأساس المهم الذى قامت عليه قداسة بيت مكة أن البيت بجملته هو المقصود بالقداسة . غير منظور إلى الأصنام والأوثان التى اشتمل عليها . وربما اشتمل البيت على الصنم أو الوثن تعظمه قبيلة وتزدريه أخرى . فلا ينتقص ذلك من قدر البيت عند المعظمين والمزدرين على السواء . وقد تختلف الدعاوى التى يدعيها كل فريق لصنمه أو وثنه وتختلف الطقوس والشعائر . ولكن لم تختلف شعائر البيت كما يتولاها

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٥٠ .

(٢) نفسه ١١٤ — ١١٦ (كان للنصارى بها صور وتماثيل : منها تمثال إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام وصورة للعذراء والمسيح) .

(٣) ابن هشام : ١/٤٣ وما بعدها . الطبرى ١/٢١ .

سدنته المقيمون إلى جواره المتكفلون بخدمته ، فكانت قداسة البيت هي القداسة التي لا خلاف عليها من أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم أن يحكموا بالضلال على أتباع صنم معلوم . ولكنهم يعطون البيت حقه من الرعاية والتقدير (١) . وعلى هذا كان يتفق في موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة . وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف عند عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها : كالصلاة والصيام والزكاة والطهارة . ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله . وجاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن الصامت أن أبا ذر الغفاري قال له : «يا ابن أخي صليت مرتين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم» فسأله : — «فأين كنت توجه ؟ قال : «حيث وجهني الله» وجاء في البخاري أنهم كانوا يصومون يوم عاشوراء(٢) وكان صيامهم من الفجر إلى مغرب الشمس . وكانت لهم بقايا من العبادات التي عرفت بين أهل الكتاب : أو لم تكن معروفة على وتيرة واحدة بين أتباع دين من الأديان . وإنما يرغبهم فيها أنها أعمال ترضي «الإله» وأنهم يعرفون إلها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون إليه بالدعاء ، وهي حقيقة لا يعتورها الشك . لأنهم كانوا يسمون «عبد الله» ويلبون فيقولون «لبيك اللهم لبيك» ولا يدعون أحداً من الأصنام «رب البيت» فإذا قالوا «رب البيت» أرادوا به ربا فوق كل الأرباب . وهذه الحقيقة

---

(١) البتنوني ١٥٢ — ١٥٦ (ورغما عن شيوع عبادة الأوثان في سواد قبائل العرب فإنه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة ، كما لم يسمع عنهم أنهم عبدوا الحجر الأسود مع إحترامهم له ذلك الاحترام الذي لا يمكن تصويره) .

(٢) البخاري ٢/١٥٨ .

هى التى كتبت لبيت مكة التفوق على البيوت كلها فى الجزيرة العربية فإنها بيوت أصنام ، وكان بيت مكة بيتاً لله الذى يرى فيه العرب الإله الخالق المبدع ، وإنما عبادة الأصنام تقربهم إلى الله زلفى(١) .

وقد عملت قريش على الاستفادة من مكانة البيت الحرام فى نفوس العرب ، فاستغلت قيامها على أمر البيت لتقوى مركزها الأدبى لدى القبائل العربية ، ولتنشيط تجارتها الداخلية ، فأجرت من الترتيبات ما يكفل لها ذلك ، وابتدعت من النظم والتقاليد ما يحقق لها السيادة الأدبية والنفع المادى .

وأول هذه الترتيبات ما نظمته من السقاية والرفادة ، فمنطقة مكة حارة شحيحة المياه . وهى لكى تستقبل عدداً كبيراً من الحجاج لابد أن توفر فيها المياه بحالة منظمة ، حتى لا يلقى الحاج من قلة الماء ما يضطره إلى الخروج منها أو العزوف عن القدوم إليها ، لذلك جعلت قريش من عملية توفير الماء للحجاج فى موسم الحج وظيفة هامة ، بل جعلتها أهم الوظائف فى مكة ووكلتها إلى أعظم البيوت القرشية ، وقلنا إن هذه المهمة لابد كانت موجودة قبل قريش ، ولكنها نالت عناية كبيرة وصارت عملا رسميا بعد استيلاء قريش على أمر مكة . فقد جعلها قصى بن كلاب وظيفة مقررة وتولاها بنفسه ، وقام بحفر الآبار فى منطقة مكة ، كما عملت بطون قريش على الإكثار من حفر الآبار لتواجه الزيادة المطردة فى عدد الحجيج الوافد على الكعبة(٢) ، وأصبحت السقاية من الوظائف التى تفاخر بها وتراها من أجل الأعمال ،

---

(١) سورة الزمر ٣ . يونس ١٨ .   (٢) ابن هشام ١/١٥٩ — ١٦٢ .

إلى جانب عمارة البيت الحرام والقيام على سدانته وتنظيفه وإعداده للزائرين ، حتى لقد نوه القرآن الكريم بذلك فقال «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاج وعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ»(١) .
كما جعل قصى استضافة الحاج وظيفة هامة أيضاً ، وقرر على قريش خرجا يخرجونه من أموالهم يدفعونه إليه — ثم يدفعونه إلى متولى هذه المهمة بعده — يصنع به طعاماً لفقراء الحجاج ؛ استضافة لهم على أنهم ضيفان بيت الله الحرام ، وهذا أمر هام فى بيئة فقيرة كبيئة الصحراء ، وكثير من الحجاج يقدم من بلاد بعيدة ويكابد سفراً طويلا يصعب معه حمل الزاد ، وقد حافظت قريش على هذه الوظيفة ووكلتها إلى البطون القوية القادرة عليها ؛ إذ أن صاحب الرفادة يتحمل جزءاً من ماله الخاص لذلك كان يعهد بالقيام بها إلى الرجال الأغنياء(٢) ، ومهمة الرفادة جلبت لقريش كثيراً من الفوائد الأدبية والمادية ، فالمؤاكلة تعتبر عقد جوار وحلف عند العرب ، فوق أن الضيافة وإطعام الطعام كان يعتبر أكبر المحامد فى المجتمع العربى ، وبإطعام الحاج من كافة قبائل أنحاء الجزيرة العربية تكون قريش كأنما عقدت جواراً مع هذه القبائل ؛ فوق أنها نالت احتراماً وفضلا بينها ، هذا مما سهل لها المرور بتجاراتها آمنة بين هذه القبائل التى تعتبر قد ارتبطت معها بهذا الرباط ما دامت قد أكلت من طعامها ، قد استغلت قريش هذه الوظيفة فيما بعد استغلالا يكفل لها رواج تجارة داخلية هامة فى موسم الحج ، وهى بيع الطعام للحجاج من غير أهل الحرم ، ضمن ما ابتدعت من سنن للاستفادة المادية .

---

(١) التوبة ١٩ .　　(٢) ابن هشام ١/١٤٠ . ابن سعد ١/٥٨ .

والأمر الهام الثانى الذى عملت قريش على إقراره هو توفير الأمن فى منطقة مكة ، وتوفير الأمن أمر ضرورى فى بيئة تغلى بالغارات وطلب الثأر ، وتعتبر الغارة للحصول على المال وسيلة مشروعة من وسائل العيش ، مثل البيئة العربية . فقد حرصت على إقرار حرمة المنطقة المحيطة بالبيت كأمر لازم لحرمة البيت نفسه وجعله ملاذا للناس جميعا وأمنا (١) ، وقد توسعت قريش فمدت حدود الحرم حتى جعلتها تشمل منطقة مكة كلها ، فأصبحت حرما آمنا لا يجوز فيه سفك الدماء ولا طلب الثأر فى أى يوم من أيام العام وجعلت الأمن يشمل كل شىء حتى الوحش والطير والنبات(٢) . وقد دانت لها العرب كلها بذلك وأقرتها عليه ، لأن الناس كانوا محتاجين إلى مثل هذه المنطقة الحرام يغشونها لتأدية شعائرهم الدينية . وبخاصة بعد أن ضمت أصنام القبائل كلها إلى البيت الحرام ، ولتبادل المنافع العامة من بيع وشراء وخصوصا بعد أن أصبحت مكة تقوم على أمر التجارة . وبعد أن أصبحت مستودعاً تجارياً كبيراً لحاصلات شبه الجزيرة وللمجلوبات الخارجية ، وليجد من تضيق به الحياة ويتعرض للطلب ملاذا يجد فيه الأمن . كما سنت الأشهر الحرم فى موسم الحج لتمكين العرب من القدوم على منطقة مكة للحج وللمتاجرة ، وقد قامت فى منطقة مكة أو حولها أكبر أسواق العرب فى عكاظ ومجنة وذى المجاز .

وكل هذه الأشياء كانت مرتبطة بالحج إلى بيت الله الحرام .

---

(١) البخارى ٣/١٤ — ١٥ .

(٢) البخارى ٢/١٤ . القلقشندى : صبح الأعشى ١/٢٥٥ (يقال إن أول من وضع علامات الحرم عدنان ومقادير الحرم تتفاوت فى القرب والبعد عن مكة ، فهى من التنعيم على طريق سرف إلى مر الظهران خمسة أميال أو ستة ، ومن طريق جدة عشرة أميال ومن طريق اليمن ستة أميال ، ودوره سبعمائة وثلاثة وثلاثون ميلا) .

الحج

للحج ارتباط كبير بالحياة الاجتماعية والاقتصادية عند العرب ، فقد كان لكثير من تقاليده علاقة قوية بكيان العرب الاجتماعى ، وكان له من أجل ذلك أثر كبير فى حياتهم الاجتماعية ، فقد كان شاملا للعرب جميعاً على اختلاف عقائدهم وعباداتهم وبيئاتهم ، وكانوا يتخذونه وسيلة من وسائلهم الاجتماعية ، حيث يفدون إلى منطقة مكة —البيت الحرام— من كل صوب فيلتقون فى موسم الحج وأسواقه فى ظل الأشهر الحرم ، ويجتمعون فيتعارفون ويتبادلون المنافع من بيع شراء ومبادلة . ويعقدون المجالس للمفاخرات . والمشاورات وحل المشاكل ، وكان كل صاحب فكرة وكل صاحب دعوة يريد أن يعلن عنها يجد له فى أسواق الحج مجالا صالحاً ، وحتى المبشرون من المسيحيين وغيرهم كانوا يأتون إلى هذه الأسواق يدعون لدياناتهم . حتى لنستطيع أن نقول إن هذه الأسواق كانت منبراً عاما تلتقى فيه الأفكار من كل لون ، وبذلك أصبحت هذه الأسواق مجالا للنشاط العربى بكل مظاهره ، فأتاحت للعرب وبخاصة قبيل البعثة فرصة لحركة أو نهضة قومية وسياسية واجتماعية وفكرية .

والحج إلى الكعبة فرض إلهى قديم معترف به وممارس منذ زمن بعيد ، يتداول العرب خبر اتصاله بإبراهيم وإسماعيل اللذين قاما ببناء البيت الحرام كما يتداولون خبر حرمته منذ بنائه (١) . وأن الله جعله مثابة للناس جميعاً وأمنا . وفى القرآن آيات كثيرة تشير إلى الحج

---

(١) البقرة ١٢٥ — ١٢٩ البخارى ٢/١٤ — ١٥

ومناسكه وتقاليده ومنافعه ، والكعبة البيت الحرام وحرمتها وأمن منطقتها « إن أولَ بَيْت وُضع للنَّاس لِلَّذى ببَكَّةَ مُبَاركا وهُدىً للعَالَمينَ : فيهِ آيات بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْراهيمَ ومَنَ دَخَلَهُ كانَ آمِنًا ولله عَلى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إليْهِ سَبِيلا (١) » وتتضمن هذه الآيات قرينة قوية على أن الحج إلى البيت على المستطيع : هو استمرار لفرض إلهى قديم على الناس معترف به وممارس من بعضهم ، فهو أول بيت وضع للناس فيه الهدى والبركة . وأنه من بناء إبراهيم بما فيه من علامات هى مقام إبراهيم ، وأن من دخله كان آمنا ، ويلفت النظر كلمة « الناس » فإنها دلالة قوية على أن الحج كان عاماً غير مخصص بطائفة معينة ، وهذا يدل على أن الحج كان مفروضا قبل الإسلام « إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ويَصُدُّون عن سَبِيلِ اللهِ والمسْجدِ الحَرام الذى جَعَلْنَاهُ للنَّاسِ سَواءً العَاكِفُ فِيهِ والبَادِ ومِنَ يُرِدْ فيهِ بإلحَادٍ بظُلْم نُذِقْه مِنْ عذابٍ أليمٍ . وإذْ بوَّأنَا لإبْراهيمَ مَكَانَ البَيْتِ ألاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وطَهِّرْ بَيْتِيَ للطَّائِفِينَ والقَائِمينَ والرُّكَّع السُّجُودِ . وأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ويَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فى أيَّام مَعْلومات عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهيمَةِ الأَنْعَام فَكُلُوا مِنْها وأطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرِ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَليَطَّوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّه وأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعامُ إلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حُنَفَاءَ للهِ غَيْر مُشْرِكينَ بِهِ ومَنْ

---

(١) آل عمران ٩٦ — ٩٧ تفسير الطبرى ٣/٢٥ — ٣٦ ، ٧/٢٨ — ٩٢ .

يُشرِكْ باللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»(١) .

هذه الآيات تتضمن دلالة صريحة :.- أولا ., على أن العرب جميعهم أو القسم الأكبر منهم ، سواء منهم الدانون والقاصون كانوا يأتون إلى مكة ويمارسون مع أهلها طقوس الحج قبل البعثة . وثانياً ، أنهم كانوا يتداولون خبر اتصال الحج ومناسكه بإبراهيم ؛ وقد نزلت هذه الآيات تحمل على المشركين بسبب صدهم عن البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس جميعاً مقيمهم وباديهم منذ بناه إبراهيم ، فهم يأتون إليه من كل فج عميق مشاة وركبانا ، رجالا ونساء ؛ليقوموا بمناسكه ويوفوا ما عليهم من نذور ويطوفوا بالبيت العتيق ويشهدوا منافعهم العظيمة فى موسمه . والآية «وأَذِّنْ فى النَّاسِ بالحجِّ» تؤيد بقوة ما ذكرته الروايات من أن الذين كانوا يشهدون موسم الحج لم يكونوا قاصرين على أهل منطقة مكة أو القطار لحجازى ، بل منهم من كان يأتى من اليمن ونجد ومشارف الشام ومشارف العراق ، كما كان منهم ، إلى جانب المشركين الحنفاء أو الصابئون والنصارى واليهود(٢) . منهم من يأتى للاتجار ومنهم من يأتى للتبشير ، ومنهم من كان يأتى للمفاخرة والخطابة وإنشاد الشعر ، ومنهم من كان يأتى بسبب حل مشاكل لا يمكن حلها إلا فى ظروف مثل ظروف الحج وموسمه وأمنه ، بالإضافة

(١) الحج ٢٥ - ٣٣ .

(٢) الواحدى . أسباب النزول ٢١٢ , أسد الغابة ٣/٣٧٥ . ابن هشام ١/٣٤٩ . السيرة الحلبية ٢٥١ . أنساب الأشراف ١/٧٢ - ٧٣ . البخارى ٢/١٣٤ .

إلى أن الأكثر كان يأتى لزيارة الكعبة وأداء مناسك الحج التى كانت من الحرمات العربية العامة .

وقد ظل المشركون من العرب يؤمون المسجد الحرام ويقومون بتقاليد الحج إلى ما بعد فتح مكة استمرارا لممارستهم السابقة(١) ، وحتى حرم الإسلام الحج على المشركين سنة ٩ هـ وحوله إلى حج إسلامى خالص «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما المشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هَذَا ... »(٢) .

طقوس الحج وتقاليده

للحج أشهر معلومات(٣) تبين بالأهلة(٤) «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والْحَجِّ» . ولا يذكر القرآن صراحة أسماء هذه الشهور ، غير أن الروايات المتواترة ذكرت أنها ثلاثة أشهر : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم(٥) . وقد ذكر بعض المفسرين والمحدثين استنادا إلى بعض الروايات أنها شوال وذو القعدة وذو الحجة(٦) . ولكنا نرجح الرأى الأول ؛ لأن ذا القعدة وذا الحجة والمحرم هى من الأشهر الحرم . والعرب لم يكن يمكنهم أن يشدوا رحالهم من بلادهم حاجين إلى مكة آمنين مطمئنين إلا فى هذه الأشهر الحرم .

---

(١) ابن هشام ٤/٢٠١ .

(٢) التوبة ٢٨ . ابن هشام ٤/٢٠٥ .

(٣) البقرة ١٩٧ . (٤) البقرة ١٨٩ .

(٥) ابن سعد ٣/٢٣٧ . السهيل : الروض الأنف ٢/٦٠ اليعقوبى ٢/٩١ . ابن كثير ٥/١٩٥ المقريزى : إمتاع الأسماع ١/٥٣١ . المصباح ١/١٨٢ مادة حرم .

(٦) الطبرى ٤/١١٧ — ١١٨ . البخارى ٢/١٤٤

وقد جعلت أشهر الحج ثلاثة مع أن موسمه وأسواقه لا تستغرق أكثر من شهر وأيام ، لأن المسافات الشاسعة التى يضطر الحاج إلى قطعها تحتاج إلى مدة كافية يذهب فيها ويعود فى ظل الأشهر الحرم .

والطواف بالكعبة كان أول تقاليد الحج ، وهو ركن من أركان الإسلام . والآية القرآنية «وإذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ ألاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وطَهِّرْ بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ والقَائمينَ والرُّكع السُّجود(١)» تخبر بشىء كان موجوداً ومتعارفاً عليه ، مما يدل على أن هذا التقليد كان موجوداً قبل البعثة . والطواف هو أهم مراسم زيارة الكعبة أو تحيتها . وزيارة الكعبة نوعان ، زيارة عمرة وزيارة حج . وقد كانت هاتان الزيارتان رسميتين قبل البعثة . وللحج موسمه المعروف ، أما العمرة فهى زيارة الكعبة فى غير موسم الحج ، وكانوا فى الجاهلية لا يجمعون بينهما ، ويرون العمرة فى أشهر الحج من أفجر الفجور(٢) ، حتى جاء الإسلام فجوز الجمع بين الحج والعمرة(٣) . ولعل قريشاً هى التى سنت منع الجمع بين الحج والعمرة ؛ حتى تكثر الزيارة للكعبة ؛ فتجنى من وراء ذلك فوائد مادية . على أن زيارة الكعبة كانت عملا واجباً على كل من يقدم مكة سواء فى وقت الحج أو فى غير وقته .

والطواف فى الإسلام هو سبعة أشواط على مدار بناء الكعبة ؛ ويبدأ كل شوط من الركن الذى فيه الحجر الأسود ، والطائف يستقبل هذا الركن ويستلم الحجر أو يقبله أو يشير إليه(٤) .. وليس للحجر الأسود

---

(١) الحج ٢٦ .

(٢) البخارى ٢/١٤٣ .

(٣) البقرة ١٩٦ .

(٤) البخارى ٢/١٤٩ — ١٥٢ .

واستلامه أو تقبيله ، أو للأشواط السبعة ، ذكر فى القرآن ، ولكن ذلك ثابت بالسنة المتواترة التى لم تنقطع . ومن المؤكد أن هذه المراسم قد انتقلت إلى الإسلام على حالها التى كانت عليها من قبل . والحجر الأسود كان مقدساً قبل البعثة ، فأبقيت له فى الإسلام حرمته وأبقيت عادة استلامه وتقبيله والبدء بأشواط الطواف من الركن الذى هو فيه . وهو حجر صوانى لامع أسود ، ويتحدث العرب أنه أنزل من السماء هدية للكعبة . وقد أبقى الإسلام لهذا الحجر حرمته كما أبقى على تقاليد الحج كما هى فى الجاهلية ؛ وذلك لشدة رسوخها واستحالة التخلص منها ؛ وحتى لا تصدم مقدسات العرب فيكون ذلك عقبة فى سبيل الدعوة الإسلامية ، ثم حولت هذه المراسم إلى غرض أسمى وهو عبادة الله وتعظيمه بزيارة بيته الحرام ، كما حول الحج إلى اجتماع إسلامى عام يعقد فى كل عام ؛ لتبادل الأفكار والمنافع والإحساس بالترابط العام بين المسلمين . والحقيقة أن الكعبة والحج إليها هى البقية الباقية من عبادة الله فى الحجاز على الحنيفية دين إبراهيم ، فالعرب كانوا يرون الكعبة بيتاً لله ويرون الحج عبادة لله لا تقرباً للأصنام . وإنما وضعت الأصنام فى الكعبة تكريماً للأصنام بوضعها فى بيت الله الحرام لا تكريماً للبيت بوضع الأصنام فيه .

ثياب الإحرام :

والمسلمون يؤدون الزيارتين المذكورتين للكعبة فى ثياب الإحرام ، وهى ثياب غير مخيطة ، وقد كان لهذا أصل قبل البعثة . فقد ذكرت

كتب السيرة والتفسير فى صدد تفسير الآية القرآنية « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ(١) » أن بعض الحجاج قبل الإسلام كانوا يطوفون حول الكعبة عراة رجالا ونساء ، والآية نزلت بسبيل التنديد بذلك وتقرير وجوب أخذ الناس زينتهم والظهور بمظهر الحشمة والوقار عند كل عبادة ومسجد ، بارتداء الملابس التى هى مظهر الزينة والحشمة ، وقد كان العرب يتكرهون أن يطوفوا بالكعبة وعليهم ثيابهم الاعتيادية ؛ حذر أن يكونوا قد اجترحوا من المآثم وهى عليهم ، ويطوفون عراة ، فإذا طافوا بها كانوا يلقونها ثم لا يأخذونها بعد ذلك أبداً ، ويتركونها لا يقربها أحد حتى تبلى . وقد سن لهم الأحماس خلعها والتستر بملابس أحمسية ، وهى مآزر كان الأحماس يعدونها خصيصاً للحجاج ويسمونها المآزر الأحمسية ، وكان الذين لا يجدون مآزر أحمسية أو لا يقدرون عليها ويضنون بثيابهم أن يفقدها ، يخلعونها قبل الطواف ويطوفون عراة رجالا ونساء(٢) .

وقد ظلت عادة الطواف بالعرى إلى ما بعد فتح مكة ، حتى أبطل هذه العادة حين أبطل أمر الحمس ، وحرم الحج على المشركين حين أعلن للناس بيان براءة فى السنة التاسعة من الهجرة(٣) .

والسعى بين الصفا والمروة كان من الطقوس التى يقوم بها الحاج أو المعتمر فى الجاهلية ، والصفا والمروة هضبتان صخريتان قريبتان من الكعبة وتبعد إحداهما عن الأخرى نحو أربعمائة متر ، وكان المشركون قد نصبوا عندهما بعض أصنامهم ، وكانوا يقومون عندهما ببعض

---

(١) الأعراف ٢١ .

(٢) تفسير الطبرى ١٢/٣٨٩ — ٣٩٥ .

(٣) البخارى ٢/١٥٣ .

الطقوس ويقربون القرابين ، ومن جملة هذه الطقوس الطواف بهما . وقد تحرج المسلمون من الطواف بهما كما كانوا يفعلون قبل إسلامهم ، فنزلت الآية «إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا(١)» تزيل هذا التحرج وتذكر أن الصفا والمروة من شعائر الله . والطواف الإسلامي بهما سبعة أشواط يسمى السعي بين الصفا والمروة ، ويبدأ الطواف من الصفا وينتهي إلى المروة(٢) . وقد كان الجال كذلك في السعي بينهما قبل الإسلام(٣) .

الوقوف بعرفة :

وأعظم أيام الحج هو يوم الوقوف بعرفات ، وهو اليوم التاسع من شهر ذي الحجة ، حيث يجتمع في هذا اليوم كل من أتى الحج في صعيد واحد هو صعيد عرفات . وعرفات منبسط فسيح من الأرض يتسع للألوف المؤلفة من الناس ، وهو محاط بالجبال وفي بعض أطرافه صخور وهضاب ، وبه سقايات وحياض للإرواء (٤) ، ولا يكون الحاج حاجا إلا إذا شهد وقوف عرفات(٥) . وفي الحديث «الحج عرفة» وقد عبر عنه القرآن بيوم الحج الأكبر» وأذان مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ(٦)» ويستلهم من أسلوب الآية التقريري أن هذه التسمية كانت معروفة قبل الإسلام.

---

(١) البقرة ١٥٨ .
(٢) البخاري ٢/١٥٨ مالك : الموطأ ١/١٨٦ - ١٨٧ .
(٣) البخاري ٥/٤٤ .
(٤) ياقوت ١٣/١٠٤ - ١٠٥ .   (٥) أسد الغابة ٣/٣٢٨ .
(٦) التوبة ٣

وقد كان ليوم عرفات رئيس من بيت معين من بيوتات العرب لا يفيض الناس إلا بعد إفاضته (رجوعه) (١) . ولعل الزعماء وأصحاب الشأن من العرب كانوا يتخذون من هذا اليوم المشهود وسيلة لإعلان بعض الأمور وإبلاغها للناس ، وكان الناس بعد الفراغ من حجهم يأتون صاحب النسىء ليسمعوا منه ما يعلن عليهم من تقديم أو تأخير فى الأشهر الحرم(٢) . وقد أرسل النبى فى السنة التالية لفتح مكة أبا بكر الصديق أميراً على الحج فأقام للناس حجهم : وقد ذكرت الرواية خبراً هاماً فى بابه وهو أن الناس كانوا تلك السنة فى منازلهم على الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية(٣) . وقد اتخذ النبى فرصة هذا اليوم المشهود وسيلة لإعلان الناس براءة الله ورسوله من المشركين . فأعلن هذا للناس عن طريق أبى بكر فى رواية ، وعن طريق على بن أبى طالب الذى أرسله النبىّ خصيصاً لهذا الإعلان فى رواية أخرى . ويستأنس من كل ذلك أن يوم عرفات هو يوم الحج الأكبر وأن هذا اليوم كان يجتمع فيه الناس من كل جهة وكل قبيل ، وأنه كان فرصة لقضاء أمور هامة وإعلانها ، وأن ما جرى عليه الحج الإسلامى كان استمراراً لما كان يجرى عليه العرب من قبل .

وحينما يعود الحُجّاجُ من عرفات يأتون إلى مكان يعرف اليوم بالمُزْدَلِفَة وكانوا يسمونه «جَمْعًا» . وهو المكان الذى سماه القرآن ، «المَشْعَر الحَرَام(٤)» فيتوقفون عنده إلى الفجر ثم يفيضون منه إلى

---

(١) ابن هشام ١/١٣١ - ١٣٣ .

(٢) نفسه ١/٤٥ .

(٣) نفسه ٤/٢٠١ .

(٤) الفقرة ١٩٨ ، تفسير الطبرى ٤/١٧٥ - ١٨٠ .

منى ، فقد كانت هناك إفاضتان : إحداهما من عرفات والأخرى من المشعر الحرام ، والإفاضة كانت تسمى إجازة ، ومعناها أن يجيزهم الرئيس إلى مغادرة المكان إلى مكان آخر ، وكان هناك بعض البطون هم أصحاب الحق فى هذه الإجازة ؛ بحيث لا يفيض الناس إلا إذا أفاض رئيس هذا البطن . وقد كان يقصد بتوقف الناس عند المشعر الحرام إشعارهم بأنهم قد انتهوا من الواجب الأساسى للحج . وأصبحوا بذلك حجاجا ، وأن لهم الحق فى التعييد بعده . وفعلا فإن الناس بمجرد إفاضتهم من المزدلفة إلى منى يصبحون معيدين عيد الأضحى .

وكان للعرب تقليد آخر فى منى ، وهو عقد مجالس المفاخرة بعد أن يكونوا قد انتهوا من مناسك الحج . وقد ذكر المفسرون هذا التقليد فى سياق تفسير الآية القرآنية « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدنْيَا ومَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (١) » ، وقالوا إن الحجاج كانوا بعد قضاء مناسكهم يعقدون المجالس فى منى ليتناشدوا الأشعار ويعددوا مفاخر الآباء والقبائل ، والآية تلهم هذا الذى تناقلته الروايات ، ولاسيما وأيام منى أيام عيد وأكل وشرب وراحة ، فأمرت الآية بذكر الله والتحدث بنعمه بدلا من المفاخرات الجاهلية التى تزيد من قوة العصبية الضيقة ، التى كان النبى يحكم دعوته يهدف إلى إضعافها والخروج من مجالها الضيق إلى مجال الوحدة العربية الشاملة . بل إلى مجال أوسع من ذلك وهو الوحدة الإنسانية (٢) .

---

(١) البقرة ٢٠٠ .

(٢) تفسير الطبرى ٤/١٩٦ - ١٩٨ .

الهدى والقلائد :

الهدى هو الحيوان الذى يسوقه الحاج معه ليذبحه بعد أداء مناسكه قربان شكر لله ، وكان من عادة العرب الحجاج تقليد الهدى بوضع قلادة فى عنقه من سيور الجلد أو ألياف الشجر أو فتيل الخيط ؛ إعلاناً بأنه هدى فيصبح بذلك محرماً محترماً . وكان من عادتهم إشعار البُدْن أى جرحها جرحاً خفيفا من شق سنامها ، فيسيل دمها على ظهرها إشارة إلى كونها هَدْيا ، ويسمون البُدْن المجروحة شعيرة (١) ، ويشير القرآن الكريم إلى الهَدْى المقلَّد أو المجروح على أنه من شعائر الله ، ومن واجبات الحاج ، وأنه واجب الاحترام لا يحل الاعتداء عليه ، ويذكر ما للهدى من أهمية عظيمة لما فيه من إقامة أود الناس ولاسيما الفقراء والمساكين والبائسين (٢) ، ومضامين الآيات وأساليبها تلهم بقوة وصراحة أنها كانت من تقاليد العرب قبل البعثة . وقد أقرها الإسلام لما فيها من فوائد عظيمة فى ظروف الحج وفى بيئته قبل البعثة وبعدها . وكان العرب يحيطون هذا التقليد بالعناية والحرمة بل بالتقديس والرهبة ، حتى ليترك الحاج هديه سائماً فلا يتعرض له أحد بسوء ؛ لأن التعرض له إنما هو تعرض لمال الله . وكان من عادتهم أن يلطخوا جدران الكعبة بدماء الهدى تقرباً إلى الله رب البيت ، وقد أبطل الإسلام هذه العادة ، ونبه إلى أن الله لا يناله شىء من لحومها ولا دمائها ولكن الذى يريده من الناس هو التقوى (٣) والإخلاص . وكانوا يأثمون من أكل لحوم

---

(١) أسد الغابة ٢٢٨/٣ . الموطأ ١٥٩/١ .
(٢) البقرة ١٩٦ . المائدة ٢ ، ٩٧ . الحج ٢٨ ، ٣٦ . الفتح ٢٥ .
(٣) الحج ٣٧ .

هديهم ويتركونها للفقراء والمساكين والسباع والجوارح ، فأباح القرآن لأصحاب الهدى إن شاءوا أن يأكلوا منه وأن يطعموا البائس والفقير والقانع والمعتر ، أى المحتاجين سألوا أم لم يسألوا(١) . كما كانوا يذبحون الهدى عند الأوثان والأنصاب فى فناء الكعبة ويذكرونها فى أثناء الذبح ، فنهى القرآن عن هذا وأوجب ذكر الله وحده عند الذبح(٢).

وعادة ذبح القرابين للمعبودات عادة قديمة اشترك فيها جميع البشر فى بعض أدوارهم وأطوارهم ومختلف بيئاتهم ، غير أن العرب كانوا يرجعون ذبح القرابين إلى إبراهيم الذى امتحن بذبح ولده إسماعيل قرباناً لله ؛ ففداه الله بذبح عظيم(٣) ؛ وكان هذا فيما يتداولونه من الروايات فى اليوم العاشر من ذى الحجة ، ونرجح أنهم كانوا يعرفون خبر هذه المحنة ويتناقلونها ويعللون ذبح الضحايا فى هذا اليوم اقتداء بفداء إبراهيم التى يردون أولية الحج إليه .

الحلق والتقصير :

وقد جاء فى القرآن ذكر الحلق والتقصير كعلامة للتحلل من الإحرام عقب أداء المناسك التى من جملتها ذبح الضحية ، إلا من كان مريضا أو به أذى من رأسه فإنه لا يحلق ، ويقدم كفارة تعبدية كصدقة أو صيام أو قربان(٤) . والحلق والتقصير كان قبل البعثة من علامات التحلل من الإحرام ، وكان الحجاج لا يفعلون ذلك قبل تقديم قرابينهم ، وقد جرى الإسلام على هذا .

---

(١) نفسه ٣٦ . (٢) نفسه ٣٠ .

(٣) الصافات ١٠٧ .

(٤) البقرة ١٩٦ ؛ الفتح ٢٧ . تفسير الطبرى ٤/٣٦ ، ٤/٥٦ — ٥٩ .

وهكذا نرى أن الإسلام قد احتفظ بطقوس الحج وتقاليده ، كما هى ولكنه حولها إلى طقوس وتقاليد إسلامية وعنى على ذكر الوثنية فيها بذكر الله .

آثار الحج الاقتصادية والاجتماعية :

كان للحج آثاره البعيدة المدى من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة للعرب بعامة ولمكة بخاصة : فقد كانت تقام فى موسمه أسواق عامة أهمها عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وإقامة هذه الأسواق يعد تقليدا من تقاليد الحج لأنها كانت فى أيام معلومة وأماكن مستقرة . وإذا كانت هذه الأسواق مجالا لنشاط أهل مكة التجارى . فقد كانت من جهة أخرى تقليداً خطير الشأن جليل النفع : بالنسبة للعرب الذين كان لهم فى موسم الحج وأشهره الحرم فرصة الغدو والرواح آمنين مطمئنين ، فكانوا يفدون على موسم الحج وأسواقه من كل الجهات : من أطراف الشام والعراق ومن اليمن وتهامة والبحرين ، على مختلف القبائل والبيئات والجهات والعقائد ، فيلتقون فى هذه الأسواق ويتبادلون السلع ، ويقيمون أودهم ، ويتزودون بما هم فى حاجة إليه من العروض كما كانوا يجدون فيها فرصة لإقامة مجالس المفاخرة وإنشاد الأشعار والمفاضلة بين الشعراء ، ولعقد حلقات السمر ، ومجالس القضاء لحل المشاكل والقضايا المعقدة ، كما كانت فرصة لبث الأفكار وتسيير الأخبار ، وتعارف الزعماء والشعراء والخطباء ، كما كانت مجالا لمزاولة أنواع الرياضة من فروسية وسباق ومصارعة ومناضلة . فهى تشبه الجمنازيوم عند الإغريق إلى حد كبير (١) .

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١١٩ - ١٢٠ .

وقد استغل النبي فرصة هذه الأسواق للقاء وفود العرب وزعمائهم ونبهائهم ؛ ليعرض عليهم رسالته ويقرأ عليهم القرآن ، وقد تقابل مع وفد يثرب وتم بينهم الاتفاق ؛ فكانت الهجرة بعد ذلك وما تلاها من أحداث غيرت وجه التاريخ العربي بل وجه التاريخ العام(١) . ونرجح أن الوافدين على هذه الأسواق لم يكونوا كلهم مشركى العرب ، بل كان يفد عليها نصارى العرب ويهود يثرب ؛ للتبشير والاتجار ، ولعل منهم من كان يشترك فى مناسك الحج وقد كان قس بن ساعدة الإيادى من نصارى العرب وخطبته فى أحد مواسم الحج من الروايات العربية المشهورة(٢) .

كذلك كان للحج آثار اجتماعية وأدبية عظيمة ، فالعرب يأتون من كل جهة ، ثم يتفرقون وقد امتلأت جعباتهم بالأخبار وذاكرتهم بالأشعار والخطب والكلمات الممتازة ، واكتظت أذهانهم بمختلف الصور والمشاهد ، الأمر الذى ساعد على تقريب العرب بعضهم من بعض واستقرار معنى القومية المشتركة فى أذهانهم ، وتوحيد اللغة وتصفيتها ، وبعث حركة نشيطة بدت تباشيرها وتطورها التقدمى قبل الإسلام ، فيما كان من تطور من الوثنية إلى الشرك ، ثم اعتبار الشركاء شفعاء عند الله : ومن استنكار العرب لما بين الكتابيين من نزاع وخلاف ، وتنديدهم بهم ، وتمنيهم أو توقعهم بعثة نبى منهم ، وحلفهم الأيمان بأنهم إذا جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم من ظهور طبقة الموحدين الذين أخذوا يشمئزون مما يعبد قومهم ، ويطوفون الأرض

---

(١) ابن سعد ٢٠١/١ - ٢٠٢ .

(٢) ابن كثير ٢٣٢/٢ - ٢٣٤ .

ينشدون ملة إبراهيم ويتعبدون عليها أو على ما يظنون أنه هى(١) ، ومن اقتباس العرب كثيرا مما عند الكتابيين وغيرهم من معارف دينية وغير دينية .

ونستطيع أن ندرك ما استفادته قريش من هذا الاحتكاك والاتصال بين العرب الوافدين من مختلف الجهات العربية ومنهم من عرف الفرس ومنهم من عرف الروم ، ومنهم كان من اليمن وعرف الأحباش ، فى تطوير نظمها والأخذ بأسباب التقدم الأدبى والمادى .

وكان لأهل مكة خاصة ميزة ومركز يشعرانها بما عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج ، فقد كانوا يرون لأنفسهم حق الحرمة والميزة على العرب ؛ بسبب اختصاصهم بكرامة البيت الحرام ، ويعتبرون أنفسهم أهله وأولياءه(٢) ، كما كانوا يدركون مركز بلدهم وكرامتها وقدسيتها ، وجعلها مثابة للناس وأمنا لا يسفك فيها دم ولا يثار فيها نزاع ولا قتال ، لذلك كانوا يتضامنون فى القيام بواجبهم نحو وفود الحجاج من ترحيب وإكرام وقِرى ؛ باعتبارهم ضيوف بيت الله فى بلدتهم وهم سدنته الأقربون ، وقد اختص بعضهم بسقاية الحاج واختص البعض بعمارة البيت(٣) والبعض بالقيام على رفادة الحجاج .

ولما كانت مكة بلدا فى واد غير ذى زرع ، وأنها تعتمد فى حياتها على ما يجلب إليها من الخارج ، وما يستطيع أهلها أن يحققوه لأنفسهم من منافع عن طريق البيع والشراء ، والتبادل مع الوافدين عليها والمارين

---

(١) ابن هشام ١/٢٤٢ - ٢٥١ ابن كثير ٢/٢٣٨ .
(٢) الأنفال ٣٤ . (٣) التوبة ١٧ - ١٩ .

بها فى رحلات القوافل التجارية ، أو القادمين إلى الأسواق التى تقام فيها وحولها ، وما يقدمه الحاج إلى بيتها من هدايا ونذور ، فقد كان لابد أن يضع أهله لهم وللقادمين إليه أنظمة وقوانين ؛ لتنظيم الحياة ، وتوفير الأمن وحفظ الحقوق وحماية من يفد إليه من الأذى . فالكعبة وهى بيت الله ، أرض حرام لا يجوز البغى فيها ولا ارتكاب المعاصى واقتراف الآثام ، والمدينة وهى فى جوار بيت الله ذات حرمة وقدسية ، وسكان البلد الحرام هم فى حمى البيت وفى جواره فلابد من إنصافهم وإحقاق حقهم(١) . وهذا الإدراك قديم سابق على عهد قريش : فتذكر الروايات أن مضاضاً بن عمرو الجرهمى فكر فى حماية التجارة والدفاع عن الأجانب جلبا للغرباء والتجار . فقال فى إحدى خطبه «وقروا حرم الله ولا تظلموا من دخله وجاء معظما لحرمته ، وآخر جاء بائعا لسلعته أو مرتغبا فى جواركم(٢)» كما تروى أن عمراً بن لحى زعيم خزاعة قد اتخذ من الإجراءات ما يرغب العرب فى القدوم إلى مكة والحج إلى بيتها الحرام ، فجلب الأصنام وأقامها فى فناء الكعبة ؛ كما كان يقيم موائد الطعام فى موسم الحج حتى لقد قالوا إنه كان يذبح عشرة آلاف بدنة .(٣)

ولما صار الأمر إلى يد قريش بعد خزاعة نظم زعيمها قصى بن كلاب الوظائف المدنية والدينية بالمدينة المكية ، وعمل على إنماء المدينة وتقرير كيانها ، وتوسعت قريش فلم تكتف بتقرير حرمة المدينة فى داخلها ، بل جعلت لها مجالا فى خارجها ، وجعلت هذا المجال حرما

---

(١) جواد على ٢٠٧/٤ - ٢٠٨ .
(٢) الأغانى ١٠٥/١٣ (طبعة مصر) . (٣) ابن كثير ١٨٧/٢ .

كحرمة المدينة نفسها وأقامت له علامات يعرف بها ، أى أنها حرمت المدينة وحفظت لها مجالا فيما حولها . كما أقرت حقوق المواطنة لأهل هذا الحرم ، وسمت المتمتعين بهذا الحق باسم الحمس .

ولفظ الحمس جمع مفرده أحمس ، ومعناه ابن البلد وابن الحرم والوطنى المقيم ، والذى ينتمى إلى الكعبة والحرم ، فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكينها . فقال القرشيون «نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقاطنوا مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا : ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا(١) » ثم جعلوا للحمس علامة وهى ألا يعظم الأحمس شيئاً من الحل – أى الأرض التى وراء الحرم – كما يعظم الحرم ، وقالوا «إن فعلتم ذلك استخفت العرب(٢) بحرمكم» ولذلك ترك الحمس الوقوف بعرفة – لأنه خارج عن الحرم – والإفاضة منها مع إقرارهم بأنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ، ويرون لسائر الناس أن يقفوا عليها ويفيضوا منها(٣) . إلا أنهم قالوا «نحن أهل الحرم فليس ينبغى أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها ، نحن الحمس – والحمس أهل الحرم(٤) –» ، فأظهروا بذلك شدة تعصبهم لبقعة من الأرض ، وترفعوا أن يخرجوا عنها ولو كان فى خروجهم إتمام لمشاعر الحج .

أقرت قريش هذا التقليد ، ويقول ابن إسحاق أنه لا يدرى أكان ذلك قبل الفيل أم بعده(٥) ، والراجح أنه كان قبل الفيل وربما كان

---

(١) ابن هشام ١/٢١٦ . تفسير الطبرى ٤/١٠٨ .
(٢) نفسه . (٣) البخارى ١/١٦٣ .
(٤) ابن هشام ١/٢١٦ . (٥) نفسه .

فى عهد قصى بن كلاب الذى أقر وظائف مكة ، وكان له من المنزلة الكبيرة ومن المكانة ما يسمح له بوضع هذا القرار حتى كان أمره كالدين المتبع فى حياته وبعد موته . وأدخلت فيه كنانة وخزاعة ، ومنحوا هذ الحق لمن ولد من العرب فى الحرم ، كما منحوه لمن ولد منهم -وقد كانوا يشترطون على من يتزوج منهم أن ينتقل إليهم ، يرون أن ذلك لا يحل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يُدان إليهم وينقاد ويتبع مبدأهم(١)- وذلك ليوطدوا صلاتهم بأصهارهم وحلفائهم- فاستحق الشرف بحق المولد كما استحقته قريش بحق الدم والأصل . وفى القوانين الدولية الخاصة الحديثة من يكتسب حق المواطنة بالدم ففكرة الحمس إقرار لحق الوطنية بالانتساب للبقعة وامتياز لمن له هذا الحق . وليس معنى التحمس فى الدين كما ورد فى القاموس ، فإن قريشا تركت فرضا هاما من فروض الحج تعصبا للحرم مع أن هذا يتنافى مع دين إبراهيم . وإن الحمس قد ابتدعوا أمورا من الدين تميزهم عن غيرهم ، وتشير إلى ارتباطهم بالكعبة ، وتؤكد تمسكهم بحرمة البيت الحرام وتعظيم الحج إليه ؛ ليزيد ذلك فى شرفهم وشرف البيت ، وقالوا «لا ينبغى للحمس أن يأقِطوا الأقِط ولا يسلأُوا السمن ، ولا يدخلوا بيتا من الشعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما (٢)» . وهذه الأمور داخلة فى باب التزهد ، إلا أنهم اختصوا أنفسهم بالقباب الحمر تضرب لهم فى الأشهر الحرم(٣) وكانت القباب الحمر علامة الشرف والرياسة .

---

(١) الأزرقى ١/١١٥ العقد الفريد ٣/٣٢٠ وما بعدها . الألوسى ١/٢٤٢ .
(٢) ابن هشام ١/٢١٩ . (٣) الألوسى ١/٢٤٤ .

وكانت فكرة الحمس صائبة لأنها ترمى إلى إعزاز أهل الحرم ، وتضمن سلامة القاصدين إليهم ، وتحجز ما بين الأعداء ، وتشل أيدى المنتقمين والمتربصين ، فنشأ حق الالتجاء من حق الحمس ، فكان الرجل لوجرّ جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يُتناول ولم يُقرب ، وكان الرجل لو لقى قاتل أبيه فى الشهر الحرام أو فى الحرم لم يتعرض له ، وكان الرجل إذا أراد البيت الحرام تقلد قلادة من شعر فأحمته أى أى جعلته حمى لا يقرب .

ثم إن الحمس فرضوا على العرب فروضا حملوها عليها فدانت لهم بها وأخذت بما شرعوه لهم من ذلك ، فقالوا «لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل فى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عمارا ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس ، فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا ، وكانت العرب تسمى تلك الثياب «اللقى»(١) . ولكن فى أخبار التاريخ ما يدل على أن الطواف مع العرى كان مبالغة فى التقديس والتطهر ، فبنت قريش فرضها هذا الذى فرضته على العرب على تلك العادة القديمة . وما زال حق الحمس يتطور حتى صار دينا متبعا .

كل هذا يعنى أن قريشا نظمت الحج والقدوم إلى مكة حسب ما تقتضيه مصلحتها الأدبية والمادية ، وكانت تبتدع من الأمور ما

---

(١) ابن هشام ١/٢١٩ . البخارى ٢/١٦٣ .

يحقق لها الاحترام ، ولبلدها القدسية عند العرب ، وما يحقق لها الكسب المادى .

والحج وأسواقه كانت حافزا لنشاط قريش التجارى ، إذ هم يضربون فى الأرض شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لحمل التجارة بين هذه الجهات ، ولمزاولة التجارة الداخلية فى أسواق العرب ، وفى موسم الحج فى مكة . وإن هذه السنن التى فرضوها على العرب جميعاً هى فى الحقيقة متصلة بنشاطهم التجارى ، فإن الناس يطرحون أزواد الحل قبل الدخول فى الحرم ، حتى يبتاعوا أزوادهم من أهل مكة . وكذلك عدم السماح لهم بالطواف بأثوابهم وإنما عليهم أن يلبسوا المآزر الأحمسية وذلك حتى يشتروا ما يلزمهم من ذلك من قريش ، وبذلك كانت توجد سوق نشيطة فى مكة فى موسم الحج لبيع الملابس ، وتخصص بعض التجار فى بيع الأطعمة(١) . وإذا كانت تضيّف الحجاج ثلاثة أيام منىً فليس ذلك بكاف ، ثم إن الأغنياء من الحجاج لم يكونوا يشاركون فى هذه الموائد العامة التى تقيمها قريش ، والكل مضطر لشراء طعامه بعد ذلك . وإذا كان من الناس من يستعير ثياب الحمس أو يُهداها فليس الجميع كذلك ، وكذلك لم يكن الكثير قادراً على الاستغناء عن ملابسه لتكون لقى بعد طوافه ، ولا كلهم يرضى بالطواف عريانا وبخاصة النساء وإن كان منهم ، من يفعل ذلك ، على أن قريشا كانت تأخذ إلى جانب ذلك كله ضريبة تسمى «الحريم» من كل من نزل عليها ، تأخذ بعض ثيابه أو بعض بدنته(٢) .

---

(١) الذهبى أعلام النبلاء ٢/٢٩ .

(٢) جواد على ٤/٢١٨ . شوقى ضيف : العصر الجاهلى ٥٠ .

الأشهر الحرم وأهميتها

فى الآيات القرآنية ذكر كثير للأشهر الحرم ، ويستدل منها ومن الروايات أنه كان لهذه الأشهر الحرم أثر عظيم فى حياة العرب وبخاصة فى بيئة مكة قبل البعثة ، فبينما تكون الحروب مستعرة ؛ والغارات قائمة ، والناس مندفعين وراء عصبياتهم وثاراتهم ، يقف كل هذا حين حلول هذه الأشهر تعظيما لها واحتراماً ، ويصبح الناس فى هدنة عامة شاملة ، ويتلاقى الناس فى منطقة الحرم وفى خارجها فلا يكون بينهم شر ولا قتال ، بل لقد وصل تأثمهم لدرجة تحريم الصيد أثناءها ؛ لما فى ذلك من سفك الدماء .

والأشهر الحرم ليست معينة فى القرآن بأسمائها ، وكل ما ذكرته الآيات أنها أربعة أشهر(١) . غير أن الروايات المتواترة التى لم تنقطع قد عينتها بصورة يقينية وهى : رجب ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم(٢) والأشهر الثلاثة الأخيرة هى أشهر الحج - على الأقل فيما قبل الإسلام - أما شهر رجب فإنه كان يسمى رجب مضر ، وهو الذى تسميه مضر «الأصم» (٣) وأنه مشتق من الترجيب أى التعظيم ، وقدجاء فى طبقات ابن سعد أن أهل مكة كانوا يحتفلون بعيد دينى لهم فى رجب ، فلا يبعد أن يكون هذا العيد فى شهر رجب عيداً خاصاً بقبائل مضر أو قبائل الحجاز أو بعضها ، وأن يكون هذا أصل حرمته ؛ ليتمكنوا من الذهاب والإياب والقيام بمناسكهم فى ظل هدنة دينية مقدسة . ولكن

---

(١) البقرة ١٩٧ . التوبة ٥ ، ٣٦ .

(٢) البخارى ٦/٦٦ . تفسير الطبرى ٤/٢٩٩ . ابن سعد ٣/٢٧ السهيل ٢/٦٠ . اليعقوبى ٢/٩١ . ابن كثير ٥/١٩٥ . المقريزى : إمتاع ١/٥٣١ . المصباح ١/١٩١ .

(٣) تفسير الطبرى ٤/٢٢٩ . الخازن ٢/٢٣٠ .

ما لبث رجب - فى وقت لا يمكن تحديده - أن صار جزءاً لا يتجزأ من الأشهر الحرم (١) ، وقد ذكرتها الآيات دون تفريق بينها فى الحرمة والشمول ، وأشارت إلى أربعة أشهر من أشهر السنة بصفة مطلقة وتعميمية ، وقد كانت بلاد الحجاز قد صارت مهوى أفئدة العرب ومركز محورهم ومحجهم .

وللأشهر الحرم أهمية كبيرة فرضتها ضرورة البيئة العربية وبخاصة فى الحجاز ، حيث لم يكن هناك سلطان نافذ وازع ، وكانت الغارات بين القبائل متواصلة متبادلة والعصبية على أنواعها قوية شديدة ، والأنفة والحمية متأصلتين ، ولهم فى ذات الوقت حاجات كثيرة : تجارة لابد لها من مشترين ومستهلكين وزراع لابد لهم من المبادلة على غلاتهم وثمارهم ، وأعراب لابد لهم من استيفاء حاجاتهم السنوية من ماعون وثياب وقوت ، ولابد لهم من بيع ما عندهم من أنعام وماشية وشعر ووبر وصوف ، فماذا تكون حالتهم لو لم يكن هناك وقت يستطيعون فيه التحرك والاتصال والتبادل مطمئنين آمنين ، وماذا تكون حالهم لو لم يتيسر لهم إقامة أسواقهم العامة وشهودها فى ظل الأمن وعدم الخوف ، من أجل ذلك كانت قيمة هذه الهدنة التى فرضتها الأشهر الحرم عظيمة الأهمية ، عبر عنها القرآن الكريم هذا التعبير البليغ الموجز «جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاس والشَّهْرَ الحَرَامَ والْهَدىَ والقَلائِدَ»(٢) ، ومن أجل ذلك أسبغ العرب على هذه الهدنة صفة قدسية وصبغوها بصبغة دينية ، وكانوا يعتقدون بأن

(١) دروزة : عصر النبى ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) المائدة ٩٧ .

الإخلال بحرمتها وقداستها يجلب عليهم الشر والنحس ، وكان الرأى العام العربى يثور لأى خرق لهذه الهدنة التى أصبحت جزءاً من حياة الناس ومن كيانهم الاقتصادى والاجتماعى والأدبى والدينى .

وليس من اليسير تحديد أولية الأشهر الحرم ، وتشير آيات القرآن إلى أنها قديمة سابقة على عهد البعثة بزمن طويل(١) ، والأرجح أن تكون هذه الحرمة قد تقررت بعد وجود موسم الحج وتقاليده وأسواقه ، وبعد وجود الموسم الدينى لمضر فى الحجاز بالنسبة لشهر رجب . والغالب أن يكون ذلك بعد سيادة قريش على مكة وتنظيم موسم الحج بها وتيسيره أى بعد حكم قصى بن كلاب لمكة فى منتصف القرن الخامس الميلادى ولابد أن الحج كان قد تعطل قبل ذلك أو ضعف ، وحدثت أحداث جعلت أمن الناس غير مكفول ، وتحدثنا الروايات عن صراع بين القبائل فى مكة أدى إلى دفن بئر زمزم بها(٢) ، كما تحدثنا عن البغى واستحلال الحرمات الذى وقع بمكة ، مما أدى إلى ضعف الحج إليها نتيجة للتنافس بين القبائل فيها والضاربة حولها ، ونستطيع أن ندرك أن هذه الهدنة لم تكن مرعية قبل حكم قصى ؛ فقد تقاتل قصى بقريش وكنانة مع خزاعة فى أيام الحج وفى منطقة الحرم(٣) ، ولم يذكر هذا القتال بالاستفظاع والاستنكار كما ذكرت الحرب التى وقعت بعد ذلك بين قريش وكنانة ضد هوازن وقيس ، وعرفت بحرب الفجار نسبة إلى الفجور ، لوقوعها فى الأشهر الحرم(٤) ، وهذا مما يدل على أن هذه الهدنة لم تكن مرعية تماماً قبل عهد قصى ، وقد أدى صراع القبائل

---

(١) التوبة ٣٦ البخارى ٦/٦٦ .
(٢) ابن هشام ١/١٢٣ وما بعدها .
(٣) نفسه ١/١٣٥ - ١٣٦ .
(٤) ابن الأثير ١/٣٥٩ الأغانى ٣/١٦٢ .

إلى اختلال الأمن وانقطاع وفود الحجيج أو ضعف قدوم هذه الوفود إلى مكة ؛ وتعطلت مناسك الحج ومنافع الناس فى موسمه وأسواقه ، فحفز هذا ذوى السلطان والنفوذ من الزعماء والرؤساء إلى العناية بأمر الحج وتأمينه ففرضوا الأشهر الحرم ؛ والأرجح أن فرض الأشهر الحرم كان من عمل الأحماس ، الذين صار لهم بعض الامتيازات الدينية والتشريعية . والذين كان الناس يسيرون على ما يسنونه لهم ويعتبرونه سنناً دينية واجبة التنفيذ (١) . ويساعد على تصويب هذا الرأى ما كان لمكة من مركز دينى محترم فى نظر سائر العرب ، وما كان من اهتمام عظيم لتقرير حرمة الحرم وحرمة الأشهر الحرم عند زعماء مكة وما كانوا يقومون به من أعمال فى سبيل رعايتها(٢) . ويرجح أن السعى الأول كان منهم لأن فوائد الحج تعود فى المقام الأول على أهل مكة الذين يقوم البيت فى بلدهم وتقوم الأسواق العامة فى منطقتهم أو حولها . ثم إن حرمة البيت تكسبهم حرمة ومكانة ممتازة بين العرب ، وهذه المكانة هى التى هيأت لقريش الزعامة الدينية والأدبية ، كما أنها استغلت هذه المكانة فى السيطرة على التجارة بين الشام واليمن ، مما عاد عليهم بالثروة الكبيرة والمنزلة الرفيعة ، وأصبحت زعامة قريش زعامة حقيقية لاشك فيها قبل الإسلام ، وبخاصة بعد فشل الأحباش فى غزو مكة وارتداد جيشهم عنها ، فقال الناس عنهم « أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مئونة عدوهم(٣) » وأبرز مثل يوضح زعامة قريش ، هو أنها حين وقفت موقف المعارضة للنبى لم يجد استجابة لدعوته بين

---

(١) دروزة : عصر النبى ٢١١ . (٢) ابن هشام ١/١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) نفسه ١/٥٩ .

العرب ، فلما ألقت قريش لواء المعارضة بعد فتح مكة سنة ٨ هـ ، لم يلبث العرب أن دخلوا فى الإسلام طائعين ، فلم تأت سنة ١٠ هـ حتى كان الإسلام قد انتشر فى جزيرة العرب كلها ، وحتى كان عمال النبى وجباة الزكاة قد انتشروا فى كافة أجزاء الجزيرة كلها .

وإذا كانت الأشهر الحرم قد سنت للناس ، وإذا كانت قريش والرؤساء الذين يعنيهم الأمر قد فكروا في فرض هذه الهدنة على العرب فإنما كان ذلك لدوافع كبيرة وأحداث خطيرة ؛ جعلت الرؤساء يستعدون لها ويتخذون الوسائل لدرء ما ينجم عنها من أخطار ، ولعل ما أحاط بأطراف الجزيرة العربية من أحداث كتعرض اليمن للغزو الحبشى ثم سقوطها في يد الحبشة ، وما تلا ذلك من محاولة الحبشة فرض سلطانها على منطقة الحجاز ، ووقوع الأطراف الشمالية والشمالية الشرقية تحت نفوذ الروم والفرس ، ونهضة عرب الشمال وقيامهم على التجارة وأخذهم مقاليد الزعامة العربية ، كل هذا كان من البواعث والأخطار وأهمها .

وكان من الضرورى أن تفرض هدنة يوقف فيها القتال ويأمن الناس فيها على أنفسهم ، وتتاح لهم فيها فرصة الانتقال والاجتماع والتعارف للمتاجرة والمعاملة والتبادل الأدبى والمادى ، وحل المشكلات المعقدة التى تحتاج إلى أمن واطمئنان لحلها . وقد بدأت حركة تجمع وترابط بين القبائل قبيل الإسلام ، وبدأت تتكون المجموعات الكبرى وهذا التحالف بين القبائل نوع من التعبير عن إحساس القبائل بأنها لا تستطيع أن تعيش فى مجالها الضيق ، وأنها محتاجة إلى غيرها من القبائل تتحالف معها وتؤاخيها وتربط مصيرها بمصيرها ، وكذلك

سئم العرب الحروب القبلية ، وكانت هدنة الأشهر الحرم استجابة لهذه الرغبة التي بدت بين القبائل . وحالة الهدنة تقتضي تقليل فرصة القتال والتشاحن ، وبالتالي إيجاد فرصة أوسع للتآلف والتجمع ، وكلما ازدادت هذه الفرصة كان ذلك في مصلحة المجتمع العربي . والراجح أن بدعة النسيء التي ابتدعها العرب كانت لهذا الغرض وهو تطويل مدة السلام(١) فإذا لاحظنا أن في أسماء الشهور العربية ما يوحي بأنها وضعت في وقت معين ، فمثلا رمضان أخذ اسمه من الرمضاء(٢) وهي الحجارة الحامية من حر الشمس ، كان معنى ذلك أنه كان في الصيف ، وأن شهر الربيع الأول والثاني ما يوحي بأنهما كانا من أشهر الربيع . وبلاد العرب بلاد حارة يصعب فيها الانتقال والقتال في أشهر الصيف(٣) ، فإذا كانت شهور الصيف مانعة للقتال بطبيعتها . وإذا كانت الأشهر الحرم مانعة للقتال كذلك ، فإنه يمكن أن يؤلف من هذه الشهور سلسلة مؤلفة من سبعة أشهر يوقف فيها القتال ، وإذا كان لابد من قتال

---

(١) انظر السهيل ١/٤٢ وهو يقدر المدة التي بدأ فيها النسا . بحوالي ٧٠ سنة قبل ظهور الإسلام — المسعودي : مروج الذهب ٧/٢٠٥ .

(٢) المصباح مادة رمض ص ٣٢٥ . دروزة ص ٢١٣ .

(٣) التوبة ٨١ — ٨٢ « وقالوا لا تنفروا في الحر » . انظر ابن هشام ٤/٩٦٩ ، وما بعدها وابن سعد ٣/٢١٨ عن غزوة تبوك وما لقي المسلمون فيها من شدة بسبب الحر وكيف تخلف بعضهم عن القتال وكيف تردد الناس . البتنوني : الرحلة الحجازية ١٩٧ (والعرب كانت تنسيء الشهور حتى توافق بين السنين القمرية والشمسية فكانوا يؤخرون سنتهم كل ثلاث سنين شهراً وكان السبب في ذلك جعل زمن الحج ثابتاً في فصل من فصول السنة كأحد الربيعين حتى يتيسر لهم القيام به في غير وقت الحر والبرد الشديدين ، وخصوصاً في الزمن الذي تتوفر فيه مادتهم التي يتجرون بها من أصواف وأوبار وسمن ودهن . وهذا كله لا يتوفر على الدوام في شهر مخصوص من السنة القمرية) ومما يسند هذا الرأي أن النبي قال حين حرم بدعة النسيء « إن الزمان استدار كهيئته » وكان ذلك سنة ١٠ هـ ، وفيها كانت شهور الحج توافق أشهر الربيع (انظر التوفيقات الإلهامية من سنة ١٠ هـ) .

وطلب ثارات بسبب طبيعة الحياة البدوية وعصبيات العرب ، فنى الأشهر الباقية من السنة كفاية للتنفيس عن ثورة الغضب والعصبية . على أن فى انقطاع الناس عن القتال سبعة أشهر مجالا طيبا لحل ما يمكن حله من المشاكل المعقدة وبخاصة فى موسم الحج وأسواقه ومجتمعاته .

لكن الأشهر العربية القمرية تدور مع الزمن وتصبح أشهر الشتاء منها أشهر صيف ، وأشهر الصيف أشهر شتاء ، فابتدعت هذه البدعة لمسايرة مواسم السنة والتوفيق بين حساب السنة القمرية والسنة الشمسية حتى تظل أشهر الحج وأسواقه متصلة بأشهر الصيف وتظل الشهور التى يتوقف فيها القتال مستمرة مستقرة .

وإذا كانت بعض الروايات ذكرت أن النسىء كان يجرى أحياناً بطلب من الناس ليتسنى لهم متابعة حروب بدأوها أو طلب ثارات(١) لهم ، فإن ذلك لم يكن الأصل فى الموضوع ، فإن بدعة النسىء كانت مقررة وكان يتولاها بيوت من العرب معروفة يتوارثونها ، وكانت لها من الأهمية والمكانة ما يوجب الفخر بها والاعتزاز بتوليها ، وكانت تقليداً متبعاً يعلن للناس فى موسم الحج من كل عام(٢) ، على أنه يجب أن نضع فى الاعتبار أن حروب القبائل لم تكن حروباً متصلة ، وإنما كانت عبارة عن أيام بين القبائل تقع على فترات قد تكون متباعدة ، فحرب البسوس بين بكر وتغلب التى قالوا إنها استمرت أربعين سنة ، لم تقع فيها المصادمات إلا فى سبعة أيام متفرقة على طول هذه المدة(٣)

---

(١) ابن هشام ١/٤٣ — ٤٥ (انظر الحاشية ص ٤٤ وفيها تعليل مزدوج للنسىء أى أنه كان للقتال أحياناً ولمسايرة المواسم أحياناً) .

(٢) ابن هشام ٤/٤٥ — ٤٦ .

(٣) ابن الأثير ١/٣٢٣ . النويرى ١٥/٤٠٠ — ٤٠٥ .

ولذلك فإنه لا يمكن مسايرة هذه الروايات التي قيلت عن بدعة النسيء ، وإنما يجب أن تكون قد وضعت لشيء أهم وأعم وأنفع للناس من مجرد الجرى وراء العصبية والثارات . وإذا كان قد أسيء استعمال هذه البدعة مؤخراً مما استدعى أن يهاجمها القرآن بسبب سوء استعمال الناس لها ؛ حتى لا يتجرأ الناس على انتقاص الحرمات وخرق التقاليد النافعة . فإن الأصل فى ابتداعها كان لتحقيق نفع أكبر وغرض أسمى . على أن القرآن لم يهاجم هذه البدعة إلا بعد أن قامت الدولة الإسلامية وأصبح هناك سلطان يردع الظالم ويكف يد المعتدى ، وأصبح المجتمع يتجه إلى مثل أخرى غير المثل الجاهلية ، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار بدعة تغير من أشهر الحج .

وعلى كل حال فإن تقليد الأشهر الحرم كان تقليداً خطيراً له أثر كبير فى حياة العرب الاجتماعية على تعدد وجوهها ، وفيه دلالة كافية على قوة عقول الذين أنشأوها وسعة نفوذهم ؛ وفيه دليل كذلك على نهضة قومية وفكرية أخذت تباشيرها تبدو فى الجزيرة العربية بعد الأحداث الجسيمة التى مرت بها ، وكان لمنطقة مكة ولقريش بوجه خاص الدور الأول ، الأمر الذى هيأها لمركز الرياسة والذى هيأها فيما بعد للقيام بالدور الأول فيما جاء به الإسلام من نهضة عربية شاملة .

● ● ●

الفصل السادس

الحالة الاقتصادية

في بداية القرن السادس الميلادى تبدو مكة ممسكة بزمام التجارة فى بلاد العرب ، تنعقد فيها وحولها أعظم أسواق العرب التجارية والأدبية فى موسم الحج من كل عام ، وقوافلها التجارية تجوب أطراف شبه الجزيرة العربية ، تحمل التجارة بين الشرق والغرب ؛ متجهة إلى اليمن وإلى الحبشة وإلى الشام وإلى العراق . وقد أتاح لها هذه الفرصة موقعها الممتاز فى وسط طريق التجارة البرى المار بالحجاز ، وهو الطريق الوحيدى الذى بقى آمنا فى ذلك الوقت(١) . وقيام البيت الحرام الذى انعقد إجماع العرب على تعظيمه والحج إليه ، كما أنها بعدت عن منطقة التصارع الدولى لبعد موقعها ؛ فنجت مما أصاب غيرها من أطراف الجزيرة العربية من الوقوع فى مجال العراك القائم بين الشرق والغرب (الفرس والروم) فى ذلك الوقت ، ولبعد موقعها وصعوبة وصول الجيوش إليها احتفظت باستقلالها ، كما احتفظت بطابعها العربى الأصيل ، والحملة العسكرية الوحيدة التى وجهت إليها هى حملة الأحباش سنة ٥٧٠ م ، وقد باءت بالفشل ، فعزز فشلها مركز مكة عند العرب جميعاً ، وأصبحت تتمتع فى المجال العربى بتوجيه عام ، بعدما أصاب

(١) Huzayyen; Arabia and the Far East. p. 142-143,

الممالك القائمة فى أطراف الجزيرة من انهيار ، ووقوعها جميعاً تحت سلطان الدول الكبرى . وقد أتاح لها هذا كما أتاح لها موقفها الحيادى أن تمثل دور الوسيط المحايد فى نقل التجارة التى كانت ضرورية لكل من الطرفين المتنازعين ، وبذلك تمتعت بظروف اقتصادية طيبة من مزاولتها للتجارة بشقيها ، الداخلية والخارجية ، وقد أجرى رجال مكة الترتيبات المفصلة التى تكفل لهم الانتفاع بهذا الظرف على أكمل وجه ، ونجحوا فى ذلك إلى حد كبير ، وجنوا من وراء ذلك ثروة كبيرة عوضتهم عن فقر البيئة التى تحيط بمكة ، وجعلتهم يحتلون مركز الزعامة فى الجزيرة العربية كلها فى بداية القرن السابع الميلادى .

وقد مرت مكة قبل استقرار أمرها فى يد قبيلة قريش بطور من الاضطراب والحروب ، والرحلات والغزوات القبلية ، والقتال على السيادة ، حتى استقر أمر مكة فى آخر الأمر فى يد قبيلة قريش فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، وعلى يدها نالت كل هذا التوفيق الذى وصلت إليه .

وتحدث المصادر عن أن قبيلة خزاعة التى سبقت قريش على حكم مكة ، والتى كانت لا تزال موجودة حول مكة عند ظهور الإسلام ، كانت قد قامت بنشاط كبير لدعاية للحج إلى بيت مكة وجلبت إليه أصنام القبائل العربية لتحبب إليهم الحج إليه ، واهتمت بتيسير الماء والطعام للوافدين ، ومعنى هذا أنها اهتمت بخلق مورد اقتصادى لمكة عن طريق قدوم الحجاج إلى البيت . ولا ندرى أكانت خزاعة تقيم أسواقاً لنوع من التبادل التجارى بين الوافدين ، أم كانت تكتفى بالهدايا والنذور ، وما تحصله من ضرائب على القوافل المارة بها ، إلى جانب القيام على

الرعى وتربية الإبل فى البادية ، وإن كان البيع والشراء أمراً ضرورياً فى فى مثل هذه الحال ، ولا نستطيع أن نحدد متى نشأت الأسواق التجارية حول مكة ، وإن كان من المؤكد أنها نشأت بالتدريج فى المنطقة الواقعة بين مكة والطائف نتيجة لنمو المدينتين ونمو الحج إلى بيت مكة والراجح أن ذلك حدث بالتدريج منذ بداية القرن الخامس الميلادى . ويظهر ذكر عكاظ ومجنة وذى المجاز كأسواق تجارية وأدبية بصورة واضحة فى القرن السادس ، حين بدأ نفوذ الجنوب ينحسر عن هذه المنطقة من الجزيرة الغربية ، بعد اضطراب الأحوال فى اليمن وتعرضها للغزو الأجنبى(١) ، وظهور قبائل الشمال كعنصر فعال مناهض لنفوذ الجنوب ، حتى انتقلت زعامة الشمال إلى الشماليين ، وأصبح أهل الجنوب تبعاً لهم كلما وفدوا على الشمال . وقد وافق ظهور هذه النهضة الشمالية قيام قبيلة قريش وسيطرتها على شئون مكة ، واهتمامها بالبيت الحرام وتنشيط الحج إليه ، وكان هذا عاملا فعالا فى نهوض المدينة المكية ونهوض هذه المنطقة كلها تبعاً لذلك .

تجارة قريش :

تاجرت قريش فى كل ما تنتجه شبه الجزيرة العربية من عروض ، كما كانت تتاجر كذلك فى المجلوبات الخارجية من حاصلات الشرق والغرب .

فقد انتفعت مكة بموقعها الجغرافى فى منتصف طريق التجارة ،

---

(١) جواد على ٤/١٩١ . البتنونى ١٩٩ (اتخذ العرب عكاظ سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة) .

وبوجود البيت الحرام بها . ولما كانت بلداً غير ذى زرع فقد اعتمدت على التجارة وما يجلب لها من الخارج ، وقد كانت مكة قبل القرن السادس تقتصر على التجارة الداخلية حيث كان النشاط التجارى الخارجى فى يد اليمن . وكان أهل مكة يتاجرون فى حاصلات الجزيرة العربية ، أو ما يصل إلى أيديهم من عروض التجارة الخارجية على يد تجار اليمن ، ولم تكن مكة تجنى من وراء ذلك أرباحاً كبيرة تمكن أهلها من إحراز ثروة كبيرة ، إنما كانت تسمح لهم بالإعاشة . ولكن فى بداية القرن السادس كانت حالة اليمن قد تدهورت نتيجة للصراع الداخلى بسبب الخلاف الدينى نتيجة لانتشار اليهودية والمسيحية فيها والتنافس بين الدينين ، ونتيجة لوقوعها فى منطقة التصارع الدولى بين الامبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية ، وقد استخدمت الاخيرة الحبشة حليفتها لإقرار النفوذ الرومى على جنوب بلاد العرب عن طريق غزو اليمن ، وتكررت غزوات الحبشة على اليمن حتى سقطت فى يدها فى النصف الاول من القرن السادس ، وقد استمر حكم الحبشة لليمن حتى أخرجهم منها الفرس فى حوالى سنة ٥٧٥ م ولم تتحرر اليمن من الاحتلال الاجنبى إلا بعد ظهور الإسلام وانضمامها إلى الدول العربية الإسلامية .

وقد أدت كل هذه الظروف إلى أن تفقد اليمن مركزها التجارى . وقد صحب ذلك ظهور نهضة القبائل المضرية فى الشمال ، والتى ما لبثت أن تحررت من نفوذ الجنوب ، وبدأت تقوم بدور إيجابى فى الجزيرة العربية . ولما كانت مكة فى ذلك الوقت قد حظيت بنوع من الاستقرار والتنظيم على يد قبيلة قريش ، التى نظمت الحج ونشطت القدوم إلى

هذه البقعة المتوسطة ، وأقرت حرمتها وحرمة الاشهر الحرم للقدوم إليها والتجمع فى أسواقها ، فقد أخذت قريش تحتل المكانة التجارية التى كانت تحتلها اليمن ، وقد ساعدها على أن تنال هذا المركز النزاع الذى احتدم أواره بين الفرس والبيزنطيين فى الشمال ، وانشغال كل من هاتين الدولتين الكبيرتين بهذا النزاع الدموى ، وكذلك ما لحق الممالك العربية على أطراف العراق والشام من تدهور نتيجة لاشتراك المناذرة ملوك الحيرة فى هذا الصراع إلى جانب الفرس ، واشتراك الغساسنة إلى جانب الروم ، ثم تغير سياسة الدولتين الكبيرتين تجاه المملكتين العربيتين(١) الأمر الذى أدى : أولا ، إلى قفل طريق التجارة المار بالعراق فمدن الشام ، وثانياً ، اضمحلال نفوذ هاتين المملكتين على القبائل البدوية ، حتى لم تعد الحيرة قادرة على حماية التجارة الفارسية فى بلاد العرب ، إلا عن طريق إتاوات تدفعها لهذه القبائل (٢) لتمرير هذه التجارات وحمايتها ، وحتى مع دفع هذه الإتاوات فإن القبائل كانت كثيراً ما تعتدى على التجارة ، وقد تجرأت فدخلت فى حرب ضد الدولة الفارسية وهزمت جيوشها وجيوش الحيرة معها فى موقعة ذى قار(٣) وهى الموقعة المشهورة عند العرب . كذلك اضطربت الأحوال بين الروم والغساسنة حتى لقد أخذت هذه المملكة تهاجم أطراف الدولة البيزنطية مع القبائل البدوية ، بعد أن كانت تحمى حدودها .

وقد استفادت مكة من هذه الظروف كلها لتحتل مركز الوسيط المحايد ، لنقل التجارة بين الشمال والجنوب ، ولبعد موقعها عن نفوذ

---

(١) حتى ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٠ .   (٢) ابن الأثير ١/٣٧٨ .

(٣) نفسه ١/٢٩١ .

الدولتين ولحاجة الدول إلى هذه التجارة العالمية وبخاصة الروم ، فقد قبلت أن يقوم رجال مكة بهذا الدور ، فخرجت مكة عن عزلتها إلى المجال الخارجي ، وأخذ رجالها عهوداً من الدول للمتاجرة فى أراضيها فى نهاية القرن الخامس الميلادى (١) لتسمح لتجار قريش أن يدخلوا بلادها فى سلام ، وقد قام بهذا الدور أبناء عبد مناف هاشم وإخوته الذين كانوا أصحاب النفوذ الأقوى فى قبيلة قريش(٢) .

وقد كان هاشم رجلا حكيما نشيطاً ، استطاع أن يقوم على ترتيب القوافل التجارية ؛ فجعل لها رحلتين فى السنة رحلة فى أشهر الصيف إلى الشمال ورحلة فى أشهر الشتاء إلى الجنوب ، وقد ذكر القرآن خبر هاتين الرحلتين فى معرض تعداد فضل الله على قريش(٣) ، وقد عمل على تأمين طرق القوافل بما عقده من محالفات مع رؤساء القبائل الضاربة على جنبات طرق التجارة ، فكان يحمل لهم تجاراتهم دون أجر ؛ وبذلك ربط هاشم مصالح القبائل الاقتصادية بمصلحة مكة ، وكون بذلك شبكة تجارية تربط مكة بما حولها ، وبذلك أخذت قريش تسيطر شيئاً فشيئاً على التبادل التجارى بين الشمال والجنوب ، وعظمت قوافلها حتى لتبلغ القافلة الواحدة خمسمائة وألفى بعير تحمل عروض التجارة المختلفة . وقد بلغ قيمة ما تحمله قافلة عدد جمالها خمسمائة وألف بعير

---

(١) حتى ٩٤ — جواد على ٤/١٣٩ — ١٤٠ . (إذا كان النبى ولد فى سنة ٥٧٠ م ومات جده عبد المطلب بعد ذلك بثمانى سنوات وهو فى سن الثمانين فمعنى ذلك أن عبد المطلب ولد فى حوالى سنة ٤٩٨ م ، ومات والده هاشم بعد ذلك بقليل وكان قد أخذ عهداً من الروم للمتاجرة فى الشام فمعنى ذلك أن هاشما فعل ذلك فى نهاية القرن الخامس تقريباً) ، انظر ابن هشام ١/١٨٠ اليعقوبى ١ / ٢٠١ ، ٢/٢/١٠ الطبرى ٢ / ١٢ ، ٣٢ .

(٢) الطبرى ٢/١٢ — ١٣ . ابن الأثير ١/١٠ اليعقوبى ١/٢٠١ .

(٣) سورة قريش ، ابن هشام ١/١٤٧ .

خمسين ألف دينار(١) ، وهو مبلغ كبير إذا قسناه بقيمة العملة فى تلك الأيام . وكانت القوافل تحمل حاصلات الجنوب ؛ فتحمل من حاصلات الهند المنتجات التى ترد إلى موانى الجنوب ، وأهمها الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والأفاوية كالبهار والفلفل ونحوها ، والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوان والميعة والزعفران والآنية من الفضة والصُّفر والحديد . كما تحمل من حاصلات أفريقيا الشرقية العطور والأطياب وخشب الأبنوس وزيش النعام والجلود والذهب والعاج والرقيق(٢) . كما تحمل من حاصلات اليمن البخور واللبان والمر واللادن والعطور والحجارة الكريمة كاليشب والعقيق والجلود ذات الرائحة الطيبة(٣) . ومن حاصلات جزيرة سقطرة العود والند ، ومن البحرين اللؤلؤ .

وتحمل من الشمال القمح والدقيق والزيت والخمر ومصنوعات فينيقيا(٤) . هذا بالإضافة إلى ما تحمله من حاصلات بلاد العرب نفسها من الزيت والبلح والقرظ والصوف والوبر والشعر والجلود والسمن(٥) .

كان تجار مكة يحملون هذه البضائع إلى الشمال والجنوب فى

(١) اليعقوبى ١/٢٠٢ . بودلى ٣٥ – ٣٨ .
(٢) الطبرى ٢/١٨١ جورج فضلو : العرب والملاحة ٧٦
(٣) الطبرى ٢/٥٧ الواقدى ٦٥ . الأغانى ١/٦٤ – ٦٥ ، جورجى زيدان : العرب قبل الإسلام ١٥١ .
(٤) ابن هشام ١/١٤٧ ، أنساب الأشراف ١/٥٨ – ٥٩٠ جورجى زيدان : نفسه ١٧٨ – ١٧٩ .
(٥) الطبرى ٢/١٢٥ .

رحلات الصيف والشتاء . وكانت البضائع تفرغ فى مكة ثم تخرج منها فى القوافل إلى الجهات الأُخرى . وقد اعتمد الروم على تجارة مكة إلى حد كبير ، وخصوصاً بعد أن احتدم الصراع بينهم وبين الفرس ، وأصبح الفرس يسيطرون على التجارة الواردة عن طريق الشمال المار بخليج العرب ثم العراق ، ويمنعونها من الوصول إلى أيدى أعدائهم أو يبيعونها لهم بأثمان باهظة ، فكانت بيزنطة تعتمد على تجارة مكة وخاصة الحرير ، حتى ليستظهر بعض المؤرخين الغربيين أنه كان فى مكة بيوت تجارية رومية تزاول التجارة للروم : كما كان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم(١) . وكانت القوافل التى تقصد الشام تتسوق من أسواق عينتها لها الحكومة البيزنطية ؛ لتحصل منها على الضرائب ولتراقب الوافدين الأجانب إلى بلادها ، فكانت تنزل أبلة (العقبة) ومنها إلى غزة حيث تتصل بتجار البحر المتوسط ، ومن غزة يذهب بعض التجار إلى بُصرى وإلى بيت المقدس(٢) .

كما كان لمكة صلات قوية بالحبشة عن طريق البحر الأحمر ، ولابد أن أهل مكة كانوا يستعملون البحر فى نقل متاجرهم إلى الحبشة عن طريق ميناء الشعيبة -وكانت الشعيبة ميناء مكة ، إليها ترد السفن قبل جدة ثم أخذت جدة موضعها فى أيام الخليفة عثمان بن عفان (٣) - أو بعض موانى اليمن القريبة ، ويظهر من روايات الأخباريين أن أهل مكة كانوا يستعملون هذا المرفأ والمرافىء القريبة منهم ؛ للاتصال

---

(١) O'lear, Op. Cit. P. 184 . فجر الإسلام ١٥ .

(٢) البخارى ١/٤ ابن الأثير ٢/١٠ فجر الإسلام ١٥ .

(٣) ياقوت ١١/٣٥١ ، الطبرى ٢/٦٩ ، جواد على ٤/٢٠٣ ، جورج فضلو : العرب والملاحة ٤ .

بالحبشة والموانى الإفريقية المقابلة لهم ؛ فلا يدفعون ضرائب المرور من أرضين تقع فى اليمن وهى منافسة لهم ، ولا يحتاجون إلى وضع حماية قوية على القوافل لمرورها بين قبائل عديدة إذا استعملوا موانى اليمن ، فتكلفهم أسعاراً مرتفعة . ثم إن اليمن بعد زوال الأحباش عنها كانت فى حكم حاكم فارسى ولابد أن تتأثر تجارة اليمن بالحبشة بهذا التغير فى الحكم ، ولابد أن يؤثر ذلك فى الموانى اليمنية وهى أبواب التجارة مع أفريقيا (١) .

أما أهل مكة فكانوا تجاراً محايدين علاقتهم حسنة مع الروم ومع الفرس ، وكان من مصلحتهم الوقوف على الحياد ، ولهذا كان من مصلحتهم الاستفادة من الموانى القريبة منهم فى التجارة مع الحبشة ، ولا يستبعد استخدام أهل اليمن هذه الموانى كذلك لحيادها ولبعدها عن النزاع السياسى الذى كان بين الفرس وبين الحبشة وحلفائهم الروم . ولذلك لا تحدثنا الروايات كثيراً عن قوافل الجنوب ، بينما كانت قوافل قريش متصلة دائماً نحو الشمال ، كما تحدثنا عن رحلات بحرية إلى الحبشة التى كانت لقريش متجرا ووجها(٢) . ولعل من مؤيدات اتساع هذا الأفق التجارى البحرى الهجرة التى قام بها المسلمون إلى الحبشة(٣) وليس من المعقول أن يهاجر المكيون إلى بلد لم يكونوا يعرفونه ، وهذه المعرفة تدل على أن هذه البلاد التى اتصل بها المكيون فى أسفارهم التجارية(٤) .

---

(١) جواد على ٢٠٤/٤ .
(٢) الطبرى ٦٩/٢ ، ٧٣ ، ٢٩٥ الأغانى ٥٢/٨
(٣) النحل ٤١ ، ١١٠ الطبرى ٦٨/٢ – ٦٩
(٤) أنساب الأشراف ٣٨٠/١ ، حتى ١٢٨

وفى القرآن ذكر كثير لمصر ونهرها وما يتفرع منه من أنهار . وما يقوم فيها من أهرامات وقصور ، وأرض زراعية وعمران(١) ، وآيات القرآن تلهم أن أهل مكة كانت لهم صلات بمصر . وأن أسفارهم التجارية قد وصلت إليها وأنهم قد رأوها وشاهدوا نيلها وأرضها وآثارها على أن صلة العرب بمصر قديمة ؛ فإنهم كانوا يتاجرون فيها وينقلون إليها حاصلات الجنوب من البخور والمر الذى كان لازما لمعابدها ، وقد عثر على نقش على تابوت فى الجيزة مكتوب بالخط العربى الجنوبى وباللهجة المعينية ، وهو مؤرخ بالسنة الثانية من حكم بطلميوس بن بطلميوس أى سنة ٢٦١ ق . م ، ويدل النقش على أن معينيا كان يسمى زيد -إل بن زيد ، وكان يشتغل بالكهانة فى أحد المعابد المصرية كان يستورد المر والزريرة (قصب الطيب) **Calamus** من بلاده للمعبد ويصدر إليها على السفينة التجارية التى يملكها أثواباً جميلة من البز المصرى(٢) .

ولابد أن هذه التجارة فى حاصلات الجنوب التى كانت لازمة لمصر كانت مستمرة بعد ذلك ، وأنه بعد انتقال التجارة إلى يد قريش ، كان تجار قريش يقومون بنقل قسط من هذه التجارة ، وأن منهم من وصل إلى مصر وتاجر فيها ، وقد عرف المكيون الأقمشة المصنوعة فى مصر وكانوا يسمونها القباطى .

والآيات القرآنية التى تشير إلى البحر وعواصفه وما يجرى فوقه

---

(١) الفجر ١٠ - ١١ الزخرف ٥١ ، الحج ٤٥ - ٤٦ ، الروم ٩

(٢) العرب والملاحة البحرية ص ٦ .

وما يستخرج من جوفه(١) ، والتى تمتاز بوضوحها وجلائها الرائع ، ليست إلا صدى للنشاط التجارى والاتصالات البحرية بين الحجاز والحبشة وغيرها . ومع ما فى هذه الآيات من تعدد لنعم الله ، إلا أنها بما تحمل من طابع الخطاب القريب تدل على أن الكلام موجه إلى المخاطبين القريبين وهم أهل الحجاز وأهل مكة بنوع خاص ، وتدل على ما كان لهؤلاء من صلة بالأعمال البحرية المتنوعة وما كان يقوم فى ثغور الحجاز وسواحله من حركة وملاحة ، وصيد وغوص ؛ وما كان لأهل الحجاز وبخاصة مدنه وتجاره من منافع عظيمة ، وكثرة الآيات وتكرار التعداد وتنوع الأساليب ، وهذه الحفاوة القرآنية فى الإشارة إلى البحار وما فيها وما يجرى فوقها وما يعود منها من المنافع العظيمة يمكن أن تدل على أن حركة الملاحة والصيد والغوص لم تكن ضعيفة(٢)، وأنها كانت مما يعول عليه أهل الحجاز فى معاشهم وحياتهم التجارية والاقتصادية تعويلا غير يسير ، وأنهم كانوا يعرفون البحر وركوبه ويستخدمونه فى أغراضهم المختلفة .

ولم تكن قريش حين سيطرت على التجارة تملك سفنا فى البحر الأحمر ، ولكنها من غير شك كانت تنقل تجارتها من الحبشة وإليها عبر هذا البحر ، ولابد أن أهل مكة كانوا يستخدمون سفنا تعمل لحسابهم(٣) .

أما صلات قريش بالفرس فلم تكن على قدر كبير ؛ لأن التجارة

---

(١) الأنعام ٩٧ ، التوبة ٩٦ ، يونس ٢٢ ، النحل ١٤ ، الإسراء ٦٦ ، النور ٤٣ فاطر ١٢ ، الشورى ٣١ - ٣٢ ، الرحمن ١٩ - ٢٤

(٢) الأغانى ٣/١١٨ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ١/٢٠٧ .

مع فارس كانت فى يد عرب الحيرة الذين كانوا يدبرون أمر وصول هذه التجارة إلى أسواق العرب ، وكانوا يحملون لهم من هذه الأسواق ما هم فى حاجة إليه من حاصلات الجزيرة العربية ، ومع ذلك فقد كانت تجارة قريش تدخل بلاد فارس عن طريق قوافل تخرج من مكة إليها ، عبر الطريق الصحراوى المار بشرقى يثرب(١) إلى العراق ، وتحدثنا الروايات عن أشخاص من رجال مكة ماتوا فى طريق عودتهم من العراق(٢) :

وكانت التجارة التى تحمل من الجنوب أو من الشمال أو من الشرق تفرغ فى مكة ، حيث تستهلك البيئة المحلية منها ما تحتاج إليه ؛ ثم يحمل الباقى إلى الأماكن المحتاجة إليه ، فتحمل حاصلات الجنوب إلى الشمال كما تحمل حاصلات الشمال إلى الجنوب ، فوق ما يحمل معها من حاصلات البادية العربية ؛ مما تجمعه قريش من تجارة أهل البادية والمدن الحجازية ، مما يحمل إلى مكة أو إلى الأسواق القريبة منها فى عكاظ ومجنة وذى المجاز فى موسم الحج . وقد كانت صلات مكة التجارية كبيرة بالطائف التى كانت تنتج مقادير كبيرة من الزبيب والنبيذ الذى كانت تستهلك مكة منه كثيراً ، ومن الجلود المدبوغة . وكان المكيون يشركون أهل الطائف أحياناً فى قوافلهم التجارية(٣) . كما كانت صلات مكة التجارية كبيرة بيثرب حيث يمتاز أهل مكة من تمرها ويشترون كثيراً مما تنتجه من الحلى والسلاح التى كان اليهود يقومون على صناعتها(٤) .

---

(١) الطبرى ٢/١٨١

(٢) ابن الأثير ٢/١٠ ، ياقوت ١٠/٢٤٩

(٣) ابن كثير ٣/٢٢١ (٤) البخارى ٣/٦٠

وكانت فى مكة سوق دائمة للتبادل التجارى وبخاصة مع القبائل القريبة منها ، حيث تشترى مكة حيوانات الجزيرة ومنتجاتها من جمال وخيل وحمير وسمن وقرظ وجلود ، وتبيعه لمن يحتاج إليه من الأعراب(١) ، كما تبيعهم ما يحتاجون إليه من المجلوبات الخارجية ، وكانت تجارة الملابس والأطعمة والشراب رائجة فى مكة وبخاصة فى موسم الحج . وصارت مكة تعج بالتجار من كل ناحية وبخاصة من أهل الشام والروم والفرس ، ساكنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم ، وقد اتخذوا فيها مستودعات لخزن بضائعهم وتصريفها ، وكان تجار الشام خاصة يجلبون القمح والزيوت والخمر الجيدة إلى تجار مكة(٢) وقد ورد فى كتب السيرة والرجال أسماء بعض هؤلاء ممن كانوا من بلاد الشام فى الأصل ثم سكنوا مكة ودخلوا فى الإسلام من أمثال تميم الدارى(٣) ، وكسيان(٤) .

وقد ذكر المستشرق أوليرى O'leary أن مكة أصبحت مركزا للصيرفة يمكن أن يدفع فيها التجار أثمان السلع التى ترسل إلى بلاد بعيدة ، كما كانت عملية الشحن والتفريغ لهذه التجارة الدولية تتم هناك ، وكذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهى تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر(٥) ، وقد كان يساعد قريشا على تأمين تجارتها ما كانت تتمتع به من حرمة عند العرب وما كان لها من ارتباطات مع القبائل الضاربة على طول طرق التجارة .

(١) ابن الأثير ١/٣٤٤ ، ابن كثير ٣/٤٥ .
(٢) أسد الغابة ٤/٥٠٨ . (٣) نفسه ٥/١٤٥ .
(٤) نفسه ٤/٢٠٨ .
(٥) O'lery! Arabia befofore Mohammad' p. 182

ولم تكن قوافل مكة تجارة أفراد وإنما كانت تجارة مدينة ، وكانت قريش كلها تشارك فيها ، وكان كبار التجار يقومون على هذه القوافل التى تضم أموالا لأفراد متعددين ، منهم من يسافر على تجارته ، ومنهم من يستأجر آخرين ومنهم من يقرض ماله للمتاجرة على النصف ، وأحيانا كانت القافلة تحمل أموالا لأهل مكة جميعاً(١) . ولم تكن التجارة خاصة بالرجال دون النساء ، فكان منهن ثريات اشتغلن بالأعمال التجارية ، مثل خديجة بنت خويلد التى كانت تتجر بمكة وكانت تستأجر الرجال للسفر بتجارتها إلى الشام(٢) ، ومثل الحنظلية أم أبى جهل التى كانت تتاجر فى العطور تجلب لها من اليمن (٣) . وتشير الآية «٣٢» من سورة النساء إلى ذلك «وَلاَ تَتَمَنَّوا ما فضَّلَ اللهُ بهِ بَعْضَكُم عَلَىَ بَعْضٍ لِلرِجَالِ نَصيبٌ مما اكْتَسَبُوا ولِلنِسَاءِ نَصيبٌ مما اكْتَسَبْنَ» وكانت المرأة لا تنكح إلا ولها مال(٤) وعلى ذلك فتجارة مكة الخارجية ليست تجارة أفراد وإنما هى تجارة جماعية .

وقد أدى نشاط بعض أسر مكة فى التجارة إلى حصولها على ثروات طائلة ، وقد أسهم رجل واحد من أهل مكة هو أبو أحيحة بن سعيد ابن العاص بن أمية بثلاثين ألف دينار فى القافلة التى كان يقودها أبو سفيان وكانت السبب فى موقعة بدر سنة ٢(٥) هـ ، ومبلغ مثل هذا ليس بالشيء القليل بالنسبة للوضع المالى فى تلك الأيام . كذلك كان

---

(١) الواقدى ، المغازى ١٨ .
(٢) أسد الغابة ١٦/١ ، ابن كثير ٢٩٤/٢ — ٢٩٥ .
(٣) الأغانى ٦٤/١ — ٦٥ .
(٤) سيرة أعلام النبلاء ٢٣١/١ .
(٥) الواقدى ، المغازى ١٨ .

عبد الله بن جدعان التيمى والوليد بن المغيرة المخزومى من أثرياء مكة ، وكان الأول يشرب فى كأس من الذهب حتى سمى حاسى الذهب ، وقد اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال حتى كان أحدهم ؛ وهو عبد الله بن أبى ربيعة ، يلقب بعدل قريش وقد كان تاجراً موسراً وكان متجره إلى اليمن(١) . كما كفن أحد الموتى وهو عبد المطلب بن هاشم فى حلل ألف مثقال من الذهب ، وطرح عليه المسك حتى ستره .

الربـــا :

كان الربا مظهراً من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية ، وكان أهل مكة ، كما كان أهل الحجاز واليهود ، يعولون عليه كثيراً فى تنمية ثرواتهم ، وكان الربا أحيانا يبلغ أضعاف القرض نفسه (٢) ؛ فتؤكل بذلك أموال المدين وتذهب حقوق الأفراد . وفى القرآن آيات كثيرة يستلهم منها أن الربا كان راسخاً رسوخاً شديداً ، وأنه كان جزءاً من الحياة الاقتصادية وبخاصة عند التجار وأهل المدن ، وإذا كانت معظم الآيات التى نزلت بشأن الربا نزلت بعد هجرة النبى إلى يثرب وقيام الدولة الإسلامية بها (٣) ، إلا أن بعضها نزل بمكة أو بعد فتحها(٤) مما يدل على أنها كانت موجهة إلى المكيين ، وأن الربا كان أمراً شائعاً عاماً(٥) . وقد أعلن النبى فى حجة الوداع سنة ١٠ هـ إسقاط ربا عمه العباس وكان من أغنياء مكة وتجارها ، وتحمل آيتان من البقرة

---

(١) الأغانى ١/٦٤ . (٢) اليعقوبى ٢/١٠ .
(٣) آل عمران ١٣٠ ، النساء ١٦٠ - ١٦١ .
(٤) الروم ٣٩ .
(٥) البقرة ٢٧٥ ، ٢٧٨ - ٢٧٩ ، ابن هشام ٢/١٢ .

(٢٧٨) (٢٧٩) «يَـٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ» إنذاراً شديداً لمن يزاولون الربا ، مما يدل على رسوخ قدم الربا ، وعلى أنه كان يشغل حيزا كبيراً من حياة المدن الحجازية الاقتصادية ، وأنه لم يكن من السهل القضاء عليه مما استلزم قوة الإنذار وإعلان الحرب من الله ورسوله .

وإلى جانب الربا كانت المضاربات وبيع البضائع المتوهمة أو البضائع التى لم تصل مكة بعد ، فلطالما باعوا البضائع قبل وصولها من اليمن أو الشام ، وباعوا المحاصيل قبل حلول يوم الحصاد بوقت طويل، فأفلست بيوتات واغتنت أخرى بين عشية وضحاها . ونحا صغار التجار نحو كبارهم فى المضاربات فيما بينهم ، ولطالما عملوا على غش البدو السذج ؛ فاحتقر البدوى الحضرى لهذه الصفة ، وقد قال أهل البادية إن قريشاً تصغير «قرش» وهو سمك القرش المفترس يعبرون بذلك عن افتراسها لغيرها(١) ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا مجبرين على أن يتعاملوا مع القرشيين لبيع إبلهم وأغنامهم وأصوافهم وحاصلاتهم من البادية(٢) .

النقــد :

كان النقد المتداول هو الدينار والدرهم . والدينار عملة ذهبية والدرهم عملة فضية ، وكان التعامل بهما دارجا فى الشام والعراق ومصر .

---

(١) البخارى ٣/٦٠ .

(٢) نفسه ٤/٧١ - ٧٢ ، بوهل ٣٦ - ٣٨ .

وقد عرفهما أهل الحجاز وتعاملوا(١) بهما ، وكان أهل مكة يملكون ثروة كبيرة من هذه العملة(٢) . ولم يكن هذان النقدان حجازيين ، ولم يضربا فى الحجاز اقتباساً من الفرس والروم ، فإنه لم يكن فى الحجاز دولة لها سكة خاصة ، وإنما كان المتعامل به هو الدينار والدرهم الأجنبيين ولعل فى هذا دلالة على صلة الحجازيين بعامة ومكة بخاصة بجيرانهم من الروم والفرس صلة تجارية كبيرة ، وليس لدينا ما يثبت أن أهل مكة أو أهل الحجاز كانوا يستصنعون لحسابهم فى دور الضرب العراقية أو الشامية الدراهم أو الدنانير .

وبلاد العرب كانت تنتج معدن الذهب والفضة وكانت غنية بهما فى العصور القديمة . وقد كان يجرى التعامل بهما وزنا(٣) ، كما ذكر مراراً فى القرآن فى معرض استعمالهما حلياً وأوانى فى الدنيا والآخرة(٤)، مما يدل على أن هذين المعدنين كان ينظر إليهما على أنهما مقياس الثروة، كما كانا من الملك المحبب المحروص عليه عندهم ، شأن البيئات المتحضرة المجاورة ، وفى الروايات ما يدل على أن أغنياء مكة استعملوا الذهب كآنية ، فقد كان ثرى مكة عبد الله بن جدعان يشرب فى أكواب من الذهب حتى سمى «حاسى الذهب»(٥) .

الأعداد والحساب :

فى القرآن ذكر للأعداد ومضاعفاتها من آحاد وعشرات ومئات

(١) الواقدى ٢٢ ، آل عمران ٧٥ ، يوسف ٢٠ ، التوبة ٣٤ .
(٢) ابن هشام ١/٢٩٢ الواقدى ٢٢ ، ٩٨ .
(٣) ابن هشام ١/٢٤٠ .
(٤) الكهف ٣١ ، الزخرف ٣١ ، ٧١ ، الإنسان ١٥ ، ١٦ ، ٢١ .
(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ١/٣٢ — ٣٣ .

وألوف ومئات الألوف ، كما ورد ذكر كسور الأعداد من نصف وثلث وربع وخمس وسدس وثمن وعشر(١) ، الأمر الذى يدل على أن العرب بعامة وأهل المدن بنوع خاص كانوا على علم بالأعمال الحسابية من ضرب وقسمة وجمع وطرح وكسور ، كما يدل على سعة الأفق والصلات وكثرة التعامل .

المكاييل والموازين والمقاييس :

والكيل والميزان والمقياس معروفة عند العرب ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ولكنها ذكرت دون تعيين إلا القنطار والذراع على غموض فى مقدارهما(٢) . وقد جاء ذكر الكيل والميزان والقسطاس فى مناسبات أكثرها جاء فى معرض الأمانة والحث على الاستقامة فى الكيل والوزن ، مما يدل على أنه كانت توجد مكاييل وموازين ، وأن هذه المكاييل والموازين كان بعضها مضبوطاً وبعضها غير مضبوط ، والآيات القرآنية تحث على استعمال المضبوط منها ؛ مما يدل على أن حيل الغش فيها كانت فاشية وأن التجار كانوا يستغلون جهل المتعاملين معهم وبخاصة أهل البادية فيأخذون منهم وزناً أو كيلا وافياً ويبيعون لهم بمكاييل وموازين غير وافية (٣) ويمكن أن نستدل من آيات القارعة (٦ - ٩) أن الميزان المستعمل كان هو الميزان ذو الكفتين(٤) . كما نعرف

---

(١) البقرة ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، آل عمران ١٢٤ ، ١٢٥ ، النساء ٣ ، ١١ ، ١٢ ، الأنفال ١١ ، ٤١ ، ٦٥ ، الكهف ٢٢ ، الصافات ١٤٧ ، المعارج ٤ .

(٢) آل عمران ١٤ ، ٧٥ .

(٣) الأنعام ١٥٢ ، الإسراء ٣٥ ، الرحمن ٩ ، المطففون ١ - ٣ .

(٤) البخارى ٣/٧١ - ٧٢ .

من المكاييل الصاع(١) والمد وهو ربع الصاع ، وأن الصاع وحدة الكيل وأنه يساوى وزن خمسة أرطال وثلث(١) ، كما كان الرطل مكيالا أيضاً(٢) . كما كانوا يعرفون الأُوقية والنش (وهو نصف الأُوقية)(٣) وأن الأُوقية كانت تساوى أربعة وعشرين درهما ، وأنه كانت توزن بها المعادن كالذهب والفضة وكذلك المثقال وهو درهم وثلاثة أرباع الدرهم .

النشاط الزراعي والرعوى :

إذا كانت منطقة مكة مجدبة غير صالحة للزراعة ، فإن المناطق المجاورة لها ، وبخاصة منطقة الطائف والوديان الموجودة بين مكة وجدة ، كانت تنبت مختلف النباتات ، ويلهم ما فى القرآن من آيات كثيرة تحتوى أوصافا للأعمال الزراعية ونتاجها من زروع وكروم ونخيل وزيتون ورمان وفاكهة ، والزرع ذى الحب المتراكب كالقمح والشعير أن هذه الزراعات كانت قائمة ، وأن أهل هذه المناطق من الحجاز كانوا متقدمين شوطاً غير قصير فى الأعمال الزراعية(٤) . وأن هذه المناطق الزراعية كانت تمون مكة والقرى الأُخرى التى لا تستطيع أن توفر حاجاتها الغذائية بنفسها بسبب جدب التربة وشح المياه ، وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يملكون مزارع وحدائق وآبار بالطائف ، وتتحدث الروايات عن رجل من العراق اسمه عدّاس كان خادما فى

---

(١) المصباح مادة « صوع » . (٢) نفسه مادة « رطل » .

(٣) الواقدى ٢١ .

(٤) البقرة ٦١ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ الكهف ٣٣ — ٣٤ .

بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة بالطائف(١) وربما كان هذا الرجل خبيرا زراعيا جلب أو اشترى خصيصا لهذا العمل .

كما أن أهل مكة قد مارسوا تربية الماشية من إبل وغنم وأبقار ، وأنهم كانوا يرعونها فى الوديان والشعاب المجاورة لمنطقة مكة ، والتى كانت تنبت الكلأ والشجيرات الرعوية التى تزدهر فى مواسم معينة من السنة(٢) وقد ورد فى كتب السيرة أن النبى كان يرعى الغنم فى أجياد وأن عمر بن الخطاب كان يرعى إبل أبيه بجوار مكة(٣) . ومدينة تجارية مثل مكة كانت تقوم على تجارة القوافل لابد أن تكون قد اهتمت بتربية الإبل ولا يمكن أن تكون اعتمدت كلية على ما تستأجره من إبل الأعراب بل إن أهلها كانوا يملكون ما يعتمدون عليه فى نقل متاجرهم يربونه أو يشترونه من الأعراب(٤) ، كما كانوا يملكون عددا من الخيل لاستعمالها فى ركوبهم وحروبهم ، وربما كانوا يبيعون بعضها مبادلة على الإبل التى كانت حاجتهم إليها أشد ونفعها لهم

---

(١) ابن هشام ٢/٣٠ ، الواقدى ٢٣ — ٢٤ .

(٢) انظر وصف منطقة مكة فى حالة خصبها . أسد الغابة ١/١٠١ (روى ابن شهاب الزهرى قال « قدم أصيل الغفارى قبل أن يضرب الحجاب على أزواج النبى ﷺ فدخل على عائشة رضى الله عنها فقالت : له يا أصيل : كيف عهدت مكة . قال : « عهدتها قد أخصب جنابها وأبيضت بطحاؤها » ، قالت أقم حتى يأتيك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم يلبث أن دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا أصيل ، كيف عهدت مكة قال « عهدتها والله قد أخصب جنابها وابيضت بطحاؤها وأعذق إذخرها وأسلب ثمامها وامشر سلمها فقال : حسبك يا أصيل لا تحزنا » أعذق : صارت له أفنان . أسلب ثمامها : أخوص وصار له خوص . أمشر : أورق واخضر) .

(٣) ابن سعد ١/١٠٧ — ١٠٨ الاستيعاب ٣/١٥٧ .

(٤) البخارى ٣/٦٢ ، ابن هشام ١/٤٩ .

أكبر(١) . كما كانوا يملكون عددا من االحمير والبغال . وكان لهذه الحيوانات كلها سوق نشيطة فى مكة .

الصيد :

كان الصيد من مشاغل العرب ومعايشهم ، بل كان من ضروريات حياتهم المعيشية ، وقد ورد فى القرآن آيات خاصة بالصيد سواء منه صيد البر أو صيد البحر(٢) ويستفاد من هذه الآيات أن العرب فى فترة البعثة المحمدية كانوا قد بلغوا شوطاً بعيداً فى فنون الصيد ، فكانوا يستعينون عليه بالطيور الجارحة والحيوانات المعلمة كالبزاة والعقبان والصقور والكلاب(٣) وكانوا يعلمون هذه الطيور والحيوانات لتقوم بمهمتها على الوجه الأكمل . وقد تحرج المسلمون من أكل الصيد الذى استعين عليه بالجوارح المعلمة ، فأحل الله لهم ذلك على شريطة ذكر اسم الله عند الرمى أو عند إرسال الجارح . كما أن العرب كانوا يستخدمون الرماح فى الصيد كما كانوا يستخدمون النبل أو الشراك(٤) .

وكان العرب قبل الإسلام يحرمون الصيد بريا وبحرياً فى الأشهر الحرم تبعاً لما كانوا عليه من عادة تحريم سفك الدماء فى هذه الأشهر ، فرفع القرآن عنهم هذا الحرج بالنسبة لصيد البحر ؛ وذلك لشدة الضرورة والحاجة المعيشية الماسة والخاصة للمسافر بحذاء البحر ، وهذا يفيد أن صيد البحر كان مرتزقاً وضرورة معيشية أوسع نطاقاً من صيد البر .

---

(١) ابن الأثير ١/٣٤٤ .
(٢) المائدة ١ ، ٢ ، ٤ ، ٩٤ ، ٩٦ .
(٣) البخارى ١/٤٢ .
(٤) المائدة ٩٤ .

وليس فى القرآن تخصيص للذين كانوا يعملون بالصيد ؛ مما يمكن أن يقال معه إن أهل المدن والبدو كانوا يشتغلون به ، إلا أنه من المتبادر أن البادية أكثر اشتغالا به ، وأن أهل السواحل أكثر اشتغالا بصيد البحر . وقد شارك أهل مكة فى أعمال الصيد ومنهم من كان يستفيد منه فى معاشه وبخاصة قريش الظواهر ، كما كان منهم من يتخذه رياضة من سادات مكة(١) .

النشاط الصناعى :

ورد فى القرآن الكريم آيات كثيرة مكية ومدنية احتوت مسميات كثيرة ومتنوعة لمصنوعات هى من وسائل حياة أهل المدن . فقد ذكرت الآيات البيوت والغرف والحجرات والأبواب والسقوف والقواعد والمعارج(٢) والخيام التى تصنع من جلود الأنعام ، كما ذكرت الأثاث الذى يصنع من الصوف والأوبار والأشعار(٣) ، والأسرة والأرائك والنمارق والزرابى والفرش وبطائنها(٤) . والأوانى المتنوعة من قدور وجفان وصحاف وأكواب وأباريق وكؤوس(٥) ، ومصابيح ومشاك وزجاج(٦) . والحلى والزينة بأنواعها(٧) ، والثياب من الحرير وغير الحرير(٨) والجلابيب والخمر والسرابيل والقمصان والنعال(١) : والسلاح

---

(١) ابن هشام ١/٣١٢ ، المبرد : الكامل ٢/٤٩٣ (تحقيق أحمد محمد شاكر) .
(٢) الطور ١ - ٥ ، الحجرات ٤ ، الزمر ٢٠ ، النحل ٢٩ .
(٣) الرحمن ٢٣ ، النحل ٨٠ .
(٤) الغاشية ١٢ - ١٦ ، الرحمن ٥٤ ، الكهف ٣١ .
(٥) الإنسان ١٦ ، الواقعة ١٥ - ١٨ ، الزخرف ٧١ .
(٦) النور ٣٥ . (٧) النور ٣١ ، ٦٠ .
(٨) الحج ٢٥ ، الكهف ٣١ ، سبأ ١٣ .
(١) الأحزاب ٥٠ ، طه ١٢ ، يوسف ١٨ .

من رماح وسكاكين ودروع(١) . والسلاسل والأغلال(٢) . وأدوات الكتابة من قرطاس وقلم ومداد ورقوق(٣) . والشراب الذى يصنع من ثمرات النخيل والأعناب(٤) . والمعادن من حديد ونحاس وذهب وفضة ، والصصال والفخار(٥) .

وورود هذه الأعيان ومسمياتها وأوصافها ووجوه استعمالها فى القرآن ، يدل على أن أهل مكة وأهل الحجاز ومدنه كانوا يستعملونها ويملكونها قبل نزول القرآن ، حتى ولو جاء ذكرها فى معرض الإخبار والتمثيل ووصف نعيم الجنة ، لأن القرآن لا يمكن أن يخاطب الناس بما لا يفهمونه ولا يعرفونه . ويضاف إلى هذه الأشياء المكاييل والموازين التى كانت موجودة ومستعملة فى البيع والشراء .

وواضح أن وجود هذه الأدوات والحاجيات يتطلب وجود طبقة من العمال والصناع : فى أعمال البناء ونحت الحجارة ، وفى الحدادة والنجارة والتنجيد والصياغة والحياكة والنحاسة والسروجية ، وغير ذلك مما تتطلبه حياة المدن مهما كانت درجتها من الحضارة(٦) . وقد ورد ذكر لأناس كانوا فى مكة يقومون بهذه الأعمال ، منهم من يقوم بالحدادة أو الصياغة ، ومنهم من كان يقوم بالنجارة(٧) أو النسيج أو الخياطة أو الحجامة(٨) .

(١) النحل ٨١ ، المائدة ٩٧ ، يوسف ٣١ ، النساء ١٠١ .
(٢) الحاقة ٣٢ ، غافر ٧١ ، سبأ ١١ .
(٣) لقمان ٣٧ ، الأنعام ٧ . (٤) النحل ٦٧ .
(٥) الحديد ٢٥ ، الرحمن ١٤ ، ٣٥ ، الحج ٢٥ ، الكهف ٣١ .
(٦) دروزة عصر النبى ص ٦٩ — ٧١ .
(٧) أسد الغابة ١/٤٣ . (٧) البخارى ٣/٦٠ — ٦٣ .

ومهما تكن أسفار الحجازيين البرية أو البحرية ، ومهما يكن ما يجلبونه من الخارج ، فليس من المعقول أن يجلبوا كل ما يحتاجون إليه من هذه الأدوات والحاجيات مصنوعا جاهزا ، بل لابد أن يصنع بعضها إن لم يكن معظمها محليا ، إذ لا يمكن أن يكونوا أو يظلوا عيالا على الخارج في هذه المواد الكثيرة التي يستعمل كثير منها استعمالا عاما ويوميا ، ولاسيما وأن المواصلات بينهم وبين البلاد التي تقدمت عليهم في الحضارة ، والتي يمكن أن يجلبوا منها احتياجاتهم ، غير سهلة ولا قريبة . كما أنه يوجد من الأشياء مالا يمكن جلبه من الخارج ، كأعمال البناء والنحت والنجارة ؛ وإذن فلابد من وجود طبقة من الصناع والعمال في المدن الحجازية يقومون بكثير من هذه الأعمال الصناعية ، وأن أهل هذه المدن ، وإن اعتادوا أن يجلبوا شيئا مما يستعملونه من الخارج ، فإن هذا الشيء كان قاصراً على ما لا تستطيع البيئة المحلية إنتاجه أو لا تستطيع إجادته ، وخصوصاً حاجيات الترف الكمالية الدقيقة الصنع ، من أدوات الزينة والزخارف والحرير والأواني الدقيقة وبعض أنواع الأسلحة والنسيج .

ولقد كان في مكة وفي سائر المدن الحجازية جاليات أجنبية يهودية ونصرانية ، سورية ومصرية وحبشية ورومية وعراقية ، ومن الراجح أن هؤلاء الأجانب كانوا يقومون بكثير من هذه الأعمال الصناعية ، وأنهم كانوا نواة ومعلمين لطبقات من الصناع المحليين ، وأن منهم من كان يعمل لحسابه الخاص ، كما كان الحال في يهود يثرب ، ومنهم من كان يعمل لحساب سادته(١) . وقد أشار أصحاب السير إلى عامل رومي

---

(١) الأغاني ١/٦٥ .

استخدم فى بناء الكعبة عند تجديدها ، كما أن النبى قد وجد فى الكعبة صوراً ورسوماً للملائكة والأنبياء ، لابد أنها كانت من صنع أمثال هذا العامل الرومى ومن عمل معه من بنى جنسه من النصارى ، كما وجد بها تمثالا لحمّامة من الخشب ، الأمر الذى يدل على وجود صناع يتقنون هذه الأعمال فى مكة ، وأنهم لم يكونوا من العرب ولكنهم كانوا من الرقيق أو من الموالى الأجانب(١) . كما كان بعض النساء يشتغلن بالأعمال الصناعية وبخاصة صناعة الغزل والنسيج(٢) .

---

(١) الطبرى ٢/٣٩ - ٤٠ . (٢) البخارى ٣/٦١ .

الفصل السابع

الحالة الاجتماعية

كان التشكيل الاجتماعى للسكان فى مكة هو التشكيل القبلى شأنها فى ذلك شأن باقى أجزاء الجزيرة العربية ، وكانت القبيلة الأساسية بها منذ منتصف القرن الخامس الميلادى هى قبيلة قريش التى جمعها قصى ابن كلاب وأنزلها مكة بعد إجلائه خزاعة عنها(١) ، وككل تشكيل قبلى ، كان سكان مكة يتكونون من حيث التشكيل الاجتماعى من طبقات ثلاث :

١ - طبقة الصرحاء :

وهم أبناء القبيلة الأصليون ، أى كل من ينتمى إلى قريش ، وهو فهر بن مالك ، فإن البطون القرشية التى نزلت مكة كلها تنتمى إليه ، ومن مجموعها تكونت القبيلة التى عرفت بهذا الاسم (قريش) . وقد جعل القرشيون من أنفسهم أصل المجتمع المكى ، وكل من عداهم من العرب الأحرار انضم إليهم عن طريق التبعية بالحلف أو بالجوار ، فهم أصل المجتمع فى مكة ومن عداهم من باقى السكان إما موالى لهم أو عبيد ، وكان أبناء قريش يتمتعون بكل ما نظمه قانون العرف القبلى من حقوق كما كان عليهم كل ما فرضه من واجبات ، على أساس من التضامن

---

(١) سديو ، تاريخ العرب العام ص ٥٥ (يرجع سديو تاريخ بدء حكم قريش لمكة إلى سنة ٤٤٠ م) .

التام بين الفرد والجماعة فى ظل رابطة الدم المشترك . وقد تميزت قبيلة قريش إلى قسمين رئيسيين حسب مساكنها فى مكة : فالقسم الذى سكن الوادى بجوار البيت الحرام عرف بقريش البطاح ، والقسم الذى سكن على أطراف مكة عرف بقريش الظواهر ، وقد كانت قريش البطاح أكثر حضارة من قريش الظواهر التى عاشت شبه متبدية ، ولذلك استأثرت قريش البطاح بشئون الحكم والرياسة ، ووزعت المناصب الدينية والإدارية بين بطونها ، ومن ثم فقد كانت صاحبة الكلمة العليا فى مكة وكانت رأس المجتمع المكى . وإنه وإن كان أبناء قريش على درجة واحدة من حيث الحقوق والواجبات القبلية العامة ، إلا أن الاستقرار والثراء الذى أحرزته قريش البطاح ، والقيام على شئون الحكم فى مكة ، قد ميزها على غيرها من باقى البطون القرشية ، فنالت منزلة اجتماعية أرفع .

وقد حظيت قريش بنوع من الاستقرار والأمن لم يتوفر لغيرها من القبائل الأخرى ، فقد ضمن لها وجودها بجوار البيت الحرام حرمة عامة فى نظر القبائل العربية ؛ فسلمت من الغارات القبلية عليها ، كما أنه لم تحدث بين بطون قريش اشتباكات تؤدى إلى وقوع الدماء بينها بل حرصت القبيلة دائماً على حل منازعاتها العشائرية سلميا ، ولكى تقضى على المنافسات العشائرية توسعت فى قاعدة الحكم ، وارتضت نوعاً من الحكومة تستطيع أن نسميه حكومة النظراء ، وهى حكومة الملأ المكون من زعماء العشائر ، وعلى ذلك سلمت قريش من التفكك الداخلى ، فلم يحدث أن خرج عليها أو من دائرتها بطن أو عشيرة من عشائرها إلى دائرة قبيلة أخرى ، كما كان يحدث كثيراً بين القبائل

العربية ، ولذلك أحس أهل مكة بمرارة شديدة حين خرج منها بعض أفرادها فهاجروا إلى أماكن أخرى بعد ظهور الإسلام ، وحاولت القبيلة جاهدة منعهم أو ردهم ، واتهم القرشيون النبي بأنه فرق بين الناس . وكانت وحدة القبيلة القرشية مظهراً رائعاً فى نظر القبائل العربية التى جعلت من قريش موضع إجلالها وقدوتها (١) . وأصبح كثير من رجالها فى مكان الحكام بين المتنازعين من قبائل العرب .

٢ – طبقة الموالى :

كانت مكة لحرمتها ووحدة أهلها واستقرار أمورها ملجأً لكثيرين من العائذين المحتمين بحرمها ، كما كان فى حياتها التجارية مجال لطلاب الكسب ، ممن وجدوا فى أسواقها وقوافلها فرصة لاستثمار أموالهم فى قوافل قريش والاتصال ببيوتها التجارية أو العمل فى دوائر أعمالها (٢) . ولذلك كثر الموالى فى قريش عن طريق الجوار ، أو من الحلفاء من كافة قبائل الجزيرة العربية ممن أقاموا فى مكة إقامة دائمة وشاركوا فى حياتها العامة مشاركة فعالة (٣) . وقد أتاحت مكة لعدد منهم أن يقتنى الثروات الكبيرة . وهيأت لهم الحياة الآمنة المطمئنة . وقد تمتع بعض الموالى بمركز كبير فى المجتمع المكى ، حتى أصبح مسموع الكلمة مطاعا بين مواليه مثل الأخنس بن شريق الثقفى ، الذى بلغ من أمره أن أثر على حلفائه بنى زهرة فأقنعهم بالرجوع وعدم المشاركة فى موقعة بدر

---

(١) الأغانى ٢/٣١٣ العقد الفريد ٣/٣٢٠ وما بعدها .

(٢) « مثال ذلك ، صهيب بن سنان المعروف بصهيب الرومى ، الذى قدم مكة وحالف عبد الله ابن جدعان أحد أثريائها الكبار وعمل معه ونال من وراء ذلك ثروة اضطرته قريش إلى التخلى عنها حين أسلم وهاجر . (أسد الغابة ٢/٣١) » .

(٣) ابن حزم . جوامع السيرة ١١٤ – ١٢٣ .

- مع إجماع القبيلة على الخروج - فرجعوا فلم يشهدها زهرى واحد ، أطاعوه وكان فيهم مطاعا(١) ، كما كانت دار بديل بن ورقاء الخزاعى بمكة ملاذ الخزاعيين حين هاجمتهم بنو بكر وأعانها قريش(٢) ، وبديل نفسه كان أحد الثلاثة الذين خرجوا فاتصلوا بالنبي حين قدومه لفتح مكة وأعلنوا له تسليم البلد وأخذوا منه لأهل مكة الأمان ، وهم أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء(٣) .

وقد أفسحت قريش صدرها لهؤلاء الموالى وأحلتهم هذه المنزلة الرفيعة ؛ تبعاً لسياسة قريش العامة التى قامت على تنشيط التجارة ، وإشراك القبائل العربية فيها والحرص على حسن الصلة معها ، ورغبة فى أن تبرز حرمة البلد الحرام وأنه ملجأ العرب ومهوى نفوسهم ، هذا إلى الرغبة فى الانتفاع بجهود هؤلاء الموالى وخبراتهم .

فطبقة الموالى فى مكة كانت أرفع شأنا وأكثر فاعلية فى المجتمع المكى من مثيلتها بين القبائل الأخرى ولقد أخلص هؤلاء الموالى إخلاصاً شديداً لقريش وقاتلوا فى صفوفها ، واعتمدت اعتماداً كبيراً عليهم فى صراعها ضد يثرب بعد الهجرة النبوية ، وإن نظرة إلى قائمة القتلى والأسرى من قريش فى يوم بدر لتعطينا فكرة عن مقدار مشاركة هؤلاء الموالى لقريش فى هذا الصراع ، فإنهم قد تحملوا حوالى ٤٠٪ من هذه الخسائر(٤) . ومن هذه القائمة ، ومن قائمة المهاجرين مع النبى

---

(١) ابن هشام ٢/٢٥٨ .
(٢) ابن هشام ٤/٥ ، ابن حزم ٢٢٣
(٣) ابن هشام ٤/١٨ .
(٤) ابن هشام ٢/٣٥٠ - ٣٦٧ .

إلى يثرب نستطيع أن ندرك أن هذه الطبقة كانت كبيرة العدد فى قبيلة قريش ، وأنها كانت تكون نسبة كبيرة من مجموع السكان ، فقد بلغ عدد المهاجرين إلى يثرب بعد بيعة العقبة الكبرى ستة وثمانين كان منهم من صليبة قريش واحد وأربعون ، والباقون من الموالى ، وكانت غالبية هؤلاء الموالى ممن ارتبطوا بقريش عن طريق الحلف(١) . أما من ارتبط بالقبيلة عن طريق الجوار ، فمن المحتمل أن يكون عددهم كبيراً ، إلا أنهم لم يقوموا بدور فعال ؛ نظراً لأن الجوار بطبيعته صلة مؤقتة أدت إليها دوافع وقتية لا تربط صاحبها بالقبيلة ارتباطاً يحمله على المشاركة الشديدة فضلا عن التضحية بالمال أو بالنفس ، فإنما هو جاء يطلب الحماية والعون لا أن يبذلها لغيره .

طبقة الأرقاء :

كانت هذه الطبقة كبيرة العدد بمكة ، نظراً لأعمال أهل مكة التجارية الواسعة ، وانشغالهم بها واحتياجهم إلى من يقوم على خدمتهم والاشتغال لصالحهم ، سواء فى التجارة أو فى الرعى أو فى الزراعة — حيث كانت لهم بساتين ومزروعات فى الطائف — أو فى الصناعة التى لابد كانت موجودة فى مكة لسد حاجة هذا المجتمع الذى أخذ بأسباب التحضر ولما كان تجار مكة قد نالوا حظاً وافراً من الثروة ، وعاش بعضهم عيشة رافهة بالنسبة لغيرهم من المجتمعات القبلية الأخرى فى الجزيرة العربية . فقد جلبوا كثيراً من الرقيق للقيام على خدمتهم ولإرضاء نوازع شهواتهم ، وقد أغرم المجتمع المكى بالشراب والسمر والمنادمة ،

---

(١) ابن حزم ، جوامع السيرة ١١٤ — ١٢٣ .

ومثل هذا المجتمع يحتاج إلى أعداد من الغلمان والجوارى السود والبيض على السواء للخدمة والتسلية وإرضاء الشهوات . وقد بلغ عدد الرقيق فى مكة حداً كبيراً ، وقد كان أكثر هؤلاء العبيد من السود من أصل أفريقى اشتراهم أثرياء مكة للعمل لهم فى مختلف الأعمال ولخدمتهم (١) ولعل مما يدل على كثرتهم المفرطة أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت فى يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها ، كما أعتق سعيد بن العاص مائة عبد اشتراهم فأعتقهم جميعاً(٢) . والرقيق فى تلك الأزمنة كان بضاعة ضرورية لابد منها لأهل المال تدر عليهم أرباحاً عظيمة ، فهم آلات ذلك العصر ومصدر من مصادر الاستغلال للحصول على الثروة ، كما أنهم سلاح يستخدم للدفاع عن السادة والأثرياء فى أيام السلم وفى الحرب . ومكة وهى بلد الأثرياء والتجار فى إقليم الحجاز ، لابد لها من استيراد هذه الآلات البشرية للاستفادة منها فى تمشية الأعمال وفى توسيع التجارة وزيادة رءوس الأموال ، وقد كان بنو مخزوم من قريش يملكون عدداً كبيراً من العبيد السود ، يستخدمونهم فى مختلف الأعمال وفى الحروب ، وبخاصة تلك التى خاضتها ضد يثرب(٣) .

وقامت بخدمة قريش طائفة أخرى من الرقيق ، هى أدق عملا وأحسن خدمة وأرقى فى الإنتاج ، من الشمال فى بلاد الشام والعراق ، هى الأسرى البيض الذين كانوا يقعون فى أيدى الفرس والروم أو

---

(١) الأغانى ١/٦٥ .

(٢) الجاحظ ، المحاسن والاضداد ٧٧ . المبرد ، الكامل ٢/٩٦ . شوقى ضيف ، العصر الجاهلى ص ٥١ .

(٣) الأغانى ١/٦٥ ابن هشام ٧/١٢ . جواد على ٤/١٩٨ .

القبائل المغيرة على الحدود ، فيباعون فى أسواق النخاسة ، ومنها ينقلون أنحاء الجزيرة العربية للقيام بمختلف الأعمال ، يضاف إلى هؤلاء الرقيق المستورد من أسواق أوروبا لبيعه فى أسواق الشرق . وكان هذا الرقيق أغلى ثمنا من الرقيق الأسود نظراً لأنه كان أكثر ثقافة وكان يحسن من الأعمال مالا يحسنه العبيد السود . ومن جملة ما وكل إلى هذا الرقيق الأبيض من أعمال : إدارة المبيعات(١) ، والقيام بالحرف التى تحتاج إلى خبرة ومهارة وفن ، وهى من اختصاص أهل المدن المستقرين مثل أعمال البناء والنجارة الدقيقة ، وقد أشار أصحاب السير إلى عامل رومى استخدم فى بناء الكعبة حين قامت قريش على تجديدها قبل البعثة(٢) ، كما أشاروا إلى ما وجد بجوفها من صور ورسوم وتماثيل خشبية دقيقة(٣) ، لابد أنها من عمل هذا العامل ومن عمل معه من عمال على شاكلته .

وكما كان فى مكة كثير من الرجال الأرقاء سود وبيض ، كذلك كان بها عدد كبير من الإماء : منهن السوداوات اللاتى كن يقمن على الخدمة فى البيوت ، ومنهن البيضاوات من الروم والفرس وغيرهن كن يقمن على الخدمة والمنادمة وإرضاء نوازع النفس(٤) . وكانت عادة تسرى الإماء فاشية ، ولم يكن عدد الإماء اللاتى يتسراهن الرجل محدودا ، ينكحهن بدون عقد ولا مهر ، وله أن يهب أو يبيع من ينكحها دون طلاق إذا لم تكن قد ولدت له . وكان الإماء مادة البغاء ،

---

(١) ابن هشام ١/٤٢٠ .
(٢) ابن هشام ١/٢٠٩ - ٢١٠ . الطبرى ٢/٣٩ - ٤٠ .
(٣) ابن هشام ٤/٣٠ - ٣٢ .
(٤) أسد الغابة ١/٢٨٧ ، ٤/١٣٣٢ ، ٥/٩٤ ، ٤٦٢ .

فكن أكثر تعرضا له وارتكاسا فيه ، وكان أمراً مستساغاً بالنسبة لهن ، وحين وضع الإسلام عقوبة الزنا جعل على الأمة نصف عقوبة الحرة (١) ، إذ أن ارتكاس الإماء فى الفاحشة أكثر توقعا منهن ، وتعرضهن للبغاء أكثر احتمالا ، وعار ذلك أقل شدة . وقد كان الشباب والفساق وطلاب الشهوة يتعرضون للإماء فى الطرقات ، ولذلك فرض الإسلام على الحرائر أن يُدْنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين(٥) ، بأن يُخْلَط بينهن وبين الإماء فى المظهر فيتعرض لهن فينالهن الأذى .

وقد ترك هؤلاء الرقيق فى نفوس أهل مكة ، وفى نفوس العرب الآخرين ممن كان لهم رقيق ، أثراً ليس إلى إنكاره من سبيل ، وإن المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية التى كانت معروفة عند العرب قبل ظهور الإسلام ، ولاسيما ما يتعلق منها بالصناعات والأعمال التى يأنف العربى من الاشتغال بها ، إنما دخلت لغتهم وشاعت بينهم عن طريق هؤلاء(٣) .

الجاليات الأجنبية :

فى كتب التاريخ والسير وأسماء الصحابة عدد غير قليل من الأجانب الذين كانوا فى مكة فى فترة البعثة النبوية ، منهم من كان مملوكا ومنهم من كان حرا ، فإنه لمركز مكة ونشاطها التجارى وصلاتها الواسعة

---

(١) النساء ٥ .　　　　(٢) الاحزاب ٥٩ .

(٣) أسد الغابة ٥/٥٧٩ مسلم ، الصحيح ٢/١٨٩ . جواد على ٤/١٩٦ . الحوفى ، الحياة العربية من الشعر الجاهلى ص ٦٨ ، ٨٠ ، ١٠٣ - ١٠٥ .

بالشمال والجنوب توافد عليها كثير من التجار من الخارج من بلاد الشام ومن الروم والفرس وغيرهم ، ساكنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم ، وقد دخل بعضهم فى الإسلام من أمثال تميم الدارى وكيسان(١) كما كان منهم أصحاب صناعات وحرف كانوا يعملون لحساب أهل مكة أحياناً ولحسابهم أحياناً أخرى ، ومنهم من كان ذا معرفة متميز فى ثقافته الدينية ، ولا يستبعد أن يكون بينهم جماعة من المبشرين .

وتشير الآيات القرآنية الكثيرة إلى وجود عدد من الأجانب فى مكة وإلى ديانة هؤلاء الأجانب على أنهم من أهل الكتاب ، وأهل الكتاب هم النصارى واليهود..

النصارى :

وأكثر هؤلاء الأجانب كانوا من النصارى كما يستلهم من الآيات القرآنية ، فإن إيراد قصة ولادة يحيى وعيسى وإنكار ألوهية عيسى مما يوحى بأن أكثر المخاطبين من أهل الكتاب كانوا نصارى(٢) ثم إن خبر انكسار الروم والبشرى بفوزهم مما يدل على أن الكتابيين فى مكة كانوا نصارى ، فضلا عن أنه يدل على الصلات القوية بين المكيين والأحداث العالمية الجارية فى ذلك الوقت(٣) ، ولقد كانت صلات مكة قوية بالشمال حيث كانت النصرانية هى ديانة أهل الشام ،

---

(١) أسد الغابة ٤/٢٥٨ - ٢٥٩ ، ٥/١٤٥ . الازرق ١/٣٨٥ . وانظر على هامش السيرة لطه حسين .

(٢) سورة مريم ٢ - ٤٠ .

(٣) الروم ٣ - ٦ .

كما كانت منتشرة بين القبائل التى تعيش على تخوم الشام وعلى الطرف الشمالى للعراق(١) ، كما كانت منتشرة فى الحبشة واليمن ، وبخاصة فى نجران التى قدم منها وفد لمباحثة النبى(٢) ، ومن هذه الجهات قدم عدد كبير إلى مكة إما بتشجيع بعض القرشيين ليكون عندهم من يقوم بما هم فى حاجة إليه من الصناعات ، وإما بسبب اضطهاد وقع عليهم ، فلقوا من زعماء مكة ترحيباً وتشجيعاً ، فقد كانت بلاد الشام مسرحاً لكثير من الثورات والاشتباكات والاضطهادات الدينية ، ومن المحتمل أن يكون بينهم جماعة من المبشرين ، فقد كان المبشرون يطوفون أنحاء الجزيرة العربية للدعوة إلى النصرانية ، وقد شجعت حكومة الروم هذا التبشير لمآرب سياسية بعيدة الأهداف ، فقد كانت تبغى من وراء ذلك كسب العرب إلى صفها ومحاربة أعدائها الفرس بسلاح الدين . وتشير كتب السيرة إلى أن شماساً زار مكة فى الجاهلية(٣) ، وكان يعيش فى مَرّ الظهران راهب مسيحى(٤) . كما كان فى مكة نساء نصرانيات تزوجهن أهل مكة(٥) .

وتلهم الآيات القرآنية أن النبى قد اتصل بهؤلاء النصارى ودعاهم إلى التصديق برسالته(٦) ، وأن منهم من كان ذا سعة فى المال يمكنه أن

---

(١) الواحدى ، أسباب النزول ص ٢١٢ .   (٢) ابن هشام ١/٤١٨ — ٤١٩ .

(٣) ابن هشام ١/٣٤٩ — أسد الغابة ٣/٣٧٥ .

(٤) السيرة الحلبية ١/٧٥ ابن كثير ٢/٢٧٢ « كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصا من أهل الشام وكان متخفرا بالعاص بن وائل وكان الله قد آتاه علماً كثيرا وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طب ورفق وعلم » .

(٥) الأغانى ١/٦٦ — ٦٧ .

(٦) الاعراف ١٥٧ ، يونس ٩٤ ، الحج ٥٤ .

ينفق فى عمل الخير(١) ، وأن منهم من كان قوى الشخصية والنفس بحيث لا يبالى بلوم المشركين(٢) ، وعلى ذلك فهم ليسوا بأرقاء ، وأن منهم من كان متميزاً فى ثقافته الدينية ، بحيث كان أهلا للرجوع إليه والاستشهاد به فى أمر الرسالة المحمدية(٣) ، وهذا الفريق لم يكن نكرة فى أوساط مكة بل كان موضع ثقة ومرجع استفتاء فى أمور الدين والدنيا ، وأن منهم من كان مجادلا حجاجا بل متطرفا فى جداله . ولكنهم بوجه عام كانوا رقيق العاطفة دمثى الأخلاق ، جريئين فى إظهار الحق لا يبالون أهل مكة وزعماءها الأقوياء .

وليس فى الإمكان تحديد الزمن الذى نزح فيه هؤلاء إلى مكة واستقروا فيها ، ولكن آية النحل(١٠٣) «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهم يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمه بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أعجَمِىٌّ وهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ» تلهم أن بعض هؤلاء كانوا حديثى عهد بمكة ومن المحتمل أنهم جاءوا قبيل البعثة ؛ فكانوا لا يزالون يتكلمون لغة عربية سقيمة ، أو لا تزال لغتهم الأجنبية مستعملة عندهم . وقد كان أثر النصرانية فى مكة أكثر من أثر اليهودية ؛ فإن بعض رجال مكة الذى تبرموا

---

(١) القصص ٥٢ ، ٥٤ «الذين آتيناهم الكتاب هم به يؤمنون» ، «أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون» .

(٢) سبأ ٦ «ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد» . الإسراء ١٠٧ ، ١٠٩ «قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً» ، «ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً» .

(٣) النحل ٤٣ «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» .

بالوثنية وخرجوا عليها تنصروا ، أمثال ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث(١) .

اليهود :

وفى السور المكية كذلك آيات كثيرة تتحدث عن موسى وفرعون وأحداث بنى إسرائيل ، مما يدل على أن رسالة موسى كانت موضع جدل كبير بين مشركى مكة والنبى . وفى الحفاوة البالغة بهذا ما يدل على وجود صلات قوية بين اليهود وبين المكيين ، وكذلك تدل الآيات على وجود إسرائيليين فى مكة ، وآية الأحقاف(١) «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ » والشعراء (١٩٧) « أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ » .

تقطعان بذلك إذ أن الأولى تحتوى شهادة واقعية من أحد بنى إسرائيل بصحة ما يوحى إلى النبى وإيمانه به ، كما تقطع الثانية بأن علماء بنى إسرائيل يقرون بأن ما جاء به مماثل لما يعلمون .

وقد ذكرت كتب السير والتراجم صلة بعض اليهود بالمكيين ومحالفتهم لهم وإقامتهم بمكة للاتجار(٢) . إلا أنه من الراجح أنه لم تكن فى مكة جالية يهودية كبيرة ؛ حيث لم يذكر القرآن المكى احتكاكا ولجاجا بينهم وبين النبى كما حدث فى يثرب ، ومن المحتمل أن المستقرين منهم بمكة كانوا أفراداً قلائل .

---

(١) ابن هشام ١/٢٤٣ .

(٢) ابن سعد ١/١٤٤ . أنساب الأشراف ١/٧٢ – ٧٣ ابن كثير ٢/٢٦٢ .

ومع وجود عدد كبير من الأجانب فى مكة إلا أنهم لم يكونوا يؤلفون كيانا مكتملا ذا أثر إيجابى واسع فى مكة ، والراجح أن عدد الأحرار منهم لم يكن يتجاوز المئات القليلة ، وأن تنوع جنسياتهم وحالتهم وظروف هجراتهم وحداثة بعضها لم تكن تساعد على تكوين هذا الكيان المكتمل(١) ، بدليل أنه لم يكن لهم أثر فى حياة مكة السياسية كما كان شأن الإسرائيليين فى يثرب .

(١) دروزة ، عصر النبى ص ١٠٣ .

الفصل الثامن

استعداد العرب للنقلة

في نهاية القرن السادس الميلادي كانت مكة تتمتع بمركز رياسي في جزيرة العرب لاشك فيه ، فقد كانت هي البلد العربي الوحيد الذي حظي بنوع من الاستقرار والتنظيم ، والذي كان يتمتع باستقلاله فلم يخضع لحاكم أجنبي قط ، في الوقت الذي كانت الممالك العربية الأخرى قد تدهورت ووقعت تحت الاحتلال أو النفوذ الاجنبي ، فاليمن قد فقدت استقلالها منذ نهاية الربع الاول من القرن السادس وسقطت تحت حكم الاحباش ثم حكم الفرس(١) وعمها الاضطراب الداخلي ، وبذلك فقدت منزلتها ، كما فقدت قدرتها على التحكم في التجارة بين الشرق والغرب التي كانت في أيديها منذ آماد بعيدة . وكذلك كانت مملكة الحيرة قد فقدت استقلالها بعد أن غيرت فارس سياستها نحوها بعد أن استنفدت كل طاقتها الحيوية ، وجعلت منها إمارة فارسية يحكمها أمير فارسي(٢) . ومملكة الغساسنة فقدت قوتها كذلك بعد أن غير الروم سياستهم نحوها فاضطربت أحوالها وذهبت قوتها وأصبحت في شبه فوضى(٣) .

---

(١) الحميمي : سيرة الحبشة ص ٢٤ . ابن الأثير ١/٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٢٦٥ .

(٢) جواد علي ٤/١٠٤ . سديو : تاريخ العرب العام ص ٤٣ .

(٣) جواد علي ٤/١٤٠ سديو : ٤٤ - ٤٥ .

وقد وافق هذا الوقت بدء نهضة عربية بين قبائل الشمال التي بدأت تتحرر من نفوذ الجنوب ، وبدأت تأخذ بيدها زمام حركة التحرر الجديدة التي بدت تباشيرها بالشعور بالذات والإحساس بالقومية العربية التي عبرت عن نفسها فى نهاية القرن السادس حين اشتبك العرب مع الفرس فى معركة ذى قار وانتصروا عليهم ، وحين تمرد الغساسنة على طغيان الروم . وثار اليمنيون على سلطان الاحباش .

وإذا كان العرب قد تمردوا على السيادة الأجنبية فإنهم قد تطلعوا إلى منطقة عربية مستقلة تتولى زعامة هذه النهضة العربية وتقودها . ولم تكن هذه المنطقة سوى مكة التى كانت تتمتع باستقلالها والتى فشل الغزو الاجنبى أمام أبوابها ؛ حين وجهت الحبشة إليها حملتها فى سنة ٥٧٠ م . وكانت مكة هى البيئة العربية الخالصة التى أتيحت لها فرصة التنظيم والاستقرار والتى كانت بعيدة عن مجال التصارع الدولى فى ذلك الوقت : وكانت إلى ذلك بعيدة عن التأثر بالحضارات الاجنبية من غير أن تفقد الاتصال بها ، فقد كانت مكة على صلة بدول ذلك الزمان من بيزنطيين وفرس وأحباش ، وكانت تعرف من أمورها وحضارتها قدراً يكفى للتعامل معها والاستفادة منها .(١) ولكنها كانت أبعد عن التأثر بالحضارات المجاورة من لخم وغسان واليمن وهذه الميزة هى التى جعلت بيئة مكة عربية خالصة قادرة على خلق نهضة تعبر عن روح العروبة تعبيراً دقيقاً قادراً على جمع العرب : ولسنا نشترط فى هذه البيئة الخالقة أن تكون مغلقة تماماً أمام كل تأثير أجنبى ، مثل هذا الانغلاق لا يتأتى للدول المجاورة للعالم المتحضر : فمكة كانت على

---

(١) فجر الإسلام ٢٩ (الطبعة الثانية) .

اتصال بالبلاد المجاورة بحكم حياتها الاقتصادية ، إلا أنها لم تكن تعرف هذه البلاد المعرفة التى تفقدها شخصيتها أو التى لا تترك لها إلا مجال التقليد ، وهذا الاتصال المحدود بالعالم الخارجى ميزة جعلت البيئة الحجازية قادرة على الاصالة والحيوية . الامر الذى لم يكن موجوداً فى غيرها من أرجاء الجزيرة العربية ، ولذلك كانت أصلح بيئة للنهضة بالعرب ، وأصلح وسط يستطيع أن يخرج للناس نهضة جديدة ونظاماً جديداً .

وكذلك وجود البيت الحرام فى مكة ، وقيام قريش على رعايته وتنظيم الحج إليه ، وإقامة الأسواق العامة فى موسمه وأسواقه كان فرصة لتجمع العرب فى بقعة واحدة يزاولون فيها مختلف النشاط الدينى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى ، وكان فرصة لتبلور الأفكار وحل المشاكل ، ومظهراً من مظاهر الإحساس بالقومية والترابط .

وكذلك أتاحت الظروف الداخلية والخارجية لقريش أن تجمع فى يدها التجارة الخارجية ، وتقوم على تنظيمها وإعداد القوافل لنقلها بين الجنوب والشمال ، مستغلة فرصة التصارع الدولى وانشغال الفرس والروم بذلك الصراع الدموى بينهما ، وكذلك مستغلة المركز الأدبى والدينى الذى حظيت به بين القبائل العربية ، الأمر الذى أعانها على القيام على أمر هذه التجارة والنجاح فى ذلك ، مما أكسب القرشيين ثروة كبيرة ، فأصبحوا يتميزون بالثروة إلى جانب الميزة الدينية والأدبية ، وبذلك حظيت مكة باحترام عربى عام ، وحظيت قريش برياسة عامة بين القبائل العربية . وأصبحت فى موقف الزعامة والتشريع لهذه القبائل . وهكذا أصبحت أهلا لأن تكون موضع النواة فى قيام

نهضة قومية عربية . واطمأنت قريش إلى هذا المركز وعملت على تدعيمه وحرصت على دوامه .

لكن مكة – بالوضع الذى كانت عليه قبل ظهور الإسلام – لم تكن تملك إلا أن تبلور الثقافة العربية الجاهلية وتبرزها ، على حين كان الروح العربى يتطلع إلى مثل جديدة تساير نهضته الجديدة وتدعمها غير المثل القديمة التى بدأوا يبرمون بها ، والتى بدأ التبرم بها يبدو واضحاً فى مكة نفسها .

والدليل على أن الجاهليين كانوا يتطلعون إلى نظام جديد ، أنهم كانوا – حسب تفكيرهم – يتحدثون عن علامات ونذر تنبىء عن قرب ظهور نبى منهم(١) . وقد روى القدماء معجزات ونذرا قالوا إنها وقعت قبل ظهور الإسلام إرهاصاً به ومنبئة بقرب ظهوره . وتلك الروايات – إن صحت – كانت دليــلا على أن الجاهليين تطلعوا الاصلاح وإلى ظهور مصلح من بينهم وكان الإصلاح قديماً لا يأتى إلا على أيدى الحكماء والأنبياء ؛ وهذا التطلع الطبيعى فى كل جماعة إحساس ضرورى يسبق كل حركة إصلاحية ويمهد لها . وعلى هذا الأساس يمكن أن نقرر أن العرب فى الجاهلية أحسوا بضرورة الإصلاح وهذا الإحساس هو الذى هيأهم للانتقال من حال إلى حال . وكانت البيئة مستعدة لقبول النظام الجديد ، لأنها بيئة لها وحدتها المتميزة من الناحية اللغوية ومن ناحية الجنس . فالجاهليون كانوا يفهمون لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتهم ، بدليل قصائد الشعراء الجاهليين التى كان يفهمها العرب جميعاً فى الشمال والجنوب ، وأما وحدة الجنس فظاهرة فى حفظ العرب لأنسابهم وردها كلها إلى أصل واحد . فهم شعب

---

(١) ابن هشام ١/٢٢١ – ٢٤٢ . ابن سعد ١/١٤٣ – ١٥١ .

يتصل أفراده بصلة الدم والقرابة أوثق ما يربط الناس من رباط ، فالعرب برغم انقسامهم إلى مجموعات كبيرة — قحطانية ومضرية وربيعية — فإن شعورهم بالوحدة والقرابة لم يضعف ، فهم كأبناء الأب الواحد اختلفت بيوتهم ، وعلى هذين الأساسين القويين فى كيان الأمم « اللغة والجنس » بنى الإسلام حين جاء الوحدة الجديدة . وقد عملت هذه الأسس شيئاً فشيئاً على أن يتم العرب وحدتهم ؛ فأحسوا بأن المثل القديمة لم تعد معبرة عن أنفسهم ، فأخذوا ينتقدونها وأخذوا يتحولون عنها وينشدون مثلا جديدة فى النواحى الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

فأما من الناحية الدينية ، فان العرب كانوا وثنيين : فلما اتصلوا بالأمم ذات الأديان الراقية اكتشفوا ما فى الوثنية من عجز عن إشباع الغريزة الدينية فى الإنسان . والأديان السماوية قد دخلت جزيرة العرب منذ وقت مبكر : فكانت النصرانية منتشرة فى شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقى(١) ، وكذلك كانت منتشرة ، فى اليمن وكان لها مركز هام فى نجران(٢) وقد اتسع نطاقها بعد الفتح الحبشى(٣) . وكانت اليهودية معروفة فى القسم الشمالى من الجزيرة ؛ فيثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى كانت يهودية ، وكانت معروفة كذلك فى اليمن ، وكانت تصارع المسيحية هناك حتى الفتح الحبشى ، وعند ظهور الإسلام كانت توجد فى اليمن جالية يهودية كبيرة . وكان من المتوقع لو لم يظهر الإسلام أن يدخل العرب فى أحد الدينين ، لولا أنهم بدأوا

---

(١) جواد على ٦/٥٧ — ٦٠ .

(٢) سورة البروج ٤ — ٨ ابن هشام ١/٣٥ .   (٣) نفسه ١/٤٣ .

نهضة قومية وكانوا ينظرون إلى الوثنية نظرة خاصة ويعتبرونها رمزاً لقوميتهم — وقد كان من عادة الأمم فى تلك العصور أن تعتبر ملتها أو نحلتها موضع كبريائها ورمزاً لشخصيتها وعنواناً على ثقافتها — وهم لذلك يريدون ديانة تعبر عن روح العروبة وتكون عنواناً لها ، ومن أجل ذلك بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذى كانوا يعدونه أباً لهم(١) . هذا إلى ما لحق الديانات الأخرى من تفرق واختلاف بين طوائفها ، ولابد أن العرب كانوا على صلة بأهل هذه الديانات وعلى معرفة بالخلاف بين طوائفها ، الأمر الذى جعلهم يتندرون بأصحابها وينعون عليهم اختلافهم ، ويتطلعون إلى ظهور نبى منهم ، ويقسمون أنهم لو جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم(٢) .

وقد ظهرت حركة التحنُّف قبل الإسلام مباشرة(٣) . فكانت رمزاً إلى أن الروح العربى كان يتلمس يومئذ ديناً آخر غير الوثنية . والإسلام حين جاء كان معبراً عن شعور العرب بالوحدة ، ومعبراً عن ميلهم الروحى . وكان دليلا على نضوج دينى فلسفى استعد له العرب فى القرون المتطاولة السابقة .

وأما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، فإننا نجد الحجاز قبيل الإسلام يقوم بالتجارة التى كانت تقوم بها اليمن قديما ، وأصبح الطريق المار بالحجاز هو الطريق البرى الهام المأمون فى ذلك الوقت . وقامت قريش على تنظيم القوافل بين الشمال والجنوب ، واستطاع رجالها أن

---

(١) ابن هشام ١/٢٤٢ — ٢٥٠ ، أسد الغابة ٢/٢٣٦ ، المحبر ١٦٠ ، ١٧٠ الروض ١/١٤٦ .

(٢) فاطر ٤٢ .

(٣) ابن هشام ١/٢٤٢ .

يكونوا شبكة تجارية تربط جميع قبائل الحجاز بهذه التجارة ، فجعلوا من الحجاز -بذلك- وحدة اقتصادية متماسكة ، وحققوا من وراء ذلك ثروة لا بأس بها ، والغنى شرط من شروط النهضات ، لأن الجماعة لا تنهض إلا إذا كانت قوية سليمة ، ومن مقومات السلامة الناحية الاقتصادية ، فهذا الثراء كان ظرفاً مناسباً للنهضة العربية .

غير أن الثروة لم تكن موزعة توزيعاً عادلا . فقد كانت الهوة بين الأغنياء والفقراء كبيرة من الناحية الاقتصادية ، إذ كان يوجد من يملك الألوف المؤلفة من الدنانير ، أو الألوف من الإبل ، ومن لا يملك شيئا على الإطلاق ، وبينما يعيش الأغنياء فى ترف ، كان الفقراء لا يجدون ما يسد حاجتهم الضرورية للحياة ، ولم يخفف من هذه الحدة ما كان يفيضه الأغنياء من كرم وسخاء ، فإن المروءة وحدها لا تكفى لإيجاد التكافل الاجتماعى وإن كانت تُعين عليه ، بل قد يزيد ذلك من شدة الشعور بالغبن فى مثل هذه البيئة التى كان التعطش فيها شديداً إلى بعد الصيت والنفور من الضعة ثم إن التجارة ، وما كان يصحبها فى ذلك الوقت من ضروب الغش والمضاربة والاستغلال والربا ، كانت كانت فى حاجة إلى تنظيم يحد من جشع التجار ، ويقرب بين الطبقات ويوجد التكافل الاجتماعى .

ولقد كان التفاوت الطبقى موجودا ، على الرغم من الإحساس بالقرابة ووجود علاقات الحلف والولاء ، وعلى الرغم من الإحساس النفسى العام بعدم المساواة . متمثلا فى الفروق الواضحة بين طبقة الصرحاء وطبقة الموالى ، ومتمثلا فيما كانت تكفله الثروة وشرف البيت لصاحبها من تأهيل للدخول فى مراكز القيادة والزعامة ، ولسنا نعنى فى هذه الناحية وجود

نظام ، مقرر لتقسيم الطبقات من حيث الثروة كما كان الحال عند الرومان (١) ، وإنما نعنى أنه كان هناك شيء معترف به ومؤثر تقليديا من تمايز الناس بعضهم عن بعض ، ووجود طبقات عليا وطبقات سفلى ، وطبقات أشراف وطبقات سوقة وعوام . والآيتان من سورة الزخرف (٣١ – ٣٢) اللتان نزلتا في صدد استنكار نزول القرآن على محمد (الذى كان فقيرا على الرغم من علو مركزه من ناحية النسب) وعدم نزوله على رجل آخر عظيم . «وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ...» تساعدان على هذا الفهم ، كما أن الآيات الأخرى تسنده وتؤيده (٢) . وآية سورة الحجرات (٣) : « يَأَيُّها

---

(١) انقسم الشعب الرومانى فى عصر الجمهورية إلى خمس طبقات ، وفقاً للنظام الذى يعرف بالتيموقراطية Timocracy وهو النظام الذى تتحدد فيه مكانة الفرد السياسية ، من حيث حقوقه وواجباته ، على أساس ما يملك من الثروة ، وقد قامت إحدى الجمعيات الشعبية الرومانية وهى الجمعية المئينية Comitia Centuriata التى غدت أهم المجامع الدستورية الرومانية فى عصر الجمهورية المتأخرة ، على هذا الأساس التيموقراطى ، حيث كان لكل طبقة عدد بعينه من المئينات وكان لكل مئن من هذه المئينات صوت فى هذه الجمعية . وقد كان الانتماء إلى إحدى الطبقات يكفل للفرد حقوقا سياسية لا تكون لأفراد الطبقة الاقل . وكان من نتيجة ذلك أن نالت طبقة الاشراف حقوقاً لم يحصل عليها العامة إلا بعد كفاح مرير متصل : انظر :

M. Cary' A History of Rome (New Your 1960). pp. 110-111

(٢) البقرة ١٦٦ « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » .

الاحزاب ٦٧ « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » .

سبأ : ٣٣ « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً » .

غافر : ٤٨ « فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً . . . »

(٣) الحجرات : ٣١ «يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم »

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » إنما نزلت لتعلن للناس أنهم سواء فى أصل الخلق وفى حق الحياة والاستمتاع بالحرية فيها ، وأن أكرم الناس المتقون الذين يؤدون واجباتهم الدينية والدنيوية مستشعرين عظمة الله ؛ وليسوا هم الكبراء والعظماء وأبناء البيوت الشريفة وأصحاب الثروات الطائلة ، بسبب هذا التقليد الطبقى الذى درجوا عليه والذى جاءت الآية لهدمه ، وإقرار المساواة بين الناس . وطبيعى أنه لا يمكن أن يقال إنها استهدفت هدم التفاوت العام الذى كان ولا يزال من سنن الاجتماع البشرى ، والذى يتمثل فى فقر فريق وغنى فريق ، وقوة فريق وضعف آخر ..

وكان العرب يتطلعون إلى مثل جديدة فى الأخلاق والاجتماع تساير الطبع العربى بما يحمل فى طياته من نواة العدالة الاجتماعية ، بما فيه من مروءة وكرم ، وإحساس بالمساواة للفرد وللجماعة ، وكانت المثل الجاهلية بما صارت إليه من عصبية ضيقة ومن حمية غير قادرة على إخراج هذه المثل الجديدة التى يتطلعون إليها . وكانوا يتطلبون من القبيلة صاحبة السيادة فى ذلك الوقت أن تقودهم إلى هذه المثل الجديدة لكن قريشاً — مع اكتمال الوضع لها — حولت اهتمامها إلى مصالحها الذاتية سواء فى ناحية التشريع للحج وهو المظهر الدينى للعرب فى ذلك الوقت ، أو فى التشريع الاجتماعى والاقتصادى الذى كانت تقوم عليه . ومن ثم كانت هى فى ذاتها فى حاجة إلى إصلاح داخلى حتى يمكن أن تقود حركة الإصلاح التى يتطلبها المجتمع العربى فى ذلك الوقت .

أما من الناحية السياسية ، فإن العرب برغم انقسامهم إلى مضريين

وربعيين ويمانيين ، كانوا يحسون أنهم شعب واحد وأنهم يرتفعون جميعاً إلى أب واحد ، وهم لم يعودوا يتمسكون باستقلالهم القبلى تمسكا مطلقاً ، فالربعيون يتعصب بعضهم لبعض ، وكذلك المضريون واليمنيون ، وقديتحالف فريق منهممع فريق آخر ، وهذا التحالف الذى اشتدت حركته فى النصف الثانى من القرن السادس بين القبائل نوع من التعبير عن إحساس القبيلة بأنها لا تستطيع أن تعيش فى مجالها الضيق ، وأنها محتاجة إلى غيرها من القبائل تتحالف معها وتؤاخيها وتربط مصيرها بمصيرها . وكذلك سئم العرب الحروب القبلية فسنوا الأشهر الحرم منعوا فيها القتال ، وجعلوا الكعبة ملجأ للخائف والعائذ . كل هذا يدل على أن العرب كانوا يحسون بأن انقسامهم السياسى والاجتماعى لا يتناسب مع حالهم الجديد ولا مع طريقة تفكيرهم وكذلك كانوا يحسون بأن عدم وجود دولة تجمعهم أمر فيه ذلة وعار على الشعب العربى ، فكانوا لذلك يجدون أنفسهم ضئالا إلى جانب دولتى الفرس والروم الذين أطلقوا عليهما اسم الأسدين .

فى هذه الظروف المواتية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ظهرت النهضة العربية ، وكانت دينية ، والدين كان عاملا هاماً من عوامل التطوير والتقدم فى العصور القديمة ، ولم يتنازل الدين بعض الشىء عن هذه الناحية إلا بانتشار العلوم ووجود العوامل التى تنافس فى القيام بهذا الدور فى العصر الحديث .

ظهور المصلح النبى

فى بداية القرن السابع الميلادى كانت بلاد العرب مستعدة لتلقى أكبر انقلاب فى تاريخها ، بل إنه حين حدث كان أعظم انقلاب

فى التاريخ الإنسانى العام ، بما ترتب عليه من تغيير شامل فى النواحى الدينية والاجتماعية والسياسية على السواء ، وقد كانت الظروف مواتية لهذا الانقلاب تمام المواتاة . فمنذ منتصف القرن السادس كان قد أخذ يمحى ما بين أقوام العرب من خصام ؛ وما بين قبائلهم من تنافس ؛ تجاه الخطر الذى كان يتهددهم فى الداخل والخارج : فأما فى الداخل فإن الصراع القبلى كان ينهك قوى القبائل ويقضى على أمنها ، الأمر الذى حمل الزعماء وأصحاب النفوذ فيهم على العمل للحد من هذا التنازع ؛ فكانت سنة الأشهر الحرم لتقليل فرص القتال - كما بينا من قبل - وما استتبع ذلك من تجمعات فى الأسواق العامة وفى موسم الحج ، مما أدى إلى حل كثير من المشاكل ، وإلى تقريب النفوس وقيام التحالفات بين القبائل . وأما فى الخارج ؛ فإن العرب كانوا يشعرون بضرورة الاتحاد ، لما رأوا من تهديد الروم فى الشمال ، وتهديد الفرس فى الشرق ، وتهديد الأحباش فى الجنوب ، وكان من نتيجة الحوادث الأخيرة ، التى أشرنا إليها ، وهى زوال ملك الحيرة واضطراب أحوال الغساسنة وضياع استقلال اليمن ، أن أخذت المبادىء القومية تنمو فى نفوس العرب إلى حد كبير ، وكان على زعمائهم أن ينظموا عناصر المقاومة تجاه هذا الضغط المضاعف وقد نلمس هذه المقاومة فى وقوف القبائل العربية المختلفة فى وجه الحملة الحبشية على مكة ، وقد يكون هذا عملا تلقائياً ، ولكنه يدل على الشعور بالارتباط العام والإحساس بالمصير المشترك . وحين استطاع الحجاز أن يحبط الحملة الحبشية ، كان أكبر قدوة ، فاستردت مكة زعامتها التى أريد نزعها منها ، وعلت منزلة قريش الأدبية علواً كبيراً واتجهت إليها الأنظار ، وعملت هى من جانبها على تدعيم هذا المركز وعلى ربط جميع القبائل

حوله . ولم يكن ذهاب عبد المطلب بن هاشم على رأس وفد قريش إلى صنعاء بعد ذلك لتهنئة سيف بن ذى يزن بعودته إلى الحكم بعد هزيمة الأحباش فى اليمن إلا توثيقاً لهذا الرباط ، كما كان ذهاب وفود القبائل العربية للتهنئة كذلك تعبيراً عن هذا التدانى والترابط بين أبناء الوطن الواحد (١) .

وفى الوقت الذى أخذ اللسان العربى يتسم بسمة الاستقرار على لهجة واحدة ، يتغلب بها على ما كان فى مختلف أجزاء الجزيرة العربية من اللهجات الخاصة ، كان الميل الروحى العربى يتجه نحو غاية واحدة . فقد كانت المعتقدات الدينية تتداعى فى كل ناحية . فيبدو التبرم واضحاً بعبادة الأصنام ، ويثار على العادات القبيحة المستهجنة : من من أمثال الزواج بزوجات الآباء الذى أصبح يطلق عليه « زواج المقت » ويحمل على عادة الوأد الكريهة . وحين تبدو الوحدة الدينية مفقودة ، ينطلق ذوو المواهب من المصلحين من أمثال ورقة بن نوفل ، وعثمان ابن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وعبد الله بن جحش ، وأمية ابن أبى الصلت وغيرهم ، يدعون بنى قومهم إلى الدين الصحيح بنبذ عبادة الأصنام والبحث عن دين إبراهيم . ولكنهم حين يدركون العجز فى أنفسهم عن تحقيق ما أرادوا يعلنون قومهم بأنه سيظهر نبي – قد أظل زمانه – من بين العرب يهدى الناس إلى الصراط المستقيم(٢) .

وبينما كانت النفوس تميل إلى الوحدة فى داخل الجزيرة العربية ميلا عاماً . كانت الظروف الخارجية تسير فى صالح العرب ؛ فإن الصراع القاسى بين الدولتين الكبيرتين – الفرس والروم – على حدودهم

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٨٣/٢ – ٨٥ . (٢) نفسه ٦٧/١ – ٧٥ .

أنهك الطرفين على السواء ، وشغل أنظارهما عما يجرى فى داخل الجزيرة العربية ، فأعطى للوحدة العربية فرصة طيبة لكى تتم بعيداً عن كل تدخل خارجى . ولم يكن ينقص هذه الوحدة لكى تتم إلا وجود الزعامة القوية التى تستطيع أن تجمع عناصرها فتضيف إلى وحدة الجنس ووحدة اللغة ، والاتحاد فى الشعور . وحدة الدين لتنطلق النفوس إلى تحقيق غاية واحدة .

فى هذه البيئة العربية الخالصة ؛ وفى هذه الظروف المواتية . ومن بين تلك القبيلة التى تعظمها العرب . ظهر ذلك المصلح الذى كانت تتطلع إليه النفوس . فنى مكة ومن قريش ظهر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم نبياً يدعو إلى رسالة جديدة . جوهرها الإقرار بالألوهية لإله واحد ، هو الله الخالق المبدع الذى تنزه عن المشاركة والمصاحبة وتفرد بالربوبية «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَد ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»(١) . ونبذ ما عدا ذلك من أصنام وأوثان وكل ما يلقى ظلا من المشاركة مع الله. وأن الناس كلهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، لا فضل بينهم إلا بما يقدم أحدهم من عمل صالح يرضى الله ويعود على الإنسانية بالخير «يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكم»(٢) فالناس جميعاً سواء أمام الله مهما اختلفت أجناسهم أو لغاتهم أو مراكزهم الاجتماعية ، ويجب لذلك أن يتساووا فى الحقوق والواجبات بصفتهم إخوة فى الإنسانية ، وبصفتهم جميعاً عباد لرب واحد ، وأن النبي جاء ليقر العدالة ويتمم مكارم الأخلاق .

---

(١) سورة الإخلاص . (٢) سورة الحجرات ١٣ .

ومحمد إذ بُعث نبياً كانت له صفاته الشخصية التى هيأته للاضطلاع بدور الزعيم النبي . وإذا قرأنا كتب السيرة القديمة ، وجدنا هذه المصادر تقدم لهذا الدور بنوع من التفسير لعبقرية النبى ، فهم يوردون أخباراً تدل على اكتسابه نوعاً من الخبرة التى يكتسبها كل إنسان من تجاربه ، ثم يوردون أخباراً أخرى تدل على أن النبى نال من العناية الإلهية والفضل الربانى والعلم اللدنى الذى يلقيه الله فى نفس العبد بدون واسطة ، وأن هذه النفحات الإلهية أتمت للنبى شخصيته وأكملت تجاربه .

يذكر المؤرخون أن النبى شارك فى الحياة العامة فى مكة منذ طفولته مشاركة كان لها أثر كبير فى حياته ، فقد شارك فى الحياة السياسية فى المدينة المكية . فقد اشترك فى حلف الفضول ، وكان هدف هذا الحلف هدفا ساميا لم تألفه القبائل المعتزة بعصبيتها ، هذا الهدف هو نصرة المظلوم بصرف النظر عن قرابته وقبيلته(١) . ومن قبل كان قد اشترك إلى جانب أعمامه من هاشم وقريش فى حرب الفجار ، وهى حرب وقعت فى الأشهر الحرم فسميت بالفِجَار(٢) ، فاكتسب إلى جانب خبرته السياسية خبرة حربية . ثم إنه اشترك فى تنظيم القوافل التى كانت تسيرها قريش إلى الشام ، فسافر مع عمه وهو صبى(٣) ، وسافر فى تجارة لخديجة وهو شاب(٤) ، كما مارس التجارة فى مالها بعد أن تزوجها ؛ فاكتسب خبرة بالمعاملات التجارية ومعرفة بطبيعة

(١) ابن هشام ١/١٤٥ ، ابن سعد ١/١١٠ .

(٢) ابن هشام ١/٢٠١ .

(٣) ابن سعد ١/١٠١

(٤) نفسه ١/١١١ .

الإنسان يقدر بها على تقدير قيمة الرجل الأدبية من فور . كما اكتسب خبرة بالبلاد وأحوال الناس ، ثم إنه كان قد اشتغل بالرعى حين كان صبياً ، فأكسبه ذلك صفة خلقية هى التواضع وتمجيد العمل أياً كان نوعه(١) . ثم إنه اشتهر بصفة خلقية هى الأمانة حتى سمى بين الناس قبل البعث بالأمين(١) ، فكانت له إلى جانب تجاربه ، أخلاقه المرتضاة التى كانت تحببه إلى الناس قبل أن يعارض آراءهم . وثمة صفة أخرى اشتهر بها هى صفة القدرة على الحكم وسرعة البديهة فى حسم الأمور ، يشهد بذلك حكمه بين أهل مكة حين جددت قريش بناء الكعبة ، واختلفت بطونها على من ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه من البناء ، فأظهر من سرعة الخاطر وقوة البديهة ما حسم الموقف وأرضى المتنازعين ، كما كشف هذا الموقف عن قيمة محمد فى الحياة الاجتماعية فى مكة بحيث ارتضاه رجال الملأ حكما ورضوا بحكمه(٣) . ثم إنه كان إلى هذا كله يتيما فقيرا ذا طبيعة دينية على ما يمكن أن نستنتج من ميله إلى التحنث -وهو التفكير والتأمل والتعبد- معتزلا بكهف بالجبل شهراً من كل عام(٤) . فالنبى رجل اكتسب صفات على نحو ما يكتسبه الناس ، وتلقى من الله توفيقات وإلهامات . فالنبى بشر ارتفع بنفسه على نحو ما يرتفع كبار الفلاسفة بأنفسهم عن مستوى تفكير عامة الناس ، إلا أن النبى يرتفع بعقله وقلبه فى آن واحد ، على حين يرتفع الفيلسوف بعقله فقط .

ثم إن النبى وجد بعد زواجه من خديجة بنت خويلد -وهى إحدى

---

(١) ابن هشام ١٧٨/١ .

(٢) نفسه ١٤/١ .

(٣) ابن هشام ٢١٤/١ .

(٤) نفسه ٨٥٣/١ ، الطبرى ٤٧/٢ .

النساء الغنيات الشريفات فى مكة(١)- نوعا من الراحة النفسية التى يجدها المرء إذا وفق إلى شريكة توافق ميوله . وقد كان هذا الزواج من العوامل التى جعلته يتخفف من بعض أعباء الحياة ومن بعض عناء السعى ؛ فخديجة الغنية بمالها ، والتى كانت امرأة نَصَفَة قد فارقت عهد الشباب الأول ؛ وكانت لها تجربة إدارة أموالها، كانت أقدر على حياة زوجية هادئة رصينة ، هيأت لمحمد أن يتخفف من أعباء الحياة لأفكاره الذاتية ، ولحياته الداخلية القوية التى تشعل عزلته كلما أمعن فى العزلة -والعزلة لا يطيقها إلا الذين حفلت نفوسهم بالأفكار الذاتية - ثم ناحية أخرى تتصل بهذا ، يشهد بها بعض الرواة نقلا عن زوجته عائشة ، وهى أن أول ما بُدِئ به النبى أنه كان يرى الرؤية واضحة كبَلَج الصبح(٢) . ومعنى هذا أن حياته الداخلية كانت امتداداً لحياته الخارجية ؛ فهو فى يقظته وفى نومه يجد نفسه مشغولا بأمر واحد، هو أمر الدين الذى يتهيأ لقبوله وتلقيه ، والإنذار به والدعوة إليه .

المفاهيم الجديدة فى الدعوة :

بدأت الدعوة إلى الإسلام ذات صفة دينية فى الدور المكى من حياة الرسول ، أما الصفة السياسية فلم تظهر إلا فى الدور المدنى . وهذا أمر طبيعى ؛ إذ أنه لابد من أن يُبْدَأ بتقرير العقيدة ثم بث المثل العليا فى النفوس ، حتى إذا ما تهيأت لذلك أمكن تنظيم المجتمع على هذا الأساس .

وقدمت هذه الدعوة للعرب مفاهيم جديدة لم يكونوا يعرفونها أو لم

---

(١) ابن هشام ١ ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٢) ابن هشام ٢٥٢/١ ، الطبرى ٤٧/٢ .

يكونوا يؤمنون بها . وأول هذه المفاهيم هو المفهوم الجديد للوحدانية . وهذه الوحدانية تظهر للإنسان بالنظر العقلى فى إثبات وجود الله ووحدانيته ؛ فنى نظام الخلق ، وترابط الوجود ، وقوانين الطبيعة ، وما يقوم على الأرض من إنسان وحيوان ونبات ، وفى ذات الإنسان نفسه ؛ فى خلقه وفى عقله ووجدانه ، ما يؤدى بالعاقل المتبصر المتفكر إلى إقرار وجود الله وإقرار وحدانيته ، والقرآن الكريم حافل بالآيات التى تدعو العقل إلى النظر والتدبر ليصل إلى هذه النتيجة(١) . ومفهوم الوحدانية كما جاء بها الإسلام مفهوم جديد ، لا على العرب وحدهم ، ولكن على الناس جميعاً . حقيقة إن الأديان السماوية كلها قد دعت إلى الوحدانية ، ولا يمكن أن تكون قد جاءت بغير ذلك ، إلا أن هذه الفكرة ما لبثت أن تغيرت وشابتها كثير من الشوائب غيرت من صفائها ووضوحها . بما أُدْخِل على ديانات الرسل ودعواتهم من شوائب الوثنية التى كانت تقوم إلى جوارها ؛ والتى كثيرا ما كانت القوة المادية والسياسية إلى جانبها . كان اليهود دعاة توحيد ، لكن هذا التوحيد اليهودى لم يكن توحيداً مطلقاً ؛ فالله عند اليهود هو إله إسرائيل إختارهم لنفسه واختاروه لأنفسهم دون الآلهة الأُخرى ؛ فربطوا بذلك ديانة موسى بجنسهم ، وهم حين عبدوا إلهاً واحداً اعترفوا للأُمم الأُخرى

---

(١) على سبيل المثال ، إقرأ : هود ٧ ، الاحقاف ٣ ، العنكبوت ١٩ ، ٢٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، الرعد ٥ - ١٦ ، الانبياء ٣٠ - ٣١ ، الحج ٥ ، لقمان ١٠ ، فصلت ٩ - ١٢ ، القمر ٤٩ - ٥٠ ، الطلاق ١٢ ، النبأ ٦ - ٧ ، آل عمران ٥ - ٦ ، ١٨ ، ١٩٠ ، البقرة ١١٦ ، ١١٧ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، الأنعام ٢١ ، ٥٦ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، يونس ٣١ - ٣٦ ، الغاشية ١٧ - ٢٦ .

بآلهتها (١) . وهذا ما لا يقره الإسلام إطلاقا ؛ فالواحدانية الإسلامية وحدانية كاملة مطلقة ليس للوجود جميعاً غير رب واحد ، وكل ما يلقى ظلا على هذه الوحدانية غير معترف به من الإسلام . أما المسيحية فإنها تنادى بالتثليث ، أى أنها تجعل الإله الواحد ثلاثة أقانيم متساوية فى وحدة هى الآب والابن والروح القدس ، وهن تؤله المسيح نفسه(٢) . والإسلام لا يقر إلا وحدانية مطلقة ؛ وذات الله لا تتعدد ولا تنفصل ولا تشبه الخلق ، ولا يشاركه فى ملكه أحد ولا يساويه «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُن لَه كفُوًا أَحَدٌ» . وقد توصل بعض الفلاسفة إلى فكرة الوحدانية ، ولكن هذه الفكرة لم تكن واضحة التحديد ، ثم إنها لم تجد اعترافا بها من العقل الإنسانى العام ، ومن ثم بقيت فكرة فلسفية وعاش الناس من حولها يحيون حياتهم الدينية الوثنية . والديانات القديمة نادى بعضها بالوحدانية كديانة أخناتون فى مصر ، ولكن وحدانية أخناتون كانت مشوبة بالوثنية مصورة بمظاهر الطبيعة(٣) .

ولذلك يمكن القول بأن الوحدانية كما جاء بها الإسلام كانت جديدة كل الجدة على العرب ، وهى بمفهومها الإسلامى جديدة كذلك على العالم ، ولأول مرة فى حياة البشرية تقوم هذه الفكرة وتستقر وتصبح عقيدة عامة ثابتة .

---

(١) البقرة ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ٩٢ - ٩٣ ، ١٠١ - ١٠٢ ، ١١٤ - ١٧٦ ، الاعراف ١٦١ - ١٧٧ ، المائدة ١٣ - ١٨ ، ٤١ ، ٦٨ - ٧٠ ، ٧٧ ، آل عمران ٢٣ ، ٢٤ ، ١٨٧ ، النساء ٤٤ - ٤٦ ، الجمعة ٥ - ١٨ .

(٢) التوبة ٣٠ - ٣١ ، النساء ١٧١ ، المائدة ١٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١١٦ ، يونس ٦٨ ، مريم ٣٥ ، ٨٨ ، الأنبياء ٢٦ ، المؤمنون ٩١ .

(٣) أحمد بدوى ، فى موكب الشمس ٢/٥٦٨ - ٥٩٦ .

والمفهوم الثانى هو الخاص بفكرة الحساب وما يتصل بالحساب من معان فالله يعلم الجهر وما يخفى ، والإنسان رهين بما كسب «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»(١) فإذا جاءت القيامة حوسب المرء على عمله «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرة شَراً يَرَه»(٢) . «ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»(٣) . ثم إن الله حين وضع الحساب فرض على نفسه هداية الناس «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً»(٤) ، فأرسل إليهم الرسل رسولا إثر رسول ، لأن الله لم يكن ليخلق الناس ويتركهم سدى بدون هداية . «أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى»(٥) . وهذا الحساب يكون فى يوم القيامة بعد البعث . وقد أنكر الجاهليون البعث كما أنكروا الحساب «وَقَالوا إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نموتُ ونَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين»(٦) «أَ إذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً أَ إنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ»(٧) ، ويتساءلون فى إنكار «أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ»(٨) ؛ والمهم فى فكرة الحساب أنها تجعل المرء من نفسه وازعا يزعه فيتجه به إلى الخير ما أمكن ؛ ففكرة الحساب أساس الأخلاق ، وفكرة الحساب معروفة فى الأديان الأخرى وحتى فى بعض الأديان الوثنية كالديانة المصرية القديمة . ولكن مفهوم البعث والحساب لم يكن معروفاً بالصور التى أقرها الإسلام ، شكل ما عرف من قبل أنه يوجد بعد الحياة الدنيا حياة أخرى يلقى فيها المرء خيراً أو شراً ؛ وقد لا يجديه العمل

---

(١) المدثر ٣٨ ، النحل ١١١ .
(٢) الزلزلة ٦ — ٨ .
(٣) الإسراء ١٥
(٤) الإسراء ١٥ ، يونس ٤٧
(٥) القيامة ٣٦
(٦) المؤمنون ٣٧
(٧) الرعد ٥
(٨) القيامة ٦

الصالح بغير شفاعة الشافعين ووساطة الوسطاء ورضاء الكهنوت . ولكن الإسلام قرر أن الحياة أطوار ، من لدن أن يكون الإنسان ماء دافقاً يخرج من بين الصلب والترائب ، إلى أن يكون جنيناً ، ثم وليداً ، ثم يجرى فى طور الحياة الظاهرة إلى أن يموت ، فيحيا حياة الروح ، ثم يبعث يوم القيامة وقد اكتملت فيه أطوار الحياة فيبعث بجسمه وروحه كما كان خلقه ثم ينال جزاءه حسب عمله . وعمله مسجل عليه فى ظاهره وفى باطنه ، فالإنسان محاسب على الأعمال وما وراء الأعمال من نية وقصد «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىء ما نوى» . وكل ذلك مجموع له لا تشفع فيه شفاعة الشافعين ، ولا تقوم بين الإنسان وبين الله وساطة ، ولا يؤخذ المرء بعمل غيره «يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شيئًا»(١) «يَوْما لا يَجْزِى والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئًا»(٢) . والعدل المطلق هو الذى يحكم ، وإلى جانب العدل كانت الرحمة . وأول ما يحاسب عليه الإنسان هو العقيدة ، فالإيمان بالله أولا ، فإذا وجد جرى الحساب على الأعمال «إنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»(٣) ، وإن لم يوجد فإن الإنسان هالك فى النار خالد فيها .

وقد صور القرآن الحياة الأخرى تصويراً مادياً واضحاً ، فالمؤمنون المتقون يحيون فى جنة حوت كل أنواع النعيم ، والصورة التى رسمها القرآن للجنة صورة أخاذة رائعة تأخذ بمجامع النفوس وتُغرى بعمل الخير والسعى نحو الفضيلة . أما الكافرون فمصيرهم إلى نار حامية

---

(١) الانفطار ١٩ (٢) لقمان ٣٣

(٣) النساء ٤٨ .

يلقون فيها ألواناً من العذاب تقشعر لوصفه الأبدان وتهلع القلوب .

وعلى غير هذا المفهوم كانت الديانة اليهودية ، فإنها لا تميل إلى تصور العالم الآخر ، بل عندهم الجزاء ثوابا وعقابا فى هذا العالم ، وفيما كانوا يخافونه مما قد يسلطه الله عليهم من أنواع الخوف والجوع وما إلى ذلك من عذاب الدنيا . وفيما أورد القرآن من قصص العهد القديم أمثلة لنزعة الحضارة العبرية نحو مفهومات الجزاء الغيبى من حيث ارتباطه بمصير المجتمع فى حياته الحاضرة ؛ ومن الممكن أن نتبين هذا إذا نظرنا مثلا فى قصة نوح أو قصة لوط وفى غيرها من قصص بنى إسرائيل ، فلم يكن تفكيرهم فى اتجاهه العام يهتم بخلود الروح بعد الموت ، وإنما كان تفكيرهم وثيق الصلة بهذه الحياة لا يكاد يحفل بما وراءها من ظواهر . والأديان الأخرى — إذ كانت تعد الموت انحلالا جسميا خالصا فكانت تفترض البعث للروح وحدها — لم تقل بأى شأن للحواس فى الحياة الآخرة(١) .

وغير هذا أمر الإسلام الذى يقول ببعث الإنسان بعنصريه من كل وجه ، وهو إذ يصور نعيم الجنة نعيما ماديا يجعل أعلى درجات النعيم روحانيا ؛ فأكرم المؤمنين عند الله من يمتعه الله بالنظر إلى وجهه تعالى غدوة وعشيا .

والمفهوم الثالث هو ما يختص بفكرة الكتاب المنزل ، فالذى يوحى إلى النبى كتاب منزل من عند الله وليس من قول البشر «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ، فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ(٢)» يتكفل الله بإبقائه وصيانته وعدم

---

(١) سديو ، تاريخ العرب ٦٥ (٢) البروج ٢١ ، ٢٢

نسيانه ، وهو من كلام الله بحروفه ومعناه . لا يزيد النبي فيه شيئاً ولا ينقص ، فهو كلام مقدس بنطقه ومعناه «لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثم إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»(١) والنبي لا يستطيع أن يتقول على الله شيئا ، وإلا نال من ربه عقاباً شديداً «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ»(٢) .

وقد وجدت الكتب السماوية من قبل القرآن ، ولكن استقرار أن الكلام بنصه ولفظه من عند الله لم يكن موجوداً فى غير القرآن ، فالتوراة كتبت من بعد موسى وتضمنت فصولا كتبت بعد وفاته ؛ كما حوت تاريخاً ونبوءات من قبل موسى ومن بعده ، وكذلك تعددت ترجمتها والإضافات إليها . والإنجيل كتبه تلاميذ المسيح بعده ، وفيه كثير من كلامهم قصوا فيه حياة المسيح وضمنوه جملا من كلام المسيح نفسه ؛ فليس الإنجيل كله كلاما منزلا بنصه وحروفه من عند الله(٣) . وحتى كلام المسيح نفسه لا يمكن أن يقال إنه بنصه وحروفه ولكنه بمعناه ، ولا يخرج الأمر فى الإنجيل عن طريق الحديث عند المسلمين ، ولذلك تعددت كتابة الإنجيل ، بل وتعددت الأناجيل لدرجة كبيرة . ولم يجد المسيحيون ولا اليهود حرجا من ذلك ؛ لأن فكر

---

(١) القيامة ١٦ . (٢) الحاقة ٤٥ — ٤٧ .

(٣) انظر الإصحاح الاول من إنجيل لوقا « إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الامور المتيقنة عندنا كما سلمها الينا حين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شىء من الاول بتدقيق ، أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز توفليس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به . . . »

الكلام المنسوب بلفظه ومعناه إلى الله لم تكن موجودة من قبل القرآن ، وعلى مثل ذلك كانت الحال فى الكتب الدينية الأخرى .

أما الذى نزل على محمد فقد تقيد محمد نفسه فيه ، بحيث أنه ليس فى إمكانه أن يزيد فيه حرفا أو ينقص حرفاً ، وليس فى إمكانه أن يأخذ فيه بالمعنى دون اللفظ ، فالله يوحى قوله إلى جبريل ، وجبريل يلقيه على محمد ، ومحمد يتلوه على الناس كلاماً مقدساً كما سمعه . والآيات التى أشرنا إليها آنفا تقر أن النبى ملزم بألا يستعجل فينطق بالوحى قبل أن يستقر بلفظه كما هو مستقر فى نفس النبى بمعناه ، وتشهد بأن النبى ليس فى إمكانه أن يتقول على الله شيئاً .

وقد كتب القرآن فى حياة النبى حال نزوله - وكان للنبى كتبة مختصون بتسجيل الوحى(١) - ثم إن النبى كان يستعرض القرآن الذى أنزل عليه كل عام مرة(٢) . وقد نزل القرآن آيات بحسب الحوادث ، وكان الوحى يشير إلى النبى بوضع كل آية فى مكانها من السور ، فحتى ترتيب الآيات والسور لم يكن للنبى يد فيه ، وإنما هو مكلف بذلك .

وعلى هذا الأساس حفظ القرآن الكريم ، وعلى هذا الأساس جمع فى مصحف واحد هو المتداول فى أيدى المسلمين حتى الآن لم يزد فيه حرف ولم ينقص منه حرف ، ولم يدخل أى نوع من التغيير فى ترتيب

---

(١) أنساب الاشراف ١/٥٣١ ، البخارى ٦/١٨٣ - ١٨٤ ، الدلالات السمعية (مخطوط دار الكتب) ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) ابن سعد ٤/٨ - ٩ ، ١٥٨ .

آياته وسوره(١) ، واستقرت قدسيته على ذلك منذ تلاه محمد عن ربه حتى الآن وإلى أن تقوم الساعة .

وعلى هذا الأساس نقرر أن مفهوم الكتاب المنزل مفهوم جديد على العالم . وهو بصورة أوضح على العرب ؛ فنحن نعرف أن وثنية العرب لم يكن لها كتاب ، وهم لم يتقبلوا فكرة الوحى والكتاب المنزل فى سهولة ، فقالوا : «أَضْغَاثُ أَحْلام - بَلْ افْتَرَاهُ - بَلْ هُوَ شَاعِرٌ» وقالوا «افْتَرَاهُ وأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْم آخَرُون» وقالوا «أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا(٢)» وقد رد القرآن على ذلك «ولقدْ نعْلمُ أَنَّهمْ يَقولون إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشرٌ ، لِسَان الَّذِى يُلْحِدُون إليْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ(٣)» «وَلو كان مِنْ عِنْدِ غيرِ الله لوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كثِيراً (٤)» وتحدى الناس جميعا بأن يأتوا بمثله أو بمثل بعضه ، ثم دمغهم بالعجز حين أنزل قوله تعالى : «قلْ لئِنْ اجْتمَعَتْ الإِنْسُ وَالجِنُ عَلى أَنْ يَأْتوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يأتون بِمِثْلِهِ وَلوْ كان بَعْضهمْ لِبَعْضٍ ظهيراً(٥)» وهذه الآيات ترينا أن مفهوم الكتاب المنزل كان مفهوماً جديداً يختلف عن صورته التى نعرفها عند الأمم الأخرى ، فلم يشهد الناس من قبل تقيدا باللفظ والمعنى كما هو الحال فى القرآن ، ومن هنا نجد الإنكار والمعارضة ، ونجد حتى اليوم من غير المسلمين من يقول بأن هذا الكلام من عند محمد ، على الأقل بلفظه ؛ لأن مفهوم نزول الكتاب بلفظه ومعناه مفهوم جديد لم تعرفه الأمم من قبل الإسلام .

---

(١) البخارى ٦/١٨٣ - ١٨٤
(٢) الفرقان ٥
(٣) النحل ١٠٣
(٤) النساء ٨٢
(٥) الإسراء ٨٨

ثم إن النبي إلى جانب هذه المفاهيم الجديدة التي جاء بها كان معلما للأخلاق ، يريد أن يثنى الناس عن عاداتهم المرذولة القديمة ، ويريد أن يهديهم إلى أخلاق كريمة سميت فيما بعد بالأخلاق الإسلامية . وفى القرآن آيات كثيرة تدل على هذا الدور الأخلاقى الذى قام به النبي : فالناس قد ألهاهم التكاثر ، يجمع أحدهم المال ويعده عداً ، لا يكرمون اليتيم ولا يحاضون على طعام المسكين ، يأكلون التراث أكلا لمًّا ، ويحبون المال حباً جمًّا(١) . فالرسول يستنكر هذه المادية التي تقتل الروح وتميت نوازع الخير ، ويدعوهم إلى البر والتقوى والإنصات إلى النفس اللوامة . ونستطيع أن نتصور المثل الأعلى الذى دعا إليه النبي إذا قرأنا الآيات من صدر سورة« المؤمنون »: «قد أَفلحَ المؤْمِنونَ الذِينَ همْ فى صَلاتهمْ خاشِعُونَ ، والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونْ ، والَّذِينَ هُمْ لِلزكَاةِ فَاعِلُونَ ، والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إلاَّ عَلَىَ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَهُمْ غَيْرُ مَلُومِين ، فَمَن ابْتَغَى وراء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، والَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، والَّذينَ هُمْ عَلَىَ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » .

هذه هى المسائل الرئيسية التي دعا إليها النبي الناس ، فكانت غريبة عليهم حتى قالوا كما عبر القرآن «مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائنَا الأولين(٢) » «مَا سَمِعْنَا هذا فِى الَّملة الآخِرة» . هذا يؤكد لنا أن هذه الأفكار كانت جديدة غير معروفة فى المجتمع العربى ، وغير معروفة كذلك فى الأديان الأخرى، ومن غير شك كان العرب يخالطون أصحاب الديانات الأخرى بل منهم من دخل فيها ، فمنهم من تهود ، ومنهم من تنصر ، وكان أهل مكة يخالطون أهل هذه الديانات فى رحلاتهم

---

(١) الفجر ، التكاثر (٢) المؤمنون

التجارية نحو الشمال والجنوب ويتعاملون معهم ، ومن غير شك عرف المكيون شيئاً عن مبادىء هذه الديانات(١) ، بل منهم من قرأ الكتب وعلِمَ علم أهل الكتاب ، فلو كانت هذه الأفكار الإسلامية كما صورناها موجودة عند أهل الكتاب لما قال هؤلاء المكيون مقالتهم التى سجلها القرآن ، ولو كانت مقالتهم تخالف الواقع لرد القرآن بتكذيبهم وبتأكيد وجود هذه الأفكار ؛ الأمر الذى يقطع بما نتجه إليه(٢) .

على أن هذه المثل العليا فى الإيمان وفى الأخلاق هى أفكار إنسانية لا تزال الإنسانية تنشدها وتعيش عليها منذ بدء الخليقة ؛ ونعنى الدعوة إلى الفضيلة والنزوع إلى الكمال الإنسانى ؛ ولم تفقد جدتها بعد ، ولا يتهم صاحبها بأنه اقتبسها أو قلد بها غيره فهى تراث للإنسانية قديم جداً ، والقول بهذا الاتهام وقوع فى خطأ قديم ابتدأ به الوثنيون حيث قالوا «أساطير الأولين اكتتبها» .

الدعوة إلى الإسلام ومسايرة التنظيم العربى

كانت الدعوة سرية فى أول الأمر ، وظلت كذلك ثلاث سنين ، ثم أصبحت بعد ذلك علنية ، وكانت فى أول أمرها مقصورة على عشيرة النبى الأقربين(٣) «وأَنْذِرْ عَشِيرتَكَ الأَقْرَبِينَ» ثم اتجهت إلى الدعوة العامة . والحقيقة أنه لا يوجد فارق حقيقى بين الدعوة السرية والعلنية ، فإن طبائع الأشياء لا تكاد تقبل هذا التصوير ، فإن رسالة النبى انتشرت منذ البدء وبلغت أهله الأقربين ثم أصدقاءه ، وظل الأصدقاء يكتسبون

---

(١) سورة « ص » ٧

(٢) ابن كثير ٣/٨٨ - ٨٩ ، ابن هشام ١/٣٨٣ .

(٣) الشعراء ٢١٤ - ٢١٦ ، ابن هشام ١/٢٧٤ ، الطبرى ١/٦١

أصدقاءهم ، واتسعت الدائرة شيئاً فشيئاً حتى أصبحت الدعوة عامة علنية . وكانت مهمة النبي فى مكة إبلاغ القرآن وتعليمه وتحفيظه ، وإمداد المؤمنين بالصبر والاحتفاظ باليقين والصمود للفتنة(١) والسعى لنشر التعاليم الجديدة فى المواسم عند اجتماع الناس ، والدعوة لها(٢) ، والقرآن الكريم الذى نزل على النبي فى هذه الفترة ملىء بالدعوة لهذه المبادىء ، متعدد النواحى فى تبيانها ، داع العقول إلى التفكير فيها واستنباطها ، ضارب الأمثلة لها ، محذر من عاقبة جحودها والوقوف فى وجهها ، فى أسلوب رائع أخاذ ، يأخذ بمجامع القلوب وينفذ إلى أقصى أغوار النفس .

وقد سايرت الرسالة فى ظروف الدعوة إليها ، ظروف التكوين العربى : فقد أمر النبى أن يدعو عشيرته الأقربين ، لأنهم بحكم عصبية القرابة والرحم سيقفون إلى جانبه ويؤازرونه ويكونون عوناً له وحماية فى وجه العصبيات الأخرى ، ثم أمر بعد ذلك أن يدعو مكة «لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا»(٣) وحين نقول مكة نعنى بذلك قبيلة قريش ، فإنها كانت هى الأصل فى أهل مكة ومن معها من الناس موال لها أو أتباع . فالانتقال من عصبية العشيرة إلى عصبية القبيلة أمر جرى عليه التكوين الاجتماعى عند العرب ، ثم أمر أن يدعو من حول مكة من قبائل ، أى أن ينتقل إلى عصبية التحالف القبلى وعصبية الشعب ، وكان من المنتظر أن تؤمن به العشيرة ثم القبيلة ، لكن الذى حدث كان غير ذلك ، فإن هذه العصبية الرحمية والقبلية قد وقفت فى

---

(١) ابن هشام ١/٣٤٢ ؛ اليعقوبى ٢/٢٠

(٢) ابن هشام ٢/٣١ - ٣٧ ، الطبرى ٢/٨٣

(٣) الشورى ٧

طريقها عصبية أخرى هى عصبية التقاليد والعادات القديمة ، وكان الناس فى ذلك الوقت يتعصبون تعصباً شديداً لموروث عاداتهم وتقاليد آبائهم ، ويرونها دينا من أمر الله «وَإِذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنا واللهُ أَمَرَنَا بِهَا»(١) فكانت هذه العصبية للعادات والتقاليد حائلا بين الناس وبين متابعة النبي ، وحتى بنى هاشم بالرغم من وقوفهم إلى جانب النبي وحمايته بدافع عصبية العشيرة لم يؤمنوا به وغلبتهم عصبية التقاليد على أنفسهم .

وشىء آخر غير العصبية منع قريشا من متابعة النبي وهو حرصها على منزلتها بين العرب ، وكانت تخشى أن تذهب الرسالة الجديدة بمكانتها التى وصلت إليها عن طريق رياستها للدين الوثنى ورعايتها للتقاليد العربية . ثم كان زعماء مكة حريصين على مبدأ التناظر بينهم كزعماء ، فقد كان يحكم مكة رؤساء العشائر والبطون ويتكون منهم ما عرف بالملأ وهو مجلس الرياسة فى قريش ، وكان رجال الملأ حريصين على ألا يسودهم أحدهم ويرون التكافؤ فيما بينهم ، فالصفات العامة فى أحدهم من الممكن أن ينالها كلهم ، أما أن يكون واحد نبيا فهذا أمر ليس بمدرك لعامتهم وعند ذلك تكتب له الزعامة بلا منازع ، ويرون أنفسهم مضطرين للخضوع له ومتابعته(٢) ، ومن أجل ذلك عارضوا محمدا ونفسوا عليه مقام الزعامة الذى توصله له الرسالة . وكانت معارضة قريش مركزة فى رجال الملأ وتابعهم عامة الناس .

لكن زعامة الملأ ونفوذه مهما بلغت قوته لم تكن تستطيع أن تحجر

---

(١) الاعراف ٢٨ .

(٢) الواقدى : مغازى رسول الله ٢٠

على عقول الناس ولا على قلوبهم ؛ فالمبدأ العام الذى جرى عليه العرب هو مبدأ حرية الرأى ، ولم تكن هناك أية قوة تستطيع أن تمنع العربى عن الإفصاح عن رأيه أو التعبير عن إرادته ، ولذلك عجز رجال الملأ عن أن يحولوا بين الرسالة وبين الوصول إلى قلوب الناس ، ووجدت الروح الحائرة ضالتها ، فآمن بمحمد بعض أهل مكة ممن سمت نفوسهم ونضجت عندهم العاطفة الدينية ؛ كذلك آمن بمحمد عدد من الرقيق والموالى رجالا ونساء ؛ وجدوا فى مبادىء الرسالة الجديدة حلا لمشكلتهم وضمانا لحريتهم .

ولم يحفل زعماء مكة كثيراً بالرسالة فى أول الأمر ، واعتبروا النبي واحدا من أولئك الباحثين عن دين إبراهيم ، أو المتمردين على على الوثنية من أمثال «ورقة بن نوفل» و «زيد بن عمرو بن نفيل» و «عثمان بن الحويرث» وغيرهم من متحنفى العرب ، لا يلبث أن يخفت صوته ويضيع فى ضجة الحياة القائمة فى مكة وفيما حولها ، والتى تموج بحركة المال وحركة الأدب والشعر فى موسم الحج وفى أسواقه .

لكن الرسالة مضت قدما تشق طريقها وإن كان ذلك فى بطء ووجدت قريش نفسها أمام رجل آخر ، ودعوة أخرى ، وأمام جماعة أخذت تتكون فى داخل مكة ، فإن محمداً لم يكتف بالتعبد والبحث عن الحنيفية ، أو المدارسة الدينية كما يفعل غيره من المتحنفين والمتبرمين بالوثنية والساخطين على الأصنام ، وإنما هو يدعو إلى دينه فى حماس ومثابرة وإن كان فى هدوء وأخذ بالحسنى ، وهو يتلو كلاما بليغاً ينفرد بأسلوب رائع لا يجده المكيون فى ما ألفوا من أساليب

الشعراء أو البلغاء أو سجع الكهان (١) ، وهو يكتسب كل يوم أتباعاً يؤمنون بأنه رسول الله وأن كلامه ليس من قول بشر ، وهو يدعو إلى مبادىء جديدة أخذت فى الوضوح والظهور . ثم إن محمداً أخذ يهاجم الدين الوثنى هجوماً شديداً ، ويسب الأصنام ويحقرها ، ويتهم قريشاً فى أحلامها ويسفهها ، ويكفر آباءها ويخلدهم فى النار ، وقد رأت قريش أنه بهذا إنما يهدم مكانتها بين العرب ، فإنها قد وصلت إلى ما وصلت إليه من الزعامة العربية ، بما اشتهرت به من الحلم الذى سادت به القبائل ، وها هو محمد يسفه أحلامها ويحقر عقولها ، ثم هو ينتقص من الدين الذى تقوم على رعايته ومنه أخذت زعامتها الروحية بين العرب ، وعلى أساس هذه الزعامة يقوم مركزها الاقتصادى ، لذلك رأت فى الدعوة الجديدة خطراً يتهدد مركز مكة الأدبى والمادى على السواء ، ولم تستطع أن تقتنع بما يقوله محمد بأنه جاءهم بخير ما يأتى به رجل قومه ، وقالوا كما عبر القرآن «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا» وبالرغم من إحساسهم بأن ما جاء به حق فإنهم لم يطمئنوا إلى هذا الجديد الذى يريد أن يشكل محمد المجتمع على أساسه .

فالمصلحة المادية كانت عاملا من العوامل التى دفعت قريشاً إلى الوقوف فى وجه النبى ، وكذلك الاستمساك بالقديم سبب آخر دعا قريشاً إلى المعارضة ، وأيدها الرأى العام الوثنى فجلت فيها . وبالرغم من وقوف العصبية العشائرية لحماية محمد ومن آمن به من قريش ، فإن النبى لم يكن يستطيع أن يعتمد على العصبية فى دعوته الدينية ، لأسباب منها : أن دعوته إنسانية عامة تسمو على التعصب ، ولأن

(١) ابن كثير ٣/٦٣

التورط فى مجال العصبية يجعله يدور فى دائرة مقفلة يصعب عليه أن يخرج منها ، بل هى تحصره فى الدائرة القبيلية التى كان يريد الخروج منها بطبيعة دعوته الدينية .

ولقد لقى النبي ومن آمن به عنتاً كبيراً ، وأوذوا فى أنفسهم وأموالهم ، ودفع بعضهم حياته ثمنا لعقيدته ، فقد عذبت قريش المستضعفين من المسلمين . وحتى من كانت له عصبية تحميه وعشيرة يعتز بها لم يسلم من الأذى ، لأن البطون القرشية كلها اشتركت فى محاولة فتنة المسلمين ، وأخذت كل عشيرة نفسها بتعذيب من أسلم منها ، حتى اضطر النبي إلى أن يفكر فى مخرج لأصحابه من هذه الفتنة الشديدة ، فأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة(١) .

وإذا كانت قريش قد حرصت على ألا تسفك دماء القرشيين حتى لا تقع ثارات فتجر إلى الحرب الداخلية فى مكة ، فإن بعض الموالى فقد حياته تحت التعذيب ، فقد مات ياسر والد عمار بن ياسر تحت التعذيب ، وقتلت زوجته «سمية» بطعنة من يد أبى جهل عمرو بن هشام أحد سادات قريش من بنى مخزوم ، ولقى عمار نفسه من العذاب ما كاد يقضى عليه(٢) ، وكذلك ذاق بلال بن رباح . وغيره من الرقيق الذى أسلم نساء ورجالا . ألوانا قاسية من العذاب ، حتى دفعت الشفقة أبا بكر بن أبى قحافة الذى لقب بالصديق –وهو أول من آمن بالنبى من رجال قريش ، وكان تاجراً موسراً– إلى أن يشترى بلالا وغيره ويعتقهم(٣) . والحقيقة أن صبر المؤمنين وتمسكهم بدينهم واستهانتهم

---

(١) ابن هشام ١/٣٤٢ .

(٢) ابن هشام ١/٤٣٢ .

(٣) ابن هشام ١/٣٤٠ - ٣٤١

بالتعذيب والموت فى سبيله ليعد من أروع مواقف البطولة والتضحية فى سبيل المبدأ والعقيدة . والنبى نفسه -برغم وقوف أهله إلى جانبه وتصديهم لحمايته - لم يسلم من الأذى حتى تعرضت حياته نفسها للموت.

ولقد تحدث العالم الأوربى الدكتور ماركس دودز عن شجاعة النبى فقال «إنه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بنى إسرائيل ، لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق ، وصبر على الإيذاء يوما بعد يوم عدة سنين ، وقابل النفى والحرمان والضغينة وفَقْدَ مودة الأصحاب بغير مبالاة ، فصابر على الحملة قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة ، ودأب مع هذا على بث رسالته غير قادر على إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء (١)» كما تحدث غيره من مؤرخى الغرب مشيدين بشجاعة النبى وتضحياته هو ومن آمن به من المسلمين الأولين(٢) .

أساليب قريش لمقاومة الدعوة

ولقد اتخذت قريش أساليب مختلفة فى مقاومة الدعوة الجديدة :-

بدأت المقاومة سلبية فى أول أمرها ، فقد أظهر رجال الملأ عدم الاكتراث بالدعوة الجديدة ، ونظروا إليها نظرة استخفاف ، فلم تعنهم كثيرا ، وظنوا صاحبها من أمثال ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو ابن نفيل ، من الساخطين على الأصنام ، الباحثين عن الحنيفية أو غيرها من الديانات الأخرى ، وإن كان يختلف عنهم فى أنه يخبر أنه

(١) عباس العقاد : عبقرية محمد ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) بودلى ، الرسول (حياة محمد) ص ٨١ وما بعدها .

يتلقى الوحى من السماء ، وكان يحلو لهم أن يشيروا إليه كلما رأوه «هذا ابن عبد المطلب يكلم من السماء(١)» .

لكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن الأمر أخطر مما تصوروا ، فإن محمداً يكتسب كل يوم أصحابا من رجالهم ومواليهم يتابعونه ويؤمنون به نبياً ورسولا ، وأن هؤلاء الأصحاب ينشطون معه للدعوة لدينه الجديد(٢) ثم يرونه يجمع عشيرته من بنى هاشم ، ويدعوهم إلى الإيمان بما يقول ، ويحاول أن يجعل منهم كتلة حوله . ويرون عمه أبا طالب — زعيم البيت الهاشمى — وإن كان لم يتابعه على ما يدعو إليه ، فهو يشجعه ويقف إلى جانبه(٣) ؛ ويرون محمداً يكثر الاجتماع بأصحابه الذين آمنوا به وهم رجال من كل البطون القرشية ، وهو يتعرض للأصنام يسبها ولقريش يسفه أحلامها ويكفر آباءها .

وإذن فهذا أمر يراد بقريش لا يصح السكوت عليه . ولما كان رجال الملأ يدركون قيمة العصبية ويخشون خطرها لو تعرضوا لمحمد بالسوء ؛ فقد لجأوا إلى أبى طالب يطلبون إليه أن يتدخل لمنع بن أخيه من التعرض بالمهانة لمقدسات القبيلة وحرماتها ، فهم إن صبروا على ما يقول به ويحوّل أبناءهم إليه ، فهم لا يطيقون صبراً على شتم الآلهة وتسفيه الأحلام وتضليل الآباء . ويلاين أبو طالب قومه ويردهم بالحسنى ، ولكنه لا يمنع محمداً ، ولا يتوقف محمد عما أخذ فيه . ويعاود رجال الملأ الطلب ويشفعون طلبهم بالعروض ، فهم يعرضون أن يتركوا محمداً وما يدعو إليه على أن لا يتعرض لسب الآلهة وشتم

---

(١) ابن سعد ١/١٨٤ . (٢) نفسه ١/١٨٥ .
(٣) نفسه ١/١٨٧ — ١٨٨ .

الآباء ، ثم يعرضون أن يقدموا رجلا من خير أبنائهم بديلا عن محمد يتبناه أبو طالب على أن يسلم إليهم محمداً ليقتلوه إن كان قد عجز عن رده ؛ فإنه يدمر وحدة القبيلة ويهدد مكانتها . ويستنكر أبو طالب هذا العرض المنكر ؛ فما كان ليسلمهم ابنه ليقتلوه ويأخذ ابنهم يغذوه(١) لهم . ولكنه يدعو إليه محمداً يعرض عليه ما طلبت قريش ، ويطلب منه أن يبقى عليه وعلى نفسه ، ولا يحمله من الأمر ما لا يطيق من عداوة القوم . وظن محمد أن عمه قد بدا له فيه بداه ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال فى إصرار وإباء « ياعم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » . وهزت كلمة الابن نفس الشيخ الذى لم يسلم ، ووصلت من نفسه إلى مركز الإعجاب فلم يسعه إلا أن يقول « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت . فو الله لا أسلمك لشىء أبدا (٢) » ومن ساعتها وقف الشيخ حياته على حماية ابن أخيه . فلم يثنه شىء عن الذود عنه .

ولقد فكر رجال قريش بحسب ما يفهمون من مثل الحياة عندهم ، وظنوها من محمد عملا للوصول إلى غرض من أغراض الحياة ، وحسبوا من وقوف بنى هاشم إلى جانب محمد نزعة إلى الزعامة وغاية للرياسة ، فاستجابوا لاقتراح تقدم به عتبة بن ربيعة - أحد سادات قريش - حيث قال : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا . فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه . فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) الطبرى ٢٢/٦٧ ، اليعقوبى ٢/١٨ .   (٢) ابن هشام ١/٢٧٨ .

فقال ، يا ابن أخى : إنك منا حيث قد علمت : من السطة فى العشيرة والمكان فى النسب ؛ وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قل يا أبا الوليد أسمع» قال : يا ابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . وحين أتم عتبة كلامه ، لم يزد النبى على أن تلى عليه آيات من سورة من القرآن ، ما سمعها الرجل حتى انبهر . وقام وهو مدرك أنه لا سبيل إلى هذا الرجل غير متابعته ، أو منابذته حتى يحكم الله بينه وبينهم(١) .

يئست قريش من إغراء محمد ، فاتخذت طريق الجدال والإنكار والاستهزاء ، والتعجيز بالأسئلة ، والإلحاح فى طلب المستحيل من الأعمال مع التصميم على الإنكار . لكن إيمان محمد برسالته وبما يوحى إليه كان أعظم من أن ينال منه إنكار المنكرين واستهزاء المستهزئين .

عند ذلك لجأت قريش إلى طريقة الاضطهاد والتعذيب للمسلمين حتى تخيفهم ؛ فتردهم عن دينهم وتمنع غيرهم من متابعة محمد خوفاً

---

(١) ابن هشام ١/٣١٣ - ٣١٥ .

من المشقة والعذاب ، فتواصت البطون القرشية بتعذيب من أسلم منها ، وألحت على المستضعفين من الموالى والعبيد بالعذاب ، كما ألحت على من أسلم من رجالها ونسائها بالأذى ، وهى مع كل ذلك تقيم دعاية قوية ضد دعوة محمد وتتهمه مرة بالسحر ومرة بالجنون ومرة بالافتراء ، وتقف لكل وارد على مكة تحذره من ذلك الرجل الذى يملك من سحر البيان ما يفرق به بين المرء وزوجه والأخ وأخيه ، وتتخذ مما يحدث فى بيوتها مثلا تضربه على ما تقول ؛ ثم هى لا تنى عن سؤال أهل الكتاب من اليهود والنصارى عما يدعيه محمد تريد بذلك أن تقيم حجة على ما تقول ، ويقوم بعض رجالها بعقد مجالس يتحدثون فيها إلى الناس بغريب القصص وأساطير الأمم ، يعارضون بها مجالس محمد ؛ يريدون بذلك أن يصرفوا الناس عنه ، وأن يفهموهم أنه إنما يأتى بمثل هذه الأساطير(١) . وقد تسرف فى تصرفها مع الوافدين على مكة من رجال القبائل ، فتتعدى التحذير إلى الإعنات ، وقد تبطش بمن لا تؤثر فيه دعايتها ويصر على إعلان إيمانه من الوافدين ، ولم يكن يردها عن الفتك إلا حرصها على علاقتها الطيبة مع القبائل وخوفها على مصالحها التجارية ، كما فعلت بأبى ذر الغفارى حين أسلم(٢) .

الهجرة فى سبيل الدعوة :

ولما رأى النبى الأذى يشتد بأصحابه ، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة « فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق . حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول

---

(١) ابن هشام ١/٣٨١ .   (٢) أسد الغابة ٥/١٨٧ .

لله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام(١) .

وفى هجرة المسلمين إلى الحبشة لابد بعرض سؤال : لماذا فكر النبى فى الحبشة ولم يفكر في غيرها من أقاليم الجزيرة العربية ؟ ! الواقع أن تفكير النبي في الحبشة ينطوى على معرفة كبيرة بالظروف وإلمام تام بأحوال الجزيرة العربية : كما أن فيه لفتة سياسية من جانب النبي موجهة إلى قريش .

لم يلجأ المهاجرون إلى قوم من العرب في الجزيرة العربية ، لأن القبائل العربية كانت مرتبطة بقريش ارتباطاً تجارياً ودينيا قوياً ، وكان لبعضها محالفات وعقود مع قريش ؛ وهى لذلك حريصة على حسن العلاقة مع قريش حرصها على مصالحها المادية ، فلم تكن لذلك تستطيع إيواء الخارجين عليها ، ثم هى تؤمن بزعامة قريش وتخضع لتشريعها الديني ، وقد تجلى موقف القبائل واضحاً بعد هجرة النبى إلى يثرب ؛ فقد اتخذت جانب قريش فى صراعها ضد يثرب وتحرشت بالمسلمين وحاربتهم فى صفوف قريش . أما اليمن فكانت الأحوال فيها غير مستقرة ، والخلافات الداخلية تمزقها إلى جانب خضوعها للنفوذ الفارسى ، ووقوعها فى مجال التصارع الدولى الذى تعدى السياسة إلى الدين ، فكان التنافس شديداً بين المسيحية واليهودية فيها ، وهى بذلك غير صالحة لأن يجد فيها المهاجرون المأوى الأمين . وكذلك كانت الحال فى مملكة الحيرة ومملكة غسان . كما لم تكن مدن

---

(١) ابن هشام ٣٤٣/١ .

الحجاز مهيأة فى ذلك الوقت لقبول هجرة المسلمين إليها . فيثرب كانت تمزقها الخلافات الداخلية ، ويقوم الصراع فيها على أشده بين قبائلها ، هذا إلى علاقات قريش التجارية المتينة مع بطونها سواء من اليهود أو من الأوس والخزرج . وخيبر كانت مدينة يهودية ، وكانت صلات اليهود عامة طيبة مع قريش ، فضلا عن أن اليهود كانوا منصرفين إلى مصالحهم راغبين عن الدخول فى عداء مع القبائل العربية. وإذن فقد كانت بلاد الحبشة هى أقرب إقليم هادىء إلى مكة يمكن أن يجد المهاجرون فيه الأمن على حياتهم ؛ كما يمكن أن يحصلوا فيه على معاشهم فقد كانت الحبشة متجراً لقريش ووجها ؛ وكان القرشيون يغشونها للتجارة فهم على معرفة بها وعلى خبرة بمزاولة العمل فيها . كما كانت تكمن وراء الهجرة إليها حكمة سياسية ؛ فإن الحبشة كانت تطمع منذ أجيال فى فتح الأقاليم العربية ، وكان ملوك الحبشة يراقبون من أجل ذلك أحوال الجزيرة مراقبة شديدة ؛ وقد سبق للحبشة أن أرسلت حملة لفتح مكة ، ومع أن الحملة باءت بالفشل ، ومع أن الحبشة خرجت من الجزيرة العربية كلها ؛ إلا أن الصراع الدولى على امتلاك طرق التجارة لم ينته بعد . فالهجرة إلى الحبشة تؤدى إلى غرضين ، الغرض الأول أن المهاجرين يلقون ترحيباً من ملك الحبشة ؛ أملا فى أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل فى شئون مكة الداخلية ، وفعلا لقى المهاجرون احتفاء وحسن معاملة من النجاشى (١).

والغرض الثانى هو لفت نظر قريش إلى أن عدوانها على المسلمين يضطرهم إلى الالتجاء إلى قوة خارجية ربما تتدخل لحمايتهم ، فتتعرض

---

(١) ابن سعد ١٨٩/١ .

مكة لغزو أجنبي أو تتعرض للإضرار بمصالحها الاقتصادية . ولذلك فإن من مصلحتها أن تهادن المسلمين وتوقف عدوانها عليهم . وقد أوجست قريش خيفة من هذه الرحلة وحسبت لها حساباً كبيراً ، فسارعت إلى إرسال بعثة إلى النجاشي تحمل الهدايا له ولرجاله وتطلب إليه رد هؤلاء المهاجرين . وربما لتحاول معرفة موقف الحبشة من الوضع في مكة ، مخافة أن تؤدى هذه الصله الجديدة إلى أن تعاود الحبشة الكرة على مكة مرة أخرى . لكن البعثة فشلت مهمتها ، وبقى المسلمون يتمتعون بالحرية والرعاية . فقد لفتت البعثة أنظار النجاشي نحو هؤلاء الفارين بدينهم إلى بلاده ، فقدر تضحياتهم وعطف على موقفهم ، فبذل العون لهم والرعاية(١) .

فى هذه الأثناء دخل فى الإسلام عناصر قوية من القرشيين ، فقد أسلم رجلان اشتهرا بالبأس والقوة ، هما حمزة بن عبد المطلب(٢) وعمر بن الخطاب (٣) وكان كلاهما رجلا قويا مرهوب الجانب جريئا فى إظهار رأيه والوقوف فى وجه مخالفيه ، وكان من اليسير أن يشتبك مع مناوئى الإسلام ، فتسيل الدماء وتقع الحرب الأهلية التى كان الملأ حريصا على عدم وقوعها . ولم يتأن الرجلان عن تحدى قريش ، فاشتد بهما ساعد المسلمين وقويت قلوبهم واضطرت قريش إلى أن تهادن بعض الوقت حتى تدبر موقفها إزاء هذا الوضع الجديد ، وقد وصلت أخبار هذه المهادنة مسامع المسلمين فى الحبشة مبالغا فيها ، حتى لقد قيل إن قريشا تابعت النبى . فعاد بعضهم إلى مكة لكنهم ما كادوا يصلون

---

(١) ابن هشام ١/٣٥٦ - ٣٦٢ الطبرى ٢/٧٣ .

(٢) ابن هشام ١/٤١٢ .

(٣) نفسه /

إليها حتى كانت قريش قد اتخذت لنفسها خطة أشد تجاه المسلمين ومن ينصرهم ، فدخل بعضهم مكة فى جوار بعض رجال قريش — فقد اعتبرتهم القبيلة خارجين عليها قدخلعوا أنفسهم منها فلم يكن لهم من حماية قبلية إلا فى جوار — وعاد بعضهم أدراجه ومعهم عدد آخر أكبر من العدد الأول (١) .

أدركت قريش أن ما تقوم به من الأذى للمسلمين لن يحول دون إقبال الناس على الدين الجديد ، كما رأت بنى هاشم يقومون دون النبي فلا تستطيع أن تبلغ به ما تريد . لذلك قررت أن توقع على هذا البطن القرشى عقوبة قاسية ؛ لعلها تجبره على التخلى عن موقفه فى حماية النبي وتضطره إلى تسليمه أو الكف عن نصرته ، ورأت أن يكون عملها جماعيا ترتبط به كل البطون المكية وحلفاؤها ، فبعد مشاورة عامة ؛ ائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب : على أن لا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم (٢) .

وحصروا بنى هاشم والمسلمين فى شعب خارج مكة يسمى «شعب أبى طالب» ، وقامت قريش على هذا الحصار الاقتصادى ثلاث سنين » حتى أُجْهِدَ المحاصرون أيما اجهاد ، وكان يسمع صياح أطفالهم من شدة الجوع . ولكن أحدا لم يضعف ، وظل النبي يدعو إلى دينه بين العرب .

---

(١) ابن سعد ١/١٩٠ — ١٩٢ . (٢) ابن هشام ١/٢٧٢ .

كما حفل القرآن بالآيات التى تشدد النكير على قريش(١) . وتجب الإشارة هنا إلى أن حلف الفضول الذى عقدته بعض بطون قريش وتعاهدت فيه على منع الظلم فى مكة ؛ قد تعطل ، فلم يتناد أصحابه بنصرة المظلومين ممن كان يقع عليهم العذاب ، ويبدو أن الملأ من قريش كان يخشى أن يطالب بنو هاشم حلفاءهم من أصحاب الفضول بالوقوف إلى جانبهم ، ومن أجل ذلك كان حرصهم على الإجماع وعلى التواثق على ذلك فى صحيفة مكتوبة ، وقد استجابت كل البطون القرشية -ما عدا بنى هاشم وبنى المطلب ، الذين وقفوا إلى جانب النبى بدافع عصبية العشيرة- لأنهم اعتبروا الدعوة الإسلامية ذات خطر على مكة يهدد الجميع بالخراب . لذلك اجتمعوا وتضامنوا على إيقاف هذا التيار .

وكان هذا العمل العدوانى فرصة لأن يتسامع العرب فى كافة أنحاء الجزيره العربية بأنباء هذا الدين الجديد ، حتى أحست قريش بفشل هذا الحصار ، وبأنه يوشك أن يؤدى إلى أزمة داخلية فى مكة ، فقد تحركت عاطفة الرحم فى بعض القرشيين ، فأخذوا يمدون المحصورين ببعض الطعام ، ولما حاول زعماء قريش إيقاف هذا المدد حدثت مشاحنات واشتباكات كادت تؤدى إلى فتنة (٢) ثم تحزب بعض الرجال ضد الصحيفة وقاموا على نقضها ، ورأى رجال الملأ أن الحصار قد فشل فى إجبار المحصورين على التسليم ، وأن الفتنة أوشكت أن تحدث فى مكة ، فاضطروا إلى تمزيق الصحيفة ، وعاد بنو هاشم والمسلمون إلى دورهم وإلى مزاولة حياتهم العادية(٣) فى مكة . وإن كانت قريش

---

(١) الأنبياء ٩٨ — ١٠٠ ، الهمزة ١ — ٩ ، القلم ١٠ — ١٥ ، الفرقان ٢٧ — ٢٩ ، الدخان ٤٣ — ٤٨ .

(٢) ابن هشام ١/٣٧٦ .

(٣) نفسه ١/٣٩٧ — ٤٠٠ .

قد استمرت فى سياسة المقاومة والعدوان .

لكن النبي لم يلبث بعد نقض الصحيفة أن أصيب بصدمة شديدة كان لها وقع شديد الأثر فى نفسه ، كما كان لها أثر كبير فى تغيير اتجاهه فى سياسة الدعوة الإسلامية . فقد أصيب بفقد زوجته خديجة ، تلك الزوجة الصالحة التى كانت ملاذه فى شدته ، وكانت بإيمانها ومواساتها ملجأه يجد فى جوارها راحة نفسه . كما أصيب بموت عمه أبى طالب الذى كان بمثابة الستار الذى يحول بين محمد وبين مواجهة خصومه وجها لوجه . وبفقد زوجته فقد التأييد المعنوى النفسى القريب كما فقد بموت عمه التأييد الأدبى والمادى ، وكان فقدهما لذلك عظيم الوقع فى نفسه حتى سمى عام موتهما بعام الحزن (١) .

وبدت بيئة مكة — المتمسكة أشد التمسك بتقاليدها ، الحريصة على مصالحها المادية — غير صالحة لنشر المبادىء الجديدة ، لذلك اضطر النبى إلى تخفيف نشاطه فى الدعوة بين أهل مكة ، وفكر تفكيراً جدياً فى مكان آخر يكون أصلح للدعوة ، وأخذ ينتهز بعد هذا العام كل فرصة من الفرص التى يجتمع فيها الناس فى المواسم العامة التجارية والدينية ؛ ليعرض على رؤساء القبائل دعوته الجديدة ويدعوهم لقبولها ، وليعرض عليهم الانتقال إلى أرضهم (٢) .

ولم يفد محمد من عرضه نفسه على القبائل شيئاً ، إذ كانت هذه القبائل تحترم قريشاً وتحرص فى الوقت نفسه على حسن العلاقة معها حرصاً على مصالحها المادية المرتبطة بتجارة قريش . على أن قريشا لم

---

(١) ابن هشام ٢/٢٥ — ٢٦ ، ابن سعد ١/١٩٥ ، الطبرى ٢/٨٠ .

(٢) ابن هشام ٢/٣١ — ٣٢ .

تألُ جهداً في الدعاية ضد دعوة محمد ، وكان رجالها يتبعونه فى كل مكان ؛ يعارضون دعوته ويحذرون القبائل من متابعته ، ومنهم من وكان لهذا أثره الشديد فى منع القبائل من قبوله ؛ إذ أنها ظنت أن لو
وكان لهذا أثره الشديد فى منع القبائل من قبوله ؛ إذ أنها ظنت أن لو
كان فيه خير لتابعه أهله ، ونال محمد من وراء ذلك أذى فى نفسه وفى أصحابه ، وقد تحرج مركزه فى مكة حتى إنه حين رفضت قبيلة ثقيف بالطائف - وقد ذهب إليها يعرض عليهم دعوته والانتقال إليهم - لم يستطع حين عاد أن يدخل مكة إلا بجوار المطعم بن عدى زعيم بنى نوفل من قريش ، لأن القبيلة أصبحت تنظر إليه نظرتها إلى رجل ثار عليها وخلع نفسه منها(٢) .

ثم عرض النبي دعوته على رجال من أهل يثرب - من الأوس - قدموا مكة يلتمسون حلف قريش على قومهم من الخزرج ، فلم يظفروا بالحلف ، وكذلك لم يسلموا(٣) ؛ ولكنهم حين عادوا إلى بلدهم ذكروا أمر هذا الداعى الجديد ، وكان لذكرهم للنبي وقع ما لبث أن ظهر أثره فى العام التالى ، فإنه قدم الموسم نفر من الخزرج عددهم ستة رجال ، لقيهم النبي فعرض عليهم الإسلام فما أبطأوا أن أسلموا ، وكان لإسلامهم السريع دوافعه ، فلقد كان عرب يثرب يساكنون اليهود ، واليهود أهل كتاب وكان العرب وثنيين فكان اليهود يعيرون العرب وثنيتهم ، كما كان العرب ينازعون اليهود الغلب فى يثرب ويصارعونهم ، وقد

---

(١) نفسه ٢/ ٧٢ . (٢) ابن هشام ١/٤٠٦ ، ٢/٢٨ - ٣١ .

(٣) نفسه ٢/٧٧ .

عز العرب آخر الأمر ، فكان اليهود يهددونهم بقرب ظهور نبي قد أظل زمانه يتبعونه فيقتلونهم معه قتل عاد وإرم(١) . كما أن الخزرج كانوا حديثى عهد بهزيمة حلت بهم أمام الأوس وحلفائهم من قبائل اليهود فى يوم بعاث ، فلما ذكر رجال الأوس ظهور النبى ومحادثته لهم فى مكة ، خشى الخزرج أن يسبقهم اليهود أو يسبقهم الأوس إليه فيتحقق تهديد اليهود ، فلما دعا النبى هؤلاء النفر من الخزرج حين لقيهم فى مكة قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه(٢) .

ولقد أوقف هؤلاء الخزرجيون النبى على الحالة فى بلدهم ووعدوه بالدعوة للإسلام فى يثرب ، كما بشروه بالفوز لو قدر له أن تجتمع قبائل يثرب عليه ، فقالوا له «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم ؛ بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقوم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك(٣)» .

وكانت الاستجابة فى يثرب سريعة ، حتى لم تبق دار من دورها إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) ، ولم يكد العام ينصرم حتى وافى الموسم اثنا عشر رجلا لم يكونوا كلهم من الخزرج بل كان منهم ثلاثة من الأوس ، فقد كان التنافس قائما بين القبيلتين ، وما كانت الأوس لتترك الخزرج تنفرد بالأمر دونها ، وكل ذلك بطبيعة الحال فى صالح النبى . ولقى النبى هؤلاء النفر عند العقبة — وهى

---

(١) نفسه ٢/٣٨ .
(٢) ابن هشام ٢/٣٨ .
(٣) نفسه .
(٤) نفسه ص ٣٩ .

مكان بين منى ومكة ، بينها وبين مكة نحو ميلين (١) - فعقد لهم بيعة عرفت ببيعة العقبة الأولى ، بايعوه على ألا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم . ولا يعصوه فى معروف ، فإن وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عذب(٢) . لم يشترط عليهم عداء أحد ولا منابذته بحرب ، وإنما كانت كلها شروطا دينية خلقية ، وقد سميت هذه البيعة فيما بعد بيعة النساء ؛ لأن النبى بايع على نفس هذه الشروط نساء قريش حين أسلمن بعد فتح مكة ، وقدوردت صيغة هذه الشروط فى القرآن الكريم «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَلَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ، وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣) » .

ولما عاد هؤلاء الرجال إلى بلدهم أرسل معهم النبى أحد أصحابه من السابقين إلى الإسلام هو مصعب بن عمير - وهو فتى من بنى عبد الدار اشتهر بشدة الإخلاص للإسلام ، ولقى من خلاف أهله أذى كبيرا (٤) وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى مصعب بالمدينة المقرىء ، ويحدثنا ابن إسحاق أنه كان يصلى بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض(٥) وهذا يعطينا فكرة عن مقدار الخلاف بين أهل يثرب ،

---

(١) ياقوت ١٣٤/١٤ .
(٢) ابن هشام ٤١/٢ .
(٣) الممتحنة ١٢ .
(٤) أسد الغابة ٣٦٨/٤ - ٣٦٩
(٥) ابن هشام ٤٢/٢ .

وأنهم كانوا فى حاجة إلى عنصر خارجى يجتمعون عليه ، وهذا ما يسّر للنبى مهمته فى المدينة .

وفى المدينة أثبت مصعب بن عمير أنه جدير باختيار النبى له للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، فعلى نجاحها أو فشلها يتوقف مصير الإسلام فى يثرب التى تموج بالخلافات وتضطرم فيها العصبية ؛ فكان الداعى اللبق الفطن يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويأخذ الأمر بالأناة والصبر والرفق ، وكان فتى اجتمعت فيه خصال قومه الحميدة وأهمها الحلم الذى سادت به قريش العرب . وبمثل هذه الأناة والصبر والموعظة الحسنة استطاع مصعب بن عمير أن ينشر الإسلام فى يثرب ، وأن يكتسب إلى جانبه أكبر زعيمين فى قبيلة الأوس ، وهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير اللذان كان لإسلامهما أثر كبير فى دخول بطون برمتها فى حظيرة الإسلام ، كما كانا بعد ذلك من أشد أنصار النبى إخلاصا وتفانيا فى نصرة الدولة الإسلامية فى يثرب(١) . وبذلك مهد مصعب السبيل فى يثرب لدار يهاجر إليها المسلمون من مكة ، ولتكون بعد ذلك داراً يطمئن فيها الإسلام ويعتز فيها المسلمون ، ثم تكون بعد ذلك قاعدة للدولة العربية الموحدة فى عهد النبى ، ثم للدولة الإسلامية التى امتد لواؤها فى مشارق الأرض ومغاربها فى عهد الراشدين من بعده .

وبعد عام عاد مصعب إلى مكة ووفد معه فى موسم الحج جماعة من المسلمين كان عددهم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، التقوا بالنبى فى .

---

(١) ابن هشام ٢/٤٢ – ٤٦ .

إحدى الليالى سراً بالعقبة حيث بايعوه بيعة العقبة الثانية ، ويحدثنا ابن إسحاق أنه قد حضرها مع النبي عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له(١) ، وهذا يدلنا على شدة الرابطة بين بنى هاشم والنبي بالرغم من عدم دخولهم فى الإسلام ، هذه الرابطة التى ظلت بعد ذلك قوية وكان لها أثر واضح حين هاجر النبي ووقع الصراع بين مكة والمدينة ، ومن أجل ذلك أطلع النبي العباس على الأمر ، ومن أجل ذلك حضر العباس ليلة العقبة ليستوثق لابن أخيه .

وعند العقبة استوثق الطرفان كل لنفسه ، فأما النبي فقد طلب أن يبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وأما أهل يثرب ، فقد سألوه أتراه تاركهم وراجع إلى قومه إن هم فعلوا وأظهره الله ، فطمأنهم بأن ذكر صيغة العهد الذى كانت تقولها العرب عند الحلف والجوار «بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم(٢)» . فلما تمت البيعة طلب النبي إليهم أن يخرجوا له من بينهم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم كفلاء ، وهو كفيل على قومه ، فأخرجوا له تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس(٣) .

وتسمى هذه البيعة «بيعة العقبة الثانية» أو «بيعة العقبة الكبرى» أو «بيعة الحرب» . وهذه البيعة حددت الوضع القانونى للنبي بين أهل يثرب ، فهى قد اعتبرت النبي واحداً من أهل يثرب دمه كدمهم وحكمه

---

(١) نفسه ٢/٤٩ . (٢) ابن هشام ٢ / ٥٠ .

(٣) نفسه ٢/٥١ - ٥٥ .

كحكمهم ، وقضت ضمنا بخروجه من عداد أهل مكة ، فانتقلت بذلك تبعية النبي من مكة إلى يثرب ، وهذا نوع من تغيير الجنسية فى تعبيرنا الحديث ، ولهذا أخفى المسلمون أمر هذه البيعة وأمر هذا الشرط بخاصة عن قريش لأن الفترة الواقعة بين هذه البيعة وبين وصول النبى إلى يثرب فترة ؛ لا يستطيع فيها اليثربيون أن يحموا النبي لأنه بعيد عنهم ، وقد اشترطوا فعلا أن تبدأ حمايتهم له بعد وصوله إلى يثرب لا قبل ذلك . وكان فى استطاعة أهل مكة بعد أن نبذهم النبي وخرج من عدادهم أن ينالوه بأى أذى ، لأنه خرج عليهم ولأنه أصبح بذلك محروما من كل حماية قبلية .

وكان لقريش عيون أخبروها خبر البيعة ، ولكن أهل يثرب ممن كانوا فى موسم الحج ولم يعرفوا خبر العقبة ، أكدوا لقريش عدم حدوث مثل هذا الأمر حين جاءت تستوثق مما بلغها ، وبذلك استطاع المسلمون من أهل يثرب أن يعودوا إلى بلدهم آمنين ، إلا أحد النقباء وهو سعد بن عبادة الخزرجى لحقته قريش ؛ فقبضت عليه وكادت تبطش به لولا أن أجاره بعض أهل مكة ممن كان يجير لهم تجاراتهم فى بلده .

ثم تسلل المسلمون من مكة أفرادا وجماعات مهاجرين إلى يثرب ، يستخفى بهجرته من يخشى على نفسه ، ويستعلن بها من يجد فى نفسه القدرة على التحدى ، وحاولت قريش أن ترد من استطاعت رده إلى مكة لتفتنه عن دينه أو لتعذبه وتنكل به ، وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه إن كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير

معه ، وأنها كانت تحبس من لم يطعها وتستطيع حبسه ، لكنها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهلية بين مختلف بطونها إن هى همت بقتل واحد من هذه البطون ، وإن كان بعض الموالى لقى حتفه فى هذا السبيل . لكن الهجرة مع ذلك تمت وهاجر معظم المسلمين إلا من قدرت عليه قريش(١) ، وبقى النبى لا يدرى أحد أيبقى هو كما حدث فى الهجرة إلى الحبشة ، أم يهاجر فى هذه المرة مثل أصحابه . وهذا الاحتمال الأخير هو الذى أخاف قريشاً ؛ فإنه يستطيع من مهاجره الجديد أن ينظم جماعته ، أو ينظم يثرب التى فشا فيها الإسلام بصورة تنبىء عن أنها ستكون مدينة إسلامية بعد وقت وجيز ، ولو تم ذلك لهددت مكانة قريش الأدبية والدينية ، لقيام هذا الدين الجديد الذى يسعى لتحطيم الوثنية فى بلاد العرب ، ويقضى بذلك على زعامة قريش الروحية ولهددت تجارة مكة تهديداً خطيراً لو وقف منها محمد موقف العداء والمخاصمة ، وهو لابد واقف هذا الموقف إن عاجلا أو آجلا ، لما ألحقته به وبأصحابه من أذى ، ولأنه يسعى لإقرار مبادىء جديدة لا بد لاقرارها من تشكيل جماعى وسياسى جديد ، ولا بد أن نمى إليهم أنه يستعد للخروج ، إذ كيف يخفى على أهل مكة ذلك مع أن أهل يثرب كانوا يتوقعونه وكانوا — كما تحدث الروايات — يخرجون إلى ظاهر المدينة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس .

لذلك مشى رجال قريش إلى بعضهم ، وعقدوا اجتماعا عاما فى دار الندوة تداولوا فيه الأمر واستعرضوا كافة احتمالات الموقف ، ثم قر رأيهم على ضرورة التخلص من محمد شخصيا بالقتل ، على أن يكون

---

(١) ابن هشام — ٢ — ٢٦ — ٥٩

قتلا جماعياً يشترك فيه كل بطن من بطون القبيلة بفتى يضربه مع الآخرين ؛ حتى يتفرق دمه وتعجز عشيرته عن حرب كل البطون فترضى بالدية (١) وتتخلص قريش من محمد وتنجو مكة من الحرب الأهلية ؛ ويعود إليها كل أبنائها المهاجرين وتعود لها وحدتها كما كانت، ثم تسير فى تأكيد سيادتها وتحقيق مصالحها(٢) .

لكن النبي خرج من مكة قبل أن تستطيع القبيلة أن تحكم استعدادها ، وأن تناله بما تريد ، واستطاع بمهارة أن يفلت من مطاردة القوم ، وكان موفقاً فى خروجه توفيقاً كبيراً كانت عناية الله فيه من غير شك ، فإن قريشا لم تترك وجهاً ولا مظنة اختباء إلا بحثت فيه ، ولكنه نجا وهو منها قريب وإلى ذلك يشير القرآن الكريم «إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فقد نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَه الذين كفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا»(٣) .

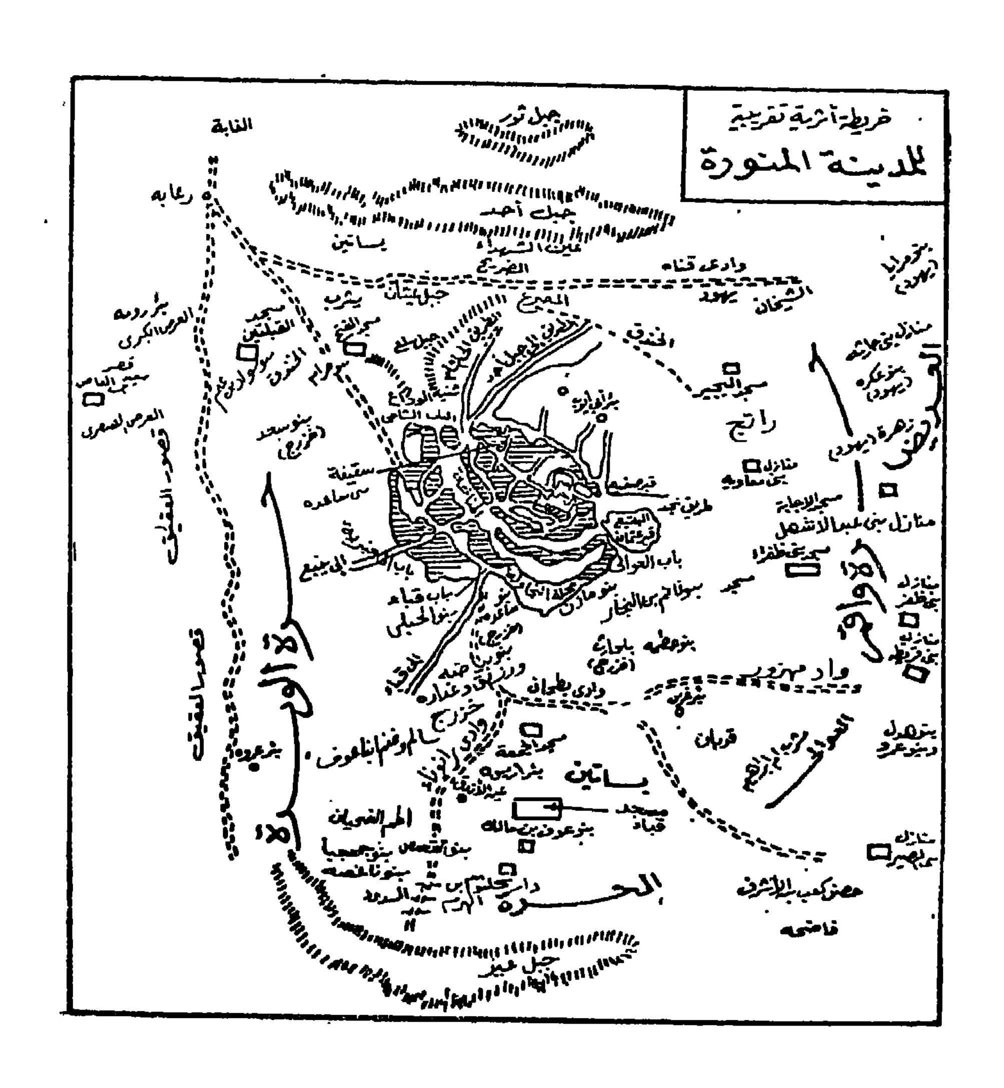
وكان هذا هو الهجرة ، وقد نزل القرآن بهذه المناسبة ، ففرض على الناس أن يقاوموا الباطل بكل قوة ، فإن لم يجدوا مخرجا فإنه يجب عليهم أن يهاجروا ، وعليهم أن يتبعوا مثل النبي «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الملاَئكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعةً فَتُهَاجِرُوا فِيها»(٤) «وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كثيراً وَسَعَةً» فالهجرة بهذا أصبحت سنة إسلامية ، وكان الناس يتداعون إلى الهجرة أيام النبي وبعده . وكان من نتيجة هجرة النبي أن تكونت الدولة الإسلامية الأولى فى يثرب ،

---

(١) ابن هشام ٢/١٠٩ .
(٢) نفسه ٢/٩٣ - ٩٥ .
(٣) ابن هشام ٢/٩٧ ، سورة التوبة ٤٠ .
(٤) النساء ٩٧ .

وقد جعل النبى الهجرة أساسا لنيل حق الرعوية لهذه الدولة اليثربية ، واستمر هذا الشرط إلى فتح مكة سنة ٨ هـ حتى انتهى شرط الهجرة وبقيت اختيارية ، وهذا الشرط مذكور فى آية قرآنية «والذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ ولايَتِهِمْ من شَىء حَتى يُهَاجِروا :..» وبالهجرة بدأ دور جديد فى تاريخ الدعوة الإسلامية عرف بالدور المدنى ، اختلف فى ظروفه وآثاره عن الدور المكى .

* * *



خريطة أثرية تقريبية
للمدينة المنورة
جبل ثور
الغابة
رغابة
جبل أحد
بساتين
وادي قناة
الخندق
راتج
مسجد قباء
مسجد الجمعة
جبل عير
الحرة

الباب الثالث

مدينة يثرب

الفصل الأول

نشأة يثرب

على بعد حوالى ثلاثمائة ميل فى شمال مكة تقع يثرب : وهى واحة خصيبة التربة غزيرة المياه محصورة بين لابتين بركانيتين تعرفان بالحرتين ، حرة واقم فى الشرق ، وحرة الوبرة فى الغرب . وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق ومن الغرب ، وتحيط بالمدينة من جهاتها الأربع . ويقع جبل عير فى الجنوب الغربى من يثرب(١) . والقادم من مكة إلى يثرب (فى زمن الهجرة النبوية) كان يمكنه إذا قام بأعلى جبل عير أن يحدد صورة مكتملة لمنطقة يثرب ، فوادى العقيق إلى يساره ممتد غربى المدينة فيما وراء حرة الوبرة إلى ما بعد بئر رومة فى شمالها الغربى . والعُريض وعوالى المدينة إلى يمينه من شرق حرة واقم . وهناك من أقصى الشمال يقوم جبل أُحد ثم جبل سلع . وتقع قرية قباء فى جنوب المدينة على ميلين منها(٢) . وبين قباء والمدينة يسير وادى بطحان ووادى رانوناء حيث يتجهان شمالا فيما بين حرة الوبرة والمدينة . فيتصلان بوادى قناة وهو واد يقع فى جنوب أُحد ، وينحدر غربا بينه وبين جبل سلع حتى يتصل بوادى بطحان ، وتلتقى هذه الوديان عند

---

(١) ياقوت ١٤/١٧٢ .

(٢) نفسه ١٨/ ٨٢ ، الاصطخرى ٢٣ ، البتنونى ٢٥٦ (يقول البتنونى إن قباء على خمسة كيلو مترات من المدينة) .

مجتمع الأسيال من رومة ، كما يوجد وادى مذينب ووادى مهزور فى الجنوب الشرقى من المدينة ، ويحصران بينهما عوالى المدينة التى كانت زاهرة عامرة وتبدو أودية المدينة منحدرة من الجنوب إلى الشمال ، تسير فى انحدارها مياه الأمطار فتجعل منها جنات ذات زرع زاهى الخضرة وبساتين تنبت أشجار الفاكهة والنخيل .

والمنطقة بين قباء والمدينة من أخصب مناطقها ، بل لعلها أخصبها وهى التى تثمر جُل فاكهتها وخضرها ، ومن ثم كانت منتزه أهل يثرب ومصحتها فى مختلف العصور ، يخرج إليها الناس للتريض ، ويقيم بها الناقهون استعادة للنشاط والقوة .

وحرة واقم التى تحد المدينة من الشرق كانت أكثر عمرانا من الوبرة . وحين هاجر النبى إلى يثرب سنة ٦٢٢ م كانت حرة واقم مسكونة بأهم قبائل اليهود من بنى النضير وقريظة ، وعدد من عشائر اليهود الأخرى ، كما كانت تسكنها أهم البطون الأوسية : بنو عبد الأشهل . وبنو ظفر ، وبنو حارثة وبنو معاوية ، وفى منازل بنى عبد الأشهل كان يقوم حصنهم واقم الذى سميت الحرة باسمه . وقد ترك أصحاب هذه المنازل من اليهود والأوس آثاراً فى الحرة تدل على حضارة ونظام ، تركوا بها آثار مصانع وصهاريج مياه لم يبق منها إلى أطلال دوارس (١) . ولا عجب ، فقد كانت هذه الحرة ميدان حرب منذ استقر الإسلام بالمدينة ، فقد حاصر النبى اليهود من بنى النضير حتى أجلاهم ، ثم حاصر بنى قريظة حتى قضى عليهم ، وبها وقعت موقعة الحرة فى عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ .

---

(١) هيكل : فى منزل الوحى ص ٥٧٧ .

وحرة الوبرة التى تحد المدينة من الغرب ، تبدأ قبالة قباء من الجنوب عند ذى الحُلَيْفَة ميقات الإحرام لأهل يثرب وأول الطريق إلى مكة . وبأقصى حرة الوبرة من ناحية الشمال بمجتمع أسيال المدينة تقع بئر رومة ، وكانت مملوكة لرجل يهودى كان يبيع ماءها للمسلمين فاشتراها منه عثمان بن عفان استجابة لرغبة النبى ودفع ثمنها عشرين ألف درهم(١) .

وتفصل حرة الوبرة بين المدينة ووادى العقيق ، وقد كان لهذا الوادى فى أنباء التاريخ من الذكر ما جعله وادى النعمة وخفض العيش والترف ، حتى إنه إذا ما ذكر العقيق من أودية المدينة نسى الناس كل واد للعقيق سواه ، مع أنه توجد أودية كثيرة بهذا الاسم فى جزيرة العرب . ولقد كان هذا الوادى الخصيب الدافق بجداول المياه وبالعيون والآبار ، خالياً من البناء لما قدم النبى إلى يثرب ، وعلى شفير العقيق الغربى تقوم جماوات العقيق ، وهى مرتفعات سود كبار دون الجبال وفوق الهضاب . وأقرب هذه الجماوات إلى المدينة جماء تضارع القريبة من بئر عروة ، وتجاورها وتكاد تتصل بها من ناحية الشمال جماء أم خالد ، وتبعد عن هذه إلى الشمال جماء عاقل .

وفى شمال المدينة جبل أحد . يفصل بينها وبينه وادى قناة . وفى جنوب هذا الوادى إلى الشمال الغربى من المدينة يقع جبل سلع ، وبه النتوء الذى يعرف بجبل عين ، وعليه كان موقف الرماة من المسلمين يوم أحد (٢) .

---

(١) أسد الغابة ٣/٢٨٠ ، البتنونى ٢٥٧ ، هيكل : نفسه ٥٧٩ .

(٢) عن وصف المدينة انظر : ياقوت ١٧/٨٢ – ٨٨ السمهودى : وفاء الوفا ١/١٠٢ – ١٥٢ ، البتنونى ٢٥٢ – ٢٥٩ هيكل : فى منزل الوحى ٥٧١ – ٥٨١ .

وتاريخ يثرب القديم مجهول ، فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها ، وكذلك لم تقم بها أبحاث أثرية يمكن الاستفادة منها ، وقد أشار صاحب كتاب «آثار المدينة المنورة» إلى حدوث حفريات جرت بغير قصد البحث العلمى ، كشفت عن بعض أشياء يمكن أن يستدل منها على أن المدينة الحالية قائمة على أنقاض مدينة أخرى(١) . لكن الاهتمام العلمى لم يأخذ طريقه حتى الآن إلى مدينة الرسول . ولعله يأخذ طريقه إليها فيكشف لنا شيئاً يمكن الاعتماد عليه فى كتابة تاريخها القديم ، وكل ما لدينا من أخبار تاريخ يثرب القديم عبارة عن روايات ذكرها الأخباريون لا يمكن الاعتماد عليها اعتمادا قاطعا لأنها لا تستند إلى دليل .

ومن المؤكد أن هذه الواحة الخصيبة والتى تقع على طريق التجارة بين اليمن والشام ، لابد أن تكون قد سكنتها القبائل منذ زمن بعيد ، إذ لا يعقل أن لا يجذب خصب هذه البقعة وكثرة المياه بها الناس إلى انتجاعها والإقامة فيها ، وورود اسم يثرب فى الكتابات المعينية يدل على قدمها(٣) ، وعلى أن المعينيين استعمروها ، فقد كانت لهم مستعمرات على طول الطريق التجارى حتى تخوم الشام ، فليس من المحتمل أن يكونوا تجاوزوا يثرب دون أن ينتفعوا بموقعها وخصب أرضها وكثرة مياهها فى اتخاذها مستعمرة لهم ومحطة لتجارتهم ، وبخاصة أن مستعمراتهم متصلة إلى شمالها على طول طريق وادى القرى .

وإذا كان اسم يثرب قد ورد فى الكتابات المعينية القديمة فلابد أنها

---

(١) هيكل : فى منزل الوحى ٥١٢ – ٥١٤ عبد القدوس الأنصارى : آثار المدينة المنورة ١٢٢ – ١٢٤ .

(٢) جواد على ٣/٣٩٥ .

كانت من المواضع التى سكنتها جاليات من معين ، ثم صارت إلى السبئيين بعد زوال مملكة معين . وقد ذكرها بطليموس فى جغرافيته باسم «Lathrippc» «Lathripf» (١) وهى أيضاً « Lathrippa polis » التى ذكرها اصطيفانوس البيزنطى(٢) وعرفت كذلك باسم «المدينة» من كلمة «مدينتا Medinta » التى تعنى «الحمى» أى «مدينة» على رأى المستشرقين الذين يرون أن اليهود المتأثرين بالثقافة الأرامية أو بعض المتهودة من بنى إرم الذين نزلوا يثرب هم الذين دعوها («مدينتا» ومنها جاءت المدينة . أما كلمة «مدينة» على أنها اختصار من مدينة الرسول فيرون أنه رأى متأخر قال به العلماء(٣) .

ويسوق صاحب «الرحلة الحجازية» رأيا آخر يعتمد فيه على الروايات التى تقول بأن موسى حين خرج ببنى إسرائيل من مصر ، أرسل فرقة من جيشه لقتال العماليق ، وأن هؤلاء الجنود أقاموا بيثرب بعد أن قضوا على أعدائهم ، وأنهم أطلقوا اسم يثرب على المدينة تحريفاً لها من الكلمة المصرية «أوسربيس» ، كما أن اسم «طيبة» الذى استعمل اسما للمدينة مأخوذ عن «طيبة المصرية(٤) . وللأخباريين – كعادتهم – آراء فى الاسم : قالوا إنها سميت «يثرب» نسبة إلى «يثرب بن قاين ابن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وكان أول من نزلها فسميت باسمه(٥) . وقالوا : بل قيل لها «يثرب» من «التثريب» . وزعموا أن الرسول لما نزلها كره أن يدعوها يثرب

---

(١) F.olemy, VI 7 31 .   (٢) جواد على ٣/٣٩٥ ، ٤/٢٨١ .

(٣) Oloary, p. 173 جواد على ٤/١٨١ .

(٤) البتنونى ٢٥٢ – ٢٥٣ .

(٥) المسعودى : مروج ٢/١٤٨ ، ابن خلدون ٢/٢٨٦ ، السمهودى ١/١٠٩– ١١٠

كراهية للتثريب ، فدعاها «طيبة» و «طابة»(١) وذكروا لها تسعة وعشرين اسما(٢) . غير أن هذه الأسماء التى أطلقوها على المدينة صفات أطلقها المتأخرون عليها بعد الهجرة النبوية ، وبعد أن أصبحت عاصمة للدولة الإسلامية العربية .

والاسم الذى كان متداولا قبل الهجرة هو اسم «يثرب» ، وقد ورد فى القرآن الكريم(٣) . على أنه كان هناك حى من أحياء المدينة يسمى يثرب يقع فى الجنوب الغربى من أحد بين سلع ووادى قناة ، ويقال إن هذه المنطقة هى التى كانت عامرة بالناس قبل مجىء اليهود إلى المدينة ، ولعل اسم «يثرب» أخذ من اسم هذه المنطقة من المدينة ، كما يطلق اسم القاهرة الآن على كل مدينة القاهرة مع أن القاهرة القديمة لا تشمل كل المدينة ، كما ورد اسم «المدينة» كذلك فى مناسبات عدة فى القرآن توحى بأن اسم «المدينة» هو التسمية الإسلامية لها بعد الهجرة(٤) . وقد طغت هذه التسمية على الأسماء كلها ، وأصبحت «يثرب» تدعى «مدينة الرسول» أو «المدينة» أو «المدينة المنورة» وهذا الاسم الأخير هو المستعمل اليوم .

وتاريخ المدينة الذى يمكن الاعتماد عليه هو تاريخها منذ القرن الذى سبق الهجرة النبوية أى منذ بداية القرن السادس الميلادى ، إذ أن هذه الفترة ليست بعيدة بحوادثها وآثارها عن الهجرة وما ترتب عليها من أحداث كبيرة غيرت مجرى التاريخ العربى ، بل مجرى التاريخ العام .

---

(١) السهيلى ٢ / ١٦ .　　(٢) ياقوت ٨٢/١٧ .

(٣) « . . . يا أهل يثرب لا مقام لكم . . . . » الأحزاب ١٣ .

(٤) المنافقون ٨ ، السهيلى ١٦/٢ .

سكان المدينة

كانت يثرب عند الهجرة النبوية منقسمة إلى عدة دوائر تسكنها بطون عربية ويهودية ، وكل دائرة تابعة لبطن من البطون . وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين : يشتمل القسم الأول على الأراضى الزراعية بمنازلها وسكانها ويشتمل القسم الثانى على الأطم أو الآطام(١) ، وكان البطن يملك أطماً أو أكثر ، وهذه الأطام كانت ملكاً خاصاً بالأسر العريقة ، ورئيس الأسرة هو صاحب السلطان فى الأطم كما كان يعتبر زعيما من زعماء البطون(٢) . وكانت الآطام عظيمة الأهمية فى يثرب ، يفزع إليها أفراد البطن عند هجوم العدو(٣) . ويأوى إليها النساء والأطفال والعجزة حين يخرج الرجال للقتال(٤) وكانت الآطام تستعمل كمخازن تجمع فيها الغلال والثمار ، لأنها كانت معرضة فى أماكنها المكشوفة للنهب والسلب . وفى الأطم يخزن السلاح وتكنز الأموال(٥) . وفى كل أطم كان يوجد بئر أو أكثر يستقى منه أهله إذا هاجمهم عدو واضطروا إلى الاحتماء بالأطم(٦) . كما كانت أطم اليهود تشتمل على المعابد وبيوت المدارس يجتمع فيها الزعماء للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة حين يهمون بإبرام العقود والاتفاقات(٧)

---

(١) الأطم : اسم مأخوذ من التطم إذا ارتفع وعلا (السهيل ٢/٥٢) أطلق اليهود على الحصن اسم الأطم لأنه كان فى إمكانهم أن يغلقوا أبوابه وأنه كانت له نوافذ تقفل من الخارج وتفتح من الداخل (ولفنسون ١١٣) .

(٢) انظر السمهودى ١/١٢٤ – ١٥٢ .

(٣) ابن هشام ٢/١٩٢ .

(٤) ابن هشام ٣/٢٢٥ ، ٢٤٦ .

(٥) نفسه ٣٨١ – ٣٨٩ .

(٦) ابن هشام ٣/٢٣٥ ، الاغانى ١٩/٩٩ (طبعة مطبعة التقدم بمصر) .

(٧) ابن هشام (هامش الروض) ٢/٣٨ ، ٤٠ ، ولفنسون ١١٦ – ١١٧ .

على أنه قد وجدت فى يثرب بطون لم تكن تملك الآطام ، فكانت هذه البطون لذلك تقيم فى الأحياء ، حيث تحمى البطون الكبيرة مواليها من غارات البطون الأخرى ، وكانت الأحياء متضامنة متلاصقا بعضها ببعض ، وإن كان كل حى يهتم بشئونه الخاصة .

ومن هذه الأحياء وتلك الدوائر المحصنة كانت تتكون مدينة يثرب ، فهى فى الحقيقة مجموعة من القرى تقاربت وتجمعت فتكونت منها المدينة ، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك(١) .

اليهود

كان اليهود جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع ، منتشرة فى أماكن كثيرة من منطقة يثرب ، والطريق المؤدية إلى الشام . وكانت كتل اليهود الكبرى -على ما يبدو- تتركز فى يثرب بالذات حيث كانت فيها ثلاث قبائل ربما بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين ، وهى قينقاع ، والنضير ، وقريظة(٢) وإلى جانبها كانت توجد بطون وعشائر يهودية متفرقة ، ذكر السمهودى أنها كانت أكثر من عشرين بطنا ، منها بنو القصيص ، وبنو ناغصة ، وبنو مريد وبنو معاوية ، وبنو ماسكة ، وبنو محمم (محمر) وبنو زعورا ، وبنو زيد اللات ، وبنو حجر ، وبنو ثعلبة ، وبنو الشطيبة ، وبنو عكرمة ، وبنو مراية ،

---

(١) سورة الحشر ٧ « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى . . . » : آية ١٤ « لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر . . . » .

(٢) كان رجال قينقاع المحاربون سبعمائة ، كما كان رجال النضير فى نحو هذا العدد عند جلائهم عن المدينة ، وكان الرجال البالغون من قريظة عند قتلهم بعد الاحزاب ما بين السبعمائة والتسعمائة : ابن هشام ٢/٤٢٨ ، ٢٥٩ .

وبنو عوف ، وبنو عدل (بهدل)(١) . هذا إلى أعداد أخرى من اليهود سكنوا فى جهات مختلفة من يثرب .

وقد عاشت قبائل اليهود الثلاثة الكبرى فى مساكنها عيشة التكتل والأحياء الخاصة ، بينما عاشت البطون الصغيرة منتشرة إلى جوارهم أو إلى جوار البطون العربية فى يثرب . وقد ابتنى اليهود الحصون والقلاع والقرى المحصنة ، وكانت من القوة والمناعة بحيث ظنوا أنها مانعتهم ممن يريدهم ؛ وبحيث ظن العرب ذلك . ومما لا ريب فيه أن هذه الحصون والقلاع والقرى كانت وسيلة لتوطيد مركز اليهود وإقراراً لهيبتهم فى نفوس العرب : كما كانت دليلا على ما كانوا عليه من قوة ، وقد ذكر السمهودى أن آطام اليهود فى يثرب كانت تسعة وخمسين أطما(٢) .

وقد سكن اليهود الجهات الخصيبة الغنية فى منطقة يثرب ، فقد أقام بنو النضير بالعوالى فى الجنوب الشرقى للمدينة على وادى مذينب ، وأقام بنو قريظة إلى شمالهم على وادى مهزور : أما بنو قينقاع فقد أقاموا عند منتهى جسر وادى بطحان مما يلى العالية وكان لهم هناك سوق من أسواق المدينة عرفت بهم . أما بقية بطون اليهود فكانت منتشرة فى أماكن أخرى متعددة من المناطق الغنية فى يثرب ، فبنو هدل وبنو عوف كانوا إلى جوار قريظة . ونزل بنو القصيص وبنو ناغصة بقباء ، وكان بنو مريد وبنو معاوية وبنو ماسكة فى شمال وادى مهزور ، وبنو زعورا فى منطقة العوالى عند المكان المعروف بمشربة أم إبراهيم ، وكان بنو عكرمة (عكوة) وبنو مراية على طرف حرة واقم من ناحية الشمال

---

(١) السمهودى : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ١/١١٢ وما بعدها ، ولفنسون ١٤

(٢) السمهودى ١/١١٦ .

فى يمانى وشمالى منازل بنى حارثة الأوسيين ، بينما كان بنو ثعلبة وجماعات غيرهم من اليهود بقرية زهرة بناحية العريض وكانت من أعظم قرى المدينة ، كما كان يعيش فى شمال المدينة بقرب أحد جماعات من اليهود (١). وهكذا كان اليهود يعيشون فى أخصب مناطق يثرب وأغناها .

ويختلف المؤرخون فى جنسية يهود يثرب ، أهم عرب تهودوا ، أم هم إسرائيليون نزحوا إلى الأقاليم العربية . وعلى الرأى الأول المؤرخ اليعقوبى الذى يرى أن بنى النضير وبنى قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية ، تهودوا وسموا باسم المكان الذى نزلوا فيه ، فبنو النضير «فخذ من جذام ، إلا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به(٢) . وبنو قريظة «فخذ من جذام إخوة النضير (ويقال) إن تهودهم كان فى أيام السموءل ، ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة ، فنسبوا إليه »(٣) . وعلى الرأى الثانى عامة المؤرخين العرب . ومن جهة أخرى تجتهد طائفة أخرى من المؤرخين الإفرنج فى أن تجد لبعض أسماء القبائل اليهودية اشتقاقاً عبرياً (٤) .

على أن الاستدلال ببحث لغوى على جنسية اليهود بما توحى إليه الأسماء التى يحملها اليهود قبائل وأفراداً لا يمكن أن يعتد به أو يعتمد عليه سواء أكانت هذه الأسماء عربية أو عبرية . فمن الحق أن بعض أسماء القبائل اليهودية فى بلاد العرب عربية محضة كما يقول اليعقوبى ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس ، إذ يمكن أن تكون جموع اليهود التى هاجرت إلى بلاد العرب قد اتخذت أسماء الأمكنة التى بها

(١) السمهودى ١/١١٢ — ١١٦ .
(٢) اليعقوبى ٢/٣٦ .
(٣) نفسه ص ٣٩ .
(٤) ولفنسون ١٥ .

أسماء لها ، بل الواقع أن اليهود كانوا قد تركوا منذ أمد طويل الانتساب إلى قبائلهم وأصبحوا يعرفون بأسماء المدن والقرى والأقاليم التى جاءوا منها ، فكان يقال فلان الأرشليمى أو فلان الحبرونى وهكذا (١) .

ثم إن الأفراد الذين تسموا بأسماء عربية كانت أسماء آبائهم عبرانية مثل : عبد الله بن صوريا ، وكنانة بن صورياء ، ووهب بن يهوذا ، وزيد بن اللصيت ، ونعمان بن آضا ، وثعلبة بن شعيا ، والزبير ابن باطا ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وسلسلة بن برهام ، وهناك أسماء عبرية قرنت بآباء اسماؤهم عربية مثل شمويل بن زيد ، والنحام ابن زيد ، وكروم بن قيس . على أن هناك أسماء عبرية محضة مثل عزال بن شمويل . وهكذا(٢) .

ويشير إسرائيل ولفنسون إلى آثار اللغة العبرية الظاهرة فى أسماء الأماكن التى نزلها اليهود فى الحجاز ، فيقول «فمع أن أسماء البلدان والأماكن التى سكنها اليهود فى الحجاز ، كانت عربية ، فقد وجد لبعضها اتصال باللغة العبرية مثل : وادى «بطحان» فإن معناه بالعبرية «الاعتماد» ووادى «مهزور» أو «محزور» معناه «مجرى الماء» ، وقال السمهودى : سمران جبل بخيبر صلى النبى على رأسه ، والعامة تسميه مسمران ، وضبطه بعضهم بالشين المعجمة . فإذا علمنا أن بفلسطين جبلا يسمى شمران ، أمكننا أن نستنتج أن شمران هذا إنما هو لفظ عبرى أطلقه اليهود على ذلك الجبل بعد نزولهم عنده . ثم بئر أريس نسبة إلى رجل يهودى اسمه أريس بلغة أهل الشام ولكننا نعتقد أن هذا

---

(١) ولفنسون ١٥ .

(٢) ابن هشام ٢/١٣٦ - ١٣٨ ، تفسير الطبرى ١٠/٣٠٣ .

الإسم فى الأصل غير سلم ، بل هو نكرة يطلق فى اللغة العبرية والآرامية على الفلاح الحارث . وبئر روما اشتراها عثمان من يهودى ومعناها «البئر العالية(١)» .

ولكى نعرف جنسية اليهود فى بلاد العرب فإنه من الأفضل أن ننظر فى الأخلاق والتقاليد واتجاه الأفكار والأعمال . ومن هذا السبيل نستطيع أن نحكم بأن يهود يثرب بخاصة وشمال الحجاز بعامة أقرب إلى العنصر اليهودى منهم إلى العنصر العربى .

يحتوى القرآن الكريم معلومات وافية عن اليهود فى المدينة ومناطقها وذلك للموقف الجحودى والحجاجى الذى وقفوه من الدعوة الإسلامية وقد وجه القرآن الخطاب لليهود بتعبير «بنى إسرائيل» ونعى عليهم موقف اليهود الأقدمين مع موسى والنبيين من بعده ، وما كان منهم من إحراج وتعجيز وكفر وتكذيب وغدر ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه ، وقد جعل اليهود المعاصرين والقدماء موضع خطاب وسياق وسلسلة واحدة فى كثير من الآيات ، حيث يوجه الخطاب إلى بنى إسرائيل أو إلى اليهود بصفة المخاطب القريب ، فيقص ما كان من الأقدمين مقارناً إياه بما يقع من المعاصرين ، مما يرجع معه الصلة اللاحمة النسبية بين هؤلاء وأولئك مما جعلهم يصدرون عن جبلة واحدة وخصائص واحدة(٢) . وتوجيه الخطاب إلى يهود يثرب بتعبير «بنى إسرائيل» بهذا الإطلاق والشمول مع هذه الصلة اللاحمة التى يجعلها القرآن بين القدماء والمعاصرين منهم يجعلنا نجزم بأن

---

(١) ولفنسون ١٧ .

(٢) البقرة ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٧٢ — ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٢١١ ، النساء ١٥٣ المائدة ٧٨ — ٨١ .

اليهود فى الحجاز كانوا طارئين وأنهم إسرائيليون ، وأنهم ليسوا قبائل عربية اعتنقت اليهودية كما ذهب إليه بعض المؤرخين ، بل وليس فى الحجاز قبائل عربية يهودية الدين ، وأن العرب الذين تهودوا فى الحجاز لم يكونوا سوى أفراد ، ولم يكونوا جماعة قبلية محسوسة . هذا إلى أن اليهود أنفسهم لم يكونوا يميلون إلى نشر ديانتهم بين الأمم ، وفى ذلك يقول إسرائيل ولفنسون «ولا شك أنه كان فى مقدرة اليهودية أن تزيد فى بسط نفوذها الدينى بين العرب حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ، ولكن الذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الإسرائيلية لم تمل بوجه عام إلى إرغام الأمم على اعتناق دينها ، وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود»(١)

وقد كان اليهود يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار من بين شعوب الأرض ولا تسمح أنفسهم أن تكون هذه الميزات لشعب آخر ليس منهم(٢) .

ومما يؤيد هذا أنه كان إلى جوار اليهود بالمدينة بطون عربية صغيرة قبل مجىء الأوس والخزرج(٣) وقد بقيت هذه البطون العربية على أديان آبائها القديمة ولم تعتنق اليهودية على الرغم من أنها عاشت زمنا طويلا مع اليهود وعلى الرغم من أن اليهود كانوا أصحاب الثروة والنفوذ فى يثرب .

---

(١) ولفنسون ٧٢ .

(٢) العهد القديم : تثنية إصحاح ١٤ آية (١) وما بعدها .

(٣) من هذه البطون : بنو الحرمان حى من اليمن ، بنو مرثد حى من بلى . وبنو أنيف حى من بلى أيضاً ، بنو معاوية حى من سليم ، ثم من بنى الحارث بن بهثة . بنو الشطبة حى من غسان . انظر الاغانى ١٩/ ٩٥ (طبعة مصر) .

وعند الهجرة النبوية كان المفهوم العام عند العرب واليهود على السواء أن اليهود إسرائيليون . ويشير السهيلى إلى نقطة جديرة بالاعتبار عند مناقشته لمعنى قول النبى فى مدح مخيرق أحد بنى النضير الذى أسلم واشترك فى موقعة أحد وقتل فيها ، «مخيرق خير يهود» . قال : «ومخيرق مسلم ، ولا يجوز أن يقال فى مسلم هو خير النصارى ولا خير اليهود ؛ لأن أفعل من كذا إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه (فإن قيل) وكيف جاز هذا ؟ (قلنا) لأنه قال خير يهود ولم يقل خير اليهود ، ويهود اسم علم كثمود ؛ يقال إنهم نسبوا إلى يهوذ بن يعقوب ، ثم عربت الذال دالا ، فإذا قلت اليهود بالألف واللام احتمل وجهين : النسب . والدين الذى هو اليهودية ، أما النسب فعلى حد قولهم التيم فى التيميين ، وأما الدين فعلى حد قولك النصارى والمجوس ، أعنى أنها صفة لا أنها نسب إلى أب . وفى القرآن لفظ ثالث لا يتصور فيه إلا معنى واحد وهو الدين دون النسب ، وهو قوله سبحانه «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى» بحذف الياء ، ولم يقل كونوا يهود ، لأنه أراد التهود وهو التدين بدينهم ، ولو قال كونوا يهوداً بالتدين لجاز أيضا على أحد الوجهين المتقدمين ، ولو قيل لقوم من العرب كونوا يهود بغير تنوين لكان محالا لأن تبديل النسب حقيقة محال . وقد قيل فى هود جمع هائد وهو فى معنى ما قلناه . فلتعرف الفرق بين قولك هوداً بغير ياء ، ويهوداً بالياء والتنوين : ويهود بغير تنوين ، فإنها تفرقة حسنة صحيحة»(١) .

وإذا تتبعنا المصادر فى الأقوال التى يشار فيها إلى اليهود المعرفين بإسرائيليتهم ، وجدنا كلمة «يهود» هى الكلمة المستعملة ، مما يقطع بأن

---

(١) السهيلى ٢/٢٦ .

هذا الاصطلاح كان مفهوما بمعناه المؤدى إلى النسب سواء لدى العرب أو اليهود على السواء(١) .

هذا إلى أن النسابين العرب لم يذكروا إحدى قبائل اليهود فى المدينة أو غيرها من أقاليم الحجاز ضمن الأنساب العربية(٢) ؛ واليهود أنفسهم لم يحاولوا نسبة أنفسهم إلى قبائل العرب ، بل حرصوا على نسبة أنفسهم إلى الإسرائيليين ؛ فقد كان بنو قينقاع يدعون أنهم من ذرية يوسف الصديق(٣) ، وبنو النضير وقريظة يسمون « الكاهنين » (٤) وعلى العكس ذكر النسابون أنساب القبائل العربية المتهودة فى اليمن والقبائل المتنصرة فى الشام . وهذه القبائل المتهودة أو المتنصرة لم تحاول أن تنسب نفسها إلى الإسرائيليين أو غيرهم من الأمم الأخرى ، فقد كانت القبائل العربية شديدة المحافظة على أنسابها شديدة الأنفة من أن تدعى نفسها إلى غيرها . وتشير الآية القرآنية ٧٥ من سورة آل عمران «وَمِنْهُمْ مَن إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْس عَلَيْنَا فى الأُميين سَبِيلٌ» إلى أن اليهود كانوا يعتبرون أمما دونهم من الأمم أمما ثانوية ليس عليهم أى تبعة نحوها ، ويبيحون لأنفسهم كل شىء معها .

---

(١) على سبيل المثال انظر : ابن هشام ٢/٢٣٥ - ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ٤٢٦ أسد الغابة ١/٧٠ الطبرى ٢/٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ابن خلدون جـ ٢ الكتاب الثانى ص ٢٨ ، سيرة أعلام النبلاء ٢/٣٠٥ . جوامع السيرة ١٥٧ ، ١٩٩ وابن سعد : ١/٢٠٣ ، ٢/٦ ، ٣/٦٨ ، ٧٢ ، ٩٩ .

(٢) الاغانى ٣/١١٦ .

(٣) السمهودى ١/١١٥ .

(٤) ابن هشام ١/١٦ ، ٣/٢٦٠ ، روى ابن إسحاق حديث حيى بن أخطب حين قدم للقتل يوم قريظة « أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل » السمهودى ١/١٢٥ .

وكلمة «الأميين» فى الأصل كان يطلقها اليهود على الأمم الأخرى ، وفى الحجاز أطلقوها على العرب ، وتعنى غير الكتابيين(١) ومما يؤيد هذا أنه لم تكن لليهود فى المدينة وفى أقاليم الحجاز عصبية قبلية بين العرب ، وإنما كانت صلاتهم بالقبائل العربية صلة حلف ومصالح مشتركة ، ولذلك لم يجدوا من قبائل العرب من يقف إلى جانبهم بدافع العصبية حين حاربهم النبى وطرد بعضهم من المدينة ، وقضى على بعضهم الآخر . بل إنهم حين خرجوا من المدينة لم يلجأوا إلى قبائل العرب ينزلون عليها استناداً إلى رابطة القربى ، وإنما لجأوا إلى إخوانهم فى خيبر وتيماء ووادى القرى ، ثم رحلوا إلى الشام(٢) .

وقد ابتنى اليهود الحصون والقلاع والقرى المحصنة ليقيموا فيها ويتحصنوا بها فى أوقات الحروب حين يغزوهم الأعراب الطامعون فى أموالهم وحاصلاتهم الزراعية . ويرجح أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم التلال فى يثرب وفى شمال الجزيرة العربية إنما أتى بها اليهود من فلسطين وطنهم الذى وفدوا منه والذى كثرت فى جباله الحصون المنيعة ، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا يطمئنون كل الطمأنينة فى المجتمع العربى فعمدوا إلى اتخاذ القرى والحصون ليقوا فيها على الدفاع عن أنفسهم ، ولذلك كانوا فى سكناهم منعزلين عن العرب يعيشون مع بعضهم عيشة التكتل والأحياء الخاصة على ما جرت عليه عادتهم منذ القديم . كما يدل هذا أيضاً على أن أحداثاً خطيرة كانت تقع بين العرب واليهود من حين لآخر ، اضطرتهم إلى إقامة الحصون ثم إلى عقد المحالفات مع العرب والاندماج الظاهرى فى تقاليدهم العصبية الاجتماعية والقبلية .

---

(١) تفسير الطبرى ٢/٢٥٧ - ٢٥٩ ، ٦/٢٨١ .

(٢) الواقدى ١٤١ ، ٢٩٠ .

أما لغة اليهود فى بلاد العرب فقد كانت العربية بطبيعة الحال ، ولكنها لم تكن خالصة بل كانت تشوبها الرطانة العبرية(١) ، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركا تاما ، بل كانوا يستعملونها فى صلواتهم ودراستهم ، فكان من الضرورى أن يدخل فى عربيتهم بعض العبرية (٢) . وقد كان لهم فى المدينة كيان طائفى ودينى ، وكان لهم معابد ومدارس(٣) ، وأحبار وربانيون -وكلمة حبر عبرية الأصل معناها الرفيق ، وقد كانت فى عهد البعثة تطلق على كل متعلم من اليهود(٤)- وكان لهؤلاء الربانيين ، والأحبار احترام عظيم وأثر كبير فيهم ، وكان من أعمالهم أن يتولوا القضاء ويفصلوا للناس فيما شجر بينهم(٥) ، كما كانوا أصحاب الأمر والنهى فى الشئون الدنيوية ، كما يقول القرآن الكريم فى سورة المائدة ٦٣ «لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» .

وقد نشر اليهود عن أنفسهم -على ما يظهر- علما واسعا فى الأديان والشرائع وأخبار الأمم وسنن الكون ، وكانوا يزهون على العرب بهذا وبالدين السماوى وكانوا يفخرون ويستفتحون ، ويظهرون غروراً وخيلاء

---

(١) يقول المقريزى فى مقتل أبى رافع اليهودى « واستفتحوا على أبى رافع فقالت امرأته ما شأنكم ؟ فقال لها عبد الله بن عتيك - وكان يرطن باليهودية - جئت أبا رافع بهدية » إمتاع الاسماع ١/١٨٧ . وقد أمر رسول الله زيد بن ثابت الانصارى أن يتعلم كتاب يهود وقال « لا آمن أن يبدلوا كتابى » نفسه .

(٢) ولفنسون ٢٠ .

(٣) ابن هشام ٢/١٧٩ : ١٩٣ ، تفسير الطبرى ٢/٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ١٠/٣٠٣ ، ٣٠٦ .

(٤) ولفنسون ٧٠ - ٧١ .

(٥) « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » المائدة ٤٤ .

ويزعمون أنهم أولياء الله وأحباؤه(١) . ومع ذلك فقد كان لليهود أخلاقهم التى وصفهم القرآن بها ، وهى : الأنانية والجشع والبخل(٢) ؛ والدس والنفاق وإلقاء الشكوك فى نفوس الآخرين قصد البلبلة والتحكم(٣) ، وتبرير كل وسيلة للوصول إلى الغاية والمنفعة(٤) ، واستحلال ما فى أيدى الغير وعد أنفسهم غير مسئولين عن الأمانة لهم والوفاء بعهدهم(٥) كما كان من خلقهم اللجاج والحجاج والمكابرة ، وتلك أخلاق تجعل اللحمة متصلة بين المعاصرين منهم للرسول والقدماء فى هذا الخلق .

من كل ما سبق نستطيع الحكم بأن يهود الحجاز كانو إسرائيليين طارئين على هذه الجهات ، وإن كان ذلك لا يمنع من وجود عرب تهودوا ولكنهم كانوا قلة قليلة إلى جانب كتل اليهود الكبرى .

أما متى وفد اليهود على يثرب وكيف ، فأمر لا يمكن البث فيه برأى قاطع ، فإن : ما لدينا من معلومات هى مجموعة من روايات نقلها أصحاب الأخبار وسردتها المراجع العربية ، وهذه الروايات ترجع وصول الإسرائيليين إلى يثرب واستعمارهم لها إلى أيام النبى موسى بعد خروج بنى إسرائيل من مصر ، وخلاصتها أن المدينة كان يسكنها منذ زمن بعيد قوم من الأمم الماضية يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى

(١) البقرة ٧٩ - ٨٠، ٨٩ ، ٩١ آل عمران ٧٨ ، ١٨٨ ، النساء ٤٩ ، المائدة ١٨ الجمعة ٦ تفسير الطبرى ٢/٣٣٣ ، ابن هشام ٢/١٩٠ ، ابن كثير ١/٢٣٠ .

(٢) النساء ٥٣ - ٥٤ ، آل عمران ١٨٠ - ١٨١ .

(٣) البقرة ٧٦ ، آل عمران ٧٢ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، المائدة ٤١ .

(٤) النساء ٤٤ - ٤٦ ، ٥٠ .

(٥) البقرة ١٠٠ ، آل عمران ٧٥ ، ٧٧ .

البلاد ، وكانوا أهل غزو وبغى شديد ، وقد ملكوا الحجاز وكان ملكهم به يسمى الأرقم ، وكانوا قد ملأوا المدينة ، ولهم بها نخل كثير وزرع ، وكان موسى بن عمران قد بعث الجنود إلى الجبابرة من أهل القرى يغزونهم ، فبعث إلى العماليق جيشاً من بنى إسرائيل ، وأمرهم أن يقتلوهم جميعاً ولا يستبقوا منهم أحداً . وأن هذا الجيش بعد أن انتصر على أعدائه قتلهم جميعاً إلا ولداً للأرقم كان وضيئا فأشفقوا على شبابه ، فحملوه معهم ليرى موسى فيه رأيه . وحين عاد الجيش إلى الشام كان موسى قد مات ، وعد بنو إسرائيل إبقاء الجيش على الشاب العمليقى معصية ، ورفضوا السماح للجيش بدخول الشام ، فعاد على تعبئته إلى المدينة حيث أقام بها . وكان ذلك الجيش أول سكنى اليهود بالمدينة (١) .

ويذكر السهيلى هذه الرواية ، ويشك فى صحتها «لبعد عصر موسى عليه السلام(٢)» . كما يذكرها ابن خلدون ويضيف إليها أنه يشك فى صحتها ، لأن «اليهود لا يعرفون هذه القصة (٣)» ولكنه يحدثنا أن داود لما خرج عليه ابنه وخلع بنو إسرائيل طاعته فر إلى خيبر وأقام بها إلى أن انتصر على ابنه فعاد إلى وطنه (٤) . ومثل هذه الروايات لا يمكن الاعتماد عليها لأنها لا تستند إلى دليل ، ولأنه لا يوجد فى أسفار العهد القديم ما يؤيدها ، وفى ذلك يقول الأستاذ النجار : «إن مؤرخى العرب لم تكن لديهم كتب لمتقدميهم فى ذلك ، وهم إنما يعولون على ما رأوا فى سفر العدد من حروب بنى إسرائيل والمدينيين والأموريين

(١) الاغانى ٣/١١٦ .
(٢) السهيلى ٢/١٦ .
(٣) ابن خلدون ٢/٨٨ .
(٤) نفسه ٢/٩١ .

وغيرهم ، ويتوسعون فى ذلك إلى أرض الحجاز ، ويزيدون على ما عند الإسرائيليين بغير سلطان أتاهم »(١) .

ومن جهة أخرى تتحدث أسفار العهد القديم عن علاقات بنى إسرائيل بسكان الجزيرة العربية فتتحدث عن قوافل العرب التجارية التى كانت تأتى إلى أسواق مدن بنى إسرائيل وكنعان(٢) وتتحدث عن تجار اليهود الذين كانوا يرحلون إلى سبأ فى عهد سليمان(٣) . كما تحدثت عن حروب ملوك بنى إسرائيل وانتصاراتهم على قبائل عربية وعمالقية غزوها ، وأنهم واصلوا غزواتهم حتى وصلوا إلى الجزيرة(٤) . ومثل هذه الأخبار التى وردت فى أسفار التوراة لا تعطينا شيئاً يمكن الاعتماد عليه فى إثبات وصول جموع إسرائيلية إلى الجزيرة العربية . وكل ما يمكن أن يقال والحالة كذلك ان القدماء اعتقدوا أنه قد وجدت فى جهات يثرب وخيبر بطون إسرائيلية قبل وصول جمهوع اليهود المعروفة إلى الأصقاع العربية(٥) .

أخذت جموع كثيرة من اليهود فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد تهاجر إلى الأقاليم العربية عموماً وإلى ربوع الحجاز بنوع خاص . ويرد إسرائيل ولفنسون أسباب هذه الهجرة إلى الزيادة المطردة فى اليهود حتى

(١) ولفنسون — حاشية ص ٦ ، ٧ .

(٢) حزقيال : إصحاج ٢٧ . آية ٢١ « العرب وكل رؤساء تيدار هم تجار يديك يأتونك بالخرفان والكباش والأعتدة ، فى هذا كانوا جارك » .

(٣) الملوك الاول : إصحاج ٩ . آية ٢٦ ، وعمل الملك سليمان سفنا فى عصيون جابر التى بجانب أيلة على شاطىء بحر سوف فى الأرض أدوم . فأرسل حيرام فى السفن عبيده النواتى العارفين بالبحر مع عبيد سليمان فأتوا إلى أوفير وأخذوا من هناك ذهباً » .

(٤) صموئيل جـ ١ إصحاح ١٥ . الأيام الثانى إصحاح ٢٦ آية ٧ . « وساعده الله على الفلسطينيين وعلى العرب الساكنين فى جور بعل » .

(٥) ولفنسون ٧ .

بلغ عددهم أكثر من أربعة ملايين ، وهو عدد لا تتسع له بلاد ضيقة كفلسطين فاضطروا أن يهاجروا إلى ما حولهم من البلاد المجاورة كمصر والعراق والجزيرة العربية .

ثم حدث حوالى القرن الأول ق . م أن هاجمت الدولة الرومانية بلاد فلسطين وقوضت أركان الدولة اليهودية المستقلة فيها ، وقد استتبع ذلك ثورات متتالية من اليهود أخضعها الرومان بشدة وقسوة ، فاضطرت أعداد من اليهود إلى الهجرة إلى الجزيرة العربية التى كانت بعيدة عن متناول يد الرومان ، نظراً لطبيعتها الصحراوية التى تعوق سير القوات المنظمة وتمنع توغلها ، فضلا عن أن هذه البلاد كانت تسودها الأنظمة البدوية الحرة .

وبعد حروب اليهود والرومان (٧٠ ب.م) التى انتهت بتدمير بيت المقدس وتشتت اليهود فى أصقاع العالم قصدت جموع يهودية كبيرة بلاد العرب للمزايا السابقة .

وتؤيد المصادر العربية كل هذا فتذكر أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعاً بالشام فوطئوهم ونكحوا نساءهم ، خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو هدل (بهدل) هاربين إلى من بالحجاز من بنى إسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام ، فلما فصلوا عنهم بأهليهم اتبعهم الروم فأعجزوهم وهلك جند الروم فى المفاوز والصحارى الخالية من الماء(١) ، وهذه الروايات مأخوذة عن يهود المدينة أنفسهم كما حكى ياقوت(٢) . ثم أخذت جموع اليهود فى الجزيرة العربية تزداد وتكثر

---

(١) الأغانى ١٩ /٩٥ (طبعة مصر) ، السمهودى ٢/ ١١٢ ، الطبرى ١/ ٣٨٤ .

(٢) ياقوت ١٧ /٨٤ .

بعد اضطهاد الرومان لهم . ثم قصد بنو النضير وقريظة منطقة يثرب ، وارتادوا حتى تخيروا أخصب بقاعها فسكنوها .

أفكانت يثرب وخيبر ووادى القرى خالية من السكان حين نزلها اليهود بحيث استعمروها بسهولة دون أن يجدوا من ينازعهم ، أم أنها كانت مأهولة ببطون عربية نازعت اليهود ثم غلبت على أمرها ؟ لا تعطينا المصادر شيئاً نعتمد عليه فى هذا الموضوع . ويقول مؤرخ اليهود ولفنسون إن هذه المناطق كانت غير آهلة بكثير من العرب ، وإن جموع الأعراب كانت تنتجعها ثم ترحل عنها(١) . ولكنا لا نستطيع الموافقة على هذا القول . فهذه المناطق بطبيعتها أماكن استقرار دائم عامرة بالقرى ، وكانت بها محطات تجارية منذ أيام المعينيين ، ثم إنها مناطق خصبة كثيرة الوديان التى تسيل بالمياه وتكثر فيها الآبار والعيون ، ولا يعقل ألا يجذب خصبها السكان إليها والإقامة بها .

وقد ذكرت المصادر أنه كان مع اليهود بالمدينة بطون عربية من اليمن ومن بلى ومن سليم ومن غسان ، ثم إن قبائل عربية كبيرة كانت تعيش بجوار هذه الأماكن الخصيبة ، حالفها اليهود واتخذوا منها حماة تدافع عنهم كحلف يهود خيبر مع غطفان . ولا تذكر المصادر شيئاً عن الصراع الذى حدث بين اليهود وبين القبائل العربية وهي بذلك تسكت عن تاريخ اليهود جملة ولا نراها تتعرض لشىء من تاريخهم إلا ما كان منه مرتبطاً بالأحداث التى اتصلت بالمسلمين ، والأمر من ذلك معلوم وهو أن هذه المصادر أهملت تاريخ اليهود نظراً لموقفهم العدائى من الدعوة الإسلامية ، وقد كرههم العرب فاغفلوا الحديث عنهم إلا من هو متصل بموقفهم العدائى هذا .

(١) ولفنسون ١٢ .

ولكنا نستنتج من كثرة الحصون والآطام التى أقامها اليهود للاحتماء بها أنهم لم يكونوا مطمئنين إلى مقامهم ، وأنهم كانوا يخشون هجوم القبائل عليهم ، الأمر الذى يجعلنا نشك فى أن استعمار اليهود كان هينا سهلا ، كما نشك فى حدوث هجرات يهودية كبيرة دفعة واحدة ، ونرجح أن هجرات اليهود كانت بأعداد قليلة متتابعة ، وأن عددهم ظل يكثر شيئا فشيئا حتى غلبوا على هذه المناطق .

العرب

كان العرب فى وقت الهجرة النبوية أصحاب الكلمة العليا فى يثرب وبيدهم كان توجيه الأمور بها ، وجموع العرب بالمدينة – ما عدا بعض العشائر الصغيرة – تنتسب إلى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج . ويقول أصحاب الأنساب إن الأوس والخزرج أخوان ، فهما أبناء ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . فهم بذلك أحد فروع الأزد اليمنية (١) : وأمهما «قيلة» بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة ابن عمرو مزيقياء . ولذلك عرفوا ببني قيلة نسبة إلى أمهم الى تنتسب إلى الغساسنة ملوك عرب الشام (٢) .

وكانت كل قبيلة من القبيلتين تنقسم إلى خمسة أبطن كبرى ، انقسمت بدورها إلى بطون أصغر منها وإلى عشائر ، حتى بلغت البطون المعروفة من القبيلتين أكثر من أربعين بطنا ، عدا من كان يعايشها من عشائر عربية أخرى اتصلت بها برابطة الولاء . وقد سكنت بطون الأوس

---

(١) جمهرة أنساب العرب ٣١٢ .

(٢) نفسه ٣٥١ .

المنطقة الجنوبية والشرقية وهى منطقة العوالى من يثرب ، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى والشمالية وهى سافلة المدينة وليس وراءهم شىء فى الغرب إلا خلاء حرة الوبرة .

الأوس :

وبطون الأوس الكبرى خمسة أبطن هى : عوف بن مالك ، وعمرو بن مالك وهم «النبيت» ، ومرة بن مالك ، وجُشَم بن مالك ، وامرؤ القيس بن مالك .

وقد انقسم بنو عوف بن مالك بن الأوس إلى عدة أبطن أهمها : بنو تزيد الذين انقسموا إلى ضبيعة ، وأمية ، وعبيد . ثم بنو معاوية ، وبنو جحجبا ، وبنو اوزان ، هذا إلى عشائر أخرى أصغر منها ؛ وقد سكنوا جميعاً منطقة قباء جنوبى المدينة ، ما عدا بنى معاوية الذين سكنوا شرقى البقيع ، وبنى أمية الذين سكنوا إلى جنوبهم .

وانقسم النبيت إلى عدة أبطن أهمها : بنو ظفر ، وبنو حارثة ، وبنو عبد الأشهل ، وبنو زعوراء ، وكانت مساكن هذه البطون على الطرف الشرقى لحرة واقم ، فكانت منازل بنى ظفر فى شمال منازل قريظة على وادى مهزور ، وإلى شمالهم كانت منازل بنى عبد الأشهل ، وإلى أقصى الشمال منازل بنى حارثة ، أما باقى عشائر النبيت من بنى زعوراء وعمرو والجريش فكانت عند راتج .

وأهم بطون بنى جشم بن مالك : بنو خطمة ، وكانت منازلهم مجاورة لمنازل بنى أمية .

وأهم بطون امرىء القيس بن مالك : واقف والسلم ، وكانت

منازلهم بالعوالى مسجد القضيخ بين منازل بنى قريظة وبنى النضير . وقد كان السلم حلفاء بنى عمرو بن عوف بن مالك ولذلك كان إسلامهم مبكرا قبيل الهجرة وبعدها .

أما بطون مرة بن مالك فكانوا : بنى أمية ، وبنى وائل ، وبنى عطية ، وهؤلاء جميعا يسمون الجعاذرة ، سموا بذلك لقصر قامتهم ، وكانت منازلهم بقرب قباء عند ملتقى بطحان ورانوناء ، وبنو سعد ابن مرة سكنوا راتج على طرف الحرة الشمالى وقد سمى بذلك لقيام حصن لليهود بهذا الموضع يسمى راتج . والجعاذرة وواقف وخطمة كانوا يسمون «أوس الله» وقد تأخر إسلام هذه البطون بعد الهجرة فلم تسلم إلا بعد الخندق .

الخزرج :

وبطون الخزرج الكبرى أيضاً خمسة أبطن هى : عمرو بن الخزرج وعوف بن الخزرج ، وجشم بن الخزرج ، وكعب بن الخزرج ، والحارث بن الخزرج . وقد انقسمت هذه البطون الكبرى بدورها إلى بطون متعددة أصغر منها وإلى عشائر .

فانقسمت عمرو بن الخزرج إلى أربعة أبطن هم : مالك ، وعدى ، ومازن ، ودينار . وكلها من بنى النجار المعروف بتيم اللات بن ثعلبة ابن عمرو بن الخزرج . وقد سكنت بطون بنى النجار فى المنطقة الوسطى التى حول مسجد النبى ، فمساكن بنى مالك كانت فى منطقة المسجد ، ومساكن بنى عدى غربى المسجد ، ومساكن بنى مازن فى قبلة المدينة ، وإلى جنوبهم سكن بنو دينار خلف وادى بطحان .

وانقسم بنو عوف بن الخزرج إلى بطون أهمها : سالم ، وغنم ، وعنز

وقد عرفوا بالقواقل لأنهم كانوا إذا أجاروا شخصا دفعوا إليه سهما وقالوا له «قوقل به حيث شئت» أى تنقل به حيث شئت لا تخش أحدا ، وقد سكن القواقل على طرف الحرة الغربية غربى الوادى الذى به مسجد الجمعة . ومن بطون عوف بن الخزرج بنو الحبلى الذين كان منهم عبد الله بن أبى بن سلول . وكانت منازلهم بين قباء والمنطقة الشرقية من وادى بطحان .

وانقسم بنو جشم بن الخزرج إلى عدة أبطن أهمها : بنو بياضة ، وبنو زريق ، وبنو سلمة ، وإلى جانبهم عشائر منهم دخلت فيهم . وقد سكن بنو سلمة فى الشمال الغربى للمدينة بجوار مسجد القبلتين ، وبنو سلمة تعددت فروعهم ، فمنهم بنو حرام وبنو عدى وبنو عبيد وكانت منطقتهم ممتدة من سلع إلى وادى العقيق ، وسكن بنو زريق وبنو بياضة وبنو حبيب فى جنوب المدينة شمال مساكن بنى سالم بن عوف بن الخزرج على وادى بطحان .

وانقسم بنو الحارث بن الخزرج إلى عدة أبطن أهمها : بنو مالك الأغر بن كعب بن الخزرج الأصغر بن الحارث ، وبنو جشم بن الحارث وبنو زيد مناة بن الحارث ، وبنو خُدرة وجِدارة ابنا عوف بن الحارث ، وبنو صخر بن الحارث . وقد سكن بنو الحارث الذين عرفوا «بلحارث» بالعوالى شرقى وادى بطحان : ما عدا بنى جشم وبنى زيد مناة الذى سكنوا السنح على ميل من مسجد رسول الله من ناحية الشرق . وبنى خدرة وجِدارة الذين سكنوا مما يلى سوق المدينة .

وأهم بطون كعب بن الخزرج بنو ساعدة الذين انقسموا بدورهم إلى بطنين هما طريف وعمرو ، ومن طريف سعد بن عبادة بن دليم بن

حارثة بن أبي خزيمة ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر . وقد سكن بنو ساعدة عند المكان المعروف بسقيفة بني ساعدة في شرقي سوق المدينة المعروف بسوق الغنم مما يلي باب الشام وفي بئر بضاعة كما كان لهم منازل عند وادي بطحان توازي مساكن بني دينار .

ومما سبق نرى أن الأوس قد سكنوا المناطق الزراعية الغنية في المدينة ، وأنهم جاوروا أهم قبائل اليهود وجموعهم ، وأن الخزرج استوطنوا مناطق أقل خصباً ، وقد جاورهم قبيلة يهودية كبيرة واحدة هي قينقاع ، وعشائر أخرى يهودية أقل عدداً هم اليهود الذين نزلوا في الشمال الغربي من المدينة عند المكان المعروف «بيثرب» شمال جبل سلع . وقد كان لهذا أثره الكبير في العلاقات بين العرب واليهود من ناحية وبين الأوس والخزرج من ناحية أخرى (١) .

أما متى وكيف قدم الأوس والخزرج إلى يثرب ، فإن المصادر العربية ترجع سبب قدومهم إلى هجرة الأزد من اليمن نتيجة لتهدم سد مأرب ؛ فيقول ابن هشام عن هجرة الأوس والخزرج إلى جهات يثرب «وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن ، أنه رأى جرذا يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أراضيهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد بعد ذلك ، فاعتزم على النقلة من اليمن ، فكاد قومه ، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه

---

(١) عن أنساب الاوس والخزرج وبطونهم . انظر جمهرة أنساب العرب من ص ٣١٢- ٣٤٧ وعن توزيع مساكنهم انظر السمهودى ١٣٦ - ١٥٢ ، وابن هشام ٢/١١٢ ، وابن سيد الناس ١/١٩٤ وانظر أيضاً الخريطة التوضيحية الملحقة بهذا الفصل .

أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي ، وعرض أمواله ، فقال أشراف من أشراف اليمن : أغتنموا غضبة عمرو . فاشتروا منه أمواله ، وانتقل في ولده وولد ولده ، وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان ؛ فحاربتهم عك ؛ فكانت حربهم سجالا ، ثم ارتحلوا عنهم ، فتفرقوا في البلدان : فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مَرّاً ... «ثم أرسل الله تعالى على السد سيل العرم فهدمه(١)».

ويتضح من قول ابن هشام أن نزوح الأوس والخزرج إلى جهات يثرب كان قبل سيل العرم . بينما يرى صاحب الأغاني أن خروج الأزد كان بعد سيل العرم . غير أن هذه الروايات لا تحدد متى كان تهدم السد ، ولا تحدد الزمن الذي هاجرت فيه قبائل الأزد . على أن رواية ابن هشام لا يمكن الأخذ بها ؛ إذ أن ارتحال قبائل من مواطنها توقعاً لحادث لم يقع بعد أمر يصعب تصديقه . ثم إن السد تصدع وأصلح عدة مرات كما أثبتت النقوش الى عثر العلماء عليها(٢) .

ونحن إذا أخذنا نسب أحد الخزرج المعروفين عند الهجرة وهو سعد بن عبادة الخزرجي ، وجعلناه مقياساً للزمن الذى ربما تكون

---

(١) ابن هشام ١/٩ .

(٢) يقول سديو ص ٣٦ إن أول تصدع للسد كان(سنة ١٢٠ م . ويقول نقش عثر عليه إن شرحبيل بن أبي كرب أسعد الحميرى أصلح السد سنة ٤٥٠ — ٤٥١ م . ويقول نقش آخر إن أبرهة أصلحه سنة ٥٤٢ م . (جواد على ٣/١٥٦ ، ٣/١٩٧ — ٢٠٠) وقرر العالم جلاسر أن السيل حدث من سنة ٤٤٧ — ٤٥٠ . عن ولفنسون ص ٥٣ .

هاجرت فيه الأوس والخزرج إلى جهات يثرب ، وجدنا أنها من المحتمل أن تكون هاجرت منذ حوالي أواخر القرن الرابع الميلادى . فنسب سعد كما يذكره النسابون هو « سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الأصغر بن ساعدة بن كعب ابن الخزرج الأكبر بن حارثة » فمن سعد إلى الخزرج الأكبر أحد عشر جيلا ، وإذا افترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسة وعشرون عاماً كانت المدة ما بين الهجرة (سنة ٦٢٢ م) وبين الخزرج الأكبر حوالى مائتين وخمس وسبعين سنة . أى أن هجرة الأوس والخزرج من المحتمل أن تكون حدثت فى أواخر القرن الرابع الميلادى(١) . وكان سببها لا يرجع إلى تهدم السد وحده ؛ وإنما يرجع إلى عوامل أخرى ، كما أن قبول القول بهجرة قبائل الأزد جميعاً دفعة واحدة غير ممكن إذ أن خزاعة وهى بطن من الأزد كانت تحكم مكة إلى سنة ٤٥٠ م ، وقد استمرت مدة طويلة تلى أمر مكة حددها بعضهم بخمسمائة سنة وحددها بعضهم بثلاثمائة سنة(٢) .

ومعنى ذلك أنها هاجرت حوالى منتصف القرن الثانى أو بداية القرن الثالث(٣) .

وإذن فإن هجرة القبائل الأزدية كانت متفرقة وأنها كانت لعوامل متعددة منها اضطراب أحوال اليمن نتيجة للتنازع السياسى بين الأقيال وإلحاح الأحباش عليها بالغزو منذ القرن الثالث ، وإهمال أمر الإرواء مما نتج عنه تصدع السد مرات متكررة مما سبب العسر الاقتصادى

(١) يحدد سديو هجرة الاوس والخزرج إلى المدينة سنة ٣٠٠م واستيلائهم سنة ٤٩٢م .

(٢) ابن كثير ١٨٣/٢ . (٣) يحدد سديو استيلاء خزاعة على مكة سنة ٢٠٧م .

لإهمال الزراعة فأخذت القبائل تهاجر كلما ضاق بها الحال ، وكانت الأوس والخزرج ضمن هذه القبائل المهاجرة وكانت هجرتها متأخرة عن غيرها من بطون الأزد ، وعلى هذا فالأوس والخزرج أحدث عهداً بالمدينة من اليهود . ويقول صاحب الأغانى : «إن الأوس والخزرج توجهوا بعد هجرتهم إلى المدينة ، وحين وردوها نزلوا فى حرار ، ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ إلى عفاء من الأرض لا ساكن فيه ، ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها ، فكانوا مع أهلها ، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم التى نزلوها بالمدينة فى جهد وضيق فى المعاش ليسوا بأصحاب نخل وزرع ، وليس للرجل منهم إلا الأعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات . والأموال لليهود ، فلبثوا بذلك حينا(١)» .

ثم تطورت العلاقات بينهم وبين اليهود من الجوار إلى الحلف إلى الصراع .

(١) الاغانى ١٩/٩٦ (طبعة مصر) .

الفصل الثاني

التنظيم الداخلي والعلاقة بين السكان

إذا كانت مدينة مكة قد تمتعت بالنظام المستقر وسادها جو من الهدوء والطمأنينة ، نتيجة لوحدة السكان فيها ، واجتماعهم على غاية واحدة هي رعاية الكعبة والقيام على تنظيم أمور التجارة الداخلية التى كانت أهم موارد الرزق فى البلد الحرام . فإن مدينة يثرب لم تتوفر لها هذه الظروف التى ساعدت مكة على التنظيم والاستقرار ، فإن سكان يثرب كانوا مختلفى الجنسية ، منهم العرب ومنهم اليهود ، وكذلك لم تكن لهم غاية مشتركة يحرصون على الترابط بينهم من أجلها ، فكانت حياتهم تقوم على تملك الأرض الزراعية واستثمارها . وفى مجتمع قبلى حيث لا توجد حكومة تقر القانون وتقهر الناس على التزامه ، كانت القوة الذاتية سواء عن طريق الأفراد أو الجماعات هى الضمان الوحيد لحفظ الحقوق ، ولذلك ، كان ما من شأنه أن يؤدى إلى الاستقرار ، هو فى ذاته عامل من عوامل التقنقل والنزاع .

فحياة الزراعة من طبيعتها أن تربط الناس بالأرض وتفرض عليهم الاستقرار ، ولكنها فى مثل هذا المجتمع القبلى كانت مثاراً للنزاع الدائم ، فقد كان كل فريق يسعى إلى أن تكون فى يده أخصب البقاع وأغناها ، وهذا مما يؤدى إلى التطلع إلى ما فى يد الغير ومحاولة الحصول

عليه ، ولما لم يكن هناك قانون غير القوة ينظم العلاقة بين الناس، كان السعى عن طريقها هو السبيل المألوف لتوسيع الأملاك والحصول على أفضل البقاع الزراعية .

وإذا كانت القبائل التى تتالت فى السيطرة على مكة قد استطاعت أن تجلى غيرها عنها وتنفرد بشئونها ، فإن ذلك كان أمراً ميسوراً إلى حد ما ، لأنه لم تكن هناك أرض يرى الناس حياتهم ملتصقة بها ، فالتاجر مع حبه للهدوء ورغبته فى السلام وسعيه إلى حسن العلاقة مع غيره ليقوم على تجارته فى جو من الأمن والسلام ، لا يرى ضرورة للاستماتة من أجل بقعة معينة لا يتوفر له فيها جو السلام . أما فى بلد يعتمد سكانه على الزراعة فإن إجلاء الناس عن أرض يرون معاشهم متصلا بها أمر بالغ الصعوبة ، تقوم من أجله الحروب وتسفك الدماء ، ولا يقبله الناس إلا أمام قوة لا يرون سبيلا إلى قهرها .

لذلك اختلفت الخصائص العامة فى مكة عنها فى المدينة ، وحيث حظيت الأولى بنوع من التماسك والنظام انقسمت الثانية إلى معسكرين متعاديين دائماً ، يترقب كل فريق الفرصة لقهر الآخر والحصول على ما فى يده أو على خير ما فى يده . على أن كلا من المعسكرين لم يسلم من النزاع الداخلى لنفس هذه الغاية ، ولم يربط بين الوحدات فى المعسكر الواحد إلا ما كان يربطها من تقاليد العصبية القبيلة ، والشعور بأن الفرد وحده عاجز عن حماية نفسه ضد الآخرين ، وحتى رابطة الدم نفسها فشلت فى أن تكون رابطاً يؤلف بين الناس . ومن هنا أصبح القتل وسفك الدم شيئاً مألوفاً ، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج من

حيه دون أن يعرض نفسه للخطر(١) ، وساد المدينة جو من عدم الأمن جعل الحياة فيها أمراً عسيراً .

ومن أجل المحافظة على النفس والمال اتجه ميل السكان بصفة عامة إلى إقامة الحصون والآطام للاحتماء بها عند الحاجة ، حتى أصبحت المدينة ممتلئة بهذه الحصون إلى درجة لا تكاد توجد فى مدينة أخرى ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان لليهود وحدهم تسعة وخمسون أطما(٢) وأن العرب لم يكونوا أقل منهم رغبة فى بناء الآطام حتى لقد ذكروا أنه كان لبطن واحد من بطونهم تسعة عشر أطما (٣) .

ومع ذلك فقد ظلت الحياة القبلية تفرض نفسها بصورة واضحة فى يثرب ، فلم تكن حياة البطون اليثربية تتميز بشىء عن حياة القبائل البدوية فى الجزيرة العربية إلا بالاستقرار الذى فرضته عليها الحياة الزراعية وحتى اليهود الذين كانوا قد وصلوا فى وطنهم الأصلى إلى درجة من المدنية وانمحى من بينهم نظام القبائل وانصهروا فى أمة واحدة ، لم يلبثوا فى المدينة أن زالت منهم هذه الصفات وتغلبت عليهم العقلية البدوية ، حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم ونفسياتهم (٤) ومع ذلك فإن الروابط القبلية بما فيها من لحمة النسب والدم ، فشلت فى أن تقيم مجتمعاً أكبر من مجتمعات البطون ، فانقسمت يثرب إلى عدة دوائر زراعية ، وكل دائرة كانت تابعة لبطن من البطون . وكان

---

(١) يروى صاحب الاغانى أن الأوس والخزرج حين اصطلحوا بعد حرب سمير . « اصطلحوا بعهد وميثاق ألا يقتل رجل فى داره ومعقله – والمعاقل : النخل – فإذا خرج رجل من داره أو معقله فلا دية له ولا عقل » . الأغانى ٣/٤٢ .

(٢) السمهودى ١/١١٦ . (٣) نفسه ١/١٤٥ .

(٤) ولفنسون ص ١٢ ، ١٥ .

كل بطن من البطون الكبيرة يضم طائفة من البطون الصغيرة تعد مواليه ، يشرف على مزارعها ومتاجرها ويرعى حقوقها ، وإذا وقعت إغارة عدها واقعة على رعاياه فطالب بالثأر أو دفع الدية (١) . وكان البطن الصغير يلجأ إلى آطام البطن الكبير إذا هاجمهم عدو ، وهو مضطر للدخول فى الحرب إلى جانب البطن الكبير . ومع ذلك فقد حافظت البطون الصغيرة على شخصيتها ولم تسمح البطون الكبيرة أن تحد من حريتها : وكان من نتيجة ذلك أن تجنبت البطون الكبيرة كل ما من شأنه أن يهيج البطون الصغيرة (٢) .

ومن ثم فقد أصبح هناك شبه توازن فى نظام الحكم بين البطون الكبيرة فى يثرب ، فكانت البطون تثور إذا ما هم بطن كبير بالاستئثار بالنفوذ (٣) ومع ذلك فقد كانت بطون القبيلة تترابط إذا هددها هجوم عام تجمعت له بطون قبيلة أخرى ، لكن كان يحدث فى كثير من الأحيان أن ترى بعض البطون مصلحتها فى أن تهادن الفريق الآخر ، فتخرج على الإجماع وتقف على الحياد (٤) .

وقد حكم العلاقات بين السكان فى يثرب عاملان : عامل الروابط القبلية ، وعامل الحياة الاقتصادية . وقد امتزج العاملان معاً بحكم الضرورة ؛ ولكن العامل الاقتصادى كان أقوى وأظهر فى توجيه هذه العلاقات .

وسكان يثرب - كما قدمنا كانوا من اليهود والعرب . واليهود

(١) السمهودى ١/١٥٢ - ١٥٣ ، ابن الأثير ٣/٤٠٢ - ٤١٨ .
(٢) السمهودى ١/١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٦ - ١٤٧ .
(٣) والفنسون ١١٨ .
(٤) ابن الأثير ١/ ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، السمهودى ١/ ١٥٣ - ١٥٤ .

أقدم عهداً بها ، وقد انفردوا بشئونها فترة من الزمن ، ولم يكن يساكنهم إلا بطون عربية صغيرة لم تكن على جانب من القوة فعاشت موالى لليهود ، وكان اليهود فى هذه الفترة هم أصحاب الثروة والنفوذ، وكانوا عدة قبائل وبطون انتشرت فى منطقة يثرب . ثم قدم عليهم الأوس والخزرج ، فساكنوهم وحالفوهم ، ثم ما لبثوا أن تغلبوا عليهم ونقلوا السلطة إلى أيديهم ، ولكنهم ما كادوا يتغلبون على اليهود حتى دخلوا فى دور من الصراع بينهم صراعا شارك فيه كل سكان يثرب .

ونحن إذا أردنا أن ندرس العلاقة بين السكان فى المدينة فإنه يجب علينا أن ننظر إليها من خلال هذه الفترات الثلاث فنتحدث عن العلاقات بين اليهود أنفسهم ، ثم بينهم وبين الأوس والخزرج ، ثم العلاقات بين الأوس والخزرج .

١ - العلاقات بين اليهود

لم تحدثنا المصادر عن العلاقات التى كانت بين القبائل والبطون اليهودية بعد قدومها إلى يثرب واستقرارها بها ، ولذلك فإنه ليس أمامنا إلا الاستنتاج نعتمد عليه من دراسة أحوالهم فى الفترة التى سبقت الهجرة مباشرة وفى عهد الهجرة النبوية .

وقد بينا -من قبل- كيف قدم اليهود إلى يثرب ، وأنهم جاءوا فى هجرات متتابعة نتيجة للظروف التى كانت تواجههم فى موطنهم فى فلسطين . وهم حين جاءوا إلى هذه المناطق من أرض الحجاز كانوا طارئين عليها ، فكان من مصلحتهم أن يكونوا على علاقات طيبة فيما بينهم ، وكان على السابق منهم أن يفسح مجالا للاحق ، بدافع الشعور بالمحنة المشتركة وحتى يكثر عددهم ويقووا على حماية أنفسهم فى بيئتهم الجديدة .

وقد شغلوا فى فترتهم الأولى بتدبير أمر أنفسهم والتقوى على مواجهة جيرانهم من البطون العربية النازلة فى يثرب ، ومن القبائل التى تجاورهم وترجح أن حياتهم الأولى لم تكن سهلة ميسرة ، وأن أحداثا وقعت بينهم وبين جيرانهم مما جعلهم يتوسعون فى إقامة الحصون والآطام حتى يقووا على مواجهة أى هجوم عليهم ؛ وهم مع ذلك يعملون لاستثمار الأراضى الخصيبة التى نزلوا فيها . وقد نجحوا فى كلا الأمرين نجاحاً كبيراً ، فاستقروا ، وتجمعت فى أيديهم الثروة ، وعلا نشأنهم حتى أصبحوا أصحاب الكلمة العليا فى يثرب .

وحين استقرت أمورهم وتم لهم الغلب بدأ الدافع على التضامن يضعف لديهم . فلم يحافظوا على الروح الجامعة بينهم ، بل انحدروا إلى الروح القبلية ، وأخذت روح الانفصالية والتنافس تظهر بين جماعاتهم . ويبدو أن أحداثا وحروبا وقعت بين طوائفهم ، كان من نتيجتها ذلك التفكك الذى بدا واضحاً بينهم حين وقع النزاع بينهم وبين الأوس والخزرج بعد ذلك ، فإنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا كلمتهم ويقفوا صفاً واحداً فى وجه خصومهم ، كما أنهم لم يحتفظوا بكيانهم فيما تلا ذلك من أحداث ؛ فتفرقت بطونهم ودخل بعضها فى مخالفات مع الأوس ودخل بعضها فى محالفات مع الخزرج ، واشترك كل فريق فى القتال إلى جانب حلفائه ضد الفريق الآخر(١) ، وكانوا فى القتال أقسى على بنى جنسهم من العرب ، فقد قسا بنو النضير وقريظة على بنى قينقاع واثخنوا فيهم ومزقوا شملهم فى حرب بعاث بين الأوس والخزرج ، مما جعل أحد شعراء اليهود من بنى النضير يتألم لهذه الحالة (٢)

---

(١) الاغانى ٣ / ١٤ .

(٢) الاغانى ١٩ / ٩٥ (طبع مصر) ولفنسون ٦٩ .

ولا نستطيع أن نفهم سبباً لهذه القسوة إلا أن عداء كان قد استحكم بين بنى قينقاع وبين بنى النضير وقريظة، كما أنه لابد من أن أحداثا وقعت بينهم جعلت بنى قينقاع يتركون أرضهم وزرعهم ويقتصرون على الصناعة ، فإنهم حين أجلاهم النبى عن المدينة لم يكن لهم بها أرض ولا مزارع(١) ، وليس من المحتمل أن يكون بطن كبير مثلهم قد رغب عن الأعمال الزراعية كلية . ومما يؤيد ما كان يقع بين اليهود من قتال وسفك دماء ، وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم جريا وراء المصالح والمنافع الخاصة ، ما ذكرته آيات القرآن الكريم فى وصفهم والتنديد بأعمالهم هذه مع مخالفتها لشريعتهم : «وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ هَا أَنْتُمْ هؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بالإِثْمِ والعُدْوَانِ وإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عليكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْض فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُم إلاَّ خِزْىٌ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّون إلى أَشَدِّ الْعَذَاب» (٢) .

وبعد الهجرة كانت قبائل اليهود وبطونهم فى حالة واضحة من التفكك، وكان إحساسهم بالترابط منعدماً. فلم يبد أى بطن من بطونهم أى إحساس بالعطف نحو الآخرين حين وقعوا فى خلاف مع النبى .

كل ذلك يقطع بأن العلاقات بين اليهود فى يثرب لم تكن حسنة فى عصر الهجرة النبوية ، وقد سيطرت عليهم المنفعة الشخصية وأهدروا فى سبيلها كل مصلحة مشتركة .

---

(١) الواقدى ١٤٠ .　　(٢) البقرة ٨٤ — ٨٥ ، تفسير الطبرى ٢/٢٠٥ .

٢ - العلاقات بين العرب واليهود

بدأت العلاقات بين الأوس والخزرج حين قدموا يثرب ، وبين اليهود ، علاقات سلم وجوار ، فقد قدم هؤلاء العرب على قوم مستقرين فى ديارهم ، وبيدهم الأموال والآطام والعدد والقوة ، فكان طبيعياً أن يقنعوا منهم بالسماح لهم بمجاورتهم والإقامة معهم ، ولعلهم لم يكونوا من كثرة العدد والقوة بحيث يخشى اليهود عاديتهم ، ومن الجائز أنهم فكروا فى الاستفادة من خبرتهم السابقة فى الزراعة فى مواطنهم باليمن ، فاتخذوا منهم عمالا ومساعدين لهم فى دوائرهم الزراعية أو فى أعمالهم التجارية . وقنع الأوس والخزرج بهذا من اليهود فنزلوا بينهم وحواليهم ولما كانت الثروة والسلطان فى أيدى اليهود ومواليهم من البطون العربية، فقد عاش الأوس والخزرج فى جهد وضيق فى المعاش ، إذ لم يكن لهم نعم ولا شاء لأن المدينة ليست بلاد مرعى ، فعمل بعضهم مأجورا فى مزارع اليهود ، ومن عمل لحسابه لم يكن له إلا الأعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات(١) .

وأقام اليهود والعرب على ذلك مدة طويلة يسودهم الوئام والوفاق . ويتحدث السمهودى عن دور الوفاق بين الطرفين ، فيقول «وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ، ووجدوا الأموال والآطام والنخيل فى أيدى اليهود ، ووجدوا العدد والقوة معهم ، فمكث الأوس والخزرج ما شاء الله : ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به ممن سواهم فتعاقدوا وتحالفوا ، واشتركوا وتعاملوا : فلم يزالوا على ذلك زمانا طويلا ، وأمِرَت الأوس والخزرج

---

(١) الاغانى ٩٦/١٩ (طبعة مصر) ، ابن خلدون ٢٨٧/٢ ، السمهودى ١٢٥/١ .

وصار لهم مال وعدد ، فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى بينهم . وكانت قريظة والنضير أعد وأكثر ، وكان يقال لهما الكاهنان وبنو الصريح . فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم خائفين أن تجليهم يهود ، حتى نجم منهم مالك بن العجلان من بنى سالم بن عوف بن الخزرج وسوده الحيان الأوس والخزرج » (١)

ويؤخذ من هذه الرواية أن الأوس والخزرج قنعوا بوضعهم فى أول الأمر لأنهم إنما كان همهم أن يستقروا ويجدوا لهم معاشاً . ثم أخذوا بعد ذلك يعملون على تثبيت مركزهم ، فسعوا إلى عقد الحلف بينهم وبين اليهود ليأمنوا على أنفسهم ، وليستطيعوا توسعة دائرة أعمالهم ، وقد أتاح لهم الحلف أن يشاركوا اليهود ويتعاملوا معهم ، فازدادت ثروتهم وكثر عددهم وأخذوا فى تنظيم أنفسهم . وتنبهت اليهود إلى ما طرأ على حلفائهم هؤلاء ، وأحسوا بخطورتهم ، وأدركوا أن الحلف إنما يسير إلى مصلحة جيرانهم ، فخافوا أن يتطور الأمر إلى أن يغلبوهم على دورهم ، فغيروا مسلكهم نحوهم وأساءوا معاملتهم وانتهوا إلى قطع الحلف معهم ، عند ذلك ظهرت الفتن والعداوات بين الطرفين ، ولما كان اليهود أعد وأكثر فإن الأوس والخزرج أقاموا فى منازلهم خائفين أن تجليهم يهود ، ولم يكن أمامهم إلا أن يبحثوا لهم عن حليف ينصرهم إن ثارت الثائرة بينهم وبين اليهود . وكان طبيعياً أن يتجه تفكيرهم أول ما يتجه إلى قوم تربطهم بهم رابطة قرابة ونسب ، ويكون لهم من القوة ما يمكنهم من الانتصار بهم على خصومهم ، فاتجهوا

---

(١) السمهودى ١/١٢٥ - ١٢٦ .

إلى الغساسنة الذين كانوا مثلهم فرع من الأزد فهم أبناء عمومة فضلاً عن رابطة الخؤولة ، فقد كانت أم الأوس والخزرج (قيسلة) من غسان كما يقرر النسابون ، وكان الغساسنة قد علا أمرهم بالشام وكونوا لهم مملكة بها . ويتحدث المؤرخون عن اتصال مالك بن العجلان الخزرجي بالغساسنة ، فيقولون : « إن مالك بن العجلان رحل إلى أبي جبيلة الغساني ، وهو يومئذ ملك غسان ، فسأله عن قومه وعن منزلتهم ، فأخبره بحالهم وضيق معاشهم ، فقال له أبو جبيلة : والله ما نزل قوم منا بلداً إلا غلبوا أهله عليه ، فما بالكم ؟ ! ثم أمره بالمضى إلى قومه ، وقال له : أعلمهم أنى سائر إليهم ، فرجع مالك بن العجلان فأخبرهم بأمر أبي جبيلة . ثم جيّش أبو جبيلة جيشا عظيما وأقبل كأنه يريد اليمن حتى قدم المدينة فنزل بذى حرض وأرسل إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا إليه فوصلهم وأعطاهم . ثم أرسل إلى بنى إسرائيل ؛ يعنى اليهود : وقال من أراد الحباء من الملك فليخرج إليه ، وإنما فعل ذلك خيفة أن يتحصنوا فى الحصون فلا يقدر عليهم ، فخرج إليه أشراف بنى إسرائيل بخواصهم وحشمهم ، فأمر لهم بطعام ، حتى اجتمعوا فقتلهم من عند آخرهم . وقال للأوس والخزرج : « إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأحرقنكم » . ثم رجع إلى الشام فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة فتفرقوا فى عالية يثرب وسافلتها يتبوؤون منها حيث شاءوا ، واتخذوا الديار والأموال والآطام (١) » .

---

(١) الأغانى ١٩ / ٥٦ – ٦٧ « طبعة مصر » ، ابن خلدون ٢ / ٢٨٧ – ٢٨٩ ، ابن الاثير ١/٤٠٢ ، السمهودى ١/١٢٧ .

ثم أخذت اليهود تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم ، فرأى مالك ابن العجلان أن الغلبة لم تكمل لهم بعد على اليهود ، فكادهم كيداً شبيهاً بكيد أبي جبيلة ، ونجح فى القضاء على عدد منهم ، فذلوا وقل امتناعهم وخافوا خوفاً شديداً ، واضطرت بطونهم الصغيرة إلى الدخول فى حلف مع جيرانهم من الأوس والخزرج ولم يبق إلا بنو النضير وقريظة ويبدو أنهم كانوا أصحاب قوة وأن حصونهم كانت منيعة فاعتمدوا عليها ولم يحالفوا أحداً منهم (١) وجعل اليهود كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، ولكن يذهب اليهودى إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيقول إنما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من اليهود قد لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم .

مما سبق يبدو أن العامل الاقتصادى كان هو المتحكم فى العلاقات بين العرب واليهود . فالعرب قد قنعوا بوضعهم الاقتصادى السيء أول الأمر مضطرين ، ثم سعو إلى تحسينه بالحلف مع اليهود ومشاركتهم ، ثم لما اشتد أمرهم خشيهم اليهود على ما فى أيديهم فقطعوا الحلف معهم وأساءوا معاملتهم . والعرب بدأوا فعلا يتطلعون إلى وضع اقتصادى أفضل عن طريق مشاركة اليهود فى تملك الأراضى الخصبة أو مغالبتهم عليها ، ولدينا رواية أوردتها المصادر يؤيدها هذا الاتجاه العربى . قالوا : «إن عمرو بن النعمان البياضى قال لقومه بياضة : إن عامراً قد أنزلكم منزل سوء بين سبخة ومفازة ، وإنه والله لا يمس رأسى غسل حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل(٢) » وهذا

---

(١) الاغانى ٣/٢٤ .

(٢) الأغانى ١٥/١٥٥ - ١٥٩ «طبعة مصر» السمهودى ١/١٥٣ ابن الاثير ١/٤١٢

لقول وإن كانت المصادر قد أوردته فى ذكر حرب بعاث بين الأوس والخزرج ومن حالف الطرفين من اليهود ، إلا أنه يعطينا فكرة عن اتجاه العلاقات العامة بين السكان فى يثرب ، وأنه كان يحكمها ويوجهها العامل الاقتصادى .

ويحاول بعض المؤرخين أن يربط الحوادث التى وقعت بين العرب واليهود فى يثرب بالسياسة الدولية فى ذلك الوقت وبالنضال الدينى بين المسيحية واليهودية ، ويقولون « إن النكبة الشديدة التى نزلت باليهود فى بلاد حمير قد أنتجت نتائج سيئة لم يكن فى الإمكان أن تحدث ولا هذه النوائب . وأهم هذه النتائج تحمس العناصر النصرانية ، التى كانت تعتمد على مؤازرة الدولة الرومانية ، ضد الديانة اليهودية ، وتحركها لهدم كيانها والقضاء على أصولها ومبادئها فى جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وتهييج طمع القبائل العربية فى أموال اليهود ومستعمراتهم ورغبتهم فى الحصول عليها والاستئثار بها (١) » .

ويقرر المؤرخ Graetez أن البطون الأوسية والخزرجية لم تصارح اليهود بالعداوة والمعصية إلا بعد النكبة التى حلت باليهود فى اليمن ، إذ لا يتصور أن يضطهد اليهود فى الحجاز فى العصر الذى كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ويتعصبون لدينهم ويناهضون كل من يناهضهم أو يعتدى عليهم (٢) .

يسوق ولفنسون أقوال المؤرخون المحدثين هؤلاء ويعززها بما ذكره بعض مؤرخى العرب من أن الحجاز الشمالية كانت فى شبه تبعية لليمن

---

(١) ولفنسون ٥٩ .

(٢) من ولفنسون ٦١ .

فى عصر وجود حمير المتهودة وأن واحداً من الأسرة المالكة فى اليمن كان يشرف على شئون الطوائف المختلفة فى شمال الحجاز(١) . ويقول «وقد بقيت البطون العربية عصوراً طويلة على موالاة ومناصرة اليهود دون أن يظهر عليهم شىء يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل . إلى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكائد وتحرض عليهم زعماء الأوس والخزرج ليفتكوا بهم . والظاهر أن دولة غسان لم تفعل هذا إلا بإيعاز من الدولة الرومانية الشرقية التى أرسلت أسطولها لمساعدة الحبشة فى كفاحها ضد اليهود فى اليمن ، والتى كانت سياستها واضحة كل الوضوح فى الجزيرة العربية أثنا القرن الخامس والسادس ب . م(٢)» .

ولنا على هذه الأقوال اعتراضات :

أولا : ليس من اليسير تحديد الزمن الذى وقع فيه حادث استنجاد مالك بن العجلان بأبى جبيلة ، وهل كان بعد انتصار الأحباش على الحميريين أم قبله . والذى نستطيع استنتاجه من أقوال المصادر أن هذا الحادث وقع قبل الغزو الحبشى لليمن وانتصارها على الحميريين سنة ٥٢٥ م ، ويحدد سديو سيادة الأوس والخزرج على يثرب بسنة ٤٩٢م(٣) وتسنده فى ذلك المصادر العربية التى تقول إن الحرب بين الأوس والخزرج استمرت مائة وعشرين سنة إلى الإسلام (٤) . ولما كانت الحرب

---

(١) ابن الاثير ٣٠٤/١ (كان سفهاء بكر قد غلبوا على عقلائهم وغلبوهم على الامر ، وأكل القوى الضعيف ، فنظر العقلاء فى أمرهم ورأوا أن يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعيف من القوى فنهاهم العرب ، وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم لانه يطيعه قوم ويخالفه آخرون ، فساروا إلى بعض تبابعة اليمن وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين ، وطلبوا منه أن يملك عليهم ملكا . . . »

(٢) ولفنسون ٦١ . (٣) سديو ٥١ . (٤) السمهودى ١٥٢/١ .

بين القبيلتين العربيتين فى يثرب لم تقع إلا بعد تغلبهم على اليهود كان الزمن الذى حدده سديو مقبولا ، وكان صراع العرب مع اليهود واستنجاد أولئك بأبى جبيلة قبل هزيمة الحميريين(١) .

ثانيا : أن أبا جبيلة لم يكن ملكا من ملوك غسان بل كان عظيما عند ملك غسان . وينسبه النسابون إلى أحد بطون الخزرج الذين رحلوا إلى الشام وأقاموا مع الغساسنة(٢) . ويورد السمهودى رواية هامة ، وهى أن مالك بن العجلان «بعث وجماعة من قومه إلى من وقع بالشام من قومهم يخبرونهم بحالهم ويشكون إليهم غلبة اليهود(٣)» . وتدل هذه الرواية على أن استنصار الأوس والخزرج إنما كان بقوم يمتون إليهم بصلة القرابة على ما جرت عليه العصبية القبلية . على أن الأمر من ناحية عرب الشام كان استجابة لاستصراخ الأوس والخزرج لهم كما يذكر المؤرخون ولم يكن تحريضاً من الغساسنة لهم على اليهود . ولو كان الأمر هجوما من الغساسنة على اليهود بدافع التعصب الدينى لكان أولى بهم أن يهاجموا الجماعات اليهودية فى خيبر ووادى القرى وهى منهم أقرب ، ويؤيد هذا الرأى ولفنسون نفسه فهو يقول «والذى يمعن النظر فى تاريخ بطون يثرب يرى أن الطوائف الضعيفة فى المدينة كانت تعمل سراً على إيجاد محالفات مع قبائل عربية قريبة وبعيدة ، فمن المحتمل أن تكون الأوس

---

(١) تذكر المصادر أن أول حرب وقعت بين الأوس والخزرج كانت فى عهد أحيحة بن الجلاح وكان هذا زوجا لسلمى بنت عمرو النجارية التى تزوجها هاشم بن عبد مناف بعد طلاقها من أحيحة فكأن هذه الحرب كانت فى عهد هاشم وبينه وبين الهجرة حوالى مائة وعشرين سنة (انظر فصل الزعامة فى مكة . وانظر أيضا ابن الأثير ١/٤٠٣ . ابن هشام ١/١٤٨) .

(٢) جمهرة ٣٣٦ ابن خلدون ٢/٢٨٩ . ابن الأثير ١/٤٠٢ . السمهودى ١/١٢٦ .

(٣) السمهودى : نفسه .

والخزرج قد حالفت بطون بنى غسان لمحاربة اليهود فى عصر أبى جبيلة(١)

ثالثا : أن الديانة المسيحية لم تكن عميقة التغلغل فى نفوس القبائل العربية التى اعتنقتها بحيث تتعصب لها تعصبا شديدا ، بدليل أنها لم تلبث أن دخلت الإسلام بعد اتصالها بجيوش الخلفاء الراشدين بلا كبير مقاومة . هذا إلى أن الصراع الذى كان قائما بين الدول فى ذلك الوقت لم يكن صراعاً دينياً ، وإنما كان صراعا سياسيا اقتصاديا وإن استخدم الدين كوسيلة من وسائله ، فلم تكن الدولة الرومانية الشرقية تعمل لقهر اليهودية كدين ، ولا كان الفرس يشجعونها لغرض دينى : وإنما كان الغرض سياسياً عند كلتا الدولتين على أن علاقة اليهود لم تكن سيئة ببلاد الشام ، بل إنها على الأرجح كانت حسنة ، فكان بعض اليهود يرسل قوافله التجارية إلى بلاد الغساسنة(٢) ، وبدليل أن اليهود حين أجلاهم النبى عن يثرب هاجروا إلى بلاد الشام ، ولو كانت العلاقات بينهم وبين الغساسنة أو الروم سيئة لا تجهوا إلى مكان آخر كالعراق الذى كانت به جاليات يهودية وكان تحت سيادة الدولة الفارسية التى كانت تشجع اليهودية فى بلاد العرب .

من كل ذلك نرى أن إقحام النزاع بين الأوس والخزرج وبين اليهود فى المدينة ، فى مجال العراك الدولى أو الصراع بين اليهودية والنصرانية أمر لا محل له . وأنه كان نزاعا محليا أوجدته ظروف يثرب الاقتصادية واعتماد السكان فيها على استثمار الأراضى الزراعية ، ويتضح ذلك من توزيع السكان فى منطقة يثرب ، ومن النزاع الذى

---

(١) ولفنسون : ١٠٣ .

(٢) تاريخ الخميس : ١٢/٢ .

وقع بين الأوس والخزرج أنفسهم بعد تغلبهم على اليهود واشتراك طوائف المدينة كلها فيه تبعاً لمصالحها الاقتصادية .

٣ - العلاقات بين الأوس والخزرج

لبث الأوس والخزرج بعد تغلبهم على اليهود زمنا وكلمتهم واحدة وأمرهم جميع ، ثم وقعت بينهم حروب كثيرة ؛ ذكر أصحاب الأخبار عدداً من أيامهم فيها ، منها حرب سمير ، وحرب كعب بن عمرو المازنى ، ويوم السرارة ، ويوم فارع ، ويوم الفجار الأول والثانى ، وحرب الحصين بن الأسلت ، وحرب حاطب بن قيس ، ثم حرب بعاث وكان أولها حرب سمير و آخرها حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات(١) .

وقالوا فى أسباب حرب سمير «إن رجلا من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان يقال له كعب بن العجلان ، نزل على مالك بن العجلان السالمى فحالفه وأقام معه . فخرج كعب يوما إلى سوق بنى قينقاع ، فرأى رجلا من غطفان معه فرس ، وهو يقول : ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب ، فقال كعب : مالك بن العجلان ، وقال رجل : فلان، وقال آخر . أحيحة بن الجلاح الأوسى ، وقال غيرهم فلان بن فلان اليهودى ، أفضل أهلها . فدفع الغطفانى الفرس إلى مالك بن العجلان . فقال كعب : ألم أقل لكم إن حليفى مالكا أفضلكم ؟ . فغضب من ذلك رجل من الأوس من بنى عمرو بن عوف يقال له سمير ، وشتمه وافترقا . وبقى كعب ما شاء الله . ثم قصد سوقا لهم بقباء ، فقصده سمير ولازمه

---

(١) السمهودى ١/١٥٢ . ابن الأثير ١/٤٠٢ - ٤١٨ .

حتى خلا السوق فقتله ، وأخبر مالك بن العجلان بقتله ، فأرسل إلى بني عمرو بن عوف يطلب قاتله ، فأرسلوا إنا لا ندري من قتله . وترددت الرسل بينهم : هو يطلب سميراً . وهم ينكرون قتله ، ثم عرضوا عليه الدية فقبلها ، وكانت دية الحليف فيهم نصف دية النسيب منهم ، فأبى مالك إلا أخذ دية كاملة . وامتنعوا من ذلك وقالوا نعطى دية الحليف وهي النصف . ولج الأمر بينهم حتى أتى إلى المحاربة . فاجتمعوا والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا . وافترقوا . ودخل فيها سائر بطون الأنصار ، ثم التقوا مرة أخرى واقتتلوا حتى حجز بينهم الليل . وكان الظفر يومئذ للأوس . فلما افترقوا أرسلت الأوس إلى مالك بن العجلان يدعونه إلى أن يحكم بينهم المنذر بن حرام النجاري الخزرجي جد حسان بن ثابت بن المنذر فأجابهم إلى ذلك ، فأتوا المنذر فحكم بينهم بأن يدوا كعبا حليف مالك دية الصريح ، ثم يعودون إلى سنتهم القديمة ، فرضوا بذلك وحملوا الدية ، وافترقوا وقد شبت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم (١)» .

ثم كانت لهم بعد ذلك حروب استمرت أكثر من مائة سنة وكان آخرها يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات .

وقالوا في حرب بعاث « وكان سببه أن الحروب المتقدمة كلها كان الظفر في أكثرها للخزرج على الأوس ، حتى ذهبت الأوس لتحالف قريظة . فأرسلت إليهم الخزرج : لئن فعلتم فأذنوا بحرب ، فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج : إنا لا نحالفهم ولا ندخل بينكم . فقالت

---

(١) الأغاني ٣/١٩ - ٢٦ ، ٤١ - ٤٢ : ابن الأثير ١/٤٠٢ - ٤٠٣ .

الخزرج لليهود : فأعطونا رهائن ، وإلا فلا نأمنكم . فأعطوهم أربعين غلاماً من بينهم ، ففرقهم الخزرج فى دورهم . فلما أيست الأوس من نصرة اليهود ، حالفت بطون منهم الخزرج . منهم بنو عمرو بن عوف ، وقال سائرهم : والله لا تصالح حتى ندرك ثأرنا ، فتقاتلوا وكثر القتل فى الأوس لما خذلهم قومهم ، وجرح سعد بن معاذ الأشهلى فأجاره عمرو بن الجموح الحرامى . فلما رأت الأوس أنهم إلى قل ، عزموا على أن يكونوا حلفا للخزرج فى المدينة . ثم اشتوروا فى أن يحالفوا قريشا ، فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بينهم أن من أراد حجا أو عمرة لم يعرض له ، فأجار أموالهم بعدهم البراء بن معرور (الخزرجى) ، فأتوا مكة فحالفوا قريشاً . لكن الوليد بن المغيرة قال لقريش : والله ما نزل قوم قط على قوم إلا أخذوا شرفهم وورثوا ديارهم ، فاقطعوا حلف الأوس ، فقالوا : بأى ! قال : بأى شىء ، قال : إن فى القوم حمية ، قولوا لهم إنا نسينا شيئاً لم نذكره لكم ، إنا قوم إذا كان النساء بالبيت ، فرأى الرجل امرأة تعجبه قبلها ولمسها بيده . فلما قالوا ذلك للأوس نفرت ، وقالوا : اقطعوا الحلف بيننا وبينكم . فقطعوه فلما لم يتم لهم الحلف ذهبت النبيت (أو بعضهم) إلى خيبر » .

« فلما رأت الخزرج أن قد ظفرت بالأوس ، افتخروا عليهم فى أشعارهم وقال عمرو بن النعمان البياضى : يا قوم إن بياضة بن عمرو قد أنزلكم منزل سوء بين سبخة ومفازة ، والله لا يمس رأسى غسل حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل . ثم راسلهم : إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها أو نقتل رهنكم ، فهموا أن يخرجوا من ديارهم » .

«وبلغ من كان فى المدينة من الأوس ، فمشوا إلى كعب بن أسد القرظى فدعوه إلى المحالفة على الخزرج ، ثم تحالفوا مع قريظة والنضير ثم أجمعوا أن ينزل كل أهل بيت من النبيت على بيت من قريظة والنضير ، وأرسلوا إلى النبيت يأمرونهم بإتيانهم وتعاهدوا ألا يسلموهم أبداً وأن يقاتلوا معهم حتى لا يبقى منهم أحد . فجاءتهم النبيت فنزلوا مع قريظة والنضير ، فأخذت الخزرج فى قتل الرهن ، فقال لهم كعب ابن أسد القرظى : إنما هى ليلة ثم تسعة أشهر وقد جاء الخلف . ثم أرسل إلى سائر الأوس فى الحرب والقيام معهم على الخزرج فأجابوهم إلى ذلك . فاجتمع الملأ منهم واستحكم أمرهم ودخلت بينهم قبائل من أهل المدينة . فلما سمعت بذلك الخزرج اجتمعوا وخرجوا حتى أتوا عبد الله بن أبيّ ، فقالوا : مالك لا تقتل الرهن ؟ فقال : لا أغدرهم أبدا ، وأنتم البغاة ، وقد بلغنى أن الأوس تقول : منعونا الحياة فيمنعونا الموت ؟ ووالله ما يموتون أو تهلكوا عامتكم . فقال عمرو بن النعمان . انتفخ والله سحرك . فقال . إنى لا أحضركم ولا أحد أطاعنى أبداً ، ولكأنى أنظر إليك قتيلا يحملك أربعة فى كساء . فاجتمع الخزرج ورأسوا عليهم عمرو بن النعمان» .

«ولبثت الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ، ويجمع بعضهم لبعض ، ويرسلون إلى حلفائهم من قبائل العرب ؛ فأرسلت الخزرج إلى جهينة وأشجع فأقبلوا إليهم ، وأرسلت الأوس إلى مزينة فجاءتهم ، ثم التقوا ببعاث —وبعاث من أموال قريظة — فيها مزرعة يقال لها قورى (١) — فكان النصر أول النهار للخزرج ، ثم ثبت حضير

(١) ياقوت : ٤/٤٥١ .

الكتائب (رئيس الأوس) فرجعوا ، وكانت الدبرة على الخزرج ، وقتل عمرو بن النعمان . وجيء به تحمله أربعة كما قال له ابن أبى ، ووضعت الأوس فيهم السلاح ، وصاح صائح يا معشر الأوس اسجحوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب ، فتناهت الأوس وكفت عن سلبهم بعد إثخان فيهم ، وسلبتهم قريظة والنضير » .

« وجعلت الأوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها ، فخرج سعد ابن معاذ الأشهلى حتى وقف على باب بنى سلمة أجارهم وأموالهم ، جزاء لهم بيوم الرعل وكان للخزرج على الأوس ، وكان سعد بن معاذ حمل يومئذ جريحاً إلى عمرو بن الجموح فمن عليه وأجاره وأخاه يوم الرعل وأجاز أموالهم من القطع والحرق فكافأه سعد بمثل ذلك يوم بعاث » .

«وحلفت اليهود لتهدمن حصن عبد الله بن أبىّ ، فلما أحاطوا بالحصن ، قال لهم عبد الله : أما أنا فلم أحضر معهم ، وهؤلاء أولادكم عندى فإننى لم أقتل منهم أحداً ، ونهيت الخزرج فعصونى . وكان جل من عنده من الرهن من أولاد بنى النضير ، ففرحوا حين سمعوا بذلك فأجاروه من الأوس ومن قريظة ، فأطلق أولادهم وحالفهم ، ولم يزل حتى ردهم حلفاء للخزرج بحيل تحيلها» .

وكان يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنين . وهو اليوم الذى تقول فيه عائشة رضى الله عنها « كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد افترق ملؤهم

وقتلت سرواتهم وجرحوا ، قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى دخولهم الإسلام(١) » .

هذا خلاصة ما روته المصادر عن يوم بعاث بين الأوس والخزرج قد سقناها ، مع خلاف بسيط فيها تجاوزنا عنه لعدم أهميته ولما كانت حوادث هذا اليوم قد وقعت قبل الهجرة بخمس سنوات ، وكان كثير من زعماء الأوس والخزرج واليهود الذين شاركوا فى حوادثه وخاضوا غمار الوغى فيه . قد أدركوا الاسلام وكان لهم أثر ظاهر فى حوادث المدينة فى عهد النبى ؛ ولما كانت ذكريات هذا اليوم قد ظلت باقية فى النفوس بين أهل يثرب ، حتى لقد أوشك الحديث فيها يوما أن يعيد العداوة بين الأوس والخزرج مرة أخرى(٢) ؛ فإنه مما لاشك فيه أنه يوم حقيقى وأن معظم ما وصلنا من أخباره صحيح . وقد سقنا أخبار هذا اليوم ، كما سقنا أخبار اليوم الأول من حروب الأوس والخزرج ، لنستطيع من ذلك أن ندرك الأسباب الحقيقية للنزاع الذى وقع بين الأوس والخزرج وشمل بطون المدينة كلها .

رأينا — من قبل — كيف أن النزاع الاقتصادى بين العرب واليهود قد أدى إلى تغلب العرب وانتقال السلطة إلى أيديهم . وانتشارهم فى منطقة يثرب يتبوؤون منها حيث شاءوا . لكن نظرة إلى مساكن الأوس والخزرج فى منطقة يثرب تجعلنا ندرك أن هذا الغلب الذى أحرزه العرب لا يمكن أن يؤدى إلى استقرار الأمور فى المدينة ، فلم تكن هناك

---

(١) السمهودى ١/١٥٢ — ١٥٥ . الأغانى ٣/١٩ — ٤٢ . ابن الأثير ١/٤١٥ — ٤١٨ . الطبرى ٢/٨٥ . ابن هشام ١/١٨٣ . البخارى ٥/٤٤ .

(٢) ابن هشام ١/١٨٣ .

خطة مرسومة سار عليها الأوس والخزرج فى تملك الأراضى الزرعية ، وإنما جاء الأمر - فيما يبدو - على غير تقدير مرسوم ، فحدث أن احتل الأوس بقاعاً أخصب وأغنى من الجهات التى نزلها الخزرج ، ولذلك كان حتما أن يقع الخلاف بينهم ويحصل التنازع على نفس الغاية التى حدث عليها بين العرب واليهود من قبل .

ولما كان من مصلحة اليهود ألا تظل كلمة العرب واحدة : فيستمروا فى الضغط عليهم حتى يجاوهم نهائياً عن منطقة يثرب ، فإننا نرجح أنهم عملوا من جانبهم على الدس بينهم وتشجيع عوامل الفرقة وإذكاء روح التحاسد التى بدأت تظهر بين الأوس والخزرج حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم ، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم « الثعالب » لما عرفوا فيهم من مكر وحيلة وخديعة ، وفضلوا جوار إخوانهم - على ما بينهم من تنازع - عن جوار هؤلاء الثعالب. ولدينا رواية ذكرها ابن إسحاق تؤيد ما نتجه إليه ، قال : « ومرشاس بن قيس ، وكان شيخاً قد عشا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد : لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر فتى شاباً من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانو تقاولوا فيه من الأشعار ، ... ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين ...(١) » وهذه

(١) ابن هشام ٢/١٨٣ - ١٨٤ .

الرواية وإن ذكرها ابن إسحاق فى حوادث ما بعد الهجرة ، إلا أنها تعطينا فكرة عن الروح العامة لدى اليهود ، وأنهم كانوا يرون فى اجتماع كلمة الأوس والخزرج أمراً مهدداً لكيانهم فى المدينة فعملوا على تحطيم الاتحاد بين القبيلتين العربيتين . ونستطيع أن نقول إن هذا الاتجاه هو الذى اتجه إليه اليهود بعد تغلب الأوس والخزرج عليهم فى يثرب ، وإن كانت الظروف قد اضطرتهم إلى أن تدخل بطونهم فى أحلاف مع الأوس والخزرج كل بسبب ظروفه التى وجد فيها .

وقد بدأ التنازع بين الأوس والخزرج -بحسب الروايات التى سقناها- تنافسا قبليا على الرياسة وعلى احتلال مركز الصدارة فى يثرب . ولما كان تفوق العرب وانتصارهم على اليهود قد جاء على يد رجل من الخزرج أصبح له الذكر والشرف عليهم(١) ، كان طبيعياً أن يعمل الخزرج على الاحتفاظ بمركز الصدارة فى المدينة ، لكن حدث أن الأوس تملكوا أفضل البقاع الزراعية ، وأصبح الوضع الاقتصادى فى مصلحتهم لذلك لم يقبلوا أن تكون للخزرج هذه المنزلة عليهم . وساءهم أن يؤكد أحد الوافدين من رجال القبائل البدوية حول يثرب هذه المنزلة لزعيم الخزرج «مالك بن العجلان» ، وأن يفاخر بذلك حليف لمالك على محفل من أهل المدينة ، فترصده رجل من الأوس وقتله . وطالب مالك به ، فعرضت عليه الدية بحسب الأصول القبلية المعروفة -وهى دية الحليف نصف دية الصريح- لكن مالكا رأى أن يؤكد سيادته فأصر على ألا يقبل فى حليفه إلا دية الصريح ، ورفضت الأوس ذلك بطبيعة الحال ، فاقتتل الفريقان ، ثم تحاكموا فقضى

(١) الأغانى : ٣/٤٠ .

لمالك بدية الصريح إرضاء له على أن يعود الأمر بعد ذلك إلى السنن المعروفة . لكن هذا الحل كان أمراً موقوتا إذ أن دواعى الخلاف الحقيقية بقيت خفية فى النفوس لم يجرؤ أحد على إظهارها ، وزاد الأمر تعقيداً وقوع الدماء بين الطرفين ، فشبت البغضاء فى نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم ، فتتالت الوقائع بين الفريقين فى مظهر من مظاهر التنافس القبلى ، كان النصر فى أكثرها للخزرج على الأوس ، حتى أحست الأوس بالضعف وبعدم قدرتها على الصمود بنفسها أمام الخزرج الذين بدا واضحا أن نياتهم تتجه إلى الحصول على ما فى أيديهم من الأراضى الخصيبة . ولما كانت الأوس تجاور قبيلتين قويتين من قبائل اليهود وهما قريظة والنضير اللتان استطاعتا الاحتفاظ بما فى أيديهما من أفضل الأراضى الخصيبة ، وكانتا من القوة بحيث لم تدخلا فى حلف مع إحدى القبيلتين العربيتين ، فانها فكرت فى إقناع هؤلاء اليهود بالدخول معها فى حلف للوقوف فى وجه أطماع الخزرج التى تهدد الطرفين على السواء .

وحين أحست الخزرج بهذا الاتجاه الأوسى ، أنذرت اليهود بالحرب إن هم انحازوا إلى جانب الأوس ، ويبدو أن الخزرج كانت قد وصلت إلى درجة من القوة حتى أخافت اليهود ؛ فخضعوا لهذا التهديد وقدموا رهنا من أبنائهم ضمانا لوفائهم بالتزام جانب الحياد ، وحتى أن بطونا من الأوس نفسها حالفت الخزرج ضمانا لمصالحها .

وبذلت البطون الأوسية الغنية محاولات للصمود فى وجه الخزرج . لكنها باءت بالهزيمة . وحين عجزت عن الصمود ، وأيست من نصرة اليهود اتجهت إلى عنصر خارجى ، فأرسلت وفداً إلى مكة لاستعداء .

قريش على الخزرج (١) . لكن قريشاً كانت دائما تبتعد عن كل ما من شأنه أن يورطها أو يجرها إلى حروب قد تضر بمصالحها التجارية ، فرفضت هذا الحلف الذى يشتم منه رائحة الدماء . واضطرت الأوس أمام هذا الفشل إلى الخضوع ، كما اضطرت بعض بطونها إلى الخروج عن مساكنها أمام ضغط الخزرج .

غير أن الوضع ما لبث أن تغير ، فقد أسفر الخزرج عن نياتهم فى الحصول على ما فى أيدى قريظة والنضير من الأراضى والدور . وفعلا آذنوهم بالحرب أو أن يسلموا ما بأيديهم . ولم يكن هذا العمل من زعماء الخزرج - فى هذا الوقت - ينطوى على شىء من الحكمة . فإن هذا الموقف وحد بين الأوس واليهود من قريظة والنضير . إذ وجد هؤلاء أن عليهم إن أرادوا البقاء فى يثرب أن يخوضوا ضد الخزرج معركة فاصلة ، ولم يكن الخزرج بأقل منهم رغبة فى خوض هذه المعركة لتأكيد سيادتهم ولتغيير الوضع الاقتصادى تغييرا نهائيا ، ولما كانت المعركة معركة حياة أو موت ، فقد حشد لها الطرفان كل إمكانياتهما واستجلبا حلفاءهما من قبائل البادية . ولما كانت المعركة بالنسبة للأوس وحلفائهم هى معركة الحياة فقد استماتوا فى القتال وألحقوا بخصومهم هزيمة كبيرة ، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة إلا خشية الأوس من أن يستعيد اليهود مركزهم السابق فى يثرب ، فيضطر الأوس لمواجهتهم على انفراد لو قضى على قوة الخزرج ، وفعلا بدت نيات اليهود واضحة فى تحطيم الخزرج وإذلالهم . ولذلك فضلت الأوس الاكتفاء بالقضاء على

---

(١) ابن هشام ٢/٣٦ - ٣٧ . أسد الغابة ١/١٢٤ ، ١٥٨ .

روح التسلط فى الخزرج دون القضاء عليهم ، ورأت أن جوارهم «خير من جوار الثعالب» .

وقد استغل أحد زعماء الخزرج ، وهو عبد الله بن أبى ، موقفه الحيادى لصالحه الشخصى ولصالح قبيلته : فاستطاع أن يحمى أمواله من الاعتداء عليها : وأن يكسب لنفسه مركزاً أدبيا فى هذا الجو المضطرب بين طوائف المدينة المختلفة ، فاتجهت إليه أنظار الطرفين على السواء كرجل يمكن أن يكون واسطة التجميع وحل النزاع . كما أنه استطاع أن يضم إلى جانب قبيلته إحدى قبيلتى اليهود القويتين وهم بنو النضير وبذلك حدث توازن بين المعسكرين المتخاصمين .

من كل ذلك نرى أن العامل الاقتصادى كان هو العامل المتحكم فى توجيه العلاقات العامة بين السكان فى يثرب . وحتى بين بطون القبيلة الواحدة أو بين عشائر البطن الواحد لم تستطع لحمة الدم أن تتغلب على الدوافع الاقتصادية التى كثيراً ما كانت تثير النزاع بينها ، وإذا كانت بطون الأوس أو بطون الخزرج كانت تتجمع كل تحت راية قبيلته فى النزاع العام بحكم رابطة الدم ، فإنه كثيراً ما كانت بطون من الطرفين ترى أن مصلحتها الاقتصادية تقتضيها التزام جانب الحياد كما أنها كثيراً ما كانت تتنازع فيما بينها ، فيحاول بعضها أن يستولى على ما فى يد الآخر من الأراضى والدور ، كما حدث مثلا بين بنى حارثة وبنى عبد الأشهل وهما بطنان من فرع واحد من الأوس وهو النبيت ، كانا متجاورين فى منازلهما ، تقاتلا فأجلى بنو حارثة إخوانهم بنى عبد الأشهل حتى ألحقوهم بأرض بنى سليم ، ثم عاد هؤلاء بحلفائهم من سليم فهزموا بنى حارثة وأجلوهم إلى خيبر فأقاموا بها قريباً من سنة

حتى تم الصلح بينهما(١) . وكما حدث بين بنى بياضة وبنى زريق وهما بطنان من فرع واحد من الخزرج إذ اقتتلوا وأجلى الأولون الآخرين عن منازلهم(٢) .

وهكذا أصبحت مدينة يثرب تغلى بالخلافات وتضارب المصالح والأهواء . لكن يوم بعاث أصاب الفريقين بأضرار كبيرة ، فقد قتل فيه عدد كبير من سروات القوم جميعاً ورؤسائهم ، وأصيبت الممتلكات بأضرار فادحة نتيجة التقطيع والتحريق . الأمر الذى جعل الناس يفكرون فى ضرورة وضع حد لهذه المنازعات .. فبدأت الأفكار تتجه إلى إيجاد جو من السلام ينصرف الناس فيه لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناء العيش ، وبخاصة البطون الصغيرة التى لم تكن لها مصالح فى النزاع وكان همها أن تعيش فى سلام . لذلك سعى كثير من الزعماء وذوى النفوذ من الطرفين لكف كل من تحدثه نفسه بمحاولة إثارة الفتنة وإيقاد نار العداوة .

وعلى العموم فإن بعاث قد أضعف بطون يثرب كلها وأوجد فيها ميلا إلى الاتحاد ، حتى إنه ليقال إنها أرادت أن تملك عليها ملكا من الخزرج ، كما يحدثنا ابن إسحاق «وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبى بن سلول العوفى لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين ، فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله

(١) السمهودى ١/١٣٦ . (٢) نفسه ١/١٤٦ .

عليه وسلم وهم على ذلك . فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصراً على نفاق وضغن(١) » .

فكأن قلوب أهل يثرب على اختلاف قبائلها وكثرة نزعاتها سئمت حالة الجفاء والعداوة ، وأحست بالحاجة إلى من يخرجهم منها ويوجه نشاطهم إلى ما هو أجدى عليهم وأكثر نفعا .

---

(١) ابن هشام ٢١٦/١ .

الفصل الثالث

قوة يثرب وعلاقاتها الخارجية

إن الخصائص العامة للصلة بين البيئات الزراعية وبين جيرانها من البدو الرحل هى العلاقات المزعزعة التى تتسم عادة بالحذر والتربص فالبدو دائماً يطمعون فى خيرات هذه المناطق الخصيبة . وهم ينتهزون كل فرصة تسنح للإغارة عليها لسلب ما تقع عليه أيديهم من حاصلاتها ومواشيها ، ولذلك كثيراً ما كان أهل القرى يلقون عنتا كبيرا وتصاب زراعاتهم وممتلكاتهم بأضرار فادحة من جراء سطو هؤلاء البدو وغاراتهم الجريئة . وحتى الدول الكبرى ذات القوة كثيراً ما كانت تتعرض حدودها المجاورة للقبائل البدوية لغارات رجال هذه القبائل المدمرة ؛ فكانت لذلك تتخذ من الإجراءات السلمية والحربية ما تكف به عادية هؤلاء الطامعين الجريئين : فهى فى بعض الأحيان تصطنع وسائل الاستمالة عن طريق الحلف أو دفع إتاوات لرؤساء القبائل ؛ ولكنها دائماً تعد من وسائل القوة ما يخيفهم ويكبح جماحهم ؛ فإن أى بادرة من الضعف تبدو فى نظر هؤلاء البدو كانت تغريهم بالانقلاب على حلفائهم والإغارة عليهم ، لذلك كانت تقيم المسالح والحصون وتراقب حركات البدو مراقبة دقيقة ، وتعد حملات حربية لتأديبهم عند ظهور أى علامة على تمردهم وعدوانهم .

وقد انطبعت علاقات المدينة مع جيرانها بهذا الطابع ، وما الإكثار من إقامة الحصون والاطام فى كل أنحاء منطقة يثرب إلا مظهراً من مظاهر هذه العلاقات بين هذه المنطقة الزراعية وبين جيرانها من القبائل البدوية الضاربة حولها ، وهو إجراء دفاعى ضد ما يقع على الممتلكات والحاصلات من غارات لابد كانت تحدث على منطقة يثرب . وإذا كانت المصادر لم تحدثنا عن هذه الغارات . فإن الروايات التى ذكرها المؤرخون عن الأحداث التى وقعت فى عهد الإسلام لتشير إلى هذه الغارات إشارات ظاهرة ؛ فيذكر المؤرخون حين يتحدثون عن المداولات التى جرت بين النبى والمسلمين فى يوم أحد أن عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى قال « كنا نقاتل فى الجاهلية فيها (المدينة) ونجعل النساء والذرارى فى هذه الصياصى ، ونجعل معهم الحجارة ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمى المرأة والصبى من فوق الصياصى والآطام ، ونقاتل بأسيافنا فى السكك يا رسول الله ، إن مدينتنا عذراء ما فضت علينا قط ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا ، وما دخل علينا قط إلا أصبناه .. يا رسول الله ، أطعنى فى هذا الأمر واعلم أنى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم فهم أهل الحرب والتجربة (١) » وقال إياس بن أوس بن عتيك الأوسى « لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها فتكون هذه مجرأة لقريش ، وقد وطئوا سعفنا فإذا لم نذب عن عرضنا لم يزرع ، وقد كنا يا رسول الله فى جاهليتنا والعرب يأتوننا فلا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا حتى نذبهم عنا »(٢) وقال خيثمة أبو سعد بن خيثمة الأوسى « يا رسول

---

(١) ابن هشام ٣/٧ . الواقدى ١٦٤ — ١٦٥ . (٢) الواقدى ١٦٦ .

الله ، إن قريشا مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قادوا الخيل وامتطوا الإبل ، حتى نزلوا بساحتنا ، فيحصروننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُكلموا ، فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا ويصيبوا أطرافنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما قد منعوا بحرثنا وتجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فنلقهم عن حرانا»(١) . وحين فكر النبى فى أن يصالح غطفان على ثلث ثمار يثرب إن رجعوا فى أيام معركة الخندق ، استشار سعداً بن معاذ فى ذلك ، فقال سعد : «يا رسول الله . قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه . وهم لا يطمعون أن يأكلون منها ثمرة إلا قرى أو بيعا : أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ، والله مالنا بهذا من حاجة : ووالله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» (٢) .

من ذلك نستطيع القول بأن المدينة كانت تتعرض من حين لآخر إلى غارات القبائل البدوية على منطقتها ، وكان أهل المدينة يصدونها بقوة السلاح ، وبالاعتماد على الحصون والأطام يجتمعون بها ويتخذونها مخازن لحفظ حاصلاتهم ، وكانت الآطام هى عزهم ومنعتهم وحصونهم التى يتحرزون فيها من عدوهم(٣) . وكان أهل المدينة أهل قوة وجلد وبصر بالحرب تمرسوا عليها فيما وقع بينهم من صراع وأيام ، وفيما حدث

---

(١) الواقدى ١٦٦ .

(٢) ابن هشام ٢٣٩/٣ . ابن سعد ١١١/٣ . امتاع ٢٣٦/١ .

(٣) الأغانى ١١٨/١٣ (طبعة مصر) .

بينهم وبين جيرانهم من احتكاك ، كما كانوا أهل عدة ونجدة وسلاح وقد عرفت لهم العرب أن مدينتهم دار منعة وهم قوم أهل حلقة وبأس(١) وقد اعتدوا هم بأنفسهم حتى لا يبالون بعداوة من عاداهم ، يشهد بذلك إقدامهم على محالفة النبي بدعوته للخروج إلى بلدهم ، فى الوقت الذى خشيت فيه كل قبائل العرب الإقدام على هذا الموقف إشفاقا من عداوة قريش وما يترتب عليها ، وقد بصرهم العباس بن عبد المطلب عند بيعة العقبة الكبرى بما يترتب على عملهم هذا من خطورة معاداة قبيلة تحالفها كل قبائل العرب وترتبط معها بمصالح قوية . قال «فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر واستقلال بعداوة العرب ترميكم عن قوس واحدة فارتأوا رأيكم وأتمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع(٢)» . وكان ردهم بعد هذا التبصير أن قال قائلهم «يا رسول الله بايعنا فنحن أهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر»(٣) .

ولقد كانت يثرب تملك من القوة الحربية ما تستطيع به فعلا أن تحمى نفسها وأن ترد عادية القبائل عنها وليس لدينا إحصاء عن عدد رجال الأوس والخزرج ، ولكننا نستطيع تحديد قوتهم الحربية من المعارك التى خاضوها بعد الهجرة ؛ فقد بلغ عدد محاربيهم فى يوم فتح مكة ، وهو الوقت الذى كان أهل المدينة منهم قد دخلوا فيه كلهم فى الإسلام ، أربعة آلاف مقاتل(٤) . أما عدد اليهود فقد بلغ عدد الرجال البالغين من قبائلهم الثلاث حوالى الألفين ، هذا بالإضافة إلى أعداد البطون الصغيرة من اليهود ، فكأن يثرب كانت تستطيع أن توجه

---

(١) ابن سعد ١/٢١٠ - ٢١٢ .
(٢) نفسه ١/٢٠٦ .
(٣) نفسه ١/٢٠٦ .
(٤) امتاع ١/٣٦٤ .

إلى ميدان القتال عند الضرورة ستة آلاف محارب ، وإن كان هذا العدد لم يتحقق فى معركة من معاركها ؛ وذلك للصراع الداخلى بين بطونها فى الجاهلية ولأن موقفها بالنسبة لجيرانها كان موقفاً دفاعياً ، فلم تذكر المصادر أن أهل يثرب قاموا فى الجاهلية بغزو خارجى لجيرانهم ثم إن اليهود لم يشاركوا بقدتهم فى معارك الإسلام . لذلك كان أكثر جيش جشدته يثرب أربعة آلاف مقاتل من العرب من أهلها .

وقد كان رجال يثرب مرهوبى القوة على جانب عظيم من الشجاعة وقوة البأس ، تشهد بذلك مواقفهم فى معارك الإسلام : كما يشهد بذلك تقدير قريش لبأسهم وخوف زعمائهم منهم يوم بدر على الرغم من قلة عددهم(١) .

ولقد اكتسب أهل المدينة خبرة بالقتال من حروبهم الداخلية ومن استعدادهم دائما للدفاع عن أراضيهم وممتلكاتهم ؛ وكان لديهم من عدة الحرب وسلاحها ما يستطيعون به تسليح قوة مرهوبة : فقد كانت المدينة موطنا من مواطن صناعة الأسلحة من دروع اشتهر اليهود بصناعتها وروجوا لها بأنهم إنما ورثوا صناعتها عن داود النبى(٢) . كما اشتهروا بصناعة السيوف ، وكانت يثرب كذلك مشهورة بصناعة السهام حتى قالوا إن أجود السهام سهام يثرب(٣) . ومن قائمة الأسلحة التى غنمها

---

(١) كان عدد المسلمين يوم بدر حوالى الثلاثمائة وكان عدد قريش تسعمائة وخمسين ، قال عمير بن وهب الجمحى وقد ذهب بحزر عدد المسلمين (يا معشر قريش ، البلايا تحمل المنايا) نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، ألا ترونهم خرسا لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعى) الواقدى ٤٤ . الطبرى ٢/٤٤٦ .

(٢) ومن نسج داود موضونة ترى للقواضب فيها صليلا
المفضليات ١/٥٧ .

(٣) منعت قياس الماسخية رأسه بسهام يثرب أو سهام بلام
ديوان الأعشى ٩٨ .

المسلمون من بنى قريظة - وهم لم يكونوا من أقوى البطون اليهودية بله البطون العربية - نستطيع أن نحكم على مقدار ما كانت تملكه بطون يثرب من أسلحة متنوعة ، فقد كانت مخلفات قريظة ألفا وخمسمائة سيف وألفىْ رمح وألفا وخمسمائة ترس وحجفة وثلاثمائة درع (١) . كما كانت عدة الحرب عزيزة عند من يمتلكها لا يبيعها ولا يراها تفضل عنه(٢) ؛ لشدة حاجتهم إليها فى الدفاع عن أنفسهم حتى ليرونها عديل الولد(٣) .

ولولا خلافات يثرب الداخلية التى مزقت وحدتها وشتتت جهودها لكان من الممكن أن يكون لها شأن خطير فى الجاهلية ، ولكان من الممكن أن تكون منافسا خطيرا لمركز مكة ولربما تغلبت عليها كما حدث بعد الهجرة .

ولما كانت العلاقات بين يثرب وجيرانها من البدو علاقة حذر وتربص فإن يثرب قد اطمأنت إلى قوتها ، ولم تتوسع فى علاقاتها مع القبائل العربية إلا بحسب ظروف الأخذ والعطاء من بيع وشراء مع القبائل المجاورة لها . وقد ذكرت المصادر محالفات للبطون اليثربية العربية مع بعض القبائل الضاربة حول يثرب ، فحالفت بعض بطون الأوس قبائل سليم ومزينة التى كانت تعيش إلى شرقى يثرب ، وحالفت بطون الخزرج قبائل جهينة التى كانت تعيش إلى غربى المدينة وأشجع التى كانت تعيش إلى شمالها الغربى(٤) . لكن المحالفات القبلية حالات طارئة

---

(١) ابن سعد ٣/١١٧ . امتاع ١/٢٤٥ .
(٢) الأغانى ١٣/١٢٠ (طبعة مصر) .
(٣) انظر ابن هشام ٢/٤٣٧ عن مفاوضة بعض الأنصار مع كعب بن الأشرف .
(٤) الأغانى ١٥/١٥٩ (طبعة مصر) .

اقتضتها ظروف المصالح المشتركة ؛ ولذلك كثيراً ما كانت تنقض القبائل محالفاتها وتتجه بها إلى حيث تكون مصالحها . ومن هنا رأينا بعض هذه القبائل التي حالفت الأوس والخزرج خرجت على هذا الحلف في أيام الصراع بين مكة والمدينة بعد الهجرة ، وقد اشتركت سليم وأشجع في الهجوم على المدينة في غزوة الأحزاب(١) . لكنها عادت بعد ذلك فاشتركت بكل قواتها إلى جانب يثرب عند فتح مكة . وهي في كلتا الحالتين كانت تجري وراء مصالحها . ولم نر ليثرب محالفات واسعة مع القبائل العربية البعيدة عن المدينة . مما يدل على أن نشاط يثرب كان محدودا في الجزيرة العربية ؛ وأنها كانت مشغولة بظروفها الداخلية وبنشاطها الزراعي ، فلم تتوسع في نشاطها الخارجي .

ولم تكن ليهود يثرب محالفات خارجية ، ويبدو أنهم لم يروا في هذه المحالفات منفعة لهم في صراعهم ضد الأوس والخزرج ، إذ أنهم لو جلبوا قبائل أخرى إلى يثرب ، لربما هيجوا أطماع هذه القبائل فيما عندهم ولكانت العاقبة تهديد العرب واليهود في يثرب على السواء ، فلم يشاءوا أن يوسعوا دائرة النزاع ، واطمأنوا إلى قوة عرب المدينة في الدفاع عنها ضد العدو الخارجي ، ومن ثم اكتفوا بأن تكون علاقاتهم بالقبائل علاقة منفعة مادية يجدونها في البيع والشراء ، ومزاولة الربا واستغلال حاجة الأعراب إلى حاصلات المدينة ومصنوعاتها ولتنمية ثرواتهم ...

وكانت علاقة أهل يثرب جميعاً طيبة مع مدن الحجاز فكانت

---

(١) امتاع ١/٢١٨ - ٢١٩ .

علاقتهم حسنة مع مكة والطائف وخيبر حيث كانوا يتبادلون المنافع : فيصرف اليهود صناعاتهم من حلى وسلاح ، ويمتاز أهل مكة ما يحتاجون إليه من تمر المدينة . كما يحصل أهل يثرب على ما يحتاجون إليه من المجلوبات الخارجية التى تتاجر فيها قريش ، ومن حاصلات الطائف.

أما علاقات يثرب بالممالك والدول على أطراف الجزيرة وخارجها فكانت محدودة ، فلم تحدثنا المصادر بشىء عن علاقات قامت بين أهل يثرب وبين الفرس أو الروم . ويرجع ذلك إلى أن المدينة لم تشارك فى التجارة الخارجية فى الجزيرة العربية مشاركة ذات أثر . وإن كان لا يستبعد أن يكون بعض رجالها قد ذهبوا إلى البلاد التابعة للدولتين فى بعض التجارات .

أما علاقات يثرب بالغساسنة ، فقد رأينا صورة منها فى استنجاد الأوس والخزرج بعرب غسان ضد اليهود . لكننا لم نجد استمراراً لهذه العلاقة بعد ذلك . فلم يذكر المؤرخون شيئاً عن اتصال الغساسنة بشئون يثرب الداخلية بعد ذلك ، وإن كانت العلاقات الحسنة قد ظلت بين الطرفين . إذ تحدثنا المصادر عن وفادات شاعر المدينة حسان بن ثابت الخزرجى على ملوك غسان ومدحه لهم وصلاتهم له (١) .

أما صلات المدينة باليمن فهى قديمة ترجع إلى أيام المعينيين ؛ فقد كانت يثرب إحدى المحطات على طريق التجارة المار بالحجاز . وحين قدم اليهود إليها كانت بها بطون عربية من اليمن . ثم إن الأوس والخزرج أنفسهم قدموا إليها من اليمن بعد تفرق قبائل الأزد اليمنية

---

(١) الأغانى ١٤/٢ - ٣ (مصر) .

وهجراتها نحو الشمال . وتروى المصادر أن التبع أبا كرب تبان أسعد الحميرى أقبل يريد المشرق كما كانت التبابعة تفعل . فمر بالمدينة ، ووقع له مع أهلها خلاف جعله يجمع لحربها ؛ فوقعت بينه وبين أهلها حروب انتهت برجوعه عنها . وقد أقنعه حبران يهوديان بالتهود فتهود ونقل اليهودية إلى اليمن (١) . وبغض النظر عن صحة هذه الروايات أو عدم صحتها ، فإنها تعطينا فكرة عن علاقة الحجاز كله بالجنوب وأنه كان فى شبه تبعية لليمن حتى نهاية القرن الخامس الميلادى . وإذا كانت قد قامت مثل هذه الصلة بين يثرب واليمن فى وقت سيادة النفوذ الجنوبى فى شبه الجزيرة العربية ، فإن المصادر لم تحدثنا بشىء عن استمرار هذه الصلة بعد زوال النفوذ اليمنى واحتلال عرب الشمال مركز الصدارة . ويرجع ذلك إلى انصراف أهل يثرب إلى خلافاتهم الداخلية الأمر الذى حد كثيراً من نشاطهم الخارجى ، فلم يأخذوا منه بنصيب يتناسب مع موقع المدينة وظروفها الطبيعية .

(١) ابن هشام ١/١٤ - ١٧ الأغانى ١٣/١١٥ - ١١٨ (مصر) .

الفصل الرابع

الحالة الاقتصادية

كانت الحالة الاقتصادية فى يثرب متعددة الجوانب : فالمدينة تقع فى منطقة خصيبة تسيل فيها الوديان بما يغذى هذه المنطقة بالمياه الكافية لقيام زراعة جيدة فيها ، إلى جانب الآبار والعيون التى كثرت فى منطقتها والتى حفرها السكان للانتفاع بمياهها للشرب والسقى . ولذلك عمل أهلها بالزراعة ، وكانت خصوبة التربة تغنيهم عن الضرب فى الأرض ابتغاء الرزق بوجه الإجمال . وقد وردت آيات قرآنية كثيرة تشير إلى جنات النخيل والأعناب والزروع الأخرى ومن بينها الحبوب والبقول(١) : بما يمكن أن يقدم برهانا على أن أهل المدينة كانوا على حظ غير يسير من الأعمال الزراعية المتنوعة ؛ وأن هذه الزراعات كانت توفر الجزء الأكبر من حاجة السكان الغذائية ، كما أن أهل البادية كانوا يمتارون منها ما هم فى حاجة إليه من غذاء وبخاصة التمر ، وقد حفلت الآيات كثيراً بذكر النخيل مما يوحى بأنه كان يسد كثيراً من حاجة السكان الغذائية .

كما أنه قد ورد كثير من الآيات المدنية فيها بعض الأوامر والنواهى

---

(١) البقرة ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦ الأنعام ٩٩، ١٤١ . الكهف ٣٢ - ٣٤ . المؤمنون ١٩ يس ٣٣ - ٣٤ . ق ٧ - ١١ .

والتشريعات الخاصة بالتجارة والأعمال التجارية ، مما يمكن أن يلهم بأنه كان فى المدينة حركة تجارية غير ضعيفة .

كما أن مجتمعاً مدنياً كمجتمع يثرب لابد أن تقوم فيه صناعة لسد حاجة السكان مما يحتاجون إليه من صناعات هى من مستلزمات الحياة الزراعية ومستعملات السكان اليومية ، وما يترفهون به ويتحلون وما يحتاجون إليه من سلاح كان ضرورياً للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم ولا يعقل أن يجلبوا كل ما يحتاجون إليه من هذه الأدوات والحاجيات المتنوعة الكثيرة مصنوعا من الخارج .

النشاط الزراعى

كانت الحرفة الرئيسية لسكان يثرب هى الزراعة نظراً لطبيعة المنطقة ، فقد كانت أرضها بركانية التربة خصبة ، وكانت تسيل بها وديان كثيرة تفيض بمياه السيول التى تتجمع فى الحرات الشرقية والجنوبية فى فترات مختلفة من السنة(١) فتسيل إلى الغرب والشمال ، حتى تتجمع آخر الأمر فى شمال غرب المدينة عند مجتمع الأسيال حيث تنصب فى وادى إضم الذى يسيل شمال غربى أحد(٢) وهذه الوديان كانت تتخلل منطقة المدينة كلها ، فتروى أرضها وتسيل مياهها من شراج الحرة الشرقية فى مياه قليلة عادة لا تصل إلى أكثر من ارتفاع الكعبين ولكنها كانت أحيانا تفيض: حتى تصل إلى أنصاف النخل(٣) وكان الزراع يسقون نخيلهم وزروعهم من هذه المياه ، فيسقون الماء بينهم بأن يحبس الماء صاحب الأرض العالية حتى تسقى نخله فتصل إلى جذوره

---

(١) ياقوت ١٧/ ٩١ ، ٨/٢٣٤ . (٢) السمهودى ٢/٢١٩ .

(٣) نفسه ٢١٨ - ٢١٩ .

بارتفاع الكعبين ، ثم يرسلها إلى من هو أسفل منه فيسقى(١) . وفى الأوقات التى تشح فيها مياه الوديان أو تنقطع ، وفي الأماكن التى لم تكن تصل إليها ، كان الناس يستخدمون مياه الآبار فى إرواء مزروعاتهم فيرفعونها من الآبار لرى الأراضى القريبة من البئر ، أو يحملونها على الجمال النواضح لرى الجهات التى تبعد عنها(٢) .

وأهم مزروعات المدينة أشجار النخيل يزرعونها فى معارس كبيرة ، وقد يحوطونها فتكون حدائق . وكانت أرض المدينة صالحة لزراعة النخيل حتى ليقال إن ودية النخل تثمر بعد عام من زرعها ، وعلى إنتاج النخيل كان يعتمد السكان . فكان من التمر جل طعامهم . كما كان به التعامل بينهم . فتدفع منه الأجور وتسدد الديون(٣) . كما كانوا ينتفعون بكل شىء فى النخلة : يأكلون جمارها(٤) ، ويستخدمون جريدها فى سقوف منازلهم ، ويعملون من خوصها المكاتل والقفف(٥) . ويستخدمون جذوعها أعمدة لبيوتهم وحمالات لسقوفها ، ويستخدمون الشوك والكرانيف للوقود ؛ كما كانوا يرضخون النوى بالمراضخ حتى يتكسر فيكون علفا للإبل ، فالنخلة من أكرم الأشجار عليهم حتى لقد شبه النبى المؤمن بالنخلة كل ما فيه خير .

وتمر المدينة متعدد الأنواع منه الجيد ومنه غير الجيد(٦) . ومن

---

(١) البخارى ٣/١١١ .

(٢) الأغانى ١٣/١١٨ (مصر) . البعير الناضح هو الذى يحمل الماء لسقى الزرع من البئر القاموس مادة « نضح » .

(٣) البخارى ٣/٦٣ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١١٧ ، ١٣٧ . التراتيب الإدارية : ١/٤٠٠ — ٤٠٣ . السمهودى ٢/١٥٥ .

(٤) البخارى ٣/٧٨ . (الجمار — شحم النخل وهو أعلى الساق تحت الجريد) القاموس مادة « جمر » .

(٥) الدلالات السمعية ٦٦٩ .

(٦) البخارى ٣/٥٨ .

أشهر أنواعه : الصيحانى ، وابن طاب ، وعدق زيد . والعجوة ، والصرفان وهو نوع من التمر أحمر هو أوزن التمر كله ، والجنيب وهو من أجود أنواع التمر ، وقد كان ليهود بنى النضير نوع فاخر من التمر يقال له اللوز اصفر شديد الصفرة ترى النواة فيه من اللحمة(١) .

والشعير هو الغلة الثانية بعد التمر ، وكانوا يزرعونه فى حقول ولكنهم عادة كانوا يزرعونه تحت النخيل(٢) . وكان عليه اعتمادهم بعد التمر . وليس لدينا إحصاء عن مقدار غلة المدينة من التمر ومن الشعير ، ولكن الراجح أن محصول الشعير كان يساوى ربع محصول التمر (٣) ، وأن محصول التمر كان يكفى حاجة السكان ويسمح ببيع الفائض ، بينما كان أهل يثرب يستوردون بعض الشعير لسد النقص فى حاجتهم .

وإلى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين كان بزرع قليل من القمح والكروم ، وبعض أنواع الفاكهة الأخرى من رمان وموز وليمون وبطيخ وقاوون ، كما كانت تزرع بعض الخضروات والبقول كالقرع واللوبيا والسلق والبصل والثوم والقثاء (٤) .

وكان جل أهل المدينة يعملون بالزراعة ، منهم من كان يملك الأراضى الواسعة يزرعها لحسابه أو يزارع عليها غيره أو يكريها (يؤجرها) ، ومنهم من كان يملك قدراً يقوم على زراعته بنفسه ، ومنهم

---

(١) البخارى ٣/٥٧ ، ٦٧ ، ٧٨ . الواقدى ٢٨٩ .

(٢) إمتاع ١/١٨٢ ، ٣٢٨ .

(٣) (قياساً على ما كانت تنتجه خيبر وهى واحة شبيهة بالمدينة ، فقد كانت تنتج أربعين ألف وسق من التمر وعشرة آلاف وسق من الشعير) إمتاع ١/٣٢٨ — ٣٢٩ .

(٤) البخارى ٣/٥٢ ، ٦٥ ، ١٠٩ . الدلالات السمعية ٦٥٦ البنوف ٢٠٨ .

من لم يكن له ملك خاص فيزرع فى أرض غيره مزارعة أو كراء.

وكانت لهم طرق فى المزارعة والمؤاجرة(١) ، بحسب جودة الأرض. فقد كانوا يزارعون على الثلث أو على الربع وأحياناً على النصف مما تنتجه الأرض(٢) . أما المؤاجرة فلم تكن المعاملة فيها بالدنانير أو بالدراهم ، وإنما كان لهم فيها أيضا عدة طرق ؛ إما أن يؤجر الشخص حقله على الربع من المحصول مع شىء من التبن أو شىء من المحصول يستثنيه صاحب الأرض ، أو يؤجرها على عدد محدد من أوسق التمر والشعير . أو أن يسمى قسم من الحقل لصاحب الأرض وقسم للزارع ، وكل منهما يأخذ ما ينتجه قسمه قل أو كثر ، وكان ربما يحدث أن يصاب أحد القسمين فيضعف محصوله أو لا ينتج أصلا فلا يلتزم صاحب القسم الآخر تجاهه بشىء(٣) .

وعلى الرغم من اشتغال معظم السكان بالزراعة فإن حاصلات المدينة الزراعية لم تكن كافية لتموين سكانها ، فكانوا يستوردون ما يسد حاجتهم من الخارج ، من بلاد الشام ، وكانت تبلغ بهم الحاجة إلى أن يسلفوا نبيط أهل الشام فى الحنطة والشعير والزبيب إلى أجل مسمى قد يبلغ السنة والسنتين(٤) ؛ حتى يضمنوا أن يحصلوا على حاجتهم منه . وكانت أخصب الأراضى وأكثرها غلة فى أيدى سكان العوالى من منطقة المدينة من اليهود والعرب ، ولذلك كان الأغنياء منهم وبخاصة اليهود

(١) (المزارعة أن يعهد شخص إلى آخر بالقيام بزراعة الأرض وسقيها وتعهدها وله نصيب من المحصول ١/٣٢٨ حاشية (١) .

(٢) البخارى ٣/١٠٧ . (٣) البخارى ٣/١٠٤ - ١٠٩ .

(٤) نفسه ٣/ ٨٥ - ٨٧ (السلف : نوع من البيوع يعجل فيه الثمن وتضبط السلعة بالوصف إلى أجل معلوم . القاموس مادة سلف) .

يستغلون حاجة الفقراء أو أصحاب الأراضى القليلة والضعيفة الإنتاج إلى الاستدانة منهم نظير رهن يقدمونه(١) أو يضطرون إلى بيع ثمار نخلهم وأعنابهم مُزَابَنَةً ، ومحاصيل شعيرهم وقمحهم مُحَاقَلَة ، فيزيد هؤلاء الأغنياء من ثرواتهم بينما يصاب الفقراء بالخسارة والخراب ، وربما يضطر صاحب الأرض القليلة إلى التخلى عنها وفاء المديونه(٢) ، وقد كان هذا الأمر مما يتعر بالهوة بين الأغنياء من أصحاب الأراضى وبين الفقراء ، ويؤدى إلى إثارة المطامع والأحقاد ، وقيام التنازع بين البطون رغبة فى تملك الأراضى الزراعية ، وما كان يحدث بسببه من حروب ، كان الخصم يتجه فيها إلى تدمير ثروة خصمه بقطع نخله وإتلاف مزروعاته ، مما كان يؤدى إلى إضعاف قوة المدينة الاقتصادية نتيجة هذه الخسائر المادية .

وكان اليهود أكثر غنى من العرب بوجه عام ، لذلك لم تكن حاصلات العرب تكفى لسد حاجتهم إلا بصعوبة ، وكثيراً ما كانوا يستدينون من اليهود(٣) ، وهذا يفسر لنا مقدار الجهد الذى تحمله عرب المدينة حين نزل عليهم المهاجرون من أهل مكة فأقاموا معهم فى ضيافتهم ثم عملوا فى أراضيهم مزارعة(٤) .

وعلى الرغم من أن عدد المهاجرين لم يكن يتجاوز المائة أسرة ، فإن هذا العدد القليل أثر على حياة الأنصار الاقتصادية ، ولم تتحسن الأحوال

---

(١) البخارى ٣/٥٦ ، ٥٧ ، ٧٢ ، ٧٧ .

(٢) نفسه ٣/٧٣ - ٧٥ (المزابنة : بيع التمر فى رؤوس النخل بتمر كيلا . والمحاقلة بيع الزرع فى سنبله : الشعير بشعير كيلا والقمح بقمح كيلا . القاموس مادة « زبن » . و (« حقل ») .

(٣) البخارى ٣/٦٧ .

(٤) نفسه ٣/١٠٤ ، ١٥٥ ، ١٦٦ .

إلا بعد إجلاء بعض القبائل اليهودية عن المدينة . وبعد أن استقر أمر المهاجرين وأخذوا يجدون لهم رزقاً فى العمل بالتجارة(١) .

لكن الزراعة بالمدينة انتعشت بعد استقرار أحوالها بعد الهجرة والقضاء على المنازعات الداخلية فيها ، حتى استوعبت المدينة عدداً كبيراً من المهاجرين إليها والوافدين عليها من قبائل العرب ، وكثر عمرانها وبدأ الناس فى استغلال الأراضى واستصلاح مواتها وإعدادها للزراعة .

النشاط الرعوى

لم تكن منطقه المدينة بلاد رعى ، فقد كانت الأراضى الصالحة للزراعة تستغل فى إنتاج الحاصلات الزراعية ، وما وراء منطقة يثرب كان مجالا لنشاط القبائل البدوية . ومع ذالك فقد كان لأهل المدينة ثروة من الإبل والماشية والأغنام ، يرعونها ما تنبت منطقة المدينة من أشجار وشجيرات رعوية(٢) ، كما كانت توجد إلى الشمال الغربى للمدينة منطقة رعوية هى منطقة زغابة والغابة تبدأ من مجتمع الأسيال على سبعة أميال من جبل سلع على طريق الشام ، وبها أشجار ومراع يحتطب منها الناس ويرعون شجرها(٣) ، وإلى جنوب المدينة على طريق مكة توجد مراع بين المدينة والربذة حماها النبى بعد الهجرة لإبل الصدقة ترعاها (٤) كما حمى منطقة تسمى نقيع الخضمات فى الناحية الجنوبية الغربية من المدينة لخيول المسلمين(٥) .

---

(١) ابن هشام ٢/٢٣٣ — ٢٣٤ . البخارى ٣/٧٥ .
(٢) إمتاع ١/٢٤٧ .
(٣) ياقوت ١٠/١٤١ — ١٤٢ ، ١٤/١٨٢ .
(٤) السمهودى ٢/٢٢٢ .
(٥) ياقوت ٢/٤٠٤ — ٤٠٥ .

وقد كان أهل المدينة يملكون عدداً من البقر لحرث الأرض ، كما يستخدمون الابل فى رى الأراضى يحملون عليها الماء من الآبار ، ويسمونها الابل النواضح ، وكان بعضهم يملك منها عدداً قد يصل إلى المائة يستخدمها لهذا الغرض(١) كما كان البدو يجلبون إلى المدينة أغنامهم وإبلهم يبيعونها لأهلها(٢) .

لكن ما كان يملكه أهل يثرب من الابل والدواب والخيول كان قليلا بالقياس إلى ماكانت تملكه مكة أو تملكه القبائل البدوية منها(٣) لكنها زادت شيئا فشيئا بعد الهجرة تبعاً لحاجة المسلمين إليها فى حروبهم ، فكثر جلب الخيل من البادية ، يأتى بها الأعراب لبيعها ، وقد صارت لها سوق خاصة بالمدينة ؛ كان لبنو سليم المشهورون باقتناء الخيل يجلبونها إليها ، وأصبح يطلق على هذه السوق « بقيع الخيل »(٤) ، كما كانت تجلب إلى هذه السوق الابل والغنم أيضا . وقد ازدادت ثروة المدينة الحيوانية بالتدريج بعد الهجرة وقيام الدولة الاسلامية بها وكثرة الغزوات ضد القبائل العربية التى كانت تناوىء المدينة ، بما كان يقع فى أيدى المسلمين من غنائم من الابل والأغنام(٥) ، وبما كان

---

(١) (يروى صاحب الأغانى أن أحيحة بن الجلاح الأوسى كان يملك تسعة وتسعين بعيراً كلها ينتضح عليها) . الأغانى ١٢/١١٨ (مصر) .

(٢) البخارى ٣/٦٢ ، ٨٠ .

(٣) (كانت الإبل التى خرج عليها المسلمون يوم بدر سبعين بعيراً يعتقبها ثلاثمائة رجل ، بينما خرجت قريش ومعها سبعمائة بعير يعتقبها تسعمائة وخمسون رجلا . وكانت خيول المسلمين فرسين بينما كانت خيول أهل مكة مائة فرس (ابن هشام ٢/٢٥١ . إمتاع ١/٦٥) .

(٤) السمهودى ١/٥٤٤ .

(٥) (على سبيل المثال : غنم المسلمون فى غزوة بنى المصطلق ألفى بعير وخمسة آلاف شاة) وفى غزوة حنين أربعة وعشرين ألف بعير وأربعين ألف شاة)

يشتريه المسلمون من الخيول لسد حاجتهم الحربية(١) ، حتى لقد بلغ عدد الخيول فى جيش المدينة عند فتح مكة سنة ٨ هـ ألفى فرس ، كان الأنصار يملكون منها خمسمائة فرس ويملك المهاجرون ثلاثين فرساً ، الباقى تملكه القبائل التى والت المدينة ، وانضمت إليها(٢) ، وبلغ ما استطاع أن يمد به رجل واحد من المسلمين ، هو عثمان بن عفان ، جيش تبوك تسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً(٣) ، الأمر الذى يقطع بنمو الثروة الحيوانية فى يثرب نمواً كبيراً بعد الهجرة النبوية .

الصيد :

كان الصيد حرفة من الحرف التى يزاولها العرب سواء منهم أهل الحضر وأهل البادية ، وكانت وسيلة من وسائل المعاش عند بعض الناس . ولقد زاول أفراد من أهل المدينة حرفة الصيد وبرعوا فيها وكانت حيوانات الصحراء التى تصاد هى الحمر الوحشية والغزلان والأرانب والضباب يطاردونها بالخيل والرماح أو يرمونها بالسهام ، كما كانوا يستخدمون الكلاب المعلمة(٤) والبزاة للقبض على الصيد ، أو تعطيل الحيوان حتى يصل إليه الصائد فيرميه بالسهم ، أو يطعنه بالرمح ، أو بالمعراض وهو خشبة محددة الطرف أو يوضع فى طرفها حديدة . كما كانوا يستخدمون الفخاخ والشباك والأشواك المنشورة ، ومنها ما يدس تحت التراب من الحديد للبقر والحمير فإذا تخطت فيه حطت أرجلها ، ولذعها فرمحت فيقطع أعصابها حتى لا يكون بها حراك ، ثم يدركها الصائد(٥) .

---

(١) ابن هشام ٣٦٤/٢ . (٢) إمتاع ٣٦٤/١ .
(٣) الدلالات السمعية ٦٤١ . (٤) البخارى ٤٢/١ .
(٥) نفسه ١١/٢ - ٢٣ ؛ الدلالات السمعية ٦٦٩ - ٧٧٠ .

أما صيد البحر فقد كان مزاولا يزاوله سكان السواحل وقد يزاوله أهل الحاضرة ، ولا يستبعد أن يكون بعض أهل المدينة قد زاولوه فى أسفارهم ورحلاتهم ، وقد ورد ذكر الصيد بنوعيه فى القرآن الكريم مما يدل على أن الناس كانوا يزاولونه ، وينتفعون به ويعولون عليه فى حياتهم ومعاشهم(١) .

النشاط التجارى

من البديهى ألا تشذ يثرب عن حياة المدن والقرى الاستقرارية التى تتحمل الأعمال الدائمة وتتلازم مع الأعمال الزراعية والصناعية والتجارية . وإذا كان أهلها فى الأغلب - يعيشون على غلات الأرض والبساتين ، وكانت خصوبة التربة تغنيهم عن الضرب فى مناكب الأرض ابتغاء الرزق ، فإن طبيعة كونها مدينة وحولها القرى والأعراب لابد أن تجعل فيها حركة تجارية ، وأن يكون كثير من أهلها قد قد تفرغوا لأعمال التجارة . ولقد وردت فى القرآن الكريم آيات مدنية كثيرة فيها بعض الأوامر والنواهى والتشريعات(٢) ، مما يمكن أن يلهم أنه كان فى المدينة حركة تجارية غير ضعيفة قبل الإسلام . ولا يرد هذا بأن تكون قوة هذه الحركة فيها قد وجدت بعد الهجرة النبوية .

---

(١) « . . . لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذى إليه تحشرون » سورة المائدة ٩٥ - ٩٦ .

(٢) البقرة ٢٨٣ . النساء ٢٩ . التوبة ٢٤١ . النور ١٦ . الجمعة ٩ - ١١ .

التجارة الداخلية :

كانت التجارة الداخلية فى يثرب نشيطة ، والأخذ والعطاء والتعامل فيها كبيراً ، سواء بين أهلها أنفسهم ، أو بينهم وبين جيرانهم من الأعراب الذين كانوا يفدون على المدينة للامتيار منها ، ولتصريف منتجات البادية من إبل وغنم وخيل ، وصوف ووبر وسمن وأقط وغير ذلك ، كما كانت الصناعة فى يثرب قائمة وبخاصة صناعة الصياغة حيث كانت تمون مدن الحجاز وبدوها بما يحترجون إليه من حلى لنسائهم وبناتهم ، وكذلك بالمصنوعات الحديدية من أسلحة ودروع وآلات زراعية وغيرها .

وكان فى المدينة عدة أسواق ، والسوق فضاء واسع لا بناء فيه يضع فيه التجار بضائعهم ، والمكان لمن سبق(١) ، وكان الراكب ينزل بالسوق فيضع رحله ، ثم يطوف بالسوق ورحله بعينه يبصره لا يغيبه عنه شيء . وأهم هذه الأسواق سوق بنى قينقاع عند جسر وادى بطحان مجاورة لمنازلهم ، وكانت سوقاً عظيمة ، تكثر فيها الحركة ، وتسمع منها ضجة البيع والشراء والتعامل ، (٢) وأهم ما كان يباع الحلى التى تخصص يهود بنى قينقاع فى صناعتها . ثم سوق أخرى بزبالة من الناحية التى تدعى يثرب فى الشمال الغربى من المدينة ، وقد اتسعت هذه السوق وعظم أمرها بعد الإسلام حيث اتخذها المسلمون سوقاً لهم بعد أن فسدت العلاقات بينهم وبين اليهود .(٣) كما كانت توجد سوق بالعقبة وهى موضع من قباء :(٤) . وسوق بمزاحم عند مساكن بنى الحُبلى

---

(١) السمهودى ١/٥٤١ .

(٢) الأغانى ٢١/٦٢ « مصر » .

(٣) السمهودى ١/٥٤٠ .

(٤) ياقوت ١٣/١٢٨ .

عشيرة عبد الله بن أبى ، وسوق قرب البقيع عرفت ببقيع الخيل ، كان بنو سليم يجلبون إليها الخيل والإبل والغنم والسمن وكان أكثر ما يباع فى هذه السوق الحيوانات .(١)

كل هذه الأسواق كان يباع فيها كل ما تنتجه المدينة من تمر وشعير وطعام وخمر ، وحتى الحطب كان يباع فيها يجلبه الحطابون من أشجار المدينة أو من الغابة أو من البادية . كذلك كان يباع فيها ما يجلب إليها من الخارج من منتجات البادية من صوف وشعر ووبر وسمن وأقط . كذلك كانت الأشياء المصنوعة تباع فيها سواء أكان ذلك من صناعة المدينة نفسها من حلى وسلاح ؛ وآلات زراعية من مساح ومكاتل وكرازين ، أو ما يجلب إليها من الخارج من نبيذ وزيت وحنطة ومنسوجات قطنية وحريرية ، ونمارق ملونة مرسومة يبتاعها أهل النعمة واليسار ، كما كان هناك عطارون يتاجرون فى أنواع العطارة والمسك والروائح العطرية . وكان لكل طائفة من الباعة موضع معلوم فى السوق .(٢)

وإلى جانب البيع والشراء فى منتجات الأرض وفى المصنوعات والمجلوبات الخارجية . كان هناك أناس يعملون بالصيرفة ويعتبرونها نوعاً من التجارة ؛ فكانوا يبيعون الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، كما كانوا يقومون باستبدال النقود وكسرها ، ولكنهم كانوا يستغلون جهل الناس فلا يظهرونهم على مدى الجودة أو فارق الوزن فى الدنانير والدراهم .(٣)

---

(١) السمهودى ١/٥٤٤ - ٥٤٥ . البخارى ٣/٦٢ .

(٢) انظر البخارى ٣/٦٣ - ٦٤ . السمهودى ١/٥٣٩ - ٥٥٢ . الدلالات السمعية : ٦٤١ - ٦٤٣ .

(٣) الدلالات السمعية ٦٤٤ .

وكانت السمسرة حرفة يحترفها بعض الناس . فيتولون البيع نيابة عن أصحاب البضائع وبخاصة من أهل البادية ، وكثيراً ما كانوا يستغلون جهل هؤلاء البدو فيخسرونهم ، أو يرفعون فى السعر أو ينقصون مضاربة(١) .

ولم تكن هناك رقابة مفروضة على البيع والشراء وتنظيم التعامل فى هذه الأسواق ، إذ لم تكن فى المدينة هيئة حكومية ، وإنما كانت المدينة تحيا حياة قبلية تامة ، فلم تكن لذلك رقابة على ضبط المكاييل وتنظيم البيع والشراء ، وحماية السذج من البدو من الوقوع فى يد المحتالين والغشاشين ومع أن الكيل والوزن كان موجودا إلا أن البيع والشراء مُجَازَفَةً كان أمرا سائدا(٢) . كما كان من وسائلهم المُنَاجَشةُ فى البيع وهى أن يزيد الشخص فى السلعة أكثر من ثمنها ، لا يشتريها ولكن ليغرَّ غيره فيقع فيها(٣) . كما كان التجار يتلقون الركبان خارج المدينة فيشترون منهم ما يحملون من طعام قبل أن يصلوا إلى السوق حتى لا يعرفوا ثمنه الحقيقى ، ثم يجمعونه ليحتكروا بيعه فى السوق ، وأحياناً يبيعونه فى مكانه قبل أن يصلوا إلى السوق إذا تحقق لهم الربح الذى يريدونه(٤) . كما كان الغش والمخادعة أمرا جاريا فى الأسواق ، فكانوا يبلون الحنطة والشعير ليكثر كيلها ، أو يخفون الردىء داخل الطيب ، ويخلطون التمر الردىء بالجيد . ويحفلون (يصرون) الإبل والغنم

---

(١) البخارى ٣/٧١ - ٧٢ الدلالات السمعية ٦٥٣ .

(٢) البخارى ٣/٥٨ - ٥٩ الدلالات السمعية ٦٤٩ . (بيع الشىء مجازفة : بيعه دون أن يعلم كيله ولا وزنه القاموس مادة « جزف ») .

(٣) البخارى ٣/٦٩ القاموس مادة « نجش » .

(٤) البخارى ٣/٧١ - ٧٣ .

والبقر فلا يحلبونها أياما حتى تبدو أنها كثيرة اللبن ثم يبيعونها (١) .
كما كان البيع بالنسيئة (تأجيل الثمن) وبالرهن وسيلة من وسائلهم ، وهم بذلك يبغون تنشيط البيع من ناحية وتحقيق ربح أزيد من ناحية أخرى .

وكما كان أهل المدينة يتبايعون فى العروضات ، كذلك كانوا يتبايعون فيما بينهم فى الممتلكات والمزروعات ، فكانت الدور والأرض تباع فى المدينة(٢) . وكانوا يتصرفون فى مزروعاتهم ببيعها قبل أن يبدو محصولها ، فيبيعون التمر على رءوس النخل قبل أن يزهو (يظهر لونه بحمار أو صفار) ويبيعون الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، كما يبيعون الزرع فى سنبله ، وكان يحدث من جراء ذلك خسارة من كلا الوجهين ، فقد تصاب الثمار بالدّمان (المراض) أو القشام (العاهات) فتحدث خسارة للمشترى ؛ أو يستغل المشترى حاجة البائع فينقص فى تقدير المحصول فتلحق الخسارة صاحب الزرع (٣) .

وقد كان الربا مظهرا من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية ، ووسيلة من وسائل التعامل فى المجتمع العربى بعامة وفى المدن بخاصة . وكان يزاول فى المدينة مزاولة كبيرة(٤) بين أهلها أنفسهم وبينهم وبين الوافدين إليهم . وكان وسيلة من وسائل زيادة الثروات . إذ كان الربا أحيانا كثيرة يربو على الدين نفسه ، فيذهب بأموال الناس . وقد كان العرب واليهود يزاولونه على السواء ، فقد ذكرت الروايات أن أحيحة بن الجلاح أحد زعماء الأوس كان يتعامل بالربا حتى مع

(١) السمهودى ١/٥٤٦ . البخارى ٣/٧٠ - ٧١ .
(٢) البخارى ٣/٦٣ - ٦٤ .
(٣) نفسه ٣/٧٦ - ٧٨ .
(٤) نفسه ٣/٥٩

قومه من الأوس حتى كاد يحيط بأموالهم (١) . وقد نزل القرآن يندد باليهود وينعى عليهم أخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل(٢) .

وقد كان الربا شديد الرسوخ وكان يشغل حيزا كبيرا من حياة المدينة والمدن الحجازية بعامة ، وكان القضاء عليه أمراً شاقاً حتى لقد تدرج القرآن فى إبطال التعامل به ، فبدأ بأن نهى عن الربا الفاحش «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً واتَّقُوا اللهَ لعَلَّكُمْ تُفْلِحُون »(٣) . ثم نزل بتحريمه تحريماً كاملا بعد أن بين أضراره «إِنَّ الَّذِينَ يأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُون إلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِى يَتخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الربَا ، وأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا ، فمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظة مِن رَبِّهِ فَانْتهى فَلَهُ مَا سَلَف وَأَمْرُهُ إلى اللهِ ، وَمَن عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون . يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِى الصَّدَقَاتِ واللهُ لاَ يُحبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيم (٤)» .

وحين قامت الدولة الإسلامية فى يثرب بعد الهجرة كانت وسائل البيع والتعامل هذه سائدة فى المدينة : فأخذ النبى يعمل على تنظيمها ، وقد ساق أصحاب الحديث أوامر كثيرة أصدرها النبى تأمر بعدم استخدام الوسائل غير الشريفة فى البيع والشراء والمعاملات ، فقد نهى أن يبيع حاضر لباد (أى لا يكون له سمساراً) لما فى ذلك من خداع(٥) كما نهى عن تلقى الركبان خارج المدينة . وعن بيع الطعام قبل أن

---

(١) الأغانى ١١٨/١٣ (مصر) .
(٢) النساء ١٦١
(٣) آل عمران ١٣١
(٤) البقرة ٢٧٥ - ٢٧٦
(٥) البخارى ٧٢/٣

يصل إلى السوق(١) . كما نهى عن الغش واعتبر الغاش خارجاً على الجماعة(٢) . كما نهى عن أن يباع الثمر قبل أن يبدو صلاحه(٣) . وأمر أن يكون الكيل والوزن هو الأساس فى المبايعة فمنع بيع المجازفة ، وكان كل من رؤى ببيع جزافاً يضرب فى المدينة(٤) . كما قضى برد كل بيع استعملت فيه المناجشة والخداع(٥) كما منع بيع المزابنة ، والمحاقلة ، والمخاضرة وهى بيع الزرع فى سنبله (٦) وأمر بالدقة فى المعاملة والصيرفة(٧) : وبذلك وضعت التشريعات لتنظيم التجارة فى المدينة وقامت الدولة على مراقبتها وتنظيمها .

وقد أدى هذا إلى رواج التجارة الداخلية ، وبدأت الثقة تأخذ طريقها إلى نفوس البدو الذين كانوا يفدون بما لديهم من سلع ، وأخذ عرب المدينة بقسط كبير من مزاولة التجارة الداخلية ، وبخاصة المهاجرين من قريش الذين انضافت خبرتهم التجارية إلى حركة التنظيم الجديدة ؛ فسيطروا على السوق الداخلية وجنوا من وراء ذلك ثروة كبيرة ، وبدت واضحة مع الأيام فيما كان من ثروات أمثال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ممن اشتهروا بالتجارة ، حتى لقد أسهم عثمان فى تجهيز جيش تبوك بتسعمائة وخمسين جملا وخمسين فرساً وألف دينار(٨) ، وقد كان لتنظيم المعاملات فى سوق المدينة أثر على

(١) البخارى ٣/٧٣
(٢) السمهودى ١/٥٤٦
(٣) البخارى ٣/٧٥
(٤) نفسه ٣/٦٨
(٥) نفسه ٣/٦٩
(٦) نفسه ٣/٧٤ - ٧٥
(٧) نفسه
(٨) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٣/١٠٤٠

اليهود الذين كانوا يستغلون فساد المعاملات لزيادة ثرواتهم(١) ، الأمر الذى كان له أثره على العلاقات بين المسلمين واليهود كما سنوضح فيما بعد .

التجارة الخارجية :

كانت المدينة على طريق القوافل التجارية ، ومن المستبعد أن يبقى تجارها فى غفلة عن الأسفار التجارية كما كان يقوم بها أهل مكة ، وكان فيها جالية كبيرة من اليهود ومنهم من كان يملك ثروة كبيرة ، ومن المستبعد ألا يكونوا قد ضربوا بسهم وافر فى النشاط التجارى فى الحجاز بعامة وفى المدينة بخاصة ، سواء كان ذلك بالرحلات التجارية الخارجية أو فى الأسواق المحلية والموسمية(٢) . وتحدثنا المصادر عن رجل يهودى كان يتاجر فى الحجاز ، وكان بارعا فى التجارة حتى لقد أحنق عليه القرشيين أنفسهم وهم على ما هم عليه من براعة وخبرة تجارية ، فتخلصوا من منافسته بقتله(٣) . كما تحدثنا عن أبى رافع الخيبرى الذى كان يرسل تجارته إلى الشام بواسطة القوافل ويستورد منها الأقمشة المختلفة(٤) .

وإذا كان سكان المدينة من العرب واليهود قد عملوا بالزراعة وكانت موردهم الرئيسى ، وإذا كانوا قد شغلوا بحروبهم وخلافاتهم الداخلية ، فليس معنى ذلك أنهم أهملوا التجارة ، وقد تحدثنا من قبل عن الحركة التجارية النشيطة فى الداخل ، وليس من المحتمل أنهم لم يزاولوا التجارة

---

(١) السمهودى ٤٠٠/١
(٢) دروزة ٨٥
(٣) أنساب الأشراف ٧٣/١
(٤) تاريخ الخميس ١٢/٢

الخارجية ، وإن لم يضربوا فيها بسهم وافر مثل أهل مكة الذين كانت المورد الأساسي للرزق عندهم . وإن كانت المصادر لم تحدثنا عن قوافل تجارية للمدينة اتجهت إلى الشام أو إلى اليمن ، ولكن من المؤكد أن قوافل مكة كانت تمر بالمدينة فى رحلاتها التجارية ، وأن أهل المدينة يتعاملون مع هذه القوافل المكية(١) ، كما كانوا يرحلون إلى الأسواق العربية فى عكاظ ومجنة وذى المجاز فى موسم الحج يبيعون فيها ويشترون(٢) . كما كانوا يستوردون ما يلزمهم من أقمشة قطنية وحريرية ونمارق مرسومة ووسائل الترف ، وما يحتاجون إليه من زيت وزبيب ونبيذ من الشام ومن اليمن ، كما كانوا يستوردون العطور والمسك من دارين فرضة البحرين التى كان يحمل إليها المسك من الهند(٣) . ثم هم كانوا فى حاجة إلى تصريف ما لديهم من صناعات وبخاصة الحلى التى اشتهر يهود بنى قينقاع بصناعتها ، فى أسواق العرب أو فى الأسواق الخارجية ، ثم يستجلبون ما يلزمهم من خامات الذهب والحديد وغيره مما يلزم لصناعاتهم ، ومن أحجار كريمة من هذه الجهات وكان أنباط الشام يأتون إلى المدينة بقوافلهم تحمل الحنطة والزبيب والزيوت(٤) وكثيراً ما كان أهل يثرب يدفعون إليهم مقدما ثمن البضائع ليضمنوا ورودها(٥) . ولا يستبعد أن أهل يثرب أنفسهم كانوا يرحلون لجلب ما يلزمهم من الشمال أو من الجنوب ، بل الأرجح أنهم كانوا يقومون بهذه الرحلات . وكما كانوا يسافرون بالبر كذلك كانوا

---

(١) ابن هشام ١/١٤٨ ، ١٧٩

(٢) البخارى ٣/٦٢

(٣) الدلالات السمعية ٦٤٣

(٤) البخارى ٣/٥٥ – ٥٦

(٥) نفسه ٣/٨٥ – ٨٧

يتاجرون عن طريق البحر(١) ، والمدينة ليست على مسافة كبيرة من البحر الأحمر ، ولها فرضتها التى كانت ترسو فيها السفن وهى الجار ، وبينها وبين المدينة يوم وليلة ، وبينها وبين أيلة نحو عشر مراحل ، وهى فرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة وعدن والصين وسائر بلاد الهند ، وكانت ميناء هاما حتى لقد سمى هذا الجزء من البحر الأحمر من جدة إلى أيلة «الجار»(٢) . فلابد أن اهل المدينة انتفعوا بالتجارة عن طريق هذا المرفأ وتلقوا منه حظاً من التجارة العالمية .

وإذا كانت يثرب ـ نظراً لظروفها الداخلية ـ لم تستطع منافسة مكة فى مجال التجارة بوجه عام فى الفترة التى سبقت الإسلام ، فإنها لم تلبث أن أخذت تنافسها منافسة خطيرة بعد الهجرة النبوية وقيام الدولة الإسلامية بها ، فلم يكد المسلمون يستقرون بالمدينة حتى اتجهوا إلى التجارة الخارجية مع مزاولتهم للتجارة الداخلية وتنظيمها ، فقد بدأ رجال من المهاجرين من قريش من أمثال طلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام وسعيد بن زيد وغيرهم يرحلون إلى الشام يجلبون منها التجارة(٣) . وفى الوقت الذى أخذت فيه قوات المدينة طريق الشمال على قوافل قريش ، أخذت المدينة تحاول أن تخلفها فى هذا المضمار ، وشيئا فشيئا تحول الزمام إلى يثرب بعد أن صارت عاصمة الدولة العربية الموحدة .

---

(١) البخارى ٣/٥٦ . (٢) ياقوت ٥/٩٢ - ٩٣ .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ٦٧ . السمهودى ١/١٧٤ الدلالات السمعية ٦٣٦ - ٦٣٨ ، ٦٤٢ ابن حزم : جوامع السيرة ١١٩ - ١٢٠ .

المكاييل والموازين

لما كانت حاصلات المدينة فى الأغلب حاصلات زراعية فإن المكاييل كانت أكثر استعمالا فيها من الأوزان ، ولذلك قالوا المكيال مكيال أهل المدينة ، والوزن وزن أهل مكة (١) . وكانت المكاييل أنواعا وحدتها المد وهو أربع حفنات بحفنة الرجل الأوسط . والصاع مكيال قدره أربعة أمداد (٢) وهو خمسة أرطال ، والفَرَقُ قدره سبعة عشر رطلا وثلاثة أرباع الرطل (٣) والوَسْقُ يساوى حمل بعير ويساوى ستين صاعا أو ثلاثمائة وعشرين رطلا(٤) .

أما الأوزان المستعملة فهى الدرهم والمثقال والدانق والقيراط والنواة والرطل والقنطار والقيراط نصف الدانق ، ووزن الدرهم ستة دوانق . وكل عشرة دوانق تساوى سبعة مثاقيل ، والأوقية تساوى اثنى عشر درهما ، والنش نصف أوقية ، والنواة من الذهب تساوى وزن نواة التمر أو هى وزن معلوم عندهم ، والقنطار مائة رطل(٥) .

العملة

كانت العملة هى الدراهم والدنانير ، والأولى من الفضة والثانية من الذهب ، وكانت أنواعاً من ضرب فارس والروم ، ومنها ما لم يكن

---

(١) التراتيب الإدارية ١/٤٣٨ . (٢) نفسه ١/٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٣) القاموس مادة « فرق » .

(٤) انظر فى هذا كله : التراتيب الإدارية ١/٤٢٨ - ٤٣٨ ، وكذلك انظر القاموس مادة « مد ، صوع ، فرق ، وسق »

(٥) انظر التراتيب الإدارية ١/٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٥ . وانظر القاموس مادة « ثقل . دنق ، قرط ، نوى ، رطل » .

مضروبا ولا منقوشاً من اليمن أو من المغرب ، وكانوا يتعاملون أحيانا بالوزن فى الذهب والفضة على السواء . وكانت الدنانير فى الغالب تحمل من بلاد الروم عليها صورة الملك واسم الذى ضربت فى أيامه مكتوب بالرومية ، ولذلك كانت العرب تسميها الهرقلية ، وكانت غالبية الدراهم فارسية عليها صورة كسرى واسمه مكتوب بالفارسية ، ولم يكن للعرب فى ذلك الوقت دور للضرب ، ولم نعرف أنهم ضربوا العملة لحسابهم فى أى من بلاد الدولة الفارسية أو الرومية ، ولذلك اعتمدوا على العملة الخارجية يؤتى بها من الخارج فى التجارات أو يجلبها الوافدون من التجار من أهل هذه البلاد حين يفدون إلى بلاد العرب يستبضعون منها ، ولذلك كان العرب فى كثير من الأحيان يستعملون الوزن فى الذهب والفضة فى معاملاتهم(١) .

النشاط الصناعى

كانت المدينة أظهر من مكة فى النشاط الصناعى ، فقد كانت تقوم بها صناعة معتمدة على الإنتاج الزراعى ، كما كانت أيضاً ضرورية للأعمال الزراعية ، ثم إنه كان بها صناع متخصصون احترفوا أنواعاً من الصناعات وبرعوا فيها وبخاصة صناعة الحلى والأسلحة . هذا إلى صناعات أخرى هى من مستلزمات حياة المدن ومن مستعملات الناس فى حياتهم اليومية ، وإذا كان بعض هذه المستلزمات قد جلب من الخارج مصنوعاً ، إلا أنه ليس من المعقول أن يجلب الناس كل ما يحتاجون إليه جلباً ، وأن يعيشوا عالة على العالم الخارجى فى كل شىء ، بل

---

(١) التراتيب الإدارية ١/٤١٣ - ٤١٦

لابد من قيام طبقة من العمال تقوم بصناعة محلية وبخاصة إذا توافرت المادة الخام لها ، كما أن هناك أعمالا لا يمكن جلبها من الخارج مثل النجارة والحياكة ونحت الحجارة وما يستلزم البناء من صناعة .

ولقد قامت فى المدينة صناعات معتمدة على الإنتاج الزراعى ، وأهمها صناعة الخمر من التمر والبُسْر وكانوا يسمونها الفَضِيخ (١) ، وكانوا يشربونها ويتاجرون فيها ، وكان لديهم منها كميات كبيرة يختزنونها فى الجرار سواء فى ذلك العرب واليهود . كما كانت تقوم صناعة الخوص من سعف النخل ، فيصنعون المكاتل (المقاطف) والقفف مما يستخدم فى أعمال المنزل وفى أعمال الزراعة ؛ وكذلك كانت تقوم أعمال النجارة اللازمة للبيوت من أبواب ونوافذ وأثاث ، وكان أغنياء اليهود يملكون كثيراً من الأثاث لبيوتهم (٢) كما كان استعمال الكراسى أمراً شائعاً يصنعونها من الخشب وأرجلها من الحديد (٣) . وقد أعان على قيام الصناعة من الخشب وجود شجر الطرفاء والأثل فى منطقة الغابة فى شمال غربى المدينة (٤) . كما كانت الحدادة إحدى الصناعات القائمة فى المدينة والمرتبطة بالأعمال الزراعية ، فالزراعة تحتاج إلى فؤوس ومحاريث ومساح ومناجل للحصد ، وغير ذلك مما يستعمله الزراع من

---

(١) (الفضيخ شراب يتخذ من البسر وحده من غير أن تمسه النار) القاموس مادة « فضخ ».

(روى عن أنس بن مالك قال : « كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة ، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر رسول الله مناديا ينادى ألا إن الخمر قد حرمت ، قال : فقال أبو طلحة : اخرج فأهرقها فخرجت فهرقتها فجرت فى سكك المدينة) البخارى ٣/١٣٢ (ووجد المسلمون فى مغانم قريظة خمراً وجرار سكر كثيرة فأمر النبى باهراقها) إمتاع ١/٢٤٥ .

(٢) إمتاع . نفسه . (٣) الدلالات السمعية ١١٥ - ١١٦ .

(٤) أسد الغابة ١/٤٣ . البخارى ٣/٦٣ . الدلالات السمعية ٦٥٧ - ٦٥٨ .

آلات ، وكانت هذه الآلات تصنع فى المدينة يقوم بصناعتها بعض الناس من العرب ومن اليهود ومن الموالى على السواء ، وإن كان الموالى والعبيد أكثر احترافاً لها(١) . وإلى جانب هذه الصناعات كانت تقوم صناعة الحلى ، وقد تخصص فيها واشتهر بها بنو قينقاع من اليهود(٢) ، احترفوها ولم يحترفها أحد من العرب معهم(٣) ؛ وكانوا يصنعون أنواعاً كثيرة من الحلى من الذهب ، منها الأساور والدمالج والخلاخيل والأقرطة والخواتم والفتخ (جمع فتخة وهى الدبلة) والعقود من الذهب أو من الجوهر والزمرد أو من الجزع الظفاوى وهو خرز ثمين به ألوان بيضاء وسوداء ، وكانوا يبيعون هذه الحلى فى سوق عرفت بهم . كان يأتيها النساء من أهل المدينة يشترين ما يلزمهن منها(٤) . ويقدم إليها الناس يأخذون ما يلزم لنسائهم وفتياتهم سواء فى ذلك أهل المدينة وأهل البادية أو المدن الحجازية ، وقد كان اليهود يمتلكون حلياً كثيرة من هذه الحلى (٥) .

كما كانت صناعة الأسلحة والدروع قائمة بالمدينة ، يحترفها اليهود وقد روجوا لها ترويجاً كبيراً حتى قالوا إنهم ورثوها عن داود النبي(٦) ، وكانت السيوف والنبال تصنع بالمدينة ، ونبال يثرب

---

(١) أسد الغابة ١/٣٨ - ٣٩ . البخارى ٣/٦٠ . الاستيعاب ١/٥٥

(٢) البخارى البخارى ٣/٦٠ ، ١٤٤ . الواقدى ١٤٠

(٣) الواقدى ١٣٨ - ١٣٩ .

(٤) الدلالات السمعية ٦٦١ . جوامع السيرة ١٥٤

(٥) طلب النبى من كنانة بن الربيع أن يظهر كنز بنى النضير بعد فتح خيبر ، فجحد أن يكون عنده لكن النبى عرف مكانه فلما أخرجه وجد جلد جمل وبه كثير من حلى الذهب : أساور وخلاخيل ودمالج وأقراط وخواتم وعقود) ابن هشام ٣/٣٨٨ - ٣٨٩ إمتاع ١/٢٠٧

(٦) السمهودى ١/١٩٨

مشهورة ، وكان من الصناع من يتخصص فى جلاء الأسلحة وصقل السيوف(١) . ثم كانت هناك أدوات الصيد يصنعونها من فخاخ وشباك وأشراك من الحديد وغير ذلك(٢) .

وإلى جانب هذه الصناعات الهامة كانت تقوم صناعات النسيج يقوم عليها النساء ،(٣) كما كانت الخياطة والدباغة من الصناعات والحرف التى يحترفها بعض الناس(٤) ، كما كان يوجد بناؤون وعمال يقومون على النحت وضرب الطوب(٥) . وصناع يصنعون آنية المنازل وأدواتها من نحاس وفخار للأكل والشرب وما إلى ذلك من مصنوعات هى مستعملات الناس وحاجاتهم اليوم .

وهكذا كانت الصناعة كثيرة فى المدينة ، وكان يقوم عليها أناس من أهلها من العرب ومن اليهود ، ومن الموالى والعبيد ممن قدموا إلى المدينة وأقاموا فيها أو استقدمهم أهلها أو اشتروهم للعمل لهم ، وقد كان فى المدينة بعض من هؤلاء منهم فرس وروم وقبط وأحباش أقاموا بالمدينة وعملوا لأنفسهم أو لسادتهم بها . ولولا ظروف المدينة الداخلية التى عوقتها من نشاطها لكانت مدينة ذات شأن خطير ، ولربما كانت

---

(١) الدلالات السمعية ٤٠١

(٢) نفسه ٦٧٦ — ٦٧٧

(٣) /٢١٢ . الدلالات السمعية ٦٥٤ . البخارى ٦١/٣

(٤) الدلالات السمعية ٦٥٦ — ٦٦٨ . البخارى ٦١/٣

(٥) ٦٦٧ — ٦٦٨

تفوقت على مكة وسيطرت على منطقة الحجاز كلها . وقد أحس أهلها فعلا بمدى أثر هذه الخلافات المعوقة وسعوا إلى إصلاح شأنهم ، ولما لم يكن من أهل المدينة من الزعماء من يستطيع أن يكسب رضاء كافة الأطراف ؛ فقد رغبوا فى إدخال عنصر أجنبى محايد لم يتورط فى منازعات المدينة وخلافات عصبياتها ، فكانت الهجرة النبوية التى تغير بها الوضع فى المدينة تغيراً كاملا .

* * *

الفصل الخامس

الهجرة وتأسيس الدولة الإسلامية في يثرب

فئة قليلة هاجرت إلى يثرب مع النبي تاركة ديارها . فأقفلت بهجرتها دور كثيرة من دور مكة . وتألم كثير من المكيين لقفل هذه الدور وتحسروا عليها ، ورموا النبي بأنه فرق بين الناس(١) . كانوا فئة قليلة مشردة مطرودة أخرجت من ديارها وأموالها ، وفى نفسها حنين إلى من تركوا من الأهل ، فلم يستقبلوا حياتهم الجديدة ، أو لم تستقبلهم حياتهم الجديدة بالترحاب . فقد كان جو المدينة وبيئتها رطبا . فأصيب كثير من المهاجرين بالحمى(٢) ، ثم إنهم كانوا محتاجين فى هذا العهد الجديد إلى أن يدبروا أمر معاشهم بطريقة ما ، بعد أن تخلوا عن أموالهم فى مكة وهاجروا فارين بدينهم وأنفسهم . هذه الفئة القليلة التى يعمل فيها الحنين والحمى ، والتى تدبر أمر معاشها على نحو ضئيل(٣) ، استطاعت أن تبلغ فى يثرب ما لم تبلغه فى مكة ، ونالت توفيقا لم تنل مثله من قبل ، فلابد أن توجد أسباب تعلل هذا التوفيق .

وأول هذه الأسباب هو أن اليهود كانوا قد هيأوا الناس لفكرة الديانة السماوية ، فقد كانوا أهل كتاب . وكان الأوس والخزرج وثنيين ، لكن الاتصال المستمر جعل الفريقين يعرفان أديان بعضهما .

---

(١) ابن هشام ٧٩/٢ . ابن كثير ١٧٠/٣ – ١٧١

(٢) البخارى ٢٣/٣ ، ٦٦/٥ – ٦٧ . ابن كثير ٢٢١/٣ – ٢٢٤

(٣) البخارى ٥٣/٣ ، ٦٠

وقد كان اليهود يفاخرون الأوس والخزرج بدينهم وكتابهم ويعيرونهم وثنيتهم ، ويهددونهم بقرب ظهور نبي جديد يحطم الأصنام ؛ فينضمون إليه ويقتلونهم «قتل عاد وإرم» . فالأوس والخزرج الوثنيون حين دعوا إلى الإسلام كانوا أكثر استعداداً لتقبله وفهم معناه من وثنيي مكة ؛ وكانوا أسرع إلى هذا النبي الذى كثيراً ما كانت تهددهم به يهود وأحرص على ألا يُسبقوا إليه(١) .

ثم إن الأوس والخزرج كانوا فى هذا الوقت أصحاب الكلمة العليا فى يثرب . وكانوا قد أصبحوا سادة الموقف بها وأصبح اليهود يعتبرون موالى لهم ، فإذا تحالف النبي مع الأوس والخزرج ودخلوا فى دينه كان له ألا يخشى اليهود ، كما كان فى مقدور الأوس والخزرج أن يُدْخلوا فى المدينة من شاءوا دون أن يخشوا اعتراض اليهود عليهم . وقد استطاع النبي فيما بعد أن يرغم اليهود على الانضمام إلى الجماعة الجديدة . وأن يرغمهم بعد ذلك على أن يخرجوا من المدينة حين تبين منهم الخيانة وأصبحوا خطراً على الدولة الناشئة .

والأمر الثالث الذى مهد للنبي هو أن كثيراً من زعماء الأوس والخزرج ، الذين كان الناس يرشحونهم للرياسة ، والذين كانوا موضع التبجيل والاحترام ، والذين كانوا أصحاب الكلمة النافذة فى يثرب وكان من الممكن أن تقف مطامعهم الشخصية فى وجه النظام الجديد ؛ مات أكثرهم فى موقعة بعاث بين الأوس والخزرج قبيل الهجرة فلم يجد النبي إلا الرؤساء الثانويين وكان هؤلاء أميل إلى الطاعة أو كانوا على أى حال أسهل قياداً (٢) .

---

(١) ابن هشام ٢/٣٨ (٢) البخارى ٥/٦٧

وأمر رابع لا يقل أهمية ، وهو أن فكرة الخير التى تمتلىء بها النفس ويقتنع بها العقل تجعل من قوة الفرد الضئيلة قوة ضخمة ، كأن القوة الفردية تتضاعف بمقدار ما فى النفس من إيمان بالفكرة ، لأن هذا الإيمان وهذه العقيدة يورثان صاحبهما قوة تمكنه من أن يصل إلى غايته لا يستطيع صده عائق أو معوق .

هذه هى الأسباب التى ساعدت الفئة القليلة الطريدة الطارئة على المدينة . وما كاد النبى يستقر بها حتى بدأ تنظيم أمر الدعوة الإسلامية تنظيما يختلف عن التنظيم المكى .

بدأ النبى يكون أمة إسلامية يدخلها الناس بصرف النظر عن قبائلهم وأجناسهم ، وبهذا بدأ الدور الأساسى من الدعوة ، واتخذ النبى فيه شخصية سياسية إلى جانب شخصيته الدينية . وكان نظام الدولة التى أقامها النبى فى المدينة من نوع أصيل جديد ، إذ كان يجمع بين الشورى والحكم المطلق ، قال تعالى : «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ(١)» وقال «وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ(٢)» وهذه الآية على قصرها تجمع بين الشورى والاستقلال بالرأى فى الحكم فى آن واحد . كما كان فى نفس الوقت يجمع بين حكم رجال الدين والاشتراكية . كان ذلك النظام فى إطاره دينياً مطلقاً يرتكز على الأوامر والأحكام العامة المنزلة ، ولكنه فى تفاصيله وتطبيق أحكامه اشتراكى شورى . وهذه الدولة فذة فى تاريخ البشرية ، لأنها - بالرغم من قيامها فى الأصل على أسس دينية أقرت مبدأين لا وجود لهما إلا فى دولة غير دينية ،

---

(١) الشورى ٣٦ (٢) آل عمران ١٥٩

وأول هذين المبدأين هو حرية الأديان ، وهى حرية لا تقرها الدولة الإسلامية وتسمح بها فحسب بل إنها تتعهد برعايتها . وثانيهما هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة فى أوسع معانيها تسامحا وإنسانية ، وهو مبدأ يكفل المساواة فى الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم .

وقد برزت عبقرية النبي فى هذا الدور المدنى . وظهرت المقدرة الفائقة فى التنظيم والاحتياط للمستقبل ، فقد كانت مهمته فى مكة هى الدعوة إلى الدين الجديد . وإمداد المسلمين بالثبات والصبر واليقين أما فى المدينة فلم يكن عليه أن يكتفى بتبليغ الوحى الذى ينزل عليه ، بل كان عليه أن ينظم الحياة فى المدينة نفسها ، فقد أصبح زعيم جماعة سياسية . وقد أدرك هو هذا الموقف من أول الأمر وحتى قبل هجرته إلى المدينة(١) . وأخذ يعالج الأمور على هذا الأساس . فسكان المدينة الأصليون هم الأوس والخزرج ـ وهما قبيلتان قد وقع الشر بينهما كما رأينا من قبل ـ واليهود وهم أحياء تحالف بعضها مع الأوس وتحالف بعضها مع الخزرج . وهذه الجماعة الأصلية من أهل المدينة فى حاجة إلى توفيق حتى يمكن أن تعيش معيشة منسجمة . وقد انضاف إليهم المهاجرون ، وهؤلاء ولو أنهم استقبلوا من إخوانهم مسلمى يثرب استقبالا حسنا فى أول الأمر ، إلا أنه يجب أن يحتاط لإقامتهم فى المدينة . ثم إن النبي قد خلف وراء ظهره عدوا لدوداً هو قريش ، وهذا العدو قادر على العدوان ، ولمقاومة عدوانه يلزم الاستعداد والحيطة ، وبناء

---

(١) قال النفر من الخزرج الذين لقوا النبى فى الموسم يصفون قومهم بأنهم فى حالة فرقة وشر « وإن يجمعهم الله عليه (الإسلام) فلا رجل أعز منك » ابن هشام ٢/٣٨

الجبهة الداخلية بناء سليما لتواجه الخطر الخارجى ، وقد واجه النبى هذا الوضع من أول الأمر مواجهة تدل على فهم سليم وإدراك قوى ، وأظهر من بعد النظر ودقة التنظيم ما كفل لهذه الجماعة الاستقرار والترابط ، والقدرة على النمو ومواجهة الاحتمالات الخارجية كلها بنجاح كبير أدى إلى تكوين الدولة الإسلامية العظيمة .

تكوين الدولة فى يثرب

أول شيء قام به النبي بعد استقراره فى يثرب هو ضمان معيشة المهاجرين ، وهم جماعة تجار ، تركوا أموالهم فى مكة ، ولا أمل لهم فى استردادها . وقد اعتمد النبي على حسن نية المسلمين من أهل يثرب — الذين عرفوا بالأنصار — وقد أظهر هؤلاء روحا عالية من المروءة والكرم فأعطوا المهاجرين شيئا من المال وسمحوا لهم بالتجارة(١) ، كما عمل بعض المهاجرين فى مزارع الأنصار مزارعة(٢) ، واستطاعوا بذلك أن ينظموا أمر معاشهم ولو على نحو ضئيل .

ثم رأى من أول الأمر أن يتخذ مكاناً يكون بمنزلة ناد عام للجماعة الإسلامية ، تقيم فيه شعائرها الدينية ، وفى الوقت نفسه تبحث فيه شئونها العامة ، فقام ببناء المسجد بعد أن استقر فى المدينة بقليل(٣) . فكان هذا المسجد هو المقر الذى اتخذته الرياسة الجديدة ، وفيه كانت

---

(١) البخارى ٣/٥٢ ، ٦٥ ، ١٠٩ .

(٢) نفسه ٣/١٠٤ ، ١٥٥ ، ١١٦ . ابن كثير ٢/٢٢٨ — ٢٢٩

(٣) البخارى ٣/٠

تبرم كل الأمور . وفيه كان الاتصال بين المسلمين للتشاور فى شئونهم العامة من سلم وحرب واستقبال وفود وما إلى ذلك

وبجوار المسجد اتخذ النبي مساكنه ، وقد جعلت متصلة بالمسجد بحيث يخرج من بيته إلى المسجد رأسا(١) ، وأصبح من السنة أن تبنى المساجد وتكون بيوت الولاة ودواوينهم مجاورة للمسجد . فالغرض من تأسيس المسجد كان دينيا لأداء الصلاة وسياسيا لإيجاد رابطة للجماعة الإسلامية .

بعد ذلك عمل النبي على إقامة الاستقرار بين الجماعة اليثربية ، وإذا كانت لحمة الدم قد فشلت - فى المدينة - فى أن تكون رباطا يؤلف بين الناس ، فقد أحل النبي محلها رابطة العقيدة ؛ فأصلح أولا بين الأوس والخزرج وحرص على إزالة كل ما من شأنه أن يذكر بالعداء القديم بينهما ، فجمعهما فى اسم واحد هو «الأنصار» . وإنا لنلمس هذا الغرض واضحا فى تسمية المسلمين من أهل يثرب بالأنصار ، فقد عرفوا جميعاً بهذا الاسم ، وصار علماً عليهم جميعاً ، وفى هذا إبعاد لروح العصبية ، وإدماجهما تحت هذا الإسم الواحد يذكرهما دائماً بالتآلف لغرض أسمى وهو نصرة المبدأ الإسلامى والاندماج فى غرض أكبر من الأغراض القبلية . ثم عمد إلى التأليف بين هؤلاء الأنصار من الأوس والخزرج وبين المهاجرين من أهل مكة ، وفى هذا التجأ إلى المؤاخاة . والمؤاخاة تسمية إسلامية للنظام العربى القديم وهو نظام الحلف فقد جعل كل رجل من المهاجرين يؤاخى رجلا من الأنصار ، فيصير

---

(١) ابن هشام ١١٨/٢ .

الرجلان أخوين بينهما من الروابط ما بين الأخوين من قرابة الدم. وقد أنزل النبي هذه القرابة الحكمية منزلة الأخوة الطبيعية، بأن جعل المتآخيين يرث أحدهما الآخر، فإذا مات المهاجر ورثه أخوه الأنصارى وإذا مات الأنصارى ورثه أخوه المهاجر. وقد ظل المهاجرون والأنصار يتوارثون بهذا النظام إلى أن استقرت الدولة الإسلامية فى يثرب ووضع نظام التوارث الإسلامى على أساس القرابة الطبيعية(١). فهذا كان نظاماً مؤقتاً فى حقيقته والغرض منه سياسى، هو الربط والتأليف بين المهاجرين إلى المدينة وبين أهلها الأصليين وقد نزلت آية الوراثة بإلغاء هذا النظام بعد ذلك «وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ المؤْمِنِينَ والمهَاجِرِينَ(٢)» فصارت هذه الأخوة أخوة أدبية لا ينطبق عليها التوارث. ولكن آثارها الأدبية بقيت زمنا طويلا فى الإسلام(٣).

بعد ذلك وضع النبي دستوراً لتنظيم الحياة العامة فى المدينة؛ وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها، ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية، وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم، وقد عرف هذا الدستور بالصحيفة، ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية فإنما تقوم الدول أولا ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور. ولكن النبي ما كاد يستقر فى المدينة وما كاد العام الأول من هجرته إليها ينتهى، حتى كتب هذه الصحيفة التى جعل طرفها الأول المهاجرين. والطرف الثانى الأنصار وهم الأوس والخزرج جميعاً، والطرف الثالث اليهود

---

(١) ابن هشام ٢/١٢٣ - ١٢٤ . (٢) الأحزاب ٦ . الأنفال ٧٥ .
(٣) ابن هشام ٢/٣٢٧ .

من أهل يثرب . وهذه الصحيفة مهمة جداً لأنها حددت شكل الدولة الإسلامية ، وكذلك هي مهمة لفهم الحوداث التي نشأت بعدها .

وقد بدأ كأنما ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة القائمة على أساس رابطة الدم ، ولكن تلك الجماعات في الحقيقة بقيت كما هي . وإن كان الشأن الأول قد انتقل منها إلى الجماعة الكبرى ، فدخلت الطوائف التي كانت موجودة في ذلك الحين ونعني بها القبائل والبطون والعشائر ، في الجماعة الكبرى الجديدة ، واحتفظ لها الدستور بشخصيتها ، ولكنه نقل منها اختصاصاتها كوحدات قبلية إلى الدولة ؛ وإن بقي لها كل ما من شأنه أن يحفظ على الناس الروابط فيما بينهم ؛ وبذلك تكونت في المدينة جماعة موحدة من حيث أنها «أمة الله» ولكن ذلك لم يكن دفعة واحدة فقد ظل يتحقق بخطى مستمرة ثابتة .

الصحيفة

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم ؛ وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربْعتهم(١) يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم(٢) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ؛ وبنو عوف على ربْعَتِهم يتعاقلون معاقلهم(٣) الأولى ؛ وكل طائفة تفدى عانيها

---

(١) على ربعتهم : الحال التي جاء الإسلام وهم عليها يعني على شأنهم الأول وعاداتهم من أحكام الديات والدماء . ابن هشام ٢/١١٩ .

(٢) العاني : الأسير (٣) معاقلهم : جمع معقلة ، من العقل وهو الدية .

بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحرث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى . وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو ابن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ؛ وبنو الأَوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرحا(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل . ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة(٢) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم . وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأُسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة : لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ،

(١) مفرحا : مثقلا بالدين . (٢) الدسيعة : العطية

وإن المؤمنين يبيء(١) بعضهم على بعض مما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن . وإنه من اعتبط(٢) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولى المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقربما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم . وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم . إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتغ (٣) إلا نفسه وأهل بيته . وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف وإن ليهود بنى الحرث مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف . إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الاثم(٤) ، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم . وإنه لا ينحجز

---

(١) يبيء : يمنع ويكف (٢) اعتبطه : قتله من غير ما شيء يوجب قتله

(٣) يوتغ : يهلك .

(٤) « إن البر دون الأثم » ، أى أن البر ينبغى أن يكون حاجزاً عن الأثم ، والوفاء ينبغى أن يمنع من الغدر .

على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم . وإن الله على أبر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار(١) يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره . وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب(٢) ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين : على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم : لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره . وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم . وإنه من خرج آمن . ومن قعد آمن بالمدينة إلا لمن ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣) » .

هذا هو نص الصحيفة كما ذكره ابن إسحاق . وأول ما نلاحظه هنا

---

(١) الاشتجار : الاختلاف (٢) دهم يثرب : فاجأها .

(٣) ابن هشام ٢/١١٩ — ١٢٣

أن ابن إسحاق إنفرد بهذا النص ، ولم يذكر إسناده فى روايته ، كذلك لم يشر إلى المصدر الذى أخذه عنه ، فلم يذكر أنه وجده مكتوباً ، أو أخذه من أحد كتبه ، وإن يكن من غير المستبعد أن يكون أخذه من بعض من سبقوه ممن كتبوا فى السيرة ولم تصل إلينا كتاباتهم(١) . على أن هذا لا يقلل من قيمة هذه الوثيقة التاريخية الهامة ولا يطعن فى صحتها ، وذلك لأن المصادر الأخرى أشارت إليها وإن لم تذكر نصها(٢) وقد ذكرتها المصادر المتأخرة (٣) ولأن أسلوب هذه الصحيفة يوافق تماماً أسلوب العصر ، كما يوافق روح التنظيم فى المجتمع العربى من حيث الترابط القبلى والاعتراف بقوة العصبية وأثرها فى المجتمع وأنه ليس من السهل التخلص منها . وقد بدا واضحاً فى الصحيفة أن البطون والعشائر أدخلت فى النظام الجديد بشخصياتها القبلية لا بأفرادها ، وهذا ما كان يجرى عليه المجتمع العربى فى تكوينه فى ذلك الوقت . ثم إنها توافق تشكيل المجتمع فى المدينة من حيث أقسام القبائل وبطونها وارتباطاتها الحلفية ، وكذلك حالة العرب فى المدينة من حيث دخول بعضهم فى الإسلام قبل كتابة الصحيفة وتأخر دخول بعضهم الآخر ، فقد ذكرت أسماء البطون التى كانت قد دخلت الإسلام جميعها ، وأدمجت البطون التى لم تكن قد دخلت فى الإسلام فى بند عام مثل «بنو الأوس» مع أن هؤلاء كانوا بطونا متعددة .

ثم إن نصوص الصحيفة توافق القرآن الكريم فى المبادىء العامة

---

(١) انظر مقدمة سيرة ابن هشام بقلم محمد محيى الدين عبد الحميد ١/١٥ — ١٧

(٢) الواقدى ١٣٨ ، ابن سعد ٣/٦٨ ، الطبرى ٢/١٧٢ إمتاع ١/٤٩

(٣) ابن كثير ٣/٢٢٤ — ٢٢٥ ، ابن سيد الناس ١/١٩٧

من حيث : اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس(١) ، ومن حيث التراحم والتعاون بينهم ، ومعاونة بعضهم بعضا فيما يفدح بعضهم ويثقل كاهله(٢) . ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة(٣) . ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار (٤) كذلك تحديد المسئولية الشخصية(٥) ، والبعد عن ثارات الجاهلية وحميتها(٦) . كذلك وافقت الصحيفة القرآن فى وجوب الرضوخ للقانون ورد الأمر إلى الدولة بأجهزتها للتصرف فى الأمور (٧) . وفى شئون الحرب والسلم . وأن حرب الأفراد وسلمهم إنما تدخل فى الاختصاص العام فلا تحدث فرديا (٨) . كذلك معاونة الدولة فى إقرار

---

(١) « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (آل عمران ١١٠) « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » ، « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » (الأنفال ٧٢ ، ٧٥) .

(٢) « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » (البقرة ٢١٥) ، « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله » ، (التوبة ٦٠) .

(٣) « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » (النساء ٣٣) .

(٤) « وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب » (النساء ٢٠) .

(٥) « ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه » (النساء ١١١) ، « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » (فصلت ٤٦) .

(٦) « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (الأعراف ١٩٩) .

(٧) « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (النساء ٥٩) .

(٨) « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » (البقرة ٢٠٨) ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (الأنفال ٦١) .

التظام والأخذ على يد الظالم وعدم نصر المحدث أو إيوائه(١) .

ونلاحظ أن الصحيفة ذكرت البطون الخمسة الكبرى للخزرج ، وهم بنو عوف ، وبنو ساعدة ، وبنو الحرث ، وبنو جشم ، وبنو النجار ولم تذكر من بطون الأوس الكبرى إلا بطنين هما بنو عمرو بن عوف ، وبنو النبيت ، ثم أدمجت باقى البطون الأوسية الأخرى تحت اسم واحد وهو «بنو الأوس» . وهذا يوافق ما كانت عليه الحالة فى يثرب من حيث انتشار الإسلام بها فى الوقت الذى وضعت فيه الصحيفة ، فإن بطون الخزرج كلها كانت قد دخلت فى الإسلام وحتى من لم يكن منها مؤمنا فقد دخل فى الإسلام ظاهريا ، وأما بطون الأوس فلم يدخل منها فى الإسلام إلا بنو عمرو بن عوف وهم أهل قباء ، وبنو النبيت . أما باقى البطون الأوسية فقد تأخر إسلامها إلى ما بعد الخندق ، فذكرتها الصحيفة مندمجة باسمها العام ، وقد كانت تسمى «أوس الله»(٢) .

كذلك نلاحظ أن الصحيفة قد ذكرت اليهود الموالين للبطون العربية ، وأهملت ذكر القبائل الكبرى من اليهود ، فقد يتفق تماماً مع ما كانت عليه الحالة السياسية فى يثرب ، فإن البطون اليهودية الصغرى كانت قد دخلت فى أحلاف مع الأوس أو مع الخزرج وذلك به سيادة هؤلاء فى يثرب . أما قبائل اليهود الكبرى الثلاثة فقد اعتزت بقوتها وبقيت محتفظة بشخصيتها ، ثم إنها ناوأت الإسلام وأظهرت عداءها ، ومع ذلك فقد وضعت الصحيفة بندا عاما لدخول اليهود فى الدولة احتمالا

---

(١) « ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى » (فاطر ١٨) .

(٢) ابن هشام ٢/٤٦ .

لما قد يحدث من دخول هذه القبائل فى النظام الجديد ، وفعلا ألحقت هذه القبائل بالدولة فى محالفات ملحقة كما سنوضح فيما بعد .

من كل ذلك يتبين أن الصحيفة التى ذكرها ابن اسحاق صحيحة وأنها وثيقة هامة جداً لفهم تطورات الأمور فى الدولة اليثربية .

وقد بينت هذه الصحيفة الأسس الكبرى فى القانون الذى ينظم الحياة العامة والسياسية والتى كان معمولا بها فى المدينة فى أول الأمر ، ويتجلى من هذا الكتاب إلى أى حد قد تغيرت الأحوال القديمة وإلى أى حد لم تتغير .

وأول هذه الأسس أن هذه الصحيفة أعطت صفة للجماعة الإسلامية ، فقد قررت أن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس . وكلمة الأمة هنا ليست اسما للجماعة العربية القديمة التى تربطها رابطة النسب ، بل هى تدل على الجماعة بالمعنى المطلق ، وبهذا التقرير ألغى النبى الحدود القبلية ، أو على الأقل لم يجعل لها وجوداً رسمياً بالنسبة للدولة ، أو بلفظ آخر ارتفع هو عن المستوى القبلى المحدود ، وبهذا أصبح الإسلام ملكا لمن دخل فيه ؛ فدخل بناء على هذه القاعدة شعوب كثيرة فى الإسلام دون أن يضع الرسول أمامها عقبات تحول بينها وبين الاشتراك فى حياة العالم الإسلامى . وهذا المبدأ مرن جداً ومرونته هى التى كفت المسلمين فى العصور الوسطى كثيراً من الشرور وكفلت للإسلام دائماً حيوية جديدة وسيوفاً تدافع عنه . وهذه الفكرة كانت جديدة بالنسبة للعالم اليونانى والرومانى القديم . وللأمة فى هذه الصحيفة صبغة دينية أيضاً ؛ فهى جماعة الله التى ترعى مبادىء السلام ومبادىء حماية الجار ونصرة المظلوم والله هو الشهيد الذى يشرف عليها ، ومحمد يشرف عليها باسمه ، فالإيمان

هو رباط الاتحاد والمؤمنون هم ممثلو معناه وهم لذلك أول من يجب عليهم الوفاء لهذا الاتحاد ، وهم فى الوقت نفسه أول من يتمتع بالحقوق التى يخولها لهم .

والأمة لها منطقة من الأرض إجمالية ، وهى منطقة المدينة ، وكل هذه المنطقة ينبغى أن تكون حرما وأرض سلام لا يعتدى فيها أحد على أحد . والأمة لذلك لا تشتمل على المؤمنين وحدهم ، بل هى تتألف من كل من يتبعهم ويحارب معهم أى من كل أهل المدينة . وكان بين الأنصار قوم لم يسلموا ولكنهم لم يستبعدوا من الأمة بل أدمجوا فيها بنص صريح . وكذلك اليهود شملتهم الأمة وإن كانوا لا ينتمون إليها انتماء وثيقاً كالمهاجرة والأنصار ، ولذلك لم تكن تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق ، وقد ألحق بعضهم بنص صريح تمشياً مع الروابط الحلفية بينهم وبين الأنصار ، ووضع بند عام لكل من يتبع الأمة بعد ذلك منهم ؛ ثم عزز هذا البند بمحالفات خاصة بعد ذلك . وعلى هذا فدرجة الانتماء للأمة لم تكن واحدة بحيث بقى ما يشبه التمايز العربى القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل .

والأمة برغم أنها ضمت كل طوائف المدينة فإنها لم تكن تتكون من أفراد وإنما كانت تتكون من جماعات ، فالفرد لا ينتمى إلى الأمة إلا عن طريق العشيرة والقبيلة . فقد جاء فى الصحيفة أن تبقى القبائل كما هى وأن تدخل فى الأمة كما هى . وبذلك بقى التشكيل الاجتماعى القبلى كما هو . ومع أن الإسلام أنكر نظريا فكرة امتيازات المجتمع الوثنى فى العصر الجاهلى إلا أن نظام القبيلة بقوته الداخلية وأسلوبه فى معاملة الغرباء كان أمراً مفيداً بحيث لم يكن بالإمكان نبذه أو الاستغناء

عنه . وكذلك ترك رؤساء القبائل كما هم ولم يحل محلهم موظفون دينيون .

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتها ، فقد بقيت على القبائل النفقات التى ليست ذات صبغة خاصة محضة وخصوصا دفع الدية وفداء الأسرى ، ذلك أنه لم تكن قد وجدت بعد خزينة للدولة . وكذلك بقى للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء ، فلا يجوز لأحد أن يحالف مولى دون مولاه ، وكذلك بقى حق الإجارة لم يقيد ، فلكل فرد الحق فى أن يجير شخصا غريبا وهو بذلك يلزم الجماعة كلها ، ولكن استثنى من هذا إجارة قريش ومن نصرها فإن ذلك كان محرما على كل المشتركين فى هذه الصحيفة .

وبمقتضى كل ذلك أصبح على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر فيما بينها ؛ لأن أول غاية للأمة هو منع نشوب حرب فى الداخل فإذا قام نزاع وجب أن يعرض على القضاء ، وقد جاء فى الصحيفة « وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عزوجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فاذا تعكر السلام فى الداخل بسبب القتل أو الفساد وجب لا على المجنى عليه أو على قبيلته أو على الجماعة كلها فحسب ، بل على أقرباء الجانى نفسه أن يهبوا متكاتفين عليه ، وأن يسلموه لصاحب الثأر لكى يقتاد منه بالعدل . وعلى هذا لم يصبح الثأر أمراً يتحول إلى ثأر يجر ثأرا ، كما كانت الحال فى القبيلة العربية من قبل حيث لم تكن هناك سلطة لها قوة القهر ؛ أما فى المدينة فقد نفذ مبدأ العقاب بالمثل تنفيذاً صارماً لأن الله فى المدينة فوق رابطة الدم ، لكن

العقاب بالمثل لم يكن قد صار عقاباً بالمعنى الحقيقي لأن تنفيذه كان متروكا للمجنى عليه أو وليه ، وكان له أن يثأر لنفسه أو يتنازل عن الثأر ويأخذ الدية أو يعفو ، ولكن مع هذا فإن مبدأ العقاب بالمثل صار نقطة انتقال من مبدأ الأخذ بالثأر إلى مبدأ الأخذ بالعقاب ، وذلك أنه بانتقال حق التأديب من الفساد الى الجماعة حدثت خطوة هامة فى سبيل جعل الأخذ بالثأر شأنا من شئون الدولة ، وكانت الخطوة كافية لتفادى الترات الداخلية ، ولكى يسود السلام فى منطقة المدينة ويكون شاملا لا استثناء فيه ، وعلى هذا لم تصبح هناك جماعات متعددة بتعدد القبائل تراعى السلام الأمر الذى يجعل حمايتها غير كافية أو على الأقل غير فعالة على الوجه المرضى خارج حدود القبيلة ، بل أصبح هناك سلام واحد شامل هو سلام الأمة .

والغرض الثانى الذى أوضحته الصحيفة هو اتحاد القبائل لرد كل عدوان من الخارج ، وعلى المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضا « دون الناس » وهم يتعاقلون بينهم ، ويدهم على من سواهم ، وهم على من بغى منهم . وليس واجب الثأر من الأعداء واقعاً على أقرباء المقتول بحكم رابطة الدم وإنما هو واقع على كاهل المؤمن ليثأر للمؤمن ، وبذلك خرجت الحرب من أن تكون داخلة ضمن الثأر للدم كما كانت من قبل هى والثأر للدم شيئاً واحدا ، وإنما صارت الحرب حرباً فحسب ، وكذلك صار السلام مع قوم أجانب أمراً يعم المؤمنين جميعاً شأنه شأن الحرب ، بحيث لايستطيع أحد منهم أن يعقد سلاماً منفردا لا يكون سلاماً للجميع .

وهكذا رسمت الصحيفة التخطيط العام للأمة ، وإذا كانت هناك بعض الثغرات متمثلة فى حق المجنى عليه فى الأخذ بالثأر أو العفو ، وفى

حق الإجارة الذى يجب أن يكون من حقوق سيادة الأمة ورئيسها ، إلا أن نظام الأمة أخذ يكتمل شيئاً فشيئاً ، وكان المؤمنون وعلى رأسهم النبي هم روح هذه الأمة والعنصر الناهض الذى كانت تصدر منه الحركة ، وكلما كان الدين ينتشر كانت أركان الأمة تقوى وتتوطد(١)

وكانت مهمة النبي السياسية بعد هذا تنحصر فى الدفاع عن حدود دولته وضمان الأمن لها ، ولم تخرج تصرفاته عن هذا الهدف طوال العصر المدنى . والأساس الذى نفسر به كل التصرفات السياسية ، هو أن المدينة ومن انضم إليها دولة واحدة غير متصلة بما عداها إلا بالشروط الجديدة التى وضعها النبي ، فلا صلة بين يثرب وبين غيرها إلا عن طريق الإسلام وعن طريق الالتحاق بها والتبعية لها . ولتقوية جبهة المدينة اعتبرت الهجرة إلى المدينة أساساً للحصول على حق الرعوية للدولة الجديدة فعلى من يدخل الإسلام ويريد أن يكون مواطناً فى يثرب أن يهاجر إليها ، وقد نزل القرآن بنص صريح فى ذلك فقال : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ» (٢) .

ونستطيع أن نقول إن حكومة المدينة ظلت قاصرة على المدينة نفسها وعلى ريفها إلى عام فتح مكة سنة ٨ هـ فالطور الأول فى شكل الحكومة المدينية هو طور «المدينة — الدولة . (City-state) » وقد دام ثمانى سنوات . فإذا استطاع أحد أن ينكر وجود مقومات الدولة المدينة

---

(١) انظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ١١ — ١٥ .

(٢) الأنفال ٧٢ .

فى يثرب قبل الهجرة فهو لا يستطيع أن ينفى عن يثرب هذه الصفة بعد الهجرة .

وكما حرص النبى على أن يوجد فى داخل المدينة أداة للحكم . وأن ينظم شئونها الداخلية . كذلك حرص عن طريق السرايا على أن ينضم إلى المدينة ما حولها من ريف وما حولها من قبائل . وأن يخطط لها مجالها ويقرر حدودها ، ويعقد لها أحلافاً مع القبائل النازلة فيما حولها ، لأن الحاضرة لا تستطيع أن تعيش بنفسها ، ولا تستغنى عن ريف يمدها بالمؤن ويكون مجالا لنشاطها . ولهذا الغرض قام النبى بعدة سرايا ، ابتدأت من المدينة واتجهت إلى جميع الجهات . فأمنت هذا الريف . وعقدت فى أثناء هذه السرايا أحلافا مع القبائل المجاورة(١) . إذ أنه لابد لسكان المدن التى تقوم فى وسط جو بدوى أن تعمل حسابا كبيرا لغزوات البدو . ولايكون ذلك إلا عن طريق محالفة البدو ومهادنتهم ، وأحيانا بدفع الإتاوات لهم . ثم كسر شوكتهم بالضرب على أيديهم عند اللزوم . وإشعارهم دائما بقوة المدينة وقدرتها على الضرب .

والسرايا التى عرفت فى السنتين الأوليين كانت عبارة عن حملات حربية صغيرة ، لا يقصد بها إلى الحرب ، بل يقصد بها ما يقصد من أعمال الدوريات الحربية ، وهى المحافظة على الحدود أو الاستكشاف ، وأحيانا إيقاع الضرر بأى عدو والانسحاب بسرعة . وقد بلغ عدد السرايا التى أرسلها النبى قبل موقعة بدر ثمانى سرايا اتجهت إلى كل الجهات ، قاد بعضها بنفسه وعقد لبعض أصحابه على بعضها(٢) .

---

(١) ابن هشام ٢/٢٢٤ ، ٢٢٦ .

(٢) ابن هشام ٢/٢٢٣ – ٢٤٢ ، الطبرى ٢/١٢١ ، ابن كثير ٣/٢٤٨ .

ويذكر المؤرخون هذه السرايا على أنها عمليات حربية مقصودة بذاتها (١) وعلى أنها متصلة بالصراع بين النبي ومكة . وهذا خطأ فى نظرنا ، والخطأ آت من أن المصادر نفسها والمؤرخين المحدثين لم يفطنوا إلى أن هذه السرايا كانت عمليات حربية داخلية . يقصد بها تقوية الجبهة الداخلية ، ويقصدبها كذلك ضمان الأمن ودفع الأذى الذى قد يأتى من الخارج .

على أنه كان من مهمة هذه السرايا منع تجارة قريش من المرور فى أراضى الدولة الجديدة ، طبقاً لنص الصحيفة الذى يقول إنه لا تجار قريش ولا أموالها ، وهذا داخل فى نطاق أعمال السيادة للدولة اليثربية ، وكان لابد من إشعار قريش ، ومن إشعار القبائل المجاورة أن حدود الدولة الجديدة محروسة ، وأن سيادتها على أراضيها يجب أن تحترم . وأنه من الخير الاتفاق معها والاعتراف بها . ولم يكن الأمر فى حقيقته من جانب يثرب بالنسبة لقريش أمر إعنات وإحراج وحروب ، فإن النبي كان ينظر إلى قريش نظرة خاصة . فهو يقدر الميزات التى تنطوى عليها مهادنة قريش واعترافها بالدولة الجديدة ، كما كان يدرك قيمة قريش بين العرب وما يعود من وراء الاتفاق معها من فوائد للدعوة الجديدة . كما كان يقدر ما تضم هذه القبيلة - التى هى قبيلته - من رجال تمرسوا بالحياة وخبروا الحكم وتسيير دفة الأمور سياسيا واقتصاديا عبر عن هذه فى مناسبة بعد النصر فى معركة بدر ، إذ يقول أحد الشبان من الأنصار ، وقد جاء الناس يهنئون النبي بالنصر «ما الذى تهنئوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائزاً صلعاً كالبدن المعلقة فنحرناها»

---

(١) الطبرى ٢/١٢٠ - ١٢٢ : ابن كثير ٢/٢٤٦ - ٢٤٨ : الواقدى ٤ هيكل : حياة محمد ٢٣٧ - ٢٤٢ Watt, Muhammad at Medina. p. 2 - 3

فقال النبي : «أى ابن أخى ، أولئك الملأ من قريش لو شهدت فعالهم احتقرت فعلك(١) » . فالنبي كان يحرص على مهادنة هذه القبيلة تقديراً لميزاتها أكثر مما يحرص على حربها وعداوتها . كما أنه كان يريد فى الوقت نفسه أن يشعرها بقوة الدولة الجديدة وتصميمها على المحافظة على كيانها وسيادتها ، وأنه لا يسمح مطلقاً بأن توطأ أرضها من عدو لا غازيا ولا تاجرا . كما أن السرايا حملت فى الوقت نفسه تهديداً لقريش بأن تجارتها مرهونة برضاء الدولة اليثربية . وعليها إذا كانت تريد أن تستمر فى تسيير قوافلها نحو الشام أو نحو العراق أن تحسب حساب الوضع الجديد ، ويجب أن تغير من سياستها المنطوية على العدوان بالنسبة للنبي والمسلمين فى يثرب ، وأن تترك الحرية للمسلمين الذين حبستهم فى مكة ، وتترك الدعوة الجديدة تأخذ مجالها الحر دون مناوأة ودون حرب ، وإلا فإنها تعرض نفسها لقطع تجارتها والقضاء على مواردها الاقتصادية ؛ بقفل طريق التجارة المار فى أراضى الدولة اليثربية فى وجه تجاراتها ، لكن السرايا لم تحمل أكثر من هذا التهديد ، فلم تشتبك فى حرب مع قوافل قريش ، ولم تستول على شىء منها ، إلا ما كان من سرية أرسلها النبي إلى بطن نخلة بين مكة والطائف لتعرف أخبار قريش ، ولم تكن هذه السرية من القوة بحيث تشتبك فى حرب أو تصادر قافلة ، ولكن أفرادها تصرفوا على مسئوليتهم الخاصة ؛ فاستولوا على قافلة صغيرة لقريش وقتلوا أحد رجالها وأسروا رجلين ، وقد لام النبي فعلا رجال هذه السرية على تصرفهم الشخصى هذ(٢) ؛ ومن هنا يتبين أن مهمة السرايا لم تكن هجومية ولم يكن يقصد بها إلى الحرب .

---

(١) ابن هشام ٢/٢٨٦ . (٢) نفسه ٢/٢٣٨ - ٢٤١ .

لو سلمنا بهذا الأساس أستطعنا أن نقول أن النبي لم يقم بحرب هجومية إطلاقاً ، حتى فى أثناء المعارك الكبيرة التى وقعت بينه وبين قريش ، فإن موقعة بدر التى حدثت فى السنة الثانية الهجرية حدثت داخل حدود إقليم المدينة ، وعلى أثر تحدى المكيين للنبي وتسييرهم قوافلهم بأراضى المدينة ممتهنين بذلك حق السيادة اليثربية ، فأبو سفيان حين مر بقافلته فى المنطقة اليثربية كان يتحدى ويدل على أهل يثرب بقوته ويستضئل شأن النبي ، ولهذا خرج النبي إليه وأراد أن يصادر هذه القافلة أو أن يحاربها ، وكان أمرها يشغله منذ خرجت إلى الشام حتى رأى فى منامه قبل أن تعود رؤيا تبشره بأن إحدى الطائفتين ستكون لهم ، والطائفة الأولى هى القافلة والطائفة الثانية المعنية هى قوات قريش التى كان من المحتمل أن تخرج لنجدتها ومنع النبي من مصادرتها(١) ثم إن وقعة أحد سنة ٣ هـ وقعت فى جوار المدينة مباشرة وعلى نحو ميلين منها ، وكان المكيون فيها مهاجمين مطالبين بثأر بدر(٢). ثم إن النبي خرج فى السنة الرابعة إلى بدر لوعد بالحرب كان بينه وبين المكيين يوم أحد(٣) ، فلم يلق النبي يومئذ حرباً (٤) . ولكنه حين سار إلى بدر إنما سار إلى حدود إقليمه ولم يتجاوزها . فلما كان العام الخامس وهو العام الذى وقعت فيه موقعة الخندق كان النبي مستقراً فى يثرب وعدوه هو الذى جاء إليه متحدياً منتهكا لحقه فى السيادة كما كان الحال فى عام أحد ، فالنبي لم يكن مهاجما ، بل إنه أراد أن يبرز نيته

---

(١) « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » الأنفال ٧ .

(٢) ابن هشام ٢/٣ وما بعدها .

(٣) ابن هشام ٣/٤٥ (٤) نفسه ٢٢٢

السلمية وأن يفهم الناس بطريقة مادية محسوسة أنه لا يريد حرباً . ولجأ فى التعبير عن هذه النية إلى طريقة مستحدثة تأباها الفروسية العربية ، وهى طريقة حفر خندق حول المدينة(١) . ثم ظهرت نية النبي السلمية بشكل واضح جداً لا يختلف عليه المؤرخون بعد عام الخندق ، ونادى النبي بكلمة « التقوى » أو كلمة « السلم » واعتبرها مقابلة لما كان يتبعه الناس يومئذ من الاستجابة « لحمية الجاهلية » فحمية الجاهلية تقابل كلمة السلم عند النبي . والعبارتان رامزتان لمثلين مختلفين : المثل الإسلامية ، والمثل العربية الجاهلية(٢) . وقد حرص النبي حين فتح مكة أن يتفادى الاصطدام بالمكيين . وفعلا تم فتح مكة سنة ٨ هـ وكان فتحاً خلا من القتال بوجه عام . وهو من قبل هذا فى عام الحديبية سنة ٦ هـ قد مال إلى السلم برغم معارضة كثير من أصحابه ، وعد الفوز بالسلم غنيمة كبرى وفتحاً مبيناً(٣) . إذ استطاع عمليا أن يسود المبدأ الإسلامى ويتغلب نهائياً على مبدأ الجاهلية . ففى تسويد مبدأ السلم احتفاظ بقوى العرب سليمة ، قوى يثرب وقوى مكة على السواء ؛ استعداداً لما كان يهدف إليه من توحيد العرب توحيداً شاملا ، وما تتطلبه الوحدة من قوة مادية وأدبية : من رجال ومن خبرة وتجربة . هذا إلى أن فى السلم إبعاداً لسخيمة النفوس وأحقادها مما قد يكون له من أثر سيء على روح الأفراد ، سواء إذا تم الأمر بالنصر أو بالصلح ، على أن فى تسويد السلم حرية للعقيدة أن تنتشر دون أن تقف

---

(١) ابن هشام ٢٣١/٣ .

(٢) (إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليماً) ، (الفتح ٢٦) .

(٣) ابن هشام ٣٥٥/٣ – ٣٧٢ .

فى وجهها عقبات مادية أو نفسية تصدها عن الانتشار أو تعطل من سيرها ولذلك نزل القرآن الكريم بسورة الفتح بعد صلح الحديبية «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» . والنبى لم يلجأ إلى حرب هوازن وثقيف يوم حنين إلا لأن هذه القبائل تحدته وتقدمت لحربه ورفضت الدخول فيما دخل فيه المكيون ؛ وكانوا من قبل يسيرون حيث يسير أهل مكة ، وكانت الطائف تعتبر من ريف مكة ، ولا يوجد شريف من أهل مكة إلا وله فى الطائف بستان . وكذلك حرب النبى مع القبائل العربية ، فإنه لم يهاجم إلا القبائل التى استعدت لقتاله وتجمعت لذلك وكذلك لم يهاجم اليهود إلا لخياناتهم وتجميعهم الجموع لحرب المدينة .

وهكذا نرى النبى فى كل هذه السنين لم يتجاوز الهدف الذى رسمه وهو الدفاع عن دولته ، وضمان الأمن لها مع تغليب كلمة «التقوى» أو كلمة «السلم» ، والسلم هو المثل الإسلامى الذى يتردد إلى اليوم على الألسنة فى التحية عند المسلمين «السلام عليكم» ، فالنبى لم يرد أن يفرض الدين بالحرب والإكراه «لا إكراه فى الدين» إذ الإكراه والاضطهاد من الأمور التى تثير التعصب فى نفوس المضطهدين . ومع ذلك فإن النبى حرض على الجهاد ، ونزل القرآن الكريم بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين ، إلا أن الجهاد لم يكن يقصد به إلا الدفاع وإعزاز الدولة الإسلامية بحيث تعيش فى أمن عام ، وإتاحة الفرصة للمبادىء أن تسير حجة بحجة وبرهانا ببرهان ، دون أن تقف القوى

المادية المسلحة فى طريقها فتصدها أو تعنت أصحابها فتعطل من سيرها .

الباب الرابع

الصراع بين يثرب وخصومها

ما كادت الدولة التى أنشأها النبى فى يثرب تقوم ، حتى بدأ بينها وبين خصومها صراع عنيف استعمل فيه اللسان كما استخدم فيه السيف ، وقامت فيه الدبلوماسية بدورها إلى جانب القوة المسلحة ، وظهرت فيه قوة الأحلاف القديمة بترابطها ومصالحها المشتركة . كما ظهرت آثار الخصومة القديمة بين القبائل والطوائف سواء فى داخل المدينة أو خارجها . ولعب تشابك المصالح أو تعارضها دوراً هاماً فى توجيه الصراع وتقرير مصيره .

ولقد ظهر للدولة اليثربية خصوم فى داخلها وفى خارجها . ولم يمض كبير وقت حتى اتفقت مصلحة الخصوم فى الداخل والخارج ، وتضافرت جهودهم على سحق قوة المدينة والقضاء عليها ، وخنق الدين الجديد الذى قامت الدولة عى أساسه . ومحاولة القضاء على صاحب هذا الدين حتى تعود الحالة إلى ما كانت عليه من قبل .

ولم يكن خطر الخصوم الداخليين بأقل أثراً من خطر الخصوم الخارجيين ، بل إنه أحيانا يكون أشد على الدولة ؛ فإنه يربك داخليتها ويفكك جبهتها ويجعلها عرضة السقوط أمام أى هجوم خارجى . وقد تمثل هذا الخطر فى طائفتين من طوائف يثرب . فأما الطائفة الأولى فهم اليهود الذين رحبوا بالنبى أول الأمر ظناً منهم أنهم يستطيعون استمالته إلى جانبهم ليستفيدوا منه فى تقوية مركزهم فى يثرب وتدعيم مصالحهم بها ، ولكن النبى كان صاحب هدف أكبر من الأغراض المحلية ، ومن هنا بدأ تعارض المصالح واضحاً بين الطرفين ؛ فأخذ اليهود يكيدون للدين الجديد ، وللوحدة الجديدة التى أقامها النبى بين عرب يثرب . ثم اتصلوا بالعدو الخارجى ونظموا معه قوة كبيرة لسحق المدينة وأما الطائفة الثانية فكانوا جماعة من الأوس والخزرج دخلوا

فى الاسلام مراعاة لدخول عشائرهم ، لكنهم كانوا مسامين فى الظاهر يستخفون بالكفر فى باطنهم ، وكان على رأس هذه الجماعة بعض الزعماء الذين فاتتهم مصالح عاجلة ، وعجزوا عن مقاومة الوضع الجديد وكان وجود هذه الجماعة غير المخلصة أمراً بالغ الخطورة فى كيان الدولة ، لكن النبى عالج الموقف بالحكمة والأناة ، ووكل أمر هـذه الجماعة إلى عشائرها ، وقد ظل يتقى خطرها حتى ضعف أمرها شيئاً فشيئاً .

وأما خصوم الدولة الخارجيون ، فـكانوا قريشاً ومن ارتبط بها من قبائل العرب على أساس المصلحة المشتركة . وقد عملت قريش منذ الهجرة على إحباط مشروعات النبى فى المدينة بالاتصال بالطوائف المناوئة فى الداخل ، كما عملت على كسر شوكة الدولة اليثربية بانتهاك حرمة أراضيها ثـم بالهجوم عليها بغية سحقها وتدميرها . وقد شاركت القبائل الموالية لقريش فى هذا العمل إما بمحاولة الإغارة على أطراف الدولة أو بالمشاركة فى جيوش قريش . لكن موقف القبائل كان دائما مرتبطا بمصالحها ، وكان من الممكن تحويلها من جانب إلى آخر حسب مصالحها ولذلك لم يكن موقف القبائل ثابتاً ، وقد استطاع النبى تدريجياً أن يحولها إلى جانبه ، حتى إذا ما مضت ثمانى سنوات كان موقف القبائل قد تعدل نهائيا لصالح يثرب . وفى كل أدوار هذا الصراع استخدم الطرفان المتنازعان - ونعنى بهما المدينة ومكة التى هى العدو الأول وحولها التف كل الخصوم - كل ما يملكان من قوة مادية وأدبية ، وكان النصر معقوداً لمن يستطيع أن يتفوق على الآخر فى توجيه الامور توجيها سليما مبنياً على إدراك قوى للموقف الداخلى والخارجى فى المدينتين ، وعلى فهم طبائع النفوس وتوجيهها لمصلحته .

الفصل الأول

الصراع بين مكة والمدينة

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا الصراع يحسن أن نلقى ضوءاً على الحالة الداخلية فى كل من المدينتين ، فإن الظروف الداخلية فى كل منهما لعبت دوراً خطيراً فى هذا الصراع ، وكان تنظيم الجبهة الداخلية من العوامل الحاسمة فى تفوق إحداهما على الاخرى . ولم تكن الجبهة الداخلية فى كل من المدينتين سليمة كل السلامة ، بل كان فى كل منهما نقطة ضعف خطيرة سببت لكل منهما متاعب كبيرة . وكان نجاح إحداهما فى تسوية مشاكلها هو العامل الأكبر فى تفوقها فيما قام بينهما من صراع .

الحالة الداخلية فى يثرب (المدينة)

كان فى المدينة عنصران من عناصر الضعف ، وكان لهما من الخطورة ما كان من شأنه القضاء على هذه الدولة الناشئة ، لولا اليقظة الشديدة والسياسة المرنة التى عالج بها النبى أمر هذين العنصرين .

فأما العنصر الأول من عناصر الضعف فهو وجود اليهود فى المدينة ، وقد كانوا عنصراً كبيراً وقوة خطيرة لا يستهان بها ، وقد أجبرتهم الظروف على تقبل الوضع الجديد الذى نشأ بالهجرة ، فحاولوا فى أول الأمر التقرب إلى هذا الوافد الجديد لعلهم يستطيعون استمالته إلى جانبهم

فربما استطاعوا بمعاونته أن يحولوا الموقف الداخلى فى يثرب لصالحهم . وقابل الرسول تقربهم هذا بتقرب مماثل ، فاعترف بهم عنصراً فى الدولة فى الدولة الجديدة ، وأقرهم على وضعهم وديانتهم ، ووضع بنوداً فى دستور المدينة (الصحيفة) حددت وضعهم كعنصر عامل مشارك فى الحقوق والواجبات ، وعقد مع قبائلهم الكبرى عقوداً ألحقتها بالدولة. لكن موقف اليهود فى أنفسهم كان تربصاً وانتظاراً لما يتبلور عنه الوضع الجديد . فما لبثوا أن رأوا الامور تسير إلى وجهة غير التى قدروها :- رأوا النبى يدعو إلى التوحيد ولكن ليس هو التوحيد الذى يؤمن به اليهود ، فلقد أتخذ اليهود من رسالة التوحيد التى جاء بها موسى ديناً ، ولكنهم ربطوها بجنسهم ، فالله الواحد هو إله إسرائيل الذى اختارهم لنفسه من دون الناس واختاروه لأنفسهم من دون الآلهة ، وبذلك كانوا يرون لأنفسهم ميزة على الناس . وكانوا حين تلم بهم شدة أو يحيط بهم الضعف والذل ، ينتظرون مجىء رسول أو (مسيح) ينقذهم من البؤس والشقاء ، وقد تحولت عندهم هذه الامنية إلى عقيدة راسخة ، ويقول المؤرخ اليهودى إسرائيل ولفنسون «ملأت هذه القصة صحفاً كثيرة من صحف الأدب الإسرائيلى القديم والحديث .. ولا تزال هذه العقيدة إلى اليوم راسخة فى نفوس الطبقات المتدينة من اليهود . وإذا قام شخص وادعى أنه المسيح المنتظر الذى يحنون إليه منذ أزمان طويلة أنكروا ادعاءه وسفهوا قوله ورفضوا الإذعان إلى ما يدعوهم إليه . وكأن الامة الإسرائيلية كانت ترمى بهذه الفكرة إلى غاية معنوية لا يريدون تحقيقها بوجه من الوجوه(١)» . ولقد نزل القرآن الكريم

---

(١) ابن هشام /١٠٢ .

يندد باليهود ويذكر تناقضهم فى أنفسهم «لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ(١)» فكأن غاية اليهود من أمتينهم أن يجلوا من يأتى بما يهوون من سيطرة ونفوذ ، لا بما تتطلبه الدعوة من إصلاح وخير يعم الناس جميعاً ، ومن أجل ذلك كذبوا أنبياءهم ، عارضوا المسيح وحاربوا دعوته وسعوا إلى قتله . فإذا جاء محمد فدعا إلى هذا الإله الواحد الناس جميعاً بغض النظر عن أجناسهم . فإنه بذلك يزيل عن بنى إسرائيل هذه الميزة التى يستفتحون بها على الآخرين. وإذن فلا تهادن بينهم وبين محمد الذى يسعى إلى تحطيم تلك القواعد المقروة التى سار عليها يهود ، فقامت بينهم وبين النبى محاجات ومجادلات ما لبثت أن اتخذت من جانبهم موقف التحدى والمعاندة ، بل لم تلبث أن ورطتهم فيما لا يصح أن يتورط فيه ناس لهم دين سماوى وعندهم كتاب ، فلقد كفروا بكل مبادىء التوحيد نكاية فى محمد ، فأعلنوا لقريش حين سألتهم أدينها خير أم ما يدعوا إليه هذا الرجل ، أن دينهم خير وأن الحق فى جانبهم(٢) وفى تورطهم فى هذا الإثم الذى دفع إليه الحقد الأعمى بتفضيلهم الأصنام على التوحيد ، نزل القرآن يعيرهم ويندد بهم «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً(٣)» .

---

(١) المائدة ٧٠ .

(٢) ابن هشام ٣/٢٣٠ .

(٣) النساء ٥١ .

وأمر آخر أثار حقد اليهود ، ذلك هو أن محمداً استطاع أن يؤلف بين الأوس والخزرج ، وأن يجعل منهم كتلة قوية متماسكة تضاءل إلى جانبها وضع اليهود ، ثم هو فى كل يوم يدخل إلى المدينة من المهاجرين ممن جاءوا معه من مكة ومن يلحق بهم ، ومن يدخل فى الإسلام من الأعراب ويهاجر ليقيم بالمدينة ما يزيد العرب بها قوة ويزيد اليهود بها ضعفا ، ويقضى على كل حلم يراود نفوسهم فى استعادة مركزهم أو حتى الاحتفاظ بهذا المركز .

ثم إن المهاجرين المكيين ما لبثوا أن اقتحموا الميدان الاقتصادى والتجارى منه بنوع خاص ، وهم من الخبرة بشئون التجارة ما تضاءلت معها خبرة اليهود ، وليس أبرع من تاجر قرشى فى ذلك الوقت ، فما فما لبثوا أن نظموا سوق المدينة وأجروا فيها التعامل على أسس جديدة جاء بها الإسلام ، فلا ربا ولا إرهاقا ولا طرقاً ملتوية تذهب بأموال الناس ، وبذلك نجحوا نجاحاً كبيراً وجنوا أرباحاً لا بأس بها ، وسيطروا أو كادوا على سوق المدينة . والمال وجمعه عنصر حساس عند اليهود يبيحون لأنفسهم فى سبيله ما لا يباح من دين أو شرف ، لذلك ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم وأخلفوا مواثيقهم ، وسعوا إلى تحطيم هذا الوضع الجديد فى الداخل والخارج . فأما فى الداخل فقد عملوا على إثارة الفتن والأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج(١) . ثم قاموا يجادلون ويشككون فى الدين الجديد ، ويصدون عنه من يريد الدخول فيه(٢) ، بل تطرقوا إلى المساس بالأشخاص والأعراض فأخذوا ينشرون قالة السوء ، وانبرى شعراؤهم ينظمون الشعر فى هجاء محمد والمسلمين

---

(١) ابن هشام ٢/١٨٣ - ١٨٤ . (٢) نفسه ٢/١٣٥ ، ١٧٠ - ٢٠١ .

والتحريض على حربهم ، ويشببون بنساء الأنصار(١) ، بل ائتمروا بالنبي نفسه يريدون قتله(٢) . . وأما فى الخارج فقد اتصلوا بأعداء الدولة وكانوا عيونا لهم على المسلمين(٣) ثم تآمروا مع العدو وخانوا الدولة ، وأوشكت مؤامراتهم وخيانتهم أن تقضى على المدينة قضاء تاماً فى غزوة الأحزاب(٤) .

ولقد عالج النبي موقف اليهود فى براعة وقدرة ، وتغلب على حساسية الموقف التى كانت قائمة بمحالفة اليهود مع بعض بطون الأوس والخزرج ، وكانت هذه المحالفات لا يزال لها أثر فى هذه البطون ، فكان لابد أن يعمل النبي حسابا لشعورها ، فترى النبي يصانع اليهود مرة ، ويجادلهم أخرى ، ويصبر عليهم حتى تحين فرصة فيقلم أظفارهم ثم يرى نفسه مضطرا آخر الأمر إلى التخلص منهم نهائيا .

أما العنصر الثانى من عناصر الضعف فقد كان ممثلا فى طائفة من عرب المدينة من الأوس والخزرج ، ومن بعض المتهودة ، ومن رجال بعض البطون اليهودية الصغيرة دخلوا فى الإسلام ظاهريا ، فعرفوا بالمنافقين(٥) ، وكان رأس هذه الطائفة رجل من زعماء الخزرج هو عبد الله بن أبيّ بن سلول من بنى الحبلى . وقد رأى هذا الرجل أن هجرة الرسول قد فوتت عليه مصلحة عاجلة كادت تصل إليه ، ذلك أن الأوس والخزرج قد تصالحوا بعد يوم بعاث واتفقوا على أن يملكوا عليهم رجلا منهم ، وكان عبد الله هذا هو الزعيم الذى وقع عليه

(١) نفسه ٣/٤٣١ – ٤٣٦ .
(٢) نفسه ٢/١٩١
(٣) ابن هشام ٣/٤٢٢ – ٤٢٤
(٤) نفسه ٣/٢٢٩ – ٢٣٠ ، ٢٣٧
(٥) (نافق الرجل إذا أظهر الإسلام لأهله وأضمر غير الإسلام وأتاه مع أهله وعقل النفاق القلب) القاموس مادة (نفق) .

الإختيار ، فإنه كان قد لزم الحياد فى مراحل الصراع الأخيرة بين القبيلتين ، وفعلا استعد قومه لتوليته مقاليد الرياسة ، فلما كانت الهجرة تغير الوضع وفات عبد الله ما كان يريد وينتظر ، من أجل هذا ضغن على النبى وعلى الوضع الجديد كله ، والتف حوله طائفة ممن شايعه كما التف حوله اليهود لاتفاق مصلحة الطرفين (١) . وقد عملت طائفة المنافقين على خلق المتاعب فى المدينة ، غير أن خصومة هؤلاء المنافقين تختلف عن خصومة اليهود وإن اتحدت مصلحة الطرفين فى مناوأة النبى : فالمنافقون من عرب يثرب يرتبطون بعشائرهم برابطة الدم والقرابة . وليس من السهل التخلص منهم بإخراجهم من يثرب كما فعل النبى باليهود ، كما أنه من الصعب التخلص منهم بالقتل وإلا تعرضت المدينة لحرب العصبية ، وتعرض النبى لأن يقال إنه يقتل أصحابه ، وفى هذا إضعاف لمركز الدعوة الإسلامية بين القبائل لو شن العدو دعاية من هذا النوع ، فقد كان المنافقون يظهرون الإسلام ، فهم فى الظاهر مسلمون ومن أصحاب محمد . وقد استشعر النبى هذا الحرج حين أشار عليه عمر ابن الخطاب بقتل عبد الله بن أبى بعد أن سعى بالفتنة بين المهاجرين والأنصار فى غزوة بنى المصطلق ، وقال النبى لعمر «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه(٢)» ، وقد استعان النبى على هذه الطائفة بعشائرها التى كانت تدرك موقف هؤلاء المنافقين وتقدر حلم النبى بهم رعاية لخاطر عشائرهم ، وقد جعلت هذه العشائر من نفسها وازعا يرد فتن هؤلاء المنافقين ويكبح جماحهم . وقد نجحت سياسة النبى هذه إلى حد كبير ، وخير شاهد

---

(١) السمهودى ١/١٥٥ (٢) ابن هشام ٣/٢٣٥

على ذلك ما أورده ابن اسحاق ، من استعداد عبد الله بن عبد الله بن أبى لقتل والده لو أمره النبى بذلك ، وأن قومه كانوا هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، وحين تذاكر النبى وعمر موقف عبد الله بن أبى وتعنيف قومه له ، قال « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته(١) .

وموقف المنافقين كان شديد الخطورة على كيان الأمة الداخلى . لكنه لم يصل إلى الحد الذى وصل إليه موقف اليهود ، فقد كان المنافقون حقاً يخذلون الدولة فى المواقف الحرجة ، ولا يتعاونون تعاونا صادقا عند الخطر . كما حدث من عبد الله بن أبى حين خذل جيش المدينة ورجع بالمنافقين من غزوة أحد(٢) وكما تخاذل المنافقون فى غزوة الأحزاب(٣) . لكن هذه المواقف لم تكن فى خطورة الاتصال بالعدو وتمهيد الطريق له لدخول المدينة والقضاء على أهلها كما فعل اليهود ، فقد كان المنافقون يعتبرون أنفسهم أهل البلد ، وهم إن لم يدافعوا عنها حمية للدين قاتلوا من أجل أحسابهم وأعراضهم ، ولذلك كان النبى يستشيرهم حين يدهم المدينة داهم ، فقد استشار عبد الله بن أبى فى غزوة أحد ، وقد أشار عبد الله برأى صحيح إذ أن الموقف كان يمس وطنه(٤) ، كما قاتل بعض المنافقين قتالا رائعاً فى هذه الغزوة ؛ وخير مثل لهم فى هذا الموقف رجل يسمى « قزمان » أبلى بلاء شديداً وقتل ثمانية أو سبعة من الأعداء منهم من كان يحمل لواء قريش ؛ ولما جرح وأشرف على الموت وجعل بعض المسلمين يبشره بالجنة قال « بماذا أبشر ؟

(١) ابن هشام ٣/٢٣٧
(٢) نفسه ٣/٨
(٣) نفسه ٢٣١ ، ٢٣٨
(٤) الواقدى ١٦٤ — ١٦٥

فو الله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ما قاتلت(١)» . وقد ظل خطر المنافقين على الدولة كبيراً ما ظل اليهود فى يثرب ، إذ أنهم كانوا على صلة دائمة بهم ، بل إن اليهود هم الذين أذكوا النفاق فى يثرب فلما تم تطهير يثرب من اليهود ضعف أمر النفاق ، وأصبح النبي لا يخشى خطر هذه الطائفة .

هذه هى المتاعب التى واجهت النبي فى جبهته الداخلية ، وقد تغلب عليها بمنتهى اليقظة والحزم ، وزاوج فى التغلب عليها بين اللين والشدة حتى استقام له الأمر .

الحالة الداخلية فى مكة

أما الحالة الداخلية فى مكة فكانت نقط الضعف فيها أشد وأعمق ، وكان التغلب عليها أكثر صعوبة مما كان عليه الأمر فى يثرب .

وأول هذه الأمور ، هو الهجرة وما ترتب عليها بالنسبة للوضع الداخلى فى مكة ، فقد هاجر كثير من المسلمين إلى الحبشة وإلى يثرب . ولم يكن كل من هاجر مغمورا أو غير محسوس الأثر فى قومه ، وإنما كان كثير منهم صاحب نشاط وأثر محسوس فى الحياة العامة ، فحرمت مكة بخروجهم من عناصر طيبة كانت ذات قيمة كبيرة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية . وأقفلت بالهجرة كثير من دور مكة وأظهر المكيون ألماً وحسرة على قفل هذه الدور . ثم إن كل بطن من البطون بل ربما كل أسرة من الاسر المكية قد تأثرت بهذه الهجرة التى قام بها المسلمون ، فلم تبق أسرة إلا ومنها أب أو ابن أو أخ يعيش فى غربته مهاجراً ، وليس أشد قسوة من فراق الأهل والأحبة ، والشعور بما أصاب البيت من

---

(١) ابن هشام ٣/٣٧ — ٣٨

التفكك والتعادى ، وخصوصاً فى بيئة مثل البيئة العربية التى تقوم على الترابط القبلى وتحكمها نوازع العصبية ، وفى مدينة مثل مكة تحرص أشد الحرص على وحدة القبيلة (قريش) فيها ، وقد عمل ملأ قريش جاهداً منذ أن صار أمر مكة إلى قريش على أن يحتفظ بوحدة القبيلة ويصونها من التفكك ، ووقف بكل قوته فى وجه كل ما من شأنه أن يؤدى إلى إراقة الدماء أو الوقوع فى الثارات بين البطون القرشية . لذلك اتهم أهل مكة النبى بأنه سعى إلى تحطيم هذه الوحدة وفرق بين الناس ، على أنه مهما يكن تعصب أهل مكة لوضعهم العام ، فإن الشعور بالتأثم كان يملأ نفوس الأفراد . فإنه لا يفر الإنسان من وطنه وأهله إلا لظلم وقع به أو إرهاق عجز عن تحمله ولم يطق دفعه عن نفسه ، وهكذا كان إحساس قريش بظلمها للمسلمين على الرغم من محاولتهم إلقاء التبعة على النبى . وكان هذا الشعور الداخلى من عوامل إضعاف الروح المعنوية ، وقد أخذ يشتد مع الأيام .

ثم إن هناك المستضعفين من المسلمين الذين لم يستطيعوا فراراً وحبسوا فى مكة ، هؤلاء كانوا من غير شك يثيرون العطف ويعذبون الضمير العام فى مكة ، وفى الوقت نفسه كانت عواطفهم وأمانيهم مع إخوانهم المسلمين ، وكانوا يدافعون عن تصرفات المسلمين فى المدينة تجاه قريش ، ويكونون دعاية لهم بين أهل مكة(١) . بل منهم من استطاع الفرار وجعل من نفسه ومن على شاكلته من المسلمين الفارين حربا على المكيين ؛ يقطعون طريقهم ويستولون على ما تصل إليه أيديهم من متاجرهم ، ويقتلون من يقدرون على قتله منهم(٢) .

---

(١) ابن هشام ٢٤٢/١ (٢) نفسه ٣٢٣/٣

ثم بنو هاشم فى مكة وهم عشيرة النبي الأقربون ، وقد حموه ودافعوا ، طول مدة إقامته فى مكة بعد البعثة إلى أن هاجر ، وتحملوا الشدة والمقاطعة فى سبيل نصرته بدافع العصبية . وحين اعتزم عقد البيعة الكبرى مع أهل المدينة لم يخف أمرها عن عمه العباس ، بل إن العباس حضر هذه البيعة ليستوثق لابن أخيه وليطمئن على موقف أهل المدينة منه ، ولقد كان العباس عينا للنبي على أهل مكة يكتب له بكل تحركاتهم واستعداداتهم ضده ، وكان من بمكة من المسلمين يلتقون به وكان لهم عونا على إسلامهم ، وكان يذيع بين أهل مكة أخبار انتصارات النبي على خصومه . وهو بذلك يضعف الروح المعنوية عند أهل مكة ، ومن غير شك كان له دور كبير فى تسليم أهل مكة فى عام الفتح سنة ٨ هـ(١) . كما كان هَوىَ بنى هاشم من غير شك مع محمد وأمانيهم فى نصره . وكانت قريش تعلم هذا فيهم(٢) ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً . فلو فرضت عليهم الهجرة وأخرجتهم من مكة فإنها بذلك تزيد من عدد محمد وتكثر من عدد الحانقين عليها ، وتحرم كذلك من رجال لهم نشاط اقتصادى كبير مثل العباس بن عبد المطلب ومن رجال موالين لها منهم من أمثال أبى لهب بن عبد المطلب ، وإن أبقت عليهم كانوا عينا لمحمد عليها . ولم تجد قريش حلا لهذا الوضع فاحتملته على ما هو عليه .

ثم إن مكة تعتمد فى حياتها الاقتصادية على تسيير قوافلها وبخاصة نحو الشمال ، وها هى دوريات يثرب ثم قواتها تهدد هذا الطريق

(١) أسد الغابة ٣/١٠٦ — ١١٠

(٢) ابن هشام ٢/٢٤٥ — ٢٤٦ ، ٢٥٧ — ٢٥٨ ، ٢٩٦

وتتصدى للقوافل فتوقف نشاطها فتحدث فى مكة الضائقة الاقتصادية ، الأمر الذى يضعف قدرتها يوما بعد يوم .

كل هذه العوامل هزت الجبهة المكية فى الداخل هزاً شديداً . ولم يجد زعماء قريش — على ما بذلوا من جهد — حلا لها وبقيت أسباب ضعف يزداد على الأيام .

هذه هى الحالة الداخلية فى كل من المدينتين المتعاديتين . أثناء الصراع الذى نشب بينهما واستمر ثمانى سنوات . وكتب له أن ينتهى نهاية سعيدة بفتح مكة فتحاً سلمياً والإبقاء على قوى العرب سليمة .

بداية الصراع بين المدينتين

حين أنشأ النبى دولته فى يثرب . كان يدرك أن عدوه الأكبر هى قريش ، وأنها سوف لا تتأخر عن مناوأته ، وسوف لا تصبر طويلا على هذه الدولة التى نشأت على طريق تجارتها إلى الشام ، ولقد قدرت قريش مقدار الخطر الذى يتهددها من وراء هجرة المسلمين إلى يثرب ، ومبايعة أهل المدينة للنبى ، واستشعرت ما سيترتب على هذا الوضع من نتائج ستجر إلى الحرب بين البلدين بمجرد أن علمت ببيعة العقبة الكبرى ، فقد ذهب رجال قريش إلى منازل أهل المدينة بمنى فى صبيحة يوم البيعة يقولون لهم «يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم (١)» وقد تحرشوا فعلا بأهل المدينة حين تأكد لهم الخبر وقبضوا على أحدهم وهو سعد بن عبادة الخزرجى ، وكادوا يفتكون به لولا أن منعه بعض سادة قريش لجوار بينه وبينهم(٢) . كان النبى يدرك هذا . ولذلك

(١) ابن هشام ٢/٥٧   (٢) نفسه ٥٨ — ٥٩

وضع نصاً خاصاً بقريش فى الصحيفة واعتبرها عدو المدينة الأول ، وحرم على أهل الصحيفة أن يجير أحدهم مالا لقريش ولا نفساً ، وكان يقصد من وراء هذا النص إلى إفهام قريش أن مكة لا تستطيع أن تمر بتجاراتها إلا إذا هادنت الدولة الجديدة واعترفت بالوضع الجديد .

وقد بدأت سرايا المدينة فعلا تتجه إلى الطرق الرئيسية التى تمر منها قريش بتجاراتها إلى الشام ، وتواجه قوافل قريش بقصد إفهامها حقيقة الموقف ، وإن كانت لم تصادر هذه القوافل أو تتحرش بها ، كما أنها أخذت تتصل بالقبائل الضاربة على جنبات هذه الطرق وتعقد معها أحلافاً ، وبذلك تحرم قريش من الاستعانة بهذه القبائل أو اللجوء بقوافلها إلى حمايتها إذا هددت بالاعتداء عليها أو مصادرتها . ولم يزد الأمر عن هذه المظاهرات العسكرية طوال عشرة أشهر من بدء تسيير دوريات المدينة وسراياها ، وقد ردت قريش من جانبها بتعزيز الحراسة على قوافلها وتسيير دوريات بأعداد أكبر من قوة المسلمين ، وكانت الدوريات تتقابل وتتواقف دون أن يحدث بينها قتال(١) .

لكن سرية كان يقودها أحد المهاجرين هو «عبد الله بن جحش» خرجت على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجر النبي إلى يثرب ، واتجهت إلى مكان يعرف ببطن نخلة بين مكة والطائف ، وكانت مهمة هذه السرية استطلاع حال قريش والوقوف على أخبارها ، ولم يكن من أغراضها القتال ، إذ أن أمر النبي إلى رجال السرية خلا من كل إشارة إلى القتال ، ثم إن عدد رجال هذه السرية كان قليلا لا يتجاوز الثمانية ، الأمر الذى يقطع بأن مهمتها كانت استطلاعية محضة ، ولكنها لقيت قافلة

(١) ابن هشام ٢/٢٢٤ ، ٢٣٠

صغيرة لقريش قادمة من الطائف تحمل بعض التجارة ، فتصرف رجال السرية على مسئوليتهم ، وهاجموا هذه القافلة وقتلوا رجلا من رجالها وأسروا رجلين ، وكان ذلك فى آخر يوم من شهر رجب سنه ٢ هـ ، وهو من الأشهر الحرم التى تحرم العرب فيها القتال(١) .

انتهزت قريش هذه الفرصة للتشهير بمحمد وبالمسلمين ، وإظهارهم بمظهر المعتدى الذى لا يراعى الحرمات ، فقامت بدعاية كبيرة لإثارة الرأى العام العربى . وقد كان لدعايتها صدى كبير وأثر ملموس حتى فى المدينة نفسها ، فقد كثر الجدل والنقاش بين المسلمين أنفسهم ، وأنكروا على رجال السرية محاربتهم فى الشهر الحرام ، ودافع هؤلاء عن أنفسهم بأن ما حدث كان فى أول يوم من شعبان . ووقف النبى العير والأسيرين وقال لرجاله « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » واشتد الموقف ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة(٢) .

وهنا نزل القرآن الكريم يرد على دعاية قريش « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا » وسُرِّى على المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر ، وقبض النبى العير والأسيرين حتى فادتهما منه قريش(٤) .

---

(١) ابن هشام ٢/٢٣٨ — ٢٤٠ .

(٢) نفسه ٢٤١ ، الواقدى ٨ ، الطبرى ٢/١٢٥ — ١٢٦ .

(٣) البقرة ٢١٧ . (٤) ابن هشام ٢/٢٤١ — ٢٤٢ .

كانت هذه السرية مفترق طرق في سياسة الاسلام ، فإن القرآن الكريم يجيب المشركين على تساؤلهم عن القتال في الشهر الحرام ، ويقرهم على أنه أمر كبير لكن هناك ما هو أكبر منه ، فالصد عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام ، والمسجد الحرام - الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً - وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام والقتل فيه ، وفتنة المرء عن دينه بالوعد والوعيد والإغراء والتعذيب أكبر من القتل في الشهر الحرام وفي غير الشهر الحرام . وقريش والمشركون الذين ينعون على المسلمين هذا العمل في الشهر الحرام لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا . فإذا كانت قريش تعد القتال في الشهر الحرام من الكبائر ، فماذا تقول عن ارتكابها لهذه الكبائر كلها : تصد عن سبيل الله وتكفر به ، وتخرج أهل المسجد الحرام منه وتفتنهم عن دينهم ، وتحبس الضعفاء وتعذبهم ؟ .. إنه لا جناح على من تقع عليه أوزارها وكبائرها هذه إن هو قاتلها في الشهر الحرام ، وحق واجب على كل من يرى غيره يحاول فتنته عن دينه أو يصده عن سبيل الله أن يقاتل في سبيل الله . ومن هنا شرع الجهاد في الإسلام « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَأَنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ »(١) « وقاتلوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »(٢) ، « ومَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً »(٣) .

---

(١) الحج ٣٩ . (٢) البقرة ١٩٠ . (٣) النساء ٧٥ .

وكانت هذه السرية كذلك مفترق طرق في سياسة المسلمين إزاء قريش ، فقد بدأ المسلمون بعدها يفكرون تفكيراً جدياً في وقف قريش عند حدها ، واتخاذ موقف الشدة الصريح معها ؛ ذلك أن قريشاً حاولت إثارة شبه جزيرة العرب كلها على محمد وأصحابه ، حتى أيقن النبي أن لم يبق في مصانعتها أو الاتفاق معها رجاء . لذلك اعتزم أن يقف من اعتداءاتها على حدود دولته ، بتمرير تجارتها في أراضيها وإدلالها عليه بالقوة ، موقفاً صارماً .فما لبث حين علم بخروج قافلة كبيرة من قوافلها إلى الشام بقيادة أبي سفيان ، أن خرج لسد هذا الطريق ومصادرة هذه القافلة ، فلم يلحق القافلة ولكنه اصطدم بقوات قريش التي جاءت لنجدتها ، فكانت موقعة بدر على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة .

ونشير هنا إلى نقطة هامة لم يلتفت إليها المؤرخون من قبل ، وهي اشتراك الأنصار لأول مرة في هذه الغزوة ، فإن السرايا الثمانية الأولى التي وقعت من قبل كانت كلها من المهاجرين(١) ، ولم يبدأ اشتراك الأنصار إلا في غزوة بدر سنة ٢ هـ ، فما تفسير ذلك الموقف ؟

لقد وضع النبي الصحيفة وكان طرفها الأول المهاجرين ، والطرف الثاني الأنصار ، وكان من بنودها ألا تجار قريش ولا أموالها . وكان على الطرفين الالتزام بنصوص هذه الصحيفة ، والدفاع عن الدولة من الاعتداء عليها . لكن الأنصار حين بايعوا النبي بيعة العقبة الكبرى اشترطوا على أنفسهم أن يحموه ما دام في المدينة(٢) ، ولم يشترطوا

---

(١) ابن هشام ٢/٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ — ٢٣٩ ، ابن سعد ٣/٤٥ — ٤٨ ، جوامع السيرة ١٠١ — ١٠٦ .

(٢) ابن هشام ٢/٢٥٣ — ٢٥٤ .

على أنفسهم أن يقاتلوا معه خارج حدود مدينتهم . وكان موقف الأنصار مختلفاً عن موقف المهاجرين بالنسبة لقريش ، فإن المهاجرين كانوا فى حالة حرب معلنة بينهم وبين أهل مكة بما عذبوهم وضيقوا عليهم ، وبما أوقعوا عليهم ن حصر اقتصادى حتى اضطروهم إلى الهجرة وهم حين هاجروا استولت قريش على أموالهم ، ثم إن بعضهم كان لا يزال محبوساً فى مكة يلاقى العذاب والاعنات . أما بالنسبة للأنصار فلم تكن هناك حرب معلنة بين الطرفين ، ولم يكن هناك إلا ما تفرضه بنود الصحيفة من عدم إجارة قريش أو تجارتها ، ومن أمر الدفاع عن الدولة الجديدة ، ولم يكن الأمر قد تبلور فى نفوس الأنصار إلى ما يوضح الاعتداء على حقوق السيادة للدولة ، وأن انتهاك حرمة أراضيها هو نوع من الاعتداء عليها ، فقد كان القوم حديثى عهد بهذا النوع من التنظيم ، ولم يعرفوا من قبل غير التنظيم القبلى أساساً للحكم ، فلم يدركوا بعد معنى سيادة الدولة ولا معنى الحدود السياسية لها ، ولذلك وقفوا موقفاً سلبياً إزاء مرور تجارة قريش بأرض الدولة اليثربية وتمسكوا بشروط بيعة العقبة . وكان النبى يدرك هذا الوضع تماماً ، فلم يطلب من الأنصار الاشتراك فى السرايا الأولى ، حتى جاءت الحوادث فأدت بطبيعتها إلى اشتراك الأنصار فى الوقوف فى وجه قريش ، ذلك أن قريشاً تحدت أهل المدينة ومنعتهم من زيارة الكعبة والدخول فى مكة ، فقد كان سعد بن معاذ سيد الأوس صديقاً لأحد سادات مكة وهو أمية بن خلف ، وكان هذا ينزل على سعد عند مروره بالمدينة ، كما كان سعد ينزل عليه إذ ذهب إلى مكة . وقد ذهب سعد إلى مكة معتمراً ونزل على أمية ثم طلب إليه أن ينتهز فرصة يطوف فيها بالكعبة وعند الطواف لقيَهُ أبو جهل بن هشام ، فلما عرفه هدده بالقتل

لولا جوار أمية له . وزاد سعد على تهديد أبي جهل بأن قال له : « أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه . طريقك إلى الشام »(١) .. وهكذا أدى تحدى قريش لأهل المدينة إلى أن يقفوا مع المهاجرين فى منع تجارة قريش من المرور فى حدود إقليمهم . مما أدى إلى موقعة بدر ثم ما تلاها بعد ذلك من مواقع .

موقعة بدر سنة ٢ هـ :

صممت قريش على تحديها للدولة اليثربية بتمرير تجارتها فى أراضيها منتهكة بذلك حق السيادة اليثربية . فكان لزاماً على النبى أن يقف موقفاً حازماً يحفظ على دولته حدودها ويصون كرامتها . وإلا تعرضت للمهانة فى الخارج والداخل : فقد كان فى خارجها وعلى حدودها قبائل لم توادع النبى . وهى على علاقات طيبة مع قريش ترتبط بها وترى من مصلحتها تفوقها ، إذ أنها تستفيد من رحلاتها التجارية . كما كان الوضع الداخلى فى يثرب مضطرباً بوجود اليهود الذين رأوا أمر محمد يستقر ولواء الإسلام يرتفع فبدأوا يقلبون له ظهر المجن ويعملون على الوقيعة به . وطبيعى أنه لو ترك حبل اليهود على غاربهم فى المدينة أن يستفحل أمرهم ويثيروا الفتن التى يسعون لإثارتها . وليس يكفى فى عرف الدقة السياسية التحذير منهم والتنبيه لكيدهم ، بل لا بد من إشعارهم أن للمسلمين من القوة ما يمكنهم من إخماد أية فتنة واجتثاث أصولها .

خرج أبو سفيان فى أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة لقريش يقصد الشام . وخرج النبى إلى موضع يسمى

---

(١) البخارى ٥/٧٢ .

العشيرة لمصادرتها . لكن أبا سفيان فاته فعزم على انتظارها فى عودتها(١) ولما تحين فرصة انصرافها من الشام بعث عيونه يقتصون خبرها ، ثم ندب المسلمين للخروج ، وخرج على رأسهم من المدينة لثمان خلون من شهر رمضان سنة ٢ هـ (فبراير سنة ٦٣٤ م)(٢) . وكانت عدة من خرج مع النبى إلى هذه الغزوة سبعة عشر وثلاثمائة رجل : منهم ستة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج(٣) وانطلقوا مسرعين . خوف أن يفلت منهم أبو سفيان ؛ وهم يحاولون حيثما مرّوا أو يقفوا على أخباره .

أما أبو سفيان ، فكان قد اتصل به خروج النبى لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام ؛ فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته . فجعل من ناحيته يتجسس أخبارهم . فلما تراءى إليه خبر خروجهم . استأجر رجلاً من قبيلة غفار بعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً لنجدة أموالها . ولم تكن قريش فى حاجة إلى من يستنفرها ، فقد كان لكل منها نصيب من هذه القافلة حتى قوم ما فيها بخمسين ألف دينار . وهو مبلغ عظيم فى ذلك الوقت(٤) . ثم إنها كانت معتزمة ايقاف نشاط المسلمين وضربهم .

على أن أمر قريش بمكة لم يكن جميعاً نحو سياسة العدوان التى اتخذتها نحو النبى والمسلمين . فقدكانت هناك طائفة تشعر بما ظلمت

---

(١) العشيرة موضع من ناحية ينبع بين مكة والمدينة . ياقوت ١٣/١٢٧ ، ابن هشام ٣/٢٣٤ — ٢٣٦ .

(٢) التوفيقات الإلهامية ص ١ (فى ٢٠ فبراير سنة ٦٢٤ حدثت موقعة بدر)

(٣) ابن هشام ٢/٣٣٢ ، ٣٣٨ ، ٣٥٤ ، ابن حزم : جوامع السيرة ١١٤ — ١١٥

(٤) الواقدى ١٧ — ١٨ .

قريش المسلمين من أهلها حتى اضطرتهم إلى الهجرة . وكانت هذه الطائفة تتردد بين النفير والقعود : كما أن العصبية العشائرية كانت تفعل فعلها : فبنو هاشم فى مكة كان هواهم مع محمد . وبنو عبد مناف جميعاً كانت العصبية العشائرية تقوم فى نفوسهم . وهم وإن سايروا إجماع القبيلة كانوا يودون لو يترك أمر محمد الظروف العامة فإن انتصر على العرب كان ذلك فخرهم . وهم لذلك كانوا مترددين لم ينشطوا للخروج والاستعداد له نشاط باقى البطون القرشية(١) .

وقد بدت روح العصبية العشائرية واضحة فيما كان من خلاف بين موقف عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من بطن عبد مناف وأبى جهل ابن هشام من بنى مخزوم . إذ كان الأول يريد تجنب القتال . وكان الثانى يتهمه بممالأة ابن عمه محمد . وينفس على بنى عبد مناف أن تكون فيهم نبوة ورياسة(٢) .

وهكذا لم تكن قريش تؤمن بسلامة موقفها إيماناً يذكى روحها المعنوية ويشعرها بسلامة القضية التى تقاتل من أجلها؛ ومن أجل ذلك رجع بعض بطونها فلم يشهد القتال : وكان بين زعمائها من الخلاف والتحاسد ما جعل وحدتها مفككة أمام عدوها . ولكنها مع ذلك كانت مختلة بقوتها مزهوة بعدتها .

أما المسلمون فقد انطلقوا حتى إذا كانوا قرب بدر جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم ، إذ ذاك تغير وجه المسألة فلم يبق هؤلاء المسلمون أمام أبى سفيان وغيره والثلاثين أو الأربعين رجلاً معه لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه . وإنما هى مكة خرجت كلها

---

(١) انظر الواقدى ٣٩ — ٣٧ .   (٢) نفسه ٢٠ ، ٣٠ ، ٣٧ ؛ ٤٥ — ٤٧ .

وعلى رأسها أشــراقها للدفاع عن تجارتها ، وإرغام المسلمين على الاعتراف بقوتها وقدرتها على تمرير هذه التجارة فى أراضيهم على رغم أنوفهم .

لقد أصبح الموقف بالنسبة للنبي غاية فى الحرج والدقة . فلقد خرج ليواجه تجارة وحامية قليلة فلم يأخذ للحرب أهبتها . ولم يتزود بما يكفى من عتاد وسلاح . وكذلك تخلف عنه كثير من أصحابه فلم يخرجوا ظناً منهم أنه لا يلقى حرباً . وكذلك لم يكن متثبتاً من موقف الأنصار بإزاء هذا الوضع الجديد . أيقاتلون أم يتمسكون بموقفهم السابق من عدم المجازفة بالاشتباك مع قريش ؟

وهب أن المسلمين أدركوا أبا سفيان وتغلبوا على رجاله واستاقوا إبله وما عليها . فلن تلبث قريش أن تدركهم يحفزها حرصها على مالها وتؤازرها كثرة عديدها وعددها . وأن توقع بهم وأن تسترد الغنيمة أو تموت دونها .. ولكن إذا عاد محمد إلى المدينة من حيث أتى طمعت قريش وطمع يهود المدينة فيه . واضطر إلى اتخاذ موقف المصانعة . واضطر أصحابه إلى احتمال أذى اليهود والمشركين معهم بالمدينة مثلما احتملوا من أذى قريش فى مكة . ثم ماذا عن الدولة الجديدة وسيادتها وحدودها ؟ .. إنها سوف تهدد تهديداً خطيراً قد يذهب بحرمتها ويجعلها غرضاً للمعتدين . بل قد يقضى عليها نهائياً ... وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلو كلمة الله .

عند ذلك استشار أصحابه وأوضح لهم الموقف ، فأدلى كبار المهاجرين برأيهم ، وأظهروا طاعتهم واستعدادهم للتضحية مهما عظمت . لكن النبى

كان يريد رأى الأنصار . ولذلك ظل يكرر : « أشيروا علىّ أيها الناس » فأدرك سعد بن معاذ زعيم الأوس وحامل لواء الأنصار فى هذه الغزوة أن النبى يريدهم ، فقام يجيب عن الأنصار . قال : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب . صدق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله »(١) . فسرّ رسول الله بقول سعد ونشطه ذلك . فقال : « سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم »(٢) .

وبهذه المشاورة وهذا التصريح من زعيم الأنصار اطمأن النبى إلى موقفه وضمن اتحاد طرفى الصحيفة عن سياسة واحدة تجاه الأوضاع الخارجية أصبحت منذ ذلك اليوم تطبق تطبيقاً عملياً . ولم يعد النبى بعد ذلك فى حاجة إلى التفكير فى موقف أهل المدينة تجاه سياسته الخارجية وتدعم بذلك مركز الدولة إلى حد كبير .

نشط المسلمون وتقدموا إلى وادى بدر ، وهو واد به آبار ومياه كان موسما للعرب . ومحطة تجارية تنزلها القوافل فى ذهابها وعودتها إلى الشام ، وكان المسلمون يتوقعون لقاء القافلة هناك ، لكن الوضع ما لبث أن تغير . فقد عرف أبو سفيان خروج المسلمين ونزولهم على

---

(١) ابن هشام ٢/٢٥٤ .

(٢) نفسه ٢/٢٥٤ .

ماء بدر ، مشاحل بقافلته وأفلت(١) . وأصبح المسلمون وهم ينتظرون قدوم القافلة : فإذا الأخبار تصلهم أنها فاتتهم ، وأن الذين على مقربة منهم هم مقاتلة قريش . فلم تعد الغنيمة إذن هى التى تنتظرهم وإنما هو القتال ، والقتال الشديد غير المتكافىء ، فقريش قد جاءت بعدتها وعتادها فى ثلاثة أضعافهم من الرجال وما يفوقهم خمسين ضعفاً من الخيل(٢) . ولذلك كان على المسلمين أن يوطنوا أنفسهم على الشدة وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها إلا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه . إلا أن بعض المسلمين قد تخوف القتال بعد أن ذهب الأمل فى الغنيمة . فبدأ يجادل النبى كى يعودوا إلى المدينة ؛ ولا ضرورة للقاء مقاتلة قريش وهى أكثر منهم عدة وعدداً . وهذا البعض لم يدرك بطبيعة الحال معنى الدفاع عن الحدود : وإنما كانت نظرته سطحية قبلية ، ولذلك نزل القرآن يوضح المسألة ويثبت المسلمين « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »(٣) . وبذلك قضى على التردد واستعاد المسلمون روحهم المعنوية ، ووضحت لديهم أغراض القتال .

. . . وقريش هى الأخرى ما حاجتها إلى القتال وقد نجت تجارتها ؟ أليس خيراً لها أن تترك المسلمين يرجعون من رحلتهم بخفى حنين ؟ ! هكذا فكر أبوسفيان وبذلك أرسل إلى قريش يطلب إليهم الرجوع .

---

(١) نفسه ٢٥٧ .

(٢) الواقدى ٢٦ (خرجوا بتسعمائة وخمسين مقاتلا وقادوا مائة فرس بطرا ورياء الناس) .

(٣) الأنفال ٧ — ٨ .

وهو يتخوف على قومه من لقاء المسلمين ، ويشاركه فى هذا التخوف كثير من زعماء الجيش المكى ؛ فلقد خرج سادات قريش جميعاً إلى القتال ، فلو أصابهم المسلمون فظفروا بهم قتلا أو أسرا ، فماذا يكون الحال فى مكة ؛ وإلى أى حد تبلغ المصيبة ؟ ! إن قريشاً تقدم على قتال قوم فى بلادهم بغياً عليهم(١) . وعلى قتال قوم قد ظلموا وأوذوا فى أنفسهم وأموالهم وأخرجوا من ديارهم بغير حق . وهم جميعاً يتحدثون عن الموت حديثهم عن الحياة الخالدة الناعمة . وإنهم لينظرون من ورائه جنة عالية ونعيماً مقيماً . فهم إذن قوم مستميتون مستقتلون : يحفزهم الإحساس بالظلم ويدعوهم النعيم الذى ينتظرهم . وليس أشد بأساً فى القتال من مؤمن مظلوم .

وهكذا كانت الروح المعنوية فى كل من الجيشين حين تقدما للقتال . واستطاع النبى أن يسوق عدوه إلى ميدان القتال . وبذلك اختار لرجاله أفضل المواقع ؛ ثم عدل صفوفهم وبث فيهم الحمية وبشرهم بالنصر وبأن الملائكة ستشد أزرهم . وقد أظهر المسلمون منتهى النظام والطاعة والتفانى فى محبة قائدهم ؛ وبذلك عوضوا النقص فى عددهم وعدتهم . أما قريش فلم تحسن اتخاذ مواقعها . كما كانت التفرقة تسود قوادها . ولم يستطيعوا جمع أمرهم على واحد يلزمهم طاعته : فما لبثوا حين اصطدموا بالمسلمين . أن بطش بهم هؤلاء بطشة شديدة ؛ وتيمموا رؤساء قريش يقتلونهم ويأسرونهم . فارتبكت صفوف قريش وولوا منهزمين بعد أن تركوا فى ميدان القتال سبعين قتيلا كان منهم معظم زعماء مكة . كما تركوا فى أيدى المسلمين سبعين أسيراً ؛ وتركوا كثيراً من أمتعتهم وأموالهم ودوابهم وقعت غنيمة فى أيدى المسلمين .

(١) الواقدى ٣٧ ، ٤٥ .

وهكذا كانت هزيمة تامة ساحقة(١) .

وتعد معركة بدر على صغرها وعلى قلة الجيوش المتقاتلة فيها : من المعارك الحاسمة فى التاريخ . فقد استقر بها أمر المسلمين فى جزيرة العرب ، وقد ثبتت دعائم الدولة اليثربية التى كانت مقدمة لوحدة شبه الجزيرة العربية . كما كانت مقدمة لامبراطورية إسلامية مترامية الأطراف هى من أعظم ما عرف التاريخ من امبراطوريات . وأقرت حضارة فى العالم لا تزال ذات أثر عميق فى حياة الإنسانية .

تركت بدر آثاراً عميقة بمكة والمدينة على السواء : فأما فى مكة فقد عادت قريش مهزومة مخذولة : قد قتل سادتها وأسر كثير من رجالها وفيهم عدد من ذوى المكانة . وقد تركت الهزيمة فى نفوس القرشيين حرصاً شديداً على الثار من محمد والمسلمين يوم تتهيأ لهم الفرصة لهذا الثأر . وقد حرصوا على أن تكون فرصة الثأر قريبة وأن تعد لها قريش العدة قبل أن تخمد نارها فى الصدور . فما كادت ترجع حتى اجتمع رجالها فى دار الندوة فاتفقوا على التنازل عن أرباح قافلة أبى سفيان ، ووقفها على إعداد جيش قوى لغزو محمد والثأر منه ، وقد قدر هذا الربح بخمسين ألف دينار وهذا مبلغ كبير فى تلك الأيام(٢) ، ثم إنها أخذت تعد أحابيشها وتتصل بحلفائها . كما تتصل بيهود المدينة ممن إمتلأت نفوسهم حقداً على محمد وامتلأت قلوبهم خوفاً من علو أمره.

أما أثر بدر فى المدينة . فقد كان أوضح وأكثر اتصالاً بحياة محمد والمسلمين معه : فقد شعر اليهود والمشركون والمنافقون بعد بدر بمزيد قوة المسلمين . ورأوا هذا الرجل الذى جاءهم فاراً من مكة منذ عامين

---

(١) انظر ابن هشام ٢/٣٦٦ — ٣٦٧ ، الواقدى ٧٠ — ٧٢ .

(٢) الواقدى ١٥٧ ، ابن هشام ٣/٤ .

يزداد سلطانه ويكاد يكون صاحب الكلمة فى أهل المدينة جميعاً . وكان اليهود قد بدأ تذمرهم من قبل بدروبدأت مناوشتهم للمسلمين ، ولم يحل دون انفجار العداوة بين الطرفين إلا عهد الموادعة الذى كان بين الفريقين . على أنه ما كاد المسلمون يعودون منتصرين من بدر حتى جعلت طوائف المدينة الأخرى تتغامز وتأتمر ، وحتى أخذت تغرى بهم وترسل الأشعار فى شتمهم والتحريض عليهم . وهكذا انتقل ميدان الثورة من مكة إلى المدينة ، غير أنه لم تعد هنا دعوة محمد هى وحدها التى تحارب ، وإنما هو سلطانه ونفوذ كلمته وعلو أمره الذى أصبح موضع الخوف وسبب الائتمار به والتفكير فى اغتياله . وما كان محمد لتخفى عليه خافية من هذا كله . وجعلت النفوس من جانب المسلمين ومن جانب اليهود تمتلىء بالغل والضغينة شيئاً فشيئاً . وجعل كل فريق يتربص بالآخر .

وكان المسلمون إلى يوم بدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة ، فلا يستطيعون رد الاعتداء بالشدة على من يعتدى عليه منهم ، فلما عادوا منتصرين امتلأت نفوسهم بالجرأة ، ووجدوا أن مصلحتهم تقتضيهم رد العدوان وتأديب المعتدين ، وإلقاء الرعب فى قلوب من تحدثهم أنفسهم بإفساد أمور الدولة الإسلامية الناشئة فى يثرب . فقتلوا بعض رجال من اليهود كانوا يحرضون على الدولة ويتصلون بالعدو(١) ، وكذلك استطاعوا أن يخرجوا إحدى قبائل اليهود من المدينة وهم بنو قينقاع عندما تحدت المسلمين وأظهرت العداء(٢) . وكانت هذه

---

(١) ابن هشام ٢/٤٤٠ — ٤٤١ ، الواقدى ١٤٤ — ١٥١ .

(٢) نفسه ٤٢٦ — ٤٢٩ ، الواقدى ١٣٨ — ١٤١ .

القبيلة اليهودية تساكن المسلمين بداخل المدينة ،وكان وجودها يشكل خطراً على كيان المدينة لو هددت بهجوم خارجي وحدثتهم نفوسهم بالخيانة ، وحين خلت المدينة فى داخلها من هؤلاء اليهود ، زال عنها وجود عنصرين متحاقدين فى داخلها ، وبذلك أصبحت أقدر على مواجهة احتمال الهجوم الذى كانت قريش تستعد له لتثأر ليوم بدر .

موقعة أحد سنة ٣ :

بدت الحالة الداخلية هادئة فى المدينة بعد النصر الذى أحرزه المسلمون فى بدر . وبعد إجلائهم بنى قينقاع . وانكمشت الطوائف الأخرى من غير المسلمين . وخفتت أصوات المعارضة . بعد مقتل المحرّضين على المسلمين من اليهود . وفزع اليهود وذلوا بعد أن أهدر النبي دماء كل من تحدثه نفسه بالفتنة منهم(١) . وكان من الممكن أن يستمر هذا الهدوء فترة طويلة لولا أن أبا سفيان بمكة لم يطق صبراً على عار بدر . ولم يطق أن يظل قابعاً فى مكة دون أن يعيد إلى أذهان العرب أن قريشاً لا تزال لها قدرتها على الضرب والغزو . لذلك ما لبث بعد شهر أن جمع مائتين من رجال مكة وخرج بهم مستخفين ، حتى إذا ما وصلوا منطقة المدينة ليلاً نزل على بنى النضير فى حصن زعيمهم سلام بن مشكم حيث « قراه وسقاه وبطن له من خبر الناس » ثم خرج فى عقب ليلته هذه . فأغاروا على ناحية العريض فحرقوا بها بيتين ونخلاً ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له يعملان فى حرث لهما فقتلوهما . ثم انصرفوا راجعين(٢) . وندب النبي اصحابه فخرجوا

---

(١) ابن هشام ٢/٤٤١ .

(٢) قراه : ضيفه . بطن له من خبر الناس : أعلمه من سرهم ؛ ابن هشام ٢/٤٢٣

فى اثر ابى سفيان ، حتى بلغ بهم قرقرة الكدر على نحو أربعة وعشرين ميلاً من المدينة(١) ، وأبو سفيان ومن معه جادون فى الفرار يتزايد خوفهم فيلقون ما يحملون من زادهم من السويق . فإذا مر به المسلمون أخذوه ، ولذلك سميت هذه الغزوة « غزوة السويق »(٢) . وقد انقلب فرار أبى سفيان عليه بعد أن كان يحسب أن الغزوة ترفع من شأن قريش بعد مصاب بدر .

أما القبائل المحيطة بالمدينة وبخاصة التى تنتشر على جانبى طريق التجارة فقد بدأت ترى ما يتهدد مصالحها من تزايد قوة المسلمين . ومن تعادل هذه القوة وقوة مكة تعادلاً تخشى نتائجه . فقد أصبح طريق الشاطىء وهو الطريق المعبد المعروف مهدداً ، وأصبحت تجارة قريش إلى الشام معرضة للتوقف التام ، فإذا حدث هذا فإن هذه القبائل تتعرض لخسارة اقتصادية شديدة . فأما القبائل التى تعيش قريباً من الساحل فقد حالفت النبى فزاد بذلك تهديده للطريق التجارى . وأما القبائل الاخرى فقد ملأ الرعب قلوبها بعد بدر . وإن كانت قد حاولت التجمع للنيل من المدينة محاولات لم تصمد فيها ، فإنها كانت ما تكاد تسمع بخروجه إليها حتى تنخلع قلوبها وتتفرق فى رؤوس الجبال ، ومسالك الصحراء .

وكان على قريش أن تحاول إيجاد وسيلة للتخلص من هذا الحصار وإلا تعرضت لشر ما تتعرض له مدينة مثل مكة تعيش على التجارة . وقف صفوان بن أمية يوماً فى قريش يقول : « إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون

---

(١) ياقوت ٦٦/٤٤١ .   (٢) ابن هشام ٢/٤٢٢ – ٤٢٣ .

الساحل . وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا . ونحن فى دارنا هذه ما لنا بها بقاء وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام فى الصيف وفى الشتاء إلى أرض الحبشة »(١) فقرروا أن يسلكوا طريق العراق ، وبعثوا قافلة تبلغ قيمتها مائة ألف درهم(٢) . ولكن النبى ما كاد يعلم بأمرها حتى أرسل إليها سرية اعترضتها عند ماء من مياه نجد يسمى « القردة » ففر الرجال واستولى المسلمون على الأموال . وأسروا دليل القافلة الذى أسلم حين وصل إلى المدينة وأقام بها(٢) .

زاد هذا الحادث قريشاً حنقاً على محمّد وطلباً الثأر منه . فإنها إن لم تثأر لكرامتها من هزيمة بدر ، وإن لم تفتح لنفسها طريق التجارة إلى الشام . هوت مكانة مكة الاقتصادية ومكانتها الأدبية إلى حيث لا تقوم لها بعد ذلك قائمة . لذلك أخذت تعد نفسها وتتصل بالقبائل لتشاركها فى الهجوم على المدينة . كما استنفرت معها من اتبعها من الأحابيش . وأصرت النسوة من قريش على أن ينسرن مع الغزاة يحمسنهم ويحفظنهم ويذكرنهم قتلى بدر . وخرجت قريش معها عدد من نسائها وعلى رأسهن هند زوج أبى سفيان قائد الحملة . وهى أشدهن على الثأر حرقة أن قُتل أبوها وأخوها وعمها يوم بدر . وكانت عدة الجيش ثلاثة آلاف مقاتل مزوّدون بأفضل ما قدروا عليه من عدة وسلاح . يمتطون ثلاثة آلاف بعير وقادوا مائتى فرس . ومن بين رجالهم سبعمائة دارع . وقصدوا المدينة فى ثلاثة ألوية عقدت فى دار الندوة(٤) . فلما أجمعوا المسير كتب العباس بن عبد المطلب إلى النبى يصف له جمعهم

(١) الواقدى ١٥٥ .
(٢) نفسه ١٥٦ .
(٣) ابن هشام ٢/٤٣٠ .
(٤) الواقدى ١٥٨ — ١٥٩ .

وخروجهم إليه ، كذلك خرج وفد من خزاعة — وقد كانت خزاعة تميل إلى النبي وتخلص له — فأخبروا النبي الخبر(١) . واقتربت قريش من المدينة وأطلقت خيولها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها . ثم قدمت فنزلت بجوار أحد .

وعقد النبي مجلساً عاماً دعا إليه أهل الرأى من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام ؛ وجعلوا يتشاورون كيف يلقون عدوهم ، وكان رأى كبار الرجال من أهل التجربة أن يتحصنوا بالمدينة ويقاتلوا فيها . لكن الشباب من المسلمين أخذتهم الحماسة ورأوا فى بقائهم بالمدينة أمراً قد تعده قريش وتفهمه قبائل العرب نوعاً من الجبن عن لقاء العدو فيكون ذلك مجرئاً عليهم غيرهم ، وأرادوا أن يحققوا نصراً مثل الذى حققه المسلمون يوم بدر . وناصرهم على هذا الرأى رجال سمت روحهم الدينية فطلبوا الشهادة أو يجاهدوا فى الله فيدحروا من كفر به . واشتد الجدال وظهرت الكثرة الواضحة فى جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدو وملاقاته . وقال لهم النبي : « إنى أخاف عليكم الهزيمة » ومع ذلك أبوا إلا الخروج ، فلم يكن له إلا أن ينزل على رأيهم . وكانت الشورى أساس نظامه فى هذه الحياة إلا أن يكون وحياً يوحى من عند الله .

وحين دخل بيته يلبس سلاحه ويتخذ عدة الحرب ، اشتد الجدل بين القائلين بالتحصن بالمدينة وبين القائلين بالخروج وقال لهم أولئك « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقلتم ما قلتم . واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره . والأمر ينزل عليه من السماء : فردوا الأمر

---

(١) الواقدى ١٦٠ .

إليه ، فما أمركم فافعلوه . وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه »(١) .

وتراجع الداعون للخروج عن إصرارهم : وحين خرج النبى فى عدة حربه ألقوا الامر إليه ليبقى إذا أراد البقاء : فقال الرسول « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فابيتم . وما ينبغى لنبى إذا لبس لامته (عدة حربه) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . . انظروا ما آمركم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم »(٢) : وهكذا وضع محمد إلى جانب الشورى مبدأ النظام ، فإذا تم للكثرة رأى بعد البحث والتفكير : لم يكن لها أن تنقضه لهوىً أو لغاية : بل يجب أن ينفذ الامر ، على أن يوكل التنفيذ إلى من يحسنه ، ويوجهه إلى حيث يتحقق له النجاح ، وعلى الجماعة أن تلتزم الطاعة والنظام .

وتقدم النبى بالمسلمين متجهاً إلى أحد حيث عسكرت قريش ، ورفض أن تنضم إليه كتيبة من اليهود كانوا حلفاء لعبد الله بن أبىّ ابن سلول . حذر أن توقع الاضطرابات فى نفوس الجيش ، كما رفض أن يدعوا الأنصار حلفاءهم من يهود(٣) ، وموقف اليهود مشكوك فيه بعد الذى ظهر من خيانتهم ، وبعد ما امتلأت به النفوس من حقد . . وفى الطريق انخذل عنه عبد الله بن أبىّ بثلث الناس ، وعاد إلى المدينة محتجاً بأنه خالف رأيه واتبع رأى الغلمان ممن لم يحسنوا استخدام الرأى(٤) . وكذلك همّت طائفتان أخريان من الأنصار أن تتراجعا متأثرتين بتراجع عبد الله بن أبىّ لولا أن ذكرتا إيمانهما فصبرتا(٥) ،

(١) الواقدى ١٦٧ ابن هشام ٣/٧

(٢) الواقدى ١٦٧ — ١٦٨ .

(٣) الواقدى ١٦٨ : ابن هشام ٣/٨ .

(٤) الواقدى : نفسه .

(٥) آل عمران ١٢٢ .

وبقى الرسول فى سبعمائة من المسلمين ليقاتلوا ثلاثة آلاف من أهل مكة كلهم موتور وكلهم على ثأره حريص .

وفى ساحة أحد اختار النبى لرجاله موقعاً استراتيجيا قوياً ، فاحتمى بظهره إلى أحد ، وجعل العدو فى مواجهته ، ووضع خمسين من الرماة على مرتفع يقال له « جبل عينين » ليسدوا الطريق على خيالة قريش فلا تستطيع الالتفاف بجيش المسلمين ويشدد عليهم الأمر ألاّ يفارقوا مكانهم إن كانت للمسلمين أو عليهم ، وإنما همهم أن ينضحوا الخيل بالنبل حتى لا تأتى الجيش من خلفه (١) .

وفى تشديد النبى على الرماة ، وفى تراجع بعض الناس عنه ، وفى المناقشات التى دارت قبل الخروج ، ما يبرز أن الجبهة يوم أحد لم تكن متماسكة ، فقد رأينا كيف أن المسلمين لم يكونوا موحدى الكلمة فى الاستعداد لمقابلة العدو والتهيؤ لخوض غمار المعركة .. لقد كانت كلمتهم موحدة فى بدر ، وكان أمرهم جميعاً ، وكانوا مثال الطاعة والنظام ، والحرص على تنفيذ أمر القيادة ، كما كانوا يقدرون قوة العدو ويدركون تفوقه عليهم ، ويعدون أنفسهم للصبر والشدة ، وتمتلىء نفوسهم مع ذلك باليقين بالنصر ، والثقة بموعود الله أن تكون إحدى الطائفتين لهم ، تنجلى كل ذلك فى حماسة المهاجرين ، وفى حماسة الأنصار واستعدادهم ليخوضوا وراء نبيهم إن هو استعرض بهم البحر .

وها هم أولاء فى يوم أحد تختلف كلمتهم ، فمنهم من يرى البقاء بالمدينة والتحصن بها وهؤلاء هم الكبراء وأصحاب الرأى وعلى رأسهم النبى نفسه ، ومنهم من يرى الخروج ومناجزة العدوّ حيث هو بظاهر

---

(١) ابن هشام ٣/١٠ .

المدينة ، وكان هؤلاء هم الأكثرية ، وقد أنستهم حماستهم أن يقدروا قيمة العدو . ويعملوا حساباً لتفوقه العددىّ ، وأن يدركوا ما تضطرب به نفسه من الحقد والحرص على الثأر ليوم بدر . ولم يتفهّموا تحذير النبى لهم حين خاف عليهم نتيجة الاندفاع فى الحماسة والاستخفاف بقوة العدو . ومع ذلك فقد وضح أن هذه الحماسة كانت فورة غمرت النفوس ، ثم لم تثبت على محك الحوادث . ذلك أنهم ما كادوا يذكرون بأنه كان يجب عليهم أن يردوا الأمر للنبى . حتى تراجعوا عن موقفهم المتشدد فى الخروج : ولم يكن الموقف يحتمل التراجع من جانب القيادة . وإلا تعرّضت الروح المعنوية العامة للانهيار نتيجة للتردُّد والتراجع فى اتخاذ القرارات . وبرغم ما حرص عليه النبى من توحيد الصفوف على قرار واحد صدر عن الجماعة ، وبرغم حرصه على المحافظة على الروح المعنوية عالية بين رجاله ، وبرغم ما وعدهم به من النصر على العدو ما صبروا واستجابوا لروح الطاعة والنظام وحرصوا على تنفيذ أوامر القيادة ، برغم كل ذلك فإنه ما كاد الجيش يخرج إلى ظاهر المدينة للقاء العدو حتى تراجع عبد الله بن أبى بثلث الناس مستجيباً لتحريض حلفائه من اليهود ، وحتى بعض المخلصين من المؤمنين اهتزت نفوسهم وتسرب الخوف إلى قلوبهم . وهمت طائفتان منهم أن تتراجعا(١) . لقد أدرك النبى هذا الضعف بين صفوفه ، فحرص على إمداد رجاله بالصبر واليقين والاعتصام بالإيمان . والثقة فى نصر الله الذى آتاهم حين قاتلوا فى بدر وكانوا أقل من ذلك عدداً وأضعف عدة . ونزل القرآن يثبت المسلمين ويصور موقفهم : « وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ

---

(١) البخارى ٥/٩٦ .

مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ واللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ويَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِين ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »(١) .

من ذلك ندرك السر فى تشديد النبى على الرماة ألاَّ يبرحوا أماكنهم مهما يكن الموقف من نصر أو هزيمة ، وتكرار هذا التشديد مع توضيح الموقف لهم ، ليدركوا أهمية محافظتهم على موقفهم بالنسبة لموقف الجيش كله ، ثم إشهاده الله عليهم إثارة لإيمانهم لما يفرضه عليهم من طاعة تامة(٢) .

ثم نهلم يدخر وسعاً فى تنظيم رجاله تنظيماً عسكرياً بارعاً ليعوضهم عن قلتهم ، فتخير لهم أفضل المواقف استراتيجية فى ميدان القتال ، وسد الثغرات على العدو حتى لا ينفذ من خلفهم ، ثم إنه عمل على إثارة حمية رجاله وتنبيه روح البطولة فيهم . مد يده بسيف فقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » .. وتسابق إليه رجال فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بنى ساعدة الأنصارى ، فقال : « وما حقه يا رسول الله ؟ » فقال النبى : « أن تضرب به العدو حتى ينحنى » . وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل وأنه أخرج عصابة الموت ، فأخذ السيف وأخرج عصابته فاعتصب بها ، وجعل يتبختر بين الصفين على عادته

---

(١) آل عمران ١٢١ —١٢٦ .

(٢) البخارى ٥/٩٤ . ابن كثير ٤/٢٥ . إمتاع ١/١٢٤ — ١٢٥ .

إذ يختال عند الحرب ، فلما رآه النبي يتبختر قال : « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن »(١) .

هكذا كانت الجبهة اليثربية . أما الجبهة المكية فقد بدت فى هذا اليوم أكثر تماسكاً : قيادتها موحدة وكلمتها جميع ، وحرصها على الثأر من المسلمين شديد ، وقد ظاهرها كثرة فى العدد وقوة فى التسليح ، ولديها قوة كبيرة من الفرسان ؛ وخلف الجيش النسوة يحفظن الرجال ويحمسنهم ، وكل واحدة منهن قد وعدت مولى لها بالخير الكثير إن أدرك لها الثأر من قتلة الأحبة .

وهكذا وقفت فى ميدان القتال قوتان غير متكافئتين فى العدد ولا فى العدة ، يحرك القوة الكبرى ثأر لا يهدأ من يوم بدر فى نفوس ثائرة ، ومركز أدبى ومادى أوشك على الانهيار . . ويحرك الصغرى عامل الدفاع عن الوطن أن تُنتهك حرمته ، وعامل الدفاع عن العقيدة ودين الله .. فأما المطالبون بالثأر فقد كانت تؤيدهم الكثرة والعدة وتدفعهم الحفيظة ، وأما المدافعون فقد بدأ بعض الخلل فى صفوفهم ، ولكن عوضته فى أول المعركة مهارة القيادة ودقة التنظيم ، وثورة الإيمان فى نفوس بعض أبطال المسلمين ممن سمت نفوسهم حتى ليرون ألا تقف قوة أمام سيوفهم ، وكان هذا قمينا أن يتم عليهم النصر ؛ لولا ذلك الخلل الذى وصل إلى بعض النفوس فأطمعها فى الدنيا وأغراها بحب العاجلة ، فذهلت عن أمر نبيها فأفسدت على الفئة المؤمنة موقفها . فقد حمل المسلمون فى أول المعركة حملة شديدة على العدو ، وتناولوا حملة لوائه بالقتل حتى قتلوا منهم تسعة على التوالى ، فتراجعت قوات

---

(١) ابن هشام ٢/١١ — ١٢ .

قريش وانكشفت حتى دخل المسلمون معسكرهم ، وكادوا يذيقونهم هزيمة أشد من يوم بدر ، لولا أن شُغلوا بالغنيمة يجمعونها ، وخالف الرماة الأوامر المشددة ، فتركوا مواقفهم ونزلوا يشاركون في جمع الغنائم ظنًّا منهم أن الهزيمة قد تمت على العدو ؛ وعند ذلك اهتبل الفرصة خالد ابن الوليد قائد خيل قريش ، فنفذ من الثغرة التي كان يسدها الرماة : ودار خلف جيش المسلمين وأوقع الخلل في صفوفه ، وعاد المنهزمون من قريش حين رأوا خيلهم تقاتل بين المسلمين ، فألحقوا بهم هزيمة شديدة وقتلوا منهم سبعين رجلاً منهم عدد من الأبطال من بينهم حمزة عم النبي بطل ذلك اليوم ، ووصل العدو إلى النبي نفسه بعد أن تفرق عنه رجاله منهزمين . وأصابه بجراحات شديدة . وتعرضت حياته للخطر لولا أن دافع عنه رجال من المهاجرين والأنصار فدوه بحياتهم .

وفشلت كل محاولة من النبي لرد هزيمة المنهزمين ، وإعادة تسوية الصفوف ، فقد ابتلعت الكثرة من قريش هذا العدد القليل من المسلمين بعد أن فقدوا النظام واختلّت صفوفهم ، وفي تصوير هذا الموقف نزل القرآن الكريم : « وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ(١) بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِين . إِذْ تُصْعِدُون وَلَا تَلْوُون عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . »(٢) ..

(١) تحسونهم : تقتلونهم : تفسير الطبري ٧/٢٨٧ .

(٢) آل عمران ١٥٢ – ١٥٣ .

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ »(١) .

أما قريش فقد طارت بنصرها فرحاً ، وحسبت نفسها انتقمت أشد الانتقام ليوم بدر . حتى صاح أبو سفيان يخاطب المسلمين « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل » . ولقد أسرفت قريش فى نكايتها بالمسلمين وفى إظهار حقدها وتشفيها ، فمثلت بالقتلى : جدعت الأنوف وصلمت الآذان وبقرت البطون ، وبلغ الحقد بهند زوج أبى سفيان أن لاكت كبد حمزة عم النبى بعد أن بقرت بطنه وجدعت أنفه وصلمت أذنيه واتخذت من هذه وغيرها من قتلى المسلمين قلائداً وأقراطاً ومسكا (أساور)(٢) من القطائع ، أن تبرأ أبو سفيان من تبعتها وأعلن أنه لم يأمر بها وبلغ من شناعة ما فعلت وفعل النسوة معها ، بل ما فعل الرجال كذلك وإن لم يسخط على من فعلها ، فقال يخاطب المسلمين : « إنه كان فى قتلاكم مثل ، والله ما رضيت وما سخطت ، وما أمرت وما نهيت »(٣) .

وانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها ، ولم تشأ أن تهاجم المدينة فتحتلها وتقضى عليها ، مكتفية بأن تنال من ثمار النصر أقربها وأيسرها على ما جرت عليه العادة عند القبائل العربية فى حروبها .

وانصرف المسلمون إلى المدينة وعلى رأسهم النبى بعد أن دفنوا قتلاهم والحزن يثقل نفوسهم ، لما أصابهم من هزيمة بعد نصر ومن مذلة وهوان بعد ظفر عزيز لا ظفر مثله ، وذلك لاختلافهم ومخالفتهم أوامر النبى ، وانبعاثهم وراء عرض الدنيا فى الوقت الذى يقاتلون فيه لاعلاء الحق وإقرار المثل العليا .

---

(١) آل عمران ١٥٥ .

(٢) ابن هشام ٣/٤١ .

(٣) نفسه ٤٥ .

وكان على النبي بعد هذه الهزيمة أن يعالج الموقف من نواح متعددة : عليه أولاً أن يعالجه من الناحية النفسية عند المسلمين، وقد اوشكت الهزيمة أن تقتل الروح المعنوية فيهم ، وأوشك الشعور بالإثم ان يذل نفوسهم ، ويصغر اقدارهم فى نظر أنفسهم ، فلقد خالفوا رأى النبي وكبار المسلمين ، واصروا على الخروج للقاء العدو وهم يتحرقون شوقاً للقائه وإلحاق الهزيمة به كما أذاقوه إياها يوم بدر ، وها هم الآن يذوقون هم مرارة الهزيمة نتيجة عصيانهم وفشلهم ، ولقد كانوا يتمنون الموت ويطلبون الشهادة قبل لقاء العدو ، فلمّا عاينوا الموت فروا منه وازورت نفسهم عن الشهادة ، بل إن بعضهم يقول : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا »(١) . ولقد كانوا يعتزون بأنهم جند الله يقاتلون لإعلاء كلمته وينتصرون بتأييده . فإذا الدنيا تصرفهم بعَرَضها عن غايتهم العظمى فيخسروا النصر الذى أوشكوا أن ينالوه . وما أدراهم أن الله لم يغضب عليهم لعصيانهم وطمع نفوسهم فيخسروا الآخرة ايضاً .

كان على النبي أن يعالج هذه النفوس ، وإلا وصلت الهزيمة إلى قرارتها واصبح من الصعب إقالتها من عثرتها . وكان عليه كذلك أن يعالج الموقف الداخلى فى المدينة نفسها . فقد أخذت الطوائف الأخرى من أهل المدينة من اليهود والمنافقين والمشركين يظهرون السرور لما كان من هزيمته وأصحابه : وأظهر اليهود القول السيء فى النبي وراحوا يشكّكون فى نبوّته . كما أخذ المنافقون يخذلون عنه أصحابه ويأمرونهم بالتفرق عنه(٢) .

---

(١) آل عمران ١٥٤ . (٢) إمتاع ١/١٦٥ .

ولو بقيت هزيمة أحد هى الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش فان أمر محمد وأصحابه : ولتضعضع سلطانه بيثرب بعد أن اصبح صاحب الكلمة العليا فيها بعد بدر .

وماذا عن قريش ؟؟ .. إنها لو رجعت بنصرها كما كسبته ، لربما رجعت إلى المدينة فهاجمتها : والمسلمون مضعضعون من الهزيمة لم يستردوا نفوسهم من آثارها .. ولو أنها لم ترجع واكتفت بما نالت لكان المسلمون عرضة لاستخفافها وإرسال دعاية السخرية والاستهزاء بهم فى أنحاء الجزيرة كلها ، ولئن حدث هذا لجاء فى أثره اجتراء القبائل على المدينة والاستخفاف بها ومهاجمتها .

كان على النبى أن يعالج الموقف من جميع هذه النواحى : فأما من الناحية النفسية عند المسلمين ، فإنه عفا عن كل مسىء فى المعركة ولم يحمِّل أحدًا بعينه ممن حضرها نتائجها ، بل جعل المسئولية عامة .

ثم إن القرآن الكريم نزل مواسياً للمسلمين معالجاً لجرح نفوسهم مذكياً الروح المعنوية فيهم ، مذكراً إيّاهم بأن الحرب سجال والأيام دول ، وأنهم لكى ينتصروا لابد أن تكون لديهم القدرة على مواجهة الهزيمة ، فإن القدرة على تقبل الهزيمة أقوى أنواع الانتصار . ثم يثير فيهم العظة المستفادة من هذه المعركة حتى يستعدوا لما بعدها من أيام

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا

الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . »(١) .

« أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ »(٢) . .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(٣) .

وهكذا عاون القرآن الكريم فى شفاء نفوس المسلمين حتى عادت إليها سلامتها . كما حرص النبى على أن يرد إليها سريعاً شجاعتها ويشعرها ويشعر من حولها أنها لا تزال قادرة على الضرب والغلب ومواجهة العدو ، وأن ما حدث فى المعركة إن هو إلا حالة عارضة لم تؤثر بأى حال من الأحوال على جوهر نفوس المسلمين ولا على شجاعتهم ، وأن قوتهم الضاربة لا تزال قادرة على خوض غمار الحرب واستئناف القتال من جديد فى عزم وثقة بالنصر .

لذلك ، وليتحوط لرجوع قريش لضرب المدينة واحتلالها ، أمر النبى فأذن مؤذنه فى المسلمين بطلب العدو ، فى الغد من يوم أحد على ألا يخرج إلا من حضر القتال .

وتحامل المسلمون على جراحاتهم ، وقد استردوا روحهم المعنوية .

---

(١) آل عمران ١٣٩ ، ١٤٢ .
(٢) نفسه ١٦٥ — ١٦٦ .
(٣) نفسه ١٦٩ — ١٧٠ .

فلم يتخلَّف منهم أحد ، وحتى من أثقلته جراحه لم يرد أن يفوته من أمر القتال شيء ، وأظهروا من الصبر والجلد وشجاعة النفس ما يعتبر مثلا فذًّا فى تاريخ الحروب(١) .

بلغ النبى حمراء الأسد — على ثمانية أميال من المدينة — وكان أبو سفيان ورجاله قد وصلوا الروحاء — على سبعة وسبعين ميلاً — وقد صدق تقدير النبى ؛ فإن قريشاً قد تلاومت على ترك الفرصة تفلت من يديها بعد أن أوقعت الهزيمة بالمسلمين ، فأجمعت على الرجعة ؛ وقالو « أصبنا حَدَّ أصحابه (محمد) وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ .. لنكرّن على بقيتهم فلنفرغن منهم »(٢) .

وأراد النبى أن يوهن نفوس المكيين ويضعف عزيمتهم ، فأوحَى إلى رجل من خزاعة — وكانت خزاعة مسلمها ومشركها هواها مع النبى تناصحه وتود نصره — أن يخذلها عنه ويلقى إليها أن النبى والمسلمين قد خرجوا لقتالها وقد رجع إليهم من تخلف عن القتال ، واستعدوا استعداداً كبيراً ، وفعل الخزاعى ما كُلِّف به ، فخارت عزيمة أبى سفيان وأجمع على الرجوع إلى مكة ؛ ولكنه كلف نفراً من العرب كانوا يريدون المدينة أن يخذلوا المسلمين عن مطاردته ، ثم رحل عائداً إلى مكة . وبقى النبى ثلاثة أيام يوقد النيران ليعلم قريشاً أنه ينتظرها ؛ وليشعر القبائل بقوته وعزمه ، ثم عاد إلى المدينة(٣) وقد استرد كثيراً من مكانة المسلمين وأعاد إلى نفوسهم كثيراً من شجاعتها واطمئنانها .

---

(١) انظر ابن هشام ٣/٥٢ — ٥٣ . (٢) نفسه ٣/٥٤ .

(٣) ابن هشام ٣/٥٤ — ٥٦ ، إمتاع ١/١٦٧ — ١٧٠ .

آثار موقعة أحد :

حين عاد المسلمون من حمراء الأسد إلى المدينة وجدوها قد تنكر كثيراً من أمرها ، وإن بقى سلطان النبى فيها السلطان الأعلى ، فلقد رفع كثير من اليهود والمنافقين رؤوسهم ضاحكين شامتين بالمسلمين ، ثم تجرؤوا فأخذوا يدبرون المكائد ويحيكون المؤامرات ، حتى لقد تطور الأمر إلى حبك مؤامرة لقتل النبى نفسه ، وكان من نتيجتها أن حاصر النبى إحدى قبائل اليهود وهم بنو النضير وأخرجهم من المدينة .

كذلك بدأت القبائل العربية تتحرش بالمسلمين وتكيد لهم ، وتجرأت فاستدرجت بعض رجالهم وقتلتهم أو باعتهم لقريش . وأخذت بعض القبائل تتجمع للإغارة على المدينة ، لكن النبى كان دائم الحذر يحرص دائماً على أن يعرف من أخبار القبائل ما يمكنه من تدبير أمره ، لإقرار هيبة الدولة فى نفوس هؤلاء البدو ، وكان لا يترك فرصة لهم للتجمع لغزوه ومهاجمته ، بل كان يقظاً سريع الحركة ، ما يكاد يسمع بتجمع أعدائه حتى يفجأهم قبل أن يستكملوا أمرهم ، فيشتت شملهم ويلقى الرعب فى قلوبهم ، فالهجوم عنده أقوى وسائل الدفاع ، وتحطم قوة العدو قبل أن تكتمل أفضل من تركها تتجمع ثم الصمود لها . ولقد سار المسلمون على هذه السياسة التى رسمها النبى من بعده ؛ فلم يجعلوا أرض الإسلام ميدان قتال أبداً . بل كانوا دائماً ينقلون خطوط القتال إلى أرض العدو نفسه حتى يشغلوه فى نفسه عنهم ، ولم تصبهم الهزائم إلا بعد أن تخلوا عن خطة اليقظة والنشاط واستكانوا للدعة والتواكل والانتظار .

وقد أتاحت هذه الظروف للدولة اليثربية فرصة الاستقرار ، كما

أن إخراج بنى النضير ، واستيلاء المسلمين على أراضيهم ونخيلهم ، ‌دى إلى تحسن حالة المسلمين الاقتصادية فى يثرب : فقد وزعت الأراضى على المهاجرين فاستقلوا بأمر معاشهم واستغنوا عن معونة الأنصار فتحسنت حالة الطرفين جميعاً . كما ضعف أمر النفاق وخفت قوة المعارضة الداخلية فى المدينة . وكانت الفترة التى تلت خروج بنى النضير فترة سكينة وطمأنينة استراح إليها المسلمون . واستطاعوا بعد أن استدار العام أن يخرجوا إلى بدر استجابة لوعد أبى سفيان يوم أحد ، لكن قريشاً لم تكن فى حالة من القوة تمكنها من الوفاء بوعدها ، فلم تذهب إلى بدر واكتفت بأن تتظاهر بالخروج وترسل تهدد المسلمين . وفى بدر استفاد المسلمون من تجارة الموسم فربحوا : كما جدد النبى عهوده مع القبائل التى وادعته من قبل . وكان من نتيجة تخلف قريش وخروج المسلمين أن أمحت آثار أحد واستقر سلطان المسلمين فى هذه المنطقة وتدعمت هيبتهم ، وامتد نفوذهم نحو الشمال حتى دومة الجندل التى كانت المسافة بينها وبين دمشق حوالى مائة ميل(١) .

وآن لمحمد بعد كل ذلك أن يستقر بالمدينة عدة أشهر متتابعة وجد فيها فسحة ليقوم بإتمام التنظيم الاجتماعى لهذه الدولة الإسلامية الناشئة فى دقة وحسن سياسة . يوحى إليه ربه منه ما يوحى . ويقر هو ما يتفق وتعاليم الوحى وأمره . ويضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه ، وما أشربته نفوسهم لتحمله بعد ذلك للدنيا ، فيكون منارها وهاديها عدة قرون متتالية تستقر به حضارة لم يعرفها العالم من قبل .

---

(١) ابن هشام ٣/١٦٠ — ٢٢٦ .

ترى أكان أعداء محمد تاركيه آمناً فى جماعته يضع لها هذا التنظيم دون أن يدخلوا معه فى جولة فاصلة يحشدون لها كل قوتهم وما يستطيع أن يصل إليه مكرهم وكيدهم . ليقروا مصيره ومصيرهم بعد هذا الصراع الدامى الذى أوشك أن يدمر كل قوتهم المادية والمعنوية ، والذى رأوا نتائجه تتجه إلى مصلحة محمد وتوشك أن تقر سلطان دولته فى هذه المنطقة الحيوية من شبه جزيرة العرب إقراراً نهائياً .

وكان اليهود الذين أخرجهم محمد من المدينة أبصر خصوم محمد بتعاليمه وبتقدير مصير دعوته . وكانوا أكثر تقديراً لما يصيبهم من انتصاره واستقرار دولته . ولما كان خصوم محمد قد عجزوا عن القضاء عليه فرادى : فقد فكر اليهود من بنى النضير وأهل خيبر فى تكوين جبهة قوية يجتمع لها كل الخصوم ، حتى تكون الجولة فاصلة مع هذا الرجل . وعلى هذا عقدوا العزم . وأخذوا على عاتقهم تدبير هذا الأمر وإعداده ليكون يوم الأحزاب .

غزوه الأحزاب (أو الخندق)

اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين فى يثرب . فى نفوس اليهود من بنى النضير الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة . وأرادوا لها أن تكون محاولة نهائية ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد . وفى سبيل ذلك لم يدخروا جهداً من حيلة أو مكر أو مال ، وحتى تعاليم التوراة داسوها فى سبيل هذا الغرض .

وتنفيذاً لهذه الفكرة خرج نفر منهم . من بينهم حيى بن أخطب النضرى وسلام بن أبى الحقيق وأخوه كنانة ، ومعهم جماعة من يهود خيبر ، حتى قدموا على قريش بمكة يحرضونها على قتال محمد لكن

قريشاً كانت قد بدأت تمل الحرب وبدأت جبهتها الداخلية تتضعضع وأخذ الحصار الاقتصادى يؤثر فيها تأثيراً كبيراً ، جعلها تفكر فى إعادة النظر فى موقفها تجاه الدولة اليثربية التى أخذت عليها طريق تجارتها ، وأثبتت حتى الان أنها قادرة على الثبات والنمو ، لذلك بدت مترددة غير واثقة من سلامة موقفها ، ومن إحراز النصر على محمد ، وظهر ذلك جلياً من أسئلتها التى وجهتها لليهود ، فقد سألتهم : أدينها خير أم دين محمد ؟ .. وقد أجابها اليهود على ذلك بأن دينها خير من دينه وأنها أولى بالحق منه(١) . وبهذه الإجابة تنكر اليهود لمبادىء التوراة وكفروا بالوحدانية جرياً وراء حقدهم ومصالحهم ، وقد نعى القرآن عليهم هذا الموقف ودمغهم بالكفر وأوجب عليهم اللعنة « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا »(٢) .

وفى موقف اليهود هذا وتفضيلهم الوثنية على التوحيد ، يقول ولفنسون المؤرخ اليهودى : « وكان واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا منذ قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الاباء الأقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شى من الأدوار التاريخية . كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز

---

(١) ابن هشام ٢٢٩/٣ - ٢٣٠ . (٢) النساء ٥١ .

لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين . هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة »(١) .

ثم أرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسألت حيياً عن قومه من بنى النضير . فقال : « تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه » . وسألوه عن قريظة فقال : « أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم »(٢) . وما زالوا بقريش يسهلون لها الأمر ويرغبونها حتى أخذوا وإياها موعداً بعد أشهر يكونون قد جمعوا لها فيها الأحزاب من كل قبائل العرب .

ثم خرج أولئك النفر من يهود من عند قريش ليتموا جولتهم فتأليب باقى قبائل العرب . خرجوا إلى غطفان . وبنى مرة . وفزارة ، وأشجع . وسليم . وبنى سعد . وكل من له عند المسلمين ثأر يحرضونهم على الأخذ بثأرهم . ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب محمد(٣) ويحمدون لهم وثنيتهم ويعدونهم النصر لا محالة .

ولما جاء الموعد المضروب خرجت الأحزاب التى جمعها اليهود لحرب المسلمين . وقد بلغ جيشهم عشرة آلاف مقاتل مسلحين أفضل تسليح تملكه القبائل العربية فى ذلك الوقت . ولديهم قوة كبيرة من الخيالة(٤) وكانت القيادة العليا لأبى سفيان .

---

(١) ولفنسون ١٤٣ - ١٤٣ . (٢) الواقدى ٢٩٠ .
(٣) ابن هشام ٣/٢٣٠ . الواقدى ٧٩٠ . الطبرى ٧/٢٢٣ .
(٤) ابن هشام ٣/٢٢٥ الطبرى ٢/٢٤٦ . إمتاع ١/٢١٠ - ٢١٩ .

وبلغت أنباء هذا المسير محمداً والمسلمين فى المدينة ففزعوا له ، إذ لم تكن المدينة تملك من القوة ما تستطيع به مواجهة هذا الحشد الكبير وبخاصة أن بطوناً منها لا تزال على شركها ، ثم إن النبى لم يكن يطمئن تماماً إلى بنى قريظة وهم القبيلة الباقية من اليهود ، ولم يكن يكفى التحصن بالمدينة وحدها . ولابد من اتخاذ خطة أحكم لمواجهة الموقف . وقد جاء الحل من اقتراح تقدم به سلمان الفارسى ، فقد أشار بحفر خندق حول المدينة(١)

ووافق هذا الاقتراح هوىً فى نفس النبى لسببين : الأول أنه يعوق تقدم العدو فى هجوم عام . والثانى أنه يبرز نية النبى السلمية ، فإنه لم يكن راغباً فى الحصول على مجد عسكرى وإنما كانت الحرب عنده وسيلة لا غاية ، فهو مع دقة تنظيمه ومهارته فى القيادة يريد تسويد مبدأ السلم ما دام أنه عن القتال مندوحة . وكان تجمع كل هذه القبائل فرصة ليعلنهم جميعاً بنيته السلمية ، ولكن فى حيطة القائد وحذر المحارب . وسارع فأمر بالبدء فى حفر الخندق فى شمال المدينة وهى الجهة التى يمكن أن تؤتى منها المدينة ، أما باقى الجهات فهى حرات يصعب منها الهجوم ويسهل الدفاع . وعمل المسلمون بجد حتى أتموا حفر الخندق فى ستة أيام ، وحين أقبلت جموع العدو فوجئت بالخندق ، فاستنكرت هذه الوسيلة التى لم تكن تعرفها من وسائل الدفاع واتهمت النبى والمسلمين بالجبن ، وقد وقف النبى بقواته من وراء الخندق . وكانت عدة من معه ثلاثة آلاف على قول بعض

---

(١) الطبرى ٢/٢٢٤ . متاع ١/٢١٩ - ٢٢٠ .

المصادر(١) وتسعمائة على قول بعضها الآخر(٢) .

ولما لم تجد الأحزاب سبيلاً إلى اجتياز الخندق اكتفوا بتبادل الرمى بالنبال ريثما يفكرون فى خطة لمعالجة هذا الموقف .

واستطاع حيى بن أخطب أن يؤثر على بنى قريظة . فأعلن هؤلاء قصع حلفهم مع النبى ، واستعدوا لمعاونة الأحزاب بفتح الطريق أمام جيوشهم أن تدخل المدينة من ناحيه بنى قريظة(٣) وهى جهة لم يشملها الخندق ، ولكن النبى استطاع بمهارة أن يثبت الشك بين طوائف الأحزاب ، فقد اتصل بغطفان وفاوضها على التراجع نظير ثلث ثمار المدينة ، وإذا كان هذا الاتفاق لم يتم فإنه ثبط همم الغطفانيين ، وألهب حماس الأنصار(٤) ، ثم بذر الشك بين اليهود والأحزاب(٥) ، وبذلك تفككت جبهة العدو . والواقع أن هذه الجبهة كانت تحمل فى ثناياها عوامل التفكك . فقد كانت أغراض الحلفاء غير متفقة ، فقريش تريد أن تقضى على الدولة اليثربية بالقضاء على محمد والمسلمين . وغطفان إنما قدمت مأجورة فقد وعدها اليهود ثمار سنة من خيبر (٦) ، والقبائل الأخرى جاءت مشايعة وليس لها غرض واضح ، واليهود كانوا يبغون استعادة سلطانهم بالمدينة ، وليس من غرضهم أن تقع يثرب فى يد قريش أو إحدى القبائل الكبيرة ، وإلا جروا على أنفسهم خصماً جديداً قد يطمع فى الاستيلاء على هذه المنطقة الخصيبة . ومن هنا كان التفكك بين صفوف الأحزاب . فوق أن وحدة القيادة لم تكن تامة

---

(١) ابن هشام ٣/٢٣٠ الطبرى ٢/٢٣٧ . إمتاع ١/٢٢٤ .

(٢) جوامع السيرة ١٨٧ (٣) ابن هشام ٣/٢٣٩ - ٢٤٨ .

(٤) نفسه ٣/٢٣٩ . (٥) نفسه ٣/٢٤٧ - ٢٥٠ .

(٦) السمهودى ١/٢١٤ . هيكل : حياة محمد : ١٣٦ . ولفنسون ١٤٣ .

فكل زعيم على رأس جماعته لا تخضع خضوعاً مطلقاً لقيادة أبي سفيان. فما كادت عوامل الشك والريبة تأخذ طريقها إلى قلوب الزعماء حتى انفض جمعهم ، وأعانت الطبيعة على انهزامهم وتراجعهم ، فقد كان الجو شتاء والبرد قارساً ، وهبت عاصفة شديدة وهطلت أمطار لا عهد لهم بمثلها ، فانجفلوا جميعاً راجعين لبلادهم(١) .

وبذلك نجت المدينة من خطر شديد كان يتهددها ، وكان تراجع الأحزاب هزيمة تمت بدون قتال .. والهزيمة آتية لا عن طريق تحطيم الجيوش المعادية وإنما عن طريق تحطيم وحدتها وعن طريق بذر الشك بين رجالها ، حتى لم يعد في الإمكان بعد هذا اليوم أن يتجمع خصوم المدينة على هذه الصورة ، فقد أصبحت قريش تشك في ولاء القبائل العربية ، كما أصبحت القبائل نفسها تشك في قدرة قريش وفي إمكانها التغلب على المسلمين ؛ وقد أدرك النبي ذلك تمام الإدراك حين قال : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ونحن نسير إليهم »(٢) . كما أدرك رجاله هذا الموقف كذلك ، ويتجلى ذلك في قول سعد بن معاذ زعيم الأوس الذي جرح في هذه المعركة : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة »(٣) . وحين رجعت الأحزاب حاصر النبي بني قريظة حتى استسلموا فأوقع بهم عقوبة الإعدام جزاء خيانتهم العظمى .

---

(١) ابن هشام ٣/٢٥٠ – ٢٥١ . (٢) البخاري ٥/١١٠ .
(٣) نفسه ١١٢ – ١١٣ . ابن هشام ٣/٢٤٤ .

وبذلك خلصت المدينة للإسلام وتخلصت من أعدائها الداخليين فقد ذل النفاق فى المدينة وأصبح المنافقون يخشون رفع رؤوسهم . ولم يعد النبى فى حاجة كبيرة إلى التفكير فيهم .

نتيجة الصراع

أدى هذا الصراع المسلح بين النبى وقريش إلى نتائج هامة . فلقد ضعفت جبهة مكة ضعفاً ظاهراً بعد أن استنفدت كل إمكانياتها الحربية والسياسية . وأصبحت تجارتها فى حكم المتوقفة . فلحقتها لذلك أضرار مادية جسيمة . كما أن القبائل العربية بدأت تراجع موقفها بالنسبة لاستمرار تحالفها مع قريش أو التقرب للقوة الجديدة التى ظهرت فى يثرب والتى استطاعت حتى الآن أن تصمد لخصومها . وأن توقع بهم الهزائم . وتحول الموقف إلى جانبها .

أما جبهة المدينة فقد ازدادت قوة وخصوصاً بعد أن أجلى النبى قبائل اليهود أو قضى عليها . كما أن النفاق قد ضعف ولم يعد يسبب للنبى قلقاً . كذلك تحسنت الحالة الاقتصادية عند المسلمين بعد أن وضعوا أيديهم على أراضى اليهود فى يثرب وبعد ما غنموه من غنائم . ثم إن خطر العدو لم يعد مباشراً بالنسبة للمدينة . فقد انحسرت القوة عن خصومها وقبعوا فى معسكرين : أحدهما فى الجنوب وهو معسكر قريش فى مكة . والآخر فى الشمال وهو معسكر اليهود فى خيبر . ولم يعد من اليسير قيام الاتصال بين هذين المعسكرين والتعاون بينهما مرة أخرى بعد تراجع الأحزاب عن يثرب .

غير أن هذا الصراع وإن كان قد أدى إلى تفوق يثرب وإضعاف

قوة خصومها ، إلا أنه شغل النبي عن التفرغ لنشر دعوته ، كما أنه حال بينها وبين التغلغل فى القبائل العربية ، وبخاصة تلك التى شاركت فى هذا الصراع . فإن الحرب بطبيعتها تثير الحفيظة وتذكى التعصب فى النفوس وتمنع من التفكير الهادىء السليم ، وفى مثل جو الحرب لا تنشر المبادىء ، ولذلك نزل القرآن يأمر النبى باللين والصبر واستعمال الحكمة والموعظة الحسنة : « أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ »(١) .والدعوة بالحسنى وتهيئة جو السلم والطمأنينة هو سبيل أصحاب الرسالات والدعوات والإصلاح فى كل زمان ومكان ، وهذا الجو هو الذى سعى إليه النبى وهو الذى التزمه طيلة الدور المكى من حياة الرسالة ، وهو حين دخل الحرب بعد هجرته دخلها مضطرًا ، وألزم موقفها إلزاماً ومع ذلك فلم يفجر فيها ولم يسع وراء مجد عسكرى قط ، وكان يقدم دعوة السلم قبل أن يدخل فى القتال . حتى إذا ما أستنفد وسائل السلم قاتل مكرهًا ، ثم قاتل فى أضيق الحدود . فلم يسرف على خصومه بعد نهاية المعركة .. لم يجهز على جريح . ولم يقتل طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً ولا معتزلاً لقتال . وفى المرات التى قسا فيها على بعض خصومه كانت القسوة ضرورة لا محيص عنها .

فلما تحول الموقف بعد الأحزاب إلى صالح الدولة اليثربية وأصبح فى إمكان النبى أن يأخذ فى يده موقف المبادأة ، سعى إلى تهيئة جو السلم وتسويد مبدأ السلام ، فمد يده إلى خصومه وأظهر منتهى المرونة والتسامح حتى تم بينه وبين قريش صلح الحديبية .

---

(١) النحل ١٢٥ .

صلح الحـــديبية

فى شهر شوال من سنة ٦ هـ أعلن النبى فى أصحابه أنه قد نوى زيارة البيت الحرام وأداء العمرة . ودعاهم للتأهب لتأدية هذه الزيارة مبشراً إياهم بأنه رأى فى المنام أنهم يدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون(١) . وفى الوقت نفسه بعث إلى الأعراب من حول المدينة ليشاركوا فى هذه الزيارة (٢) ، وكانت حكمة النبى فى دعوة الأعراب ممن ليسوا على الإسلام لمشاركة المسلمين فى هذه الزيارة أن يؤكد لقريش أنه جاء متعمراً ولم يجىء غازياً بدليل أنه يوجد فى صفوفه من العرب من ليس على دينه . وليؤكد لهم أن زيارة البيت الحرام فريضة عند المسلمين كما هى فريضة عند العرب ، وأن المسلمين يعظمون البيت الحرام كما تعظمه العرب بل هم أشد له تعظيماً . وأكبر عندهم حرمة . وليؤكد لهم كذلك أن مكة سوف لا تفقد مكانتها التى تنالها من مقام البيت فيها . والتى تحرص قريش على بقائها . وإلى جانب ذلك يكسب الرأى العربى إلى صفه . فهو يعظم الحرمات ويحرص على المقدسات . ولا يجانب الناس بل يسالمهم ، وهو يحرص على الوحدة بين العرب ويعمل لها . وأن التفتت وجو الحرب ليس من صنعه بل هو من صنع خصومه الذين أرغموه عليه إرغاماً ، بمحاربته وصده عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعله الله مثابة الناس جميعاً وأمناً . وليكشف موقف قريش العدائى ويظهر خروجها عن المهمة التى كانت وكلت إليها . والتى تحصل من ورائها على

---

(١) « لقد صدق الله رسوله بالرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون » الفتح ٢٧ ابن هشام ٣/٣٦٧ إمتاع ١/٢٧٤ .

(٢) ابن هشام ٣/٣٠٥ .

مركزها بين العرب ، وهى رعاية البيت الحرام وتهيئته للزائرين سواء منهم العاكف والباد . إذا هى صدته وأصحابه عن زيارة البيت ، وأداء الفريضة التى هى حق للجميع .

واستجاب المسلمون لنداء نبيهم ، والفرحة تملأ قلوبهم ، المهاجرون منهم والأنصار على السواء . أما المهاجرون فقد طردوا من وطنهم وحرموا من بلدهم ظلماً وعدواناً ستة أعوام حالت فيها قريش بينهم وبين زيارة هذا الوطن وألزمتهم جو العداوة والحرب . وأما الأنصار فقد حرموا من زيارة البيت الحرام الذى كان مهوى نفوس العرب جميعاً . كما تحملوا جو الحرب بما فيه من إعنات ومن ضياع للأنفس والأموال وها هى الفرصة تأتى ليعود المهاجرون إلى وطنهم زائرين وليعاودوا الاتصال بمن تركوا فيه من الأهل والأخوان : وليطفىء الأنصار حنينهم إلى بيت الله الحرام ، وليخرجوا من جو الحرب إلى جو السلام .

وأما الأعراب فقد ظنوا أنها مغامرة يقوم بها المسلمون أن يزوروا مكة وأن قريشاً سوف تنتهزها فرصة القضاء عليهم ، ولن يصدها عن ذلك الشهر الحرام ، ولا البيت الحرام ، فقد لجت فى الخصومة وبلغت بها إلى الشوط الأبعد الذى ليس بعده صلح ولا مسالمة ، واعتبروا أن هذه سفرة بلا عودة ، وعلى عادة الأعراب من الحذر أبطأوا ، فلم يستجيبوا لدعوة النبى(١) .

وفى أول ذى القعدة — أول الأشهر الحرم — من سنة ٦ هجرية (٢) خرج النبى فى ألف وأربعمائة(٣) من أصحابه متجهاً إلى مكة ، يسوق

(١) ابن هشام ٣/٣٥٦ إمتاع ١/٢٧٦ .
(٢) ابن سعد ٣/١٢٩ إمتاع ١/٢٧٥ .
(٣) ابن هشام : نفسه . ابن سعد . نفسه .

أمامه الهدى سبعين بدنة وقد قلدها وأشعرها توكيداً لنيته السلمية وقصده زيارة البيت(١) . ولم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحاً إلا ما يحمله المسافر من سيف فى غمده(٢) .

وعلمت قريش بمسيرة النبى والمسلمين إلى مكة فتشاور زعماؤها فى الأمر ، وعلى الرغم من مظهر السلم الذى سار به النبى . وعلى الرغم من إعلانه نيته فى العمرة ونداته بهذا بين العرب . فإن زعماء قريش أوجسوا خيفة من هذه الزيارة . فلربما تكون مكيدة أراد بها محمد أن يدخل مكة . وحتى إذا لم تكن مكيدة وكانت عمرة عادية فإن قريشاً قدرت ما يكون لو أن المسلمين اختلطوا بأهل مكة وحادثوهم وزال جو التوتر بين الفريقين . واتصل المهاجرون بأهليهم والتقوا معهم . فإن الدماء عند ذلك تحن والأرحام تتقارب . ويحس السواد من أهل مكة بالحنين نحو أهليهم وذوى أرحامهم . ويحسون بمقدار الظلم الذى وقع عليهم بطردهم من وطنهم والتفرقة بينهم وبين أهليهم وإذن لابد أن يكسب محمد الجولة عليهم . ثم إن هناك عدداً من المسلمين حبسهم أهلهم بمكة وحالوا بينهم وبين الجرة . وهم يعذبونهم بقصد فتنتهم ، فماذا لو دخل المسلمون مكة فاتصلوا بهؤلاء المستضعفين وعملوا على تحريرهم من الظلم والإعنات الذى هم فيه . ووجد هؤلاء المعذبون ملجأ وملاذاً عند إخوانهم . إذن فستكون الحرب الأهلية فى مكة ؛ أو هى الفرقة والضعف . ورجال محمد فى مكة يستطيعون أن ينتهزوا الفرصة للاستيلاء عليها .

---

(١) ابن هشام ٣/٣٥٦ . ابن سعد ٣/١٣٩ .
(٢) ابن سعد : نفسه إمتاع ١/٧٥ .

وإذن فمهما يكن غرض محمد ومظهره ، فلابد من الحيلولة بينه وبين دخوله مكة ، مهما يكن الأمر ومهما يكن الثمن ، حتى ولو كانت الحرب فى الأشهر الحرام أعنف الحرب . على ذلك صمم زعماء قريش ومن أجل ذلك أعدُّوا جيشاً قويًّا بلغ عدد فرسانه مائتين ، وقدموه للقاء محمد ومنعه من دخول مكة .

وتقدمت فرسان قريش على رأسها خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل إلى كراع الغميم على نحو عشرة أميال من مكة(١) . وعلم النبى بمسيرة جيش قريش لمنعه ، فأخذه الأسى لموقف قريش ولددها فى الخصومة ، مع أن ما بينها وبينه من لحمة الدم والقرابة كان خليقاً أن يجعلها تقاربه وتنتصر له . بدل أن تخاصمه هذه الخصومة العنيفة التى أعمتها عن موقف الحكمة . وأبعدتها عن الحلم الذى اشتهرت به بين العرب ، فقال : « يا ويْح قريش !! لقد أهلكتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش .. ؟! فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة(٢) » .

وبينما كان محمد يفكر فى أمر قريش ويستعرض موقفها ، كان رسانها منه على مرأى النظر ، يدل منظهرهم على أنه لا سبيل المسلمين إلى دخول مكة إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاماً ، ولكن محمداً ما جاء محارباً وإنما جاء لتقرير مبدأ السلم ، ولذلك مال بأصحابه وسلك طريقاً آخر تجنب به قوات قريش وأوصله إلى الحديبية .

---

(١) ابن هشام ٣/٣٥٦ إمتاع ١/٢٧٨ . ابن سعد ٣/١٣٩ .
(٢) ابن هشام ٣/٣٥٦ — ٣٥٧ .

وهى أقرب حدود الحرم إلى مكة(١) . وهناك نزل بأصحابه ينتظر ما يكون من قريش . وفكرت قريش أن ترسل إلى المسلمين من يستطلع حالهم من ناحية ومن يحاول صدهم عن دخول مكة بدون حرب من ناحية أخرى ، وأرادت أن تشرك القبائل المجاورة لمكة وأن تشرك الأحابيش ، حتى إذا ما كان الموقف يتطلب قتالاً وقفوا معها وأعانوها ، وقدرت أن محمداً قد يسيء إلى الرسل الذين ترسلهم إليه من رجالها ومن رجال القبائل ومن الأحابيش فيحفظهم هذا فيتحمسون لنصرة قريش .

لكن محمداً أحسن مقابلة الرسل الذين أرسلتهم قريش من خزاعة ومن ثقيف ومن الأحابيش (٢) ، واستطاع أن يقنعهم بالحجة مرة ، وبالمظهر العملى مرة أخرى – كما فعل مع سيد الأحابيش فإنه أطلق الهدى أمامه(٣) – بنيته السلمية وبأنه جاء معتمراً للبيت ولم يجئ غازياً ولا معتدياً . حتى لقد اشمأز بعض هؤلاء الرسل من تصرف قريش من عنتها . كما فعل الحليس سيد الأحابيش ، فقد قال لقريش حين عاد من عند محمد : « يا معشر قريش .. والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ ! .. والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء به أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد »(٤) . وبذلك كسب محمد هذه هذه الجولة من قريش ، وألزمها بأن تدخل معه فى مفاوضات سلمية ، وإلا ظهرت بمظهر المتعنت أمام حلفائها ، وأمام العرب .

(١) ابن هشام ٣/٣٥٧ ، إمتاع ١/٢٨٤ .
(٢) ابن هشام ٣/٣٥٩ – ٣٦٢ ، إمتاع ١/٢٨٦ – ٢٨٨ .
(٣) ابن هشام ٣/٣٦٠ ، إمتاع ١/٢٨٨ .
(٤) نفسه ٣/٣٦٠ ، إمتاع ١/٢٨٦ .

وبالرغم من مناوشات قريش ، ومن اعتداءات سفهائها على المسلمين ومحاولتهم النيل منهم ، فقد التزم المسلمون جانب السلم وسود النبى كلمة التقوى(١) ، وكان المسلمون أحق بها وأهلها ، وكلمة التقوى تساوى كلمة السلم ، وهو المبدأ الإسلامى الذى جاء يقابل مبدأ الجاهلية وهو الحمية التى تقابل العصبية « حمية الجاهلية » .

ولما جاء رسول قريش وهو سهيل بن عمرو مفوضاً لعقد الصلح أظهر النبى كثيراً من المرونة والتساهل . ولم يحفل بالشكليات ، بل كان همّه فى المسألة جوهرها . حتى لقد أغضب موقفه اللّيّن كثيراً من رجاله وأثار اعتراضهم(٢) . وحتى اندفع عمر بن الخطاب يقول للنبى معترضاً : « يا رسول الله ألسنا بالمسلمين ؟ .. ألسنا على الحق ؟ فلم نعط الدنية فى ديننا ؟؟ »(٣) .

لم يحفل النبى بالشكليات التى تمسك بها رسول قريش . ولم يساير حماسة رجاله . وقدم كثيراً من التسهيلات حتى تم عقد الصلح بين الطرفين . وكانت أهم شروطه(٤) :

١ — أن يرجع محمد والمسلمون عن دخول مكة هذا العام . على أن يعودوا فى العام القادم فتخلى لهم قريش مكة ثلاثة أيام يؤدون فيها العمرة .

٢ — أن تعقد بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنوات — فى قول ، وسنتين فى قول آخر وهو ما نرجحه — يأمن كل من الطرفين صاحبه ،

---

(١) ابن هشام ٣/٣٦٣ ، إمتاع ١/٢٩٠ .

(٢) ابن هشام ٣/٣٦٥ — ٣٦٧ .

(٣) نفسه .　　(٤) نفسه .

ويكف بعضهم عن بعض . وأن بينهم عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال(١) .

٣ — إنه مَنْ أراد مِن القبائل الدخول فى حلف محمَّد دخل ، ومَنْ أراد الدخول فى حلف قريش دخل (على أنه يسرى على المتحالفين ما يسرى على المتعاقدين) .

٤ — إنه من جاء محمداً من أهل مكة بدون إذن وليه رده إليهم ومَنْ جاء إلى قريش من أصحاب محمد لم يردُّوه .

والشرط الأخير هو الذى أثار اعتراض المسلمين وأغضبهم . لكن النبى أمضى العقد واعتبر الوصول إلى السلم هدفاً يصغر إلى جانبه كل شىء ، وعدَّه فتحاً مبيناً ، ونزل القرآن الكريم بهذا :

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)(٢) .

والحقيقة أن الحديبية كانت فتحاً مبيناً لا يقل فى أثره وعظمته عن أكبر معارك الإسلام ، وإذا كانت « بدر » قد ثبتت قواعد الدولة الناشئة ، فإن الحديبية قد فتحت أمامها المجال لتصل إلى الهدف الذى كان النبى يرمى إليه ، وهو توحيد العرب فى دولة واحدة ، تكون نواة لدولة إسلامية كبرى تشمل الإنسانية وتحقق رسالة العدالة والخير لبنى الإنسان على الأرض . وانفتح بصلح الحديبية المجال أمام النبى ليتابع إبلاغ رسالته للناس جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها .

(١) عيبة مكفوفة : أن يكف بعضهم عن بعض . الإسلال : السرقة الخفية . الإغلال : الخيانة .
(٢) سورة الفتح .

وقد أتاح صلح الحديبية للنبي أن يوجه نظره إلى إكمال خطته في إقرار الأمن للمسلمين في جزيرة العرب ، والقضاء على كل عناصر المقاومة التي تقف في سبيل توحيد الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام ثم الاتجاه بالدعوة إلى العالم الخارجي . إلى المجال الإنساني : فإن محمداً لم يُرْسَلْ للعرب وحدهم . وإنما أُرسل بشيراً ونذيراً للناس كافة

وقد أظهر محمد من بُعد النظر ودقة التقدير ما تفوق به على خصومه وما فاق به تفكير أصحابه على السواء . فإن شروط عهد الحديبية وإن بدت لأول وهلة في مصلحة قريش . فإن الأيام ما لبثت أن كشفت عن أن النبي قد ذهب فيها بالنصيب الأوفر . وحقق فيها وبواسطتها أهدافه الكبرى . فقد أتاح هذا العهد لمحمد والمسلمين أن يدخلوا مكة في العام القادم آمنين مطمئنين . وأخلت لهم قريش البلد الحرام (١) وقد كان لهذا أثره الخطير في مكة نفسها . فإن أهلها رأوا من تضامن المسلمين وترابطهم وتعاونهم وتعاطفهم وحُسن نظامهم والتفاهم بينهم واقتدائهم بنبيِّهم . ما جعلهم يدركون أن مثل هذه الجماعة لا يمكن الوقوف في وجهها . وليس من أمل في التغلُّب عليها . حتى لقد كانت عمرة القضاء قضاءً تامًّا على روح العناد والمقاومة في قريش . وحتى لقد أدرك عقلاؤها أنه من الخير الانضمام إلى محمد . يتمثل ذلك في إسلام خالد بن الوليد . وخالد رجل له مكانته العظيمة في قريش فهو بطلها المعلم وفارسها في يوم أُحد .. وكان خالد قائداً بصيراً يدرك أن تكون الكفة الراجحة . ولقد أدرك خالد هذا في عمرة القضاء فلم يلبث أن أعلن إسلامه . وبعث بهداياه إلى النبي(٢) . ولم يسلم

---

(١) ابن هشام ٣/٤٢٤ — ٤٢٧ .　　(٢) الواقدي ٣١١ .

خالد فى صمت بل قال على ملأ من قريش : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بشاعر ولا ساحر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ؛ فحق على كل ذى لُبٍّ أن يتبعه »(١) . ولقد همَّ أبو سفيان أن يثور بخالد ويؤلب قريشاً لقتله . فقال عكرمة بن أبى جهل : « مهلاً يا أبا سفيان . أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه ، وهذه قريش كلها قد بايعت عليه .. والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم »(٢) .

وهكذا كانت عمرة القضاء التى هى شرط من شروط صلح الحديبية فتحاً لقلوب أهل مكة وأبصارهم ، وكما أسلم خالد أسلم رجلان آخران لهما أهمية ولهما خطورة ، وهما عمرو بن العاص داهية قريش الذى لا يقل بصراً بالأمور عن خالد . وعثمان بن طلحة حارس الكعبة(٣) وبإسلام هؤلاء الثلاثة أسلم عدد كبير من أهل مكة وأصبحت مكة فى حكم البلد الذى فتح أبوابه للدعوة الإسلامية . ولم يبق إلا أن تفتح أبوابها وتسلم القياد للمسلمين .

كما أن هذا الصلح قد أتاح لبعض القبائل فرصة الدخول فى عقد محمد والانضمام إلى صفوفه صراحة . وبخاصة قبيلة خزاعة التى كان جزء كبير من الأحابيش الذين كانت تعتمد عليهم قريش من بطونها(٤) وبذلك ضم محمد جزءاً كبيراً من هذه القرة إلى جانبه وأضعف بذلك مركز قريش الحربى إلى حد كبير .. ثم إن المدنة قد أتاحت لمحمد فرصة العمل بحرية وهو آمن ، بعد أن أمَّن جناحه الجنوبى من ناحية قريش . فانصرف فى اطمئنان ليقضى على القوة الأخرى المعادية التى

---

(١) نفسه .
(٢) ابن هشام ٣/٣١٩ .
(٣) إمتاع ١/٣٤١ - ٣٤٤ .
(٤) ابن هشام ٣/٣٦٦ .

كانت تقوم فى جناحه الشمالى . وهى قوة اليهود الذين تركّزوا فى خَيبر والذين أخذوا يعدُّون العدَّة ويعملون على تكوين حلف يهودى يضم يهود خيبر ووادى القرى وتيماء . لتكوين قوة كبيرة من اليهود لمهاجمة المدينة دون اعتماد على القبائل العربية التى فشلت فى مهاجمة المدينة فى موقعة الأحزاب .

وقد استطاع أن يهاجم خيبر وينتصر عليها وعلى حصونها القوية ، على الرغم مما بذله اليهود من مقاومة عنيفة مستميتة(١) ، وبالقضاء على قوة اليهود فى خيبر أمن النبى جناحه الشمالى ، وبدأت القبائل التى كانت تناوىء المدينة تراجع موقفها وتسعى للانضمام إلى النبى . حتى لم يمض عامان إلا والإسلام قد انتشر انتشاراً سريعاً فى هذه القبائل وحتى انضمت إليه انضماماً كاملاً لدرجة أنه عند فتح مكة فى (عام ٨ هـ) كان رجال هذه القبائل يؤلفون القوة الكبرى فى الجيش الذى تقدم لفتح مكة . فقد قدمت سليم ألف فارس . وقدمت مزينة ألف مقاتل ، كما قدمت جهينة ثمانمائة ، وقدمت بنو كعب وبنو ليث وأشجع وغفار أكثر من ألفى مقاتل . وهكذا بعدت القبائل عن قريش بالدرجة التى تقربت بها من النبى(٢) . وكانت هذه الأعداد الضخمة من الرجال دليلاً على مدى انتشار الإسلام بين هذه القبائل انتشاراً كبيراً فاق كل عدد وصل إليه المسلمون فى السنوات السابقة منذ البعث إلى عهد الحديبية . ثم إن الشرط الأخير الذى أرضت به قريش غرورها ، والذى غضب من أجله المسلمون وعارضوه ، ما لبث أن ظهر أنه فى غير مصلحة قريش وأنه كان وبالاً عليها . والرسول حين قبله كان سياسيًّا

---

١) ابن هشام ٣/٣٨٧ وما بعدها

(٢) إمتاع ١/٣٦٤ – ٣٧٣ ، جوامع السيرة ٢٧٧ .

بعيد النظر ، وكان حكيماً عالماً بما يصلح الدولة فى داخلها ، فإنه ليس من مصلحة الدولة أن يكون بين صفوفها من لا يؤمن بمبادئها ، ومن كان هواه مع أعدائها ، وكانت قريش قصيرة النظر حين حبست بعض المسلمين فى مكة ومنعتهم من الهجرة وعملت على فتنتهم عن دينهم بالقوة ، فقد استمسك هؤلاء بدينهم برغم تعذيب قريش . وكانوا نقطة ضعف داخل الدولة المكيَّة . كانوا طابوراً خامساً كما نعبِّر عنه فى عصرنا الحديث ، وكانوا إلى جانب ذلك يعذبون ضمير أهل مكة ويشعرونهم بالإثم دائماً ، وخصوصاً إذا قدرنا قوة عصبية الأرحام ، وذوى القربى ، وإذا كان الزعماء يرضون هذا لمصلحة الدولة كما ظنُّوا ويرغمون العامة على قبول عملهم وتساعدهم على ذلك حالة الحرب ، فإن عواطف الناس كانت فى غير هذا الصف ، وخصوصاً بعدْ أن أشاع صلح الحديبية جوًّا من السلم وأتاح للعواطف أو الرأى أن تنفس عن نفسها ، وكان النبى يرى أن مصلحة دولته تقتضيه أن يتخلص من خصوم مبدئها أو على الأقل لا يتمسك بهم بين صفوفه ، لذلك وافق على ألا يرجع إليه من يخرج من صفوفه إلى العدو .

على أنه لم يخرج من صفوف المسلمين أحد إلى مكة ، وخرج من صفوف قريش بعض المسلمين فارين إلى النبى ، فلما ردهم النبى إلى مكة كانوا وبالاً عليها ، وأصدق شاهد على ذلك قصة أبى بصير بن أسيد حليف بنى زهرة ، فإنه بعد صلح الحديبية فر إلى المدينة ، فكتب أولياؤه إلى النبى يطلبون رده ، وأرسلوا إلى النبى رجلين يعودان به . فسلَّمه النبى للرجلين وفاءً بشروط الصلح ، فلمَّا كان فى بعض الطريق احتال على الرجلين حتى أخذ من أحدهما سيفه فقتله به ، وفر الآخر

إلى المدينة ولحق به أبو بصير . فقال للنبي : « يارسول الله وفت ذمتك وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويل أمه .! .. محش حرب لو كان معه رجال » فخرج أبو بصير حتى نزل بمكان يقال له العيص على ساحل البحر ، وكان طريق قريش إلى الشام ، فسمع به من كان بمكة من المسلمين فلحقوا به ، حتى كان في عصبة من المسلمين قريب من ستين أو سبعين رجلا ، وكانوا لا يظفرون برجل من قريش إلا قتلوه ، ولا يمر بهم عير إلا اقتطعوها ، حتى كتبت فيهم قريش إلى رسول الله يسألونه بأرحامهم إلا آواهم فلا حاجة لهم بهم ، ففعل رسول الله ، فقدموا عليه المدينة . وهكذا جرّ هذا الشرط وبالاً على قريش فقد تكونت ضدها عصابة خطيرة خرجت عن التبعية لها ، وكذلك لم تدخل في تبعية المدينة فلم تكن تسأل عنها ولا عن أعمالها ، فألحقت بقريش ضرراً فادحاً دعاهم إلى أن يرجوا النبي أن يؤوى هذه الجماعة وأن يقبل إلغاء هذا الشرط (١) .

وهكذا أثبتت الحديبية بعد نظر النبي وسلامة تقديره ، وكانت آية من آيات السياسة الحكيمة والدبلوماسية الفذة ، حتى اعتبرت فتحاً مبيناً فاق في كل نتائجه أعظم الفتوح الحربية ، فإنه لم يفتح البلاد وحدها وإنما فتح العقول والقلوب للدين الجديد ، ومهّد للفتح الأعظم بعد ذلك بسنتين ، وهو فتح مكة فتحاً سلمياً وانضمامها إلى الدولة الإسلامية ، وما أعقب ذلك من توحيد العرب ، ودخول الناس في دين الله أفواجاً .

---

(١) ابن هشام ٣/٢٧٢ — ٢٧٣ ، إمتاع ٣/٣٠٤ — ٣٠٥ .

الفصل الثانى

الصراع بين المسلمين واليهود

لا شك أن اليهود فى المدينة كانوا على علم بما تم بين النبى وبين الأوس والخزرج من اتفاق فى بيعة العقبة الكبرى ، ولم يكن فى مقدورهم أن يمنعوا هذا الاتفاق أو يقفوا ضده ، فإن القوة فى المدينة كانت فى يد العرب وكانوا يستطيعون أن يدخلوا فى المدينة من شاءوا دون أن يخشوا اعتراض اليهود عليهم . وكانت حالة يثرب الداخلية تتطلب عنصراً خارجيًّا يستطيع أن يوحد بين عناصرها المختلفة ، ويقيم بينها نوعاً من التوازن يعيد إليها السلام الذى حرمته زمناً طويلاً بتنازع طوائفها المختلفة ، وكان اليهود يرصدون الأحوال ويراقبون تطور الحوادث ، ولم يدر فى خلدهم فى أول الأمر أنه سيحدث ما يوجه الأمور ضد مصالحهم ، بل لعلهم كانوا يعتقدون أن قدوم الرسول إلى يثرب فى مصلحتهم ، فقد ظنوا أن فى مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله فى حلفهم ، فإنه يدعو إلى ديانة تتفق فى جوهرها مع عقائدهم ، ولو أفلحوا فى ضمه إليهم لربما استطاعوا أن يعيدوا إلى أنفسهم مركز التفوق فى يثرب ، وربما استطاعوا به بعد توحيد بطون المدينة وجعلها كتلة واحدة أن يجعلوا منها مدينة قوية ، تستطيع أن تسيطر على الحركة الاقتصادية وتنافس مكة وتتغلب عليها ، وربما تمكنوا من

تاليف جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى تغلبت على اليهود وأجلتهم عن فلسطين . لعل هذه الآمال كلها كانت تجول فى نفس اليهود فى يثرب حين قدم النبى إليها ، ولذلك أحسنوا استقباله وبادر هو إلى رد تحيتهم بمثلها وإلى توثيق صلاته بهم ، فتحدث إلى رؤسائهم وتقرب إلى كبرائهم ، وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبارهم أهل كتاب موحدين ، وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم(١) ، وكانت قبلته فى الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بنى إسرائيل جميعاً(٢) ، وقامت علاقة طيبة بين أصحابه من المهاجرين وبين اليهود حتى ليغشون مجالسهم ويذهبون إلى بيرت مدارسهم يتحدثون إليهم ، ويسألونهم ويسمعون منهم ، ويرون التوراة تصدق القرآن والقرآن يصدق التوراة(٣) . وما كانت الأيام لتزيد النبى والمسلمين باليهود أو لتزيد اليهود بهم إلا مودة وقربى ، حتى وصل الأمر بينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد ، ولئن لم يشترك فى توقيع هذه المعاهدة بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع فإنهم لم يلبثوا أن وقعوا بينهم وبين النبى صحفاً مثلها . وبهذه الصحيفة التى قررت حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة ، استقرت الأحوال فى يثرب وأصبحت حرماً لأهلها ، عليهم أن يدافعوا عنها ، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة من الحقوق . وبدت المدينة وكأنما تسير إلى ما كان ينشده لها أهلها من هدوء وتقدم ، وبدا النبى

---

(١) الموطأ ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) ابن هشام ٢ — ٣٧ (هامش الروض) .

(٣) تفسير الطبرى ٢/٣٨١ — ٣٨٢ .

بمثيل فيها روح النظام والاستقرار . وكان هو القدوة فى حسن المعاملة والتواضع والعدل . وقد ترك ذلك فى النفوس عميق الأثر ، حتى لقد أقبل كثيرون على الإسلام ، وزاد المسلمون فى المدينة شوكة وقوة ، وأخذ النبى يتجه إلى بناء دولته وضمان الأمن لها فى الداخل والخارج ، ونجحت السرايا التى أرسلها إلى ما حول المدينة فى تأمين ريفها وعقد المحالفات لها مع القبائل الضاربة على جنباتها .

هنا لك بدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه لقد عقدوا معه عهداً ، وكانوا يطمعون فى ضمه إلى صفوفهم ليزدادوا به قوة ؛ ولكنه أصبح هو أقوى منهم . وإنه ليتجه بقوته إلى المجال الخارجى . ويعمل على توسيع نطاق دعوته ونفوذه . أفيتركونه يمد سلطانه وينشر دعوته على هذا المدى الواسع . ويكتفون بالأمن فى جواره أمناً يمكن لمصالحهم المادية أن تتسع ؟ .. لعلهم كانوا يقنعون بذلك لو أمنوا أن دعوته لا تمتد إلى اليهود ولا تفشو فى عامتهم ، على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى إسرائيل . لكن رجلاً من علمائهم وأحبارهم هو عبد الله بن سلاّم القينقاعى(١) لم يلبث حين اتصل بالنبى أن أسلم هو وأهل بيته وجابه اليهود بإسلامه ودعاهم إلى الإسلام(٢) . وهنا أجمع اليهود أمرهم أن يكيدوا لمحمد وينكروا نبوّته . وما أسرع أن اجتمع إليهم من بقى على الشرك من الأوس والخزرج . ومن دخل فى الإسلام منهم بظاهره جرياً وراء مغنم أو إرضاء بصحبة لم يقو على مخالفتها .

---

(١) أسد الغابة ٣/١٧٦ .　　(٢) ابن هشام ٣/٢٥ (هامش الروض) .

وهنا بدأت حروب جدل بين النبي واليهود كانت أكثر لدداً ومكراً من حرب الجدل التي كانت بمكة بينه وبين قريش. فقد حشد اليهود لها ما استطاعوا من أنواع الدسيسة والنفاق، وما كان لديهم من علم بأخبار الأنبياء والمرسلين، يحاجون بها محمداً ورسالته وأصحابه من المهاجرين والأنصار .. دسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه وأخذ يجالس المسلمين ويظهر الورع والتقوى؛ ثم يلقى على النبي من الأسئلة ما يحسبه يثير الشكوك والريب ويزعزع في نفوس المسلمين عقيدتهم به وبرسالته، ويتعنتون ويأتون باللبس، ليلبسوا الحق بالباطل. وكان القرآن يجيبهم فيما يسألون عنه(١) .. وانضم إليهم جماعة المنافقين من الأوس والخزرج ليسألوا ويشاركوا في الوقيعة بين المسلمين(٢) وكانوا يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم. وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم. فلما رأوا جماعة منهم بالمسجد ذات يوم يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض. أمر النبي بهم فأخرجوهم من المسجد إخراجاً عنيفاً(٣). لكن هذا لم يثن اليهود عن سعيهم ووقيعتهم بين المسلمين. وغاظهم أن يجتمع أمر الأوس والخزرج على الإسلام وتقوم الألفة بينهم عليه؛ فأرادوا أن يثيروا الأحقاد القديمة ليوقعوا بينهم العداوة والبغضاء؛ مر أحدهم « شاس بن قيس » على نفر من الأوس والخزرج من أصحاب رسول الله في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم؛ وقال: قد اجتمع

---

(١) ابن هشام ٢/٢٤، ٣٥.
(٢) نفسه ٢٧ – ٢٩.
(٣) نفسه ٢٩.

ملأ بني قيلة بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار. وأمر فتى شابا من اليهود كان معه أن يجلس بينهم وأن ينتهز فرصة يذكر فيها يوم بعاث وما كان من الأوس والخزرج فيه . وتكلم الفتى فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا . وكاد الشر يقع بينهم ، لولا أن سمع النبي فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه ؛ فذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين . ومازال بهم حتى بكى القوم وعلموا أنها من نزعات الشيطان وكيد عدوهم (١) .

وبلغ الجدل بين محمد واليهود مبلغاً من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه . فقد نزل إحدى وثمانون آية من سورة البقرة ، كما نزل قسم كبير من سورة النساء . وكله يذكر هؤلاء اليهود وإنكارهم ما في كتابهم . ويلعنهم لكفرهم وإنكارهم أشد اللعنة :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٢) .

وبلغ الجدل بين المسلمين واليهود حداً كان يصل أحياناً إلى الاعتداء بالأيدي ، وحسبك لتقدر هذا ، أن تعلم أن أبا بكر ، على ما عرف عنه من دماثة الخلق ولين الطبع وطول الأناة ، تحدث إلى

---

(١) ابن هشام ٢/٣٩ — ٤٠ .

(٢) البقرة ٨٧ — ٨٩ ، انظر تفسير الطبري ٢/٣٣٢ ، ابن هشام ٢/١٩٠ - ابن كثير ١/٢٣٠ .

يهودى يدعى فنحاص يدعوه إلى الإسلام ، فرد فنحاص بقوله « والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرّع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنّا بغنىّ ، ولو كان غنيًّا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا » .

وفنحاص يشير هنا إلى قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرة »(١) . ولم يطق أبو بكر صبرًا على هذا الجواب فغضب وضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : « والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت رأسك ، أى عدو الله » ، وشكا فنحاص أمره إلى النبى وأنكر ما قاله لأبى بكر ، فنزل قوله تعالى : « لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ »(٢) .

ولم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج ، ولم يكفهم فتنة الناس عن دينهم ومحاولة ردهم إلى الشرك دون تهويدهم ، وصدّهم من يريد الإسلام من المشركين ، بل حاولوا فتنة النبى نفسه . ذلك أن أحبارهم وأشرافهم وسادتهم ذهبوا إليه وقالوا : « يا محمد ، إنك قد عرفت أنّا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم وإنّا إن اتّبعناك اتبعتْك يهود ، ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض

---

(١) البقرة ٢٤٥ .

(٢) آل عمران ١٨١ . ابن هشام ٢ /١٨٧ ة

قومنا خصومة : أفنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن بك ونصدّقك ؟»
فأبى ذلك النبى . فأنزل الله فيهم : «

« وأن احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »(٢) .

ثم أخذوا فى أسئلة منكرة ، عن الساعة ومتى ميعادها ؟ .. وعن وحدانية الله أهى حقيقة ؟.. وإذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ومن هذه الأسئلة التى يقصد بها التشكيك والتضليل بقصد الفتنة والبلبلة(٢).

وحين ضاق اليهود ذرعاً بمحمد فكّروا فى أن يقنعوه بالجلاء عن المدينة كما أجلته قريش عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا إلى بيت المقدس وكان مقامهم به ، وأنه إن يكن رسولاً حقًّا فجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطا فى هجرته بين مكة وبيت المقدس ، لكن محمداً أدرك ما يرمون إليه ، وأوحى الله إليه على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة أن يجعل قبلته المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »(٣) .

وأنكر اليهود ما فعل . وأدركوا أن هذا العمل ينطوى على موقف خطير . فإن اتخاذ القبلة إلى بيت الله الحرام بمكة فيه جذب كبير

---

(١) ابن هشام ٢/١٩٦ – ١٩٧ . المائدة ٤٩ – ٥٠ .
(٢) ابن هشام ٢/١٩٨ – ٢٠٢ . (٣) البقرة ١٤٤ .

لقلوب العرب . فإن الكعبة محط أنظارهم وموضع تقديسهم وإكبارهم فإذا اتخذها محمد قبلته كان فى ذلك إرضاء للروح العربية ، وقد يؤدى هذا إلى انجذاب العرب نحو الدين الذى يتخذ قبلتهم قبلته ، وفيه كذلك تقرّب لمكة التى كانت فى عداء مع محمد ؛ وقد يؤدى هذا إلى تقارب وجهة النظر بين قريش والنبى . فيلتئم شمل قريش ومن خلفها العرب مع النبى . فيضيع اليهود فى غمرة هذا الاجتماع . لذلك أنكروا هذا وحاولوا فتنة النبى مرة أخرى بقولهم : إنهم يتبعونه إن هو رجع إلى قبلته الأولى ، فنزل القرآن الكريم :

« سَيَقُولُ السفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ »(١) .

فى هذا الوقت الذى اشتد فيه الجدل بين محمد واليهود ، وفد على المدينة وفد من نصارى نجران عدتهم ستون راكباً ، فيهم أشرافهم ومن يئول إليه أمرهم ، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس . وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم . ولعل هذا الوفد إنما جاء إلى المدينة فى هذا الوقت طمعاً فى أن يزيد الخلاف شدة بين النبى واليهود ، حتى يبلغ به حد العداوة ، فيريح النصرانية المتاخمة فى

---

(١) البقرة ١٤٢ – ١٤٣ .

الشام واليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب على السواء . واجتمعت الأديان الثلاثة الكبرى بمجىء هذا الوفد وبجداله النبي ، وبقيام ملحمة كلامية عنيفة بين اليهودية والمسيحية والإسلام . فأما اليهود فكانوا ينكرون رسالة عيسى ومحمد إنكاراً فيه عنت وفيه مكابرة ، ويزعمون أن عزيرا ابن الله .. وأما النصارى فيقولون بالتثليث وبألوهية عيسى . وأما محمد فيدعو إلى توحيد الله توحيداً مطلقاً ، وأن الرسالات جميعاً تمثل وحدة روحية واحدة من أزل الوجود إلى أبده . وكان اليهو والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل . فيقول كما نزل القرآن :

« قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »(١) وينكر عليهم أشد الإنكار كل ما يلقى أية شبهة على وحدانية الله ، ويذكر لهم أنهم حرفوا الكلم مما فى كتبهم عن مواضعه ، وأنهم غيروا مبادىء الرسل والنبيين الذين يقرون لهم بالنبوة ، وأن ما جاء به موسى وعيسى ومن سبقهم لا يختلف فى شىء عما جاء هو به ، لأن ما جاءوا به جميعاً هو الحقيقة الخالدة التى تتكشف لكل من نزه نفسه عن الخضوع لغير الله ، وتنظر فى الكون نظرة سامية فوق أهواء الدنيا مجردة عن الخضوع الأعمى للأوهام ولما وجد عليه آباءه وأجداده . ثم يلقى عليهم الصيغة التى أنزل الله عليه :

« قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ »(٢) .

---

(١) البقرة ١٣٦ . (٢) آل عمران ٦٤ .

فماذا يمكن لليهود والنصارى أن يقولوا فى هذه الدعوة . فأما النفس التى كُرِّمَت بالعقل . وأما الروح الخالصة الصادقة فلا تستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره ؛ لكن الحياة البشرية جانبها المادى الذى يجعل الإنسان يضعف لإغراء المادة فيخضع لها . هذا الجانب المادى المصور فى المال والجاه والسلطان وفى كاذب الألقاب هو الذى جعل أبا حارثة أكبر نصارى نجران علماً ومعرفة يدلى إلى رفيق له بأنه مقتنع بما يقول محمد . فلما سأله رفيقه : فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ .. كان جوابه : « ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه . فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى »(١) .

دعا النبى اليهود والنصارى إلى هذه الدعوة أو يلاعن النصارى ؛ أما اليهود فقد كان بينه وبينهم عهد الموادعة .. لكن النصارى خافوا عاقبة الملاعنة ورأوا ألا يلاعنوه . وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم ، لكنهم رأوا حرص النبى وأصحابه على العدل فطلبوا إليه أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم فى أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم ، وبعث معهم النبى أبا عبيدة بن الجراح ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه(٢)

وهكذا اشتد النفور بين المسلمين واليهود فى المدينة وكثرت بينهم المخاصمات . وبدت الكراهية والبغضاء ، حتى نزل القرآن ينهى المسلمين عن الاختلاط باليهود واتخاذ بطانة لهم منهم « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ

---

(١) ابن هشام ٢/٢٠٥ .

(٢) نفسه ٢١٥ . انظر . هيكل : حياة محمد من ص ٢١٨ – ٢٣٥ ..

الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ : هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ »(١) . ونزل يحذرهم من القعود معهم والدخول في مجادلات دينية « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »(٢) . فنجم عن ذلك أزمة بين المسلمين واليهود جعلت تشتد يوماً بعد يوم . ولم يمض أكثر من ثمانية عشر شهراً من قدوم النبي إلى يثرب حتى تلبد الجو بالغيوم الكثيفة بين الطرفين . وجعل كل فريق يتواصى بالحذر والنفور من الفريق الآخر . وقد استمرت هذه الأزمة الشديدة إلى يوم موقعة بدر .

رأينا — من قبل — أن الصحيفة التي كتبها النبي بين المهاجرين والأنصار على رأس سنة من قدومه إلى يثرب . ووادع فيها اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، قد ذكرت البطون اليهودية الصغيرة التي كانت في ذلك الوقت قد اندرجت في البطون العربية وصارت تعد منها بحسب العرف القبلي . ولذلك ذكرتها الصحيفة لا بأسمائها . ولكن بأسماء البطون العربية التي تتبعها . أما قبائل اليهود الثلاث الكبرى وهي : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . فلم يجيء لها ذكر في الصحيفة ، وإن كان قد وضع بند عام يسمح بإلحاق هذه القبائل فيما بعد « وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسرة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » .. ثم وقعت بين النبي وبين هذه القبائل

---

(١) آل عمران ١١٨ — ١١٩ . ابن هشام ١٨٦/٢ — ١٨٧ .
(٢) النساء ١٤٠ .

عهود أشار إليها المؤرخون وإن لم يذكروا نصها(١) ، ويبدو أن نصوصها لم تكن تختلف عن الجوهر العام لنص الصحيفة . والأرجح أن هذه القبائل اليهودية لم تعاقد النبي في وقت واحد ، فقد ذكرت المصادر أن بني قينقاع حين أجلاهم النبي بعد بدر كانوا هم أول من نقض العهد . ذكر الواقدي وابن سعد أن اليهود بعد مقتل كعب بن الأشرف وإهدار دم اليهود ، فزعوا وجاءوا إلى النبي يقولون : « لقد طُرق صاحبنا الليلة ، وهو سيد من سادتنا . قتل غيلة بلا جرم . ولا حدث علمناه » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل . ولكنه نالنا بالأذى وهجانا بالشعر ؛ ولا يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف » . ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يكتب بينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه . فكتبوا بينهم وبينه كتاباً(٢) .

وقد كان مقتل كعب بن الأشرف بعد جلاء بني قينقاع ؛ وقبل موقعة أحد . ومن ذلك يتبين أن بني قينقاع كانوا هم أول من تعاقد مع النبي من القبائل اليهودية الكبرى . ولهذا ما يرجحه ؛ فإن بني قينقاع كانوا حلفاء الخزرج . وكانت بطون الخزرج كلها قد دخلت في الإسلام . ثم إنهم كانوا يساكنون المسلمين في داخل المدينة . فكان الوضع لذلك يقتضيهم أن يتعاقدوا مع النبي والمسلمين . أما بنو النضير وبنو قريظة فكانوا يسكنون في منطقة العوالي خارج المدينة وعلى طرف الحرة الشرقية ؛ فكانت مساكنهم لذلك بعيدة ، كما كانوا في منعة

---

(١) ابن هشام ٢/٤٢٧ ، ٣/٢٢٦ - ٢٢٧ الواقدي ١٣٨ ، ١٥٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ . ابن سعد ٣/٦٧ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١٠٩ .

(٢) الواقدي : ١٥٠ ، ابن سعد : ٢/٧٣ .

من حصونهم وآطامهم . ثم إن البطون التي كانت قريبة منهم من العرب بطون أوسية ، هي التي عرفت بأوس الله . وقد تأخر إسلام هذه البطون إلى ما بعد موقعة الخندق . فلم يكن هناك ما يحمل هؤلاء اليهود على الإسراع في معاقدة النبي . حتى إذا كان حادث كعب ابن الأشرف وهو من زعماء بني النضير . وإهدار النبي دم اليهود . وجدوا أنفسهم مهددين من جانب المسلمين الذين اشتدت شوكتهم بعد انتصارهم في بدر ، فاضطروا إلى الدخول في حلف مع النبي .

ولعل المعاهدات التي وقعها النبي مع هذه القبائل لم تكن تشترط عليها أن تشارك معه في القتال . وهذا أمر طبيعي بعد أن فسدت الأمور بين المسلمين واليهود كما أشرنا إليه من قبل . فلم يكن النبي يثق باليهود حتى يشترط عليهم أن يشاركوا معه في الحرب . والدليل على ذلك أن اليهود لم يشاركوا فعلاً في حروب النبي . وأن النبي رفض الاستعانة بهم حين عرض رجال الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من اليهود في يوم أحد(١) . ونحن لا نوافق على ما ذهب إليه ولفنسون وغيره من أن النبي قد غضب على بني النضير لعدم اشتراكهم معه في موقعة أحد(٢) ؛ لأن بني النضير كانت قد بدت الخيانة منهم ومالأة العدو من قبل أحد ؛ فإن أبا سفيان بن حرب قد نزل على سلام بن مشكم سيد بني النضير في غزوة السويق بعد بدر « فقراه ونبقاه وبطن له من خبر الناس (أعلمه سرهم) »(٣) . فلم يكن النبي يقبل والحالة هذه أن يشتركوا في جيشه حتى لا يتعرض لخيانتهم في ميدان القتال .

---

(١) ابن هشام ٣/٨ . الواقدي ١٦٨ .   (٢) ولفنسون ١٢١ ١٣٥ .

(٣) ابن هشام ٢/٤٢٢ - ٤٢٤ .

إجلاء بنى قينقاع :

كانت النيات قد فسدت بين المسلمين واليهود كما بينا ؛ وكان اليهود قد بدأوا يناوشون المسلمين ، ويحرضون عليهم ويدسون بينهم حتى فاضت النفوس بالعداوة ، وجعل كل من الطرفين يتربص بالآخر. حتى إذا كانت غزوة بدر وانتصر المسلمون فيها انتصاراً كبيراً على قريش ، ساء اليهود هذا النصر فبدأت طوائفهم تتغامز بالمسلمين ، وتغرى بهم ؛ وتحرض عليهم . حتى فاضت النفوس أى فيض ، ولم ينقص الموقف إلا الشرارة التى تشعل الحريق . وكان بنو قينقاع يقيمون بداخل المدينة ، وفى حيهم يقوم سوق عرف باسمهم ، وكانوا صاغة يعملون فى صناعة الحلىّ ، ولإقامتهم بين المسلمين كانوا أكثر قبائل اليهود احتكاكاً ؛ وكان وجودهم هذا مما يثير حفائظهم . كما كان يشكل فى الوقت نفسه خطراً على كيان المدينة اليثربية او فوجئت بهجوم خارجى وحدثتهم أنفسهم بالخيانة . ثم إنهم كانوا أشداء لعدم اعتمادهم على الحصون كبقيه اليهود : فأغرتهم قوتهم بتحدى المسلمين فلما قدمت امرأة من الأنصار إلى سوقهم لتبيع بعض حليها ، وجلست إلى صائغ منهم . عبث بها بعض رجالهم . فأخذت الغيرة رجلاً من المسلمين : فشد على الصائغ فقتله : فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، واستعدوا لمنازلة المسلمين .. فلما ذهب إليهم النبى يحذرهم عاقبة هذا العمل منهم ويطلب إليهم التزام العهد ، قالوا : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة .. إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس »(١) . عند ذلك لم يبق من سبيل

---

(١) ابن هشام ٢/٢٦؛ .

لعدم مقاتلتهم ، وإلا تعرض المسلمون وتعرض سلطانهم للخطر .

عند ذلك أمر النبي بحصارهم ، فحاصرهم المسلمون خمسة عشر يوماً ، اضطروا بعدها إلى النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه ، وانتهت مشاورات النبي وأصحابه بإجلائهم عن المدينة .

وبخروج بني قينقاع خلت المدينة في داخلها من اليهود وزال عنها خطر وجود عنصرين متحاقدين في داخلها وبذلك أصبحت أقدر على مواجهة الاحتمالات الخارجية .

إجلاء بني النضير

كان بنو النضير . أقوى القبائل اليهودية بالمدينة ، وكانت حصونهم غاية في المناعة والقوة وكانوا يعتدون بها ويعتقدون أنها قادرة على حمايتهم ، وكان العرب من حولهم يرون أنها أمنع من أن تقتحم . كما كانوا يملكون أفضل الأراضي الزراعية وأفضل النخيل ، وكان زعماؤهم قد أظهروا العداوة للنبي من يوم قدومه إلى المدينة . وظهر الحسد والبغضاء والإصرار على العداوة منهم(١) .

فلما انتصر المسلمون يوم بدر إنطلق شاعرهم كعب بن الأشرف يُرسل الأشعار في هجاء المسلمين والتحريض عليهم ، وذهب إلى مكة يرثي أصحاب القليب (قتلى قريش) ويحرض قريشاً على المسلمين ، حتى فاضت نفوس المسلمين بالغيظ منه والحقد عليه . لذلك أمر النبي بقتله .. ثم إن زعيم بني النضير سلام بن مشكم آوى أبا سفيان في غزوة السويق وأطلعه على أسرار المسلمين ، فكأن الخيانة في بني النضير قد ولدت مبكرة حتى إذا ما كانت معركة أحد وهزم فيها المسلمون ،

(١) ابن هشام ٢٦/٢ (هامش الروض) .

وبدأت القبائل العربية تتحرش بهم ، حتى استدرجت عدداً منهم وقتلتهم فى الرجيع وبئر معونة — كما سنشير إليه فيما بعد — بدأ يهود بنى النضير يدبرون مؤامرة خطيرة للتخلص من النبى والقضاء على الوضع القائم فى يثرب كله ، مستعينين فى ذلك بتلك الجماعة المنافقة بزعامة عبد الله بن أبىّ ، وقد بدأ النبى يحسّ بهذا الموقف فى المدينة ، لذلك فكر تفكير سياسى بعيد مرامى الرأى ، فرأى ألا شىء خير من أن يستدرجهم ليكشف عن نياتهم.

حين قتل عامر بن الطفيل زعيم بنى عامر رجال النبى الذين ذهبوا إلى منطقة نجد للدعوة إلى الإسلام فى بئر معونة (مكان بين حرة بنى سليم وبلاد بنى عامر شرقى المدينة) نجا منهم رجل هو عمرو بن أمية الضمرى الذى قابل فى طريقه رجلين من بنى عامر فقتلهما ثأراً بأصحابه ، ولم يعلم أن معهما كتاب عهد من رسول الله ، واقتضاه أن يدفع ديتهما . وذهب النبى إلى منازل بنى النضير ، وكانوا حلفاء لبنى عامر ، فى عشرة من كبار أصحابه ، وطلب إليهم أن يعاونوا فى دفع دية القتيلين . وأظهر اليهود الغبطة لقدومه إليهم ، والاستعداد للتعاون ، ولكنه حين تبسط معهم وجلس إلى جوار بيت من بيوتهم ، ائتمروا بينهم أن يصعد أحدهم إلى أعلى الدار فيلقى على النبى صخرة تقتله . وأحسّ النبى بدقة ملاحظته روح التآمر فيهم ، فقام يوهمهم أنه ذاهب لبعض حاجته وترك أصحابه وذهب تواً إلى المدينة ، وحين استبطأه أصحابه رجعوا إلى المدينة وقد أدرك اليهود أن تآمرهم قد اكتشف .

وما كاد النبى يصل إلى المدينة ويجتمع بأصحابه حتى أرسل إلى اليهود أحد رجاله وهو محمد بن مسلمة الأوسى يقول لهم : « اخرجوا

من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت بينكم بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشراً فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه » وأبلست بنو النضير فلم يجدوا لهذا الكلام دفعاً .

لكن عبد الله بن أبىّ – رأس المنافقين وكبيرهم – أرسل إليهم يقول : « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين ممن أضاعنى ممن قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم » .

وهنا نقف على أبواب مؤامرة خطيرة يدبرها اليهود والمنافقون فى المدينة .. ها هم بنو النضير يأتمرون بالنبى ليقتلوه غدراً ، فلما انكشفت خطتهم ، أعلن المنافقون عن المؤامرة كاملة ، فإذا جبهة متكاملة تعلن خروجها ، وتستعد للحرب ، وتعلن فى صراحة أن لديها القوة الكافية من عشائرها ومن غيرها من العرب الآخرين . وأن لديها الحصون والقلاع تحتمى بها ، وأنها على استعداد لخوض غمار الحرب حتى الفناء .

إذن فقد كان تقدير النبى صادقاً وكانت شكوكه فى محلها ، أن المدينة مهددة بالحرب الأهلية يثيرها اليهود والمنافقون ومن ينضم إليهم من الأعراب القريبين . وإذن فهو الخطر الداهم الذى لو سكت عليه النبى لكان فى ذلك القضاء على دولته ، فقد أصبح الأعداء يحيطون بها فى الداخل والخارج . ولكى يتغلب على هذا الموقف فلابد من العمل السريع الحاسم ، ولابد من شجاعة وشدة يتذرع بها المسلمون ، فقد أخذت اليهود فى التجهز للحرب ، فرممت حصونها ونقلت إليها الحجارة وشحنتها بالمؤن والذخيرة ، واطمأنت إلى قوتها وإلى القوة الخارجية التى يعدها عبد الله بن أبىّ .

وأسرع النبي فحاصرهم ، واشتبك معهم فى القتال عشرين يوماً أظهر فيها اليهود كثيراً من البسالة ، واستماتوا فى الدفاع عن حصونهم ودورهم ، ولم ينسحبوا من دار إلا بعد أن ييأسوا من الدفاع عنها فيخربوها . وطال حصار الحصون حتى ظن المسلمون استحالة إخراجهم منها . فأمر النبي بقطع نخيلهم وتحريقها حتى ييئسهم من فائدة المقاومة أو يضطرهم للخروج لقتال المسلمين فى معركة مكشوفة .

أما عبد الله بن أبى ومن معه ، فقد استطاع النبى أن يحول بينهم وبين الاتصال باليهود ، فقد أحكم الحصار ، فلم يجرؤ عبد الله على التقدم لتنفيذ وعده لليهود ، وأذهلته وأصحابه القوة التى واجه بها المسلمون الموقف . وملأ الرعب نفوسهم حينما رأوا النبى يأخذ اليهود بالشدة فيحرق بيوتهم ويقطع نخيلهم وينكل بهم ، لذلك جبنوا عن أن يتقدموا للمشاركة فى القتال ، بعد أن حيل بينهم وبين الوصول إلى حصون اليهود . ويئس اليهود من عونهم ، فطلبوا مصالحة النبى ، فصالحهم على الخروج ، لكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره .

وارتحل اليهود فمنهم من نزل بخيبر ومنهم من ارتحل إلى الشام وتركوا للمسلمين وراءهم مغانم كثيرة من غلال وسلاح ، ولكن الأرض التى تركوها كانت أفضل ما غنم المسلمون وأنفع ، فقد جعلها النبى للمهاجرين دون الأنصار الذين لم يجدوا فى صدورهم حرجاً وآثروا بها المهاجرين ، وبذلك استغنى المهاجرون عن معونة الأنصار فتحسنت الحالة الاقتصادية عند الطرفين .

أما المنافقون ، فقد ضعف أمرهم بعد أن انكشف أمرهم

ودمغوا بالجبن والعار ، ولم يعاقبهم النبي . ولكنه لم يعد يفكر في أمرهم كثيراً . وفي شأن بني النضير وتآمر المنافقين معهم نزلت سورة كاملة من سور القرآن هي سورة الحشر .

وبخروج بني النضير ، ضعف شأن اليهود بالمدينة ، ولكن بقيت لهم جولة أخرى يدبرها بنو النضير بتجميع الأحزاب(١) .

القضاء على بني قريظة :

استطاع رجال بني النضير الذين نزلوا في خيبر أن ينالوا منزلة كبيرة فيها ، واستطاعوا أن يغروا قريشاً بحرب النبي وأن يجمعوا لها الأحزاب من القبائل العربية ، حتى هاجموا المدينة بجيش قوي عدته عشرة آلاف به قوة كبيرة من الفرسان ، لكن النبي استطاع أن يتجنب القتال المواجه ، كما استطاع أن يوقف تقدم العدو بالخندق الذي حفره حول المنطقة التي يمكن منها اقتحام المدينة ، وهي الناحية الشمالية والشمالية الغربية والشرقية ، أما باقي الجهات فكان حرارا يصعب منها الهجوم ، وأعانت بنو قريظة بما قدمت للمسلمين من أدوات الحفر من مساح وكرازين ومكاتل ، وتركت ناحية العوالي لم يخندق من ناحيتها اعتماداً على الحصون اليهودية بها ، إذ أن قريظة بقيت على ولائها ولم يبد منها ما يكشف عن نية سيئة . ولم تستطع جيوش الأحزاب اجتياز الخندق ، ولم يكن الوقت يسمح بالحصار الطويل ، إذ كان الوقت شتاء بارداً وليس القبائل المهاجمة من الاستعداد ما تتقي

(١) عن إجلاء بني النضير : انظر ابن هشام ٣/١٩١ — ١٩٧ . الواقدي ٢٨٢ — ٢٩٠ ابن سعد ٣/٩٨ — ١٠٠ .

به البرد للقيام على حصار طويل ، لذلك تباحثوا فى خطة للظفر السريع أو الانسحاب . وخاف حُيَيّ بن أخطب النضرى مجمع الأحزاب أن تفشل خطته ، فعمد إلى بنى قريظة يغريهم بفتح الطريق أمام جيوش الأحزاب . ولم يقبل كعب بن أسد زعيم قريظة فى أول الأمر أن ينقض عهده مع الرسول ، ولكن حييًا ما زال به يقول له : « ويلك يا كعب ! قد جئتك بعز الدهر وببحر طام .. جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه(١) » . وقال كعب : « جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماءه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شئ ! ويحك يا حيي !! .. فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء »(٢) . ولم يزل حيي به حتى نقض كعب عهده مع النبي ، ولكن بعد أن أعطاه حيي عهداً وميثاقاً لئن رجعت الأحزاب ليدخلن معه حصنه فيصيبه ما أصابه .

خافت قريظة ، وبدأت تتحرش بالمسلمين وترسل رجالها لإخافتهم وتهديد حصونهم التى كان فيها نساؤهم وذراريهم حتى تشغلهم عن مواجهة العدو (٣) . لكن النبي استطاع أن يبث بذور الشك بين رجاله الأحزاب وأن يفرق بينهم ، حتى فسدت نفوسهم واضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة .

وما كاد النبي يتأكد من رجوع جيوش الأحزاب حتى أمر رجال

---

(١) ابن هشام ٣/٢٣٦ .　　(٢) نفسه .

(٣) بن هشام ٣/٢٤٦ .

بحصار بنى قريظة ، واندفع المسلمون يحكمون الحصار عليهم ليوقعوا بهم الجزاء الطبيعى لقوم نقضوا عهدهم واتصلوا بالعدو وعرضوا الدولة للزوال

واعتصم اليهود بحصونهم ، فلم يستطيعوا أن يخرجوا منها ولو مرة واحدة للقاء المسلمين ، وحاول كعب بن أسد أن يغريهم بقتال المسلمين ولكن نفوسهم كانت قد ضعفت وقلوبهم خلعت ، فقد رأوا مصير مَنْ كان أقوى منهم من قبائل اليهود . وعرض عليهم أن يسلموا ويبايعوا النبي . ولكنهم رفضوا ، وصمموا على النزول على حكم محمد ظناً منهم أن حلفاءهم من الأوس لن يسلموهم إن أراد بهم محمد شراً ، وأنهم لن يكونوا أسوأ حظاً من غيرهم من بنى قينقاع أو بنى النضير . وفاتهم أن جنايتهم أكبر من أن تغتفر وأنه لا عقوبة على الخيانة العظمى إلا الإعدام ، كما فاتهم أنهم لم يقبلوا نصح الأوس حين ذهبوا إليهم يطلبون منهم التمسك بالعهد ، وأنهم أهانوا زعيمهم سعداً بن معاذ الذى بلغ به الحقد عليهم أن تمنى على الله ألا يميته حتى يشفى صدره من بنى قريظة . وحين نزلوا على حكم النبي رضوا بأن يحكم فيهم سعد ابن معاذ ، وحين كلم الأوس سعداً فى أن يحسن فى مواليه ، كما فعل عبد الله بن أبى مع بنى قينقاع : قال : « لقد أنى لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم »(١) .

وأصدر سعد حكمه بأن تُقتل الرجال وتُقسَّم الأموال وتُسْبَى الذرارى والنساء(٢) . ونفذ حكم سعد فقتل من الرجال كل من بلغ الحلم وسُبِيَت الذرارى والنساء وقُسِّمت الأموال . وقُتل مع القوم حيى بن أخطب الذى وفَّى لكعب بن أسد بما شرط على نفسه .

---

(١) ابن هشام ٣/٢٥٨ .

(٢) نفسه ٢٥٨ - ٢٥٩ .

إن تبعة دم بنى قريظة تقع على رأس حيي وعليهم معه . فقد نقضوا العهد وعرّضوا الدولة للضياع : والمسلمين للفناء ، وهو حكم داخل فيما نسمّيه الآن الخيانة العظمى . فلم يكن النبي قاسياً عليهم قسوة ليس لها ما يبرّرها ، ولقد وفّى لهم بعهدهم من قبل وأحسن إليهم ولو استمروا على الوفاء لما أصابهم ما أصابهم .

وبالانتهاء من بنى قريظة انتهت كل المشاكل الداخلية فى المدينة وأصبح النبى يعمل حر الإرادة مطمئنًا إلى سلامة جبهته الداخلية اطمئناناً يكفل له أن يولى المجال الخارجى كل عنايته .

وهكذا انتهى الموقف العصيب الذى واجهته المدينة بنجاح تام غيّر ميزان القوى تغييراً تامًّا . وأتاح للنبى أن يفكر فى خطوات يقرّر بها مبدأ السلم الذى يسعى إليه .

فتح خيبر والقضاء على قوة اليهود فى جزيرة العرب :

لقد كان يعادى محمداً قوتان كبيرتان تلتف حولهما كل القوى فى شبه جزيرة العرب . فأما القوة الأولى فهى قريش فى مكة . بما لها من نفوذ أدبى ومادى . وأما القوة الثانية فهو قوة اليهود بما لها من نفوذ وذكاء وقدرة على الدس والوقيعة . وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه . وقد استطاع محمد أن يثبت أمام القوتين وأن يخرج من حربه معهما مجتمعين قويًّا . حتى لقد أصبح زمام المبادأة فى يده . وقد استطاع ببعد نظره . وحسن سياسته : وما أظهر من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية ، فأمن به قريشاً وأمن الجنوب كله . لكنه لم يأمن من ناحية الشمال . حيث تجمعت

فلول اليهود فى خيبر ، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ، ومن يهود وادى القرى وتيماء لغزو يثرب . وإذا كان اليهود قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الخندق فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال ، أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية . واليهود أشد من قريش عداوة لمحمد لأنهم أحرص على دينهم من قريش ، ولأنهم أكثر منها مكراً ودسيسة ، وليس من اليسير أن يوادعهم محمد بصلح كصلح الحديبية ولا أن يطمئن إليهم ، وقد سبقت بينهم خصومات لم ينتصروا فى إحداها ، فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يستعينوا بقوى خارجية . وإذ فلابد من القضاء على قوة اليهود قضاء أخيراً حتى لا تقوم لهم من بعد قائمة ببلاد العرب ، ولابد من أن يسارع محمد إلى ذلك . حتى لا يتاح لهم الوقت للاستعانة بغطفان أو بغيرها من القبائل المعادية لمحمد والموالية لهم . وكذلك فعل .. فإنه لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا قليلاً حتى أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر . على ألا يغزو معه إلا من شهد « الحديبية » إلا أن يكون غازياً متطوعاً ليس له من الغنيمة شيء(١) .

وقد حرص محمد على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه وسمو روحه ، وبُعد تفكيره عن الكسب المادى ، فليس الغنيمة قصده ، وأن ما ينتظر من قتال أمام حصون خيبر لا تثبت له إلا النفوس المطمئنة المؤمنة . التى تسامت عن المادة والرغبة فيها ، فإن

---

(١) الواقدى ٣١٢ . ابن سعد ٣/١٥٢ .

النفوس المتعلقة بالمادة لا تثبت أمام الامتحان العسير . ولقد كانت تجربة الأحزاب كافية ليدرك الناس أن النفوس لا تباع رخيصة أمام متاع الحياة ، فإن غطفان وغيرها من الأعراب يوم الأحزاب لم يثبتوا على حصار يثرب ، فقد كانوا يريدون غنيمة سهلة ، فلما لم يستطيعوا تحقيقها ، أو لما بدا لهم أن تحقيقها أمر يحتاج إلى الصبر وبذل النفس ، تضعضعت قلوبهم ، وتفرقت كلمتهم ، ورضوا أن يعودوا من الغنيمة بالإياب . ومحمد لا يريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة ، وهو يتوقع الحصار الطويل ؛ والقتال أمام خيبر أشد القتال .

انطلق المسلمين فى ألف وأربعمائة ومعهم مائتا فرس(١) مسرعين نحو خيبر ، فقطعوا الطريق بينها وبين المدينة فى ثلاثة أيام ، لم تكد خيبر تحس بهم أثناءها حتى باتوا أمام حصونها .

على أن يهود خيبر كانوا يتوقعون من جانبهم أن يغزوهم محمد ، ولذلك كانوا دائمى النشاط والتدبير ، ولقد عرض بعضهم أن يسارعوا إلى تكوين كتلة يهودية منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء . ويهاجموا المدينة مستميتين دون اعتماد على البطون العربية التى فشلت من قبل فى اقتحامها ، وعرض آخرون أن يدخلوا فى حلف مع محمد لعل ذلك يمحو ما ثبت من كراهيتهم فى نفوس المسلمين والأنصار منهم بنوع خاص ، بعد ما قام به حيى واليهود من تأليب العرب للقضاء على المدينة لكن النفوس من الجانبين كانت ملأى : حتى لقد سبق المسلمون قبل الخروج لخيبر بقتل « سلام بن أبى الحقيق واليسير بن رزام »

(١) إمتاع ١/٣٢٧ .

من زعماء خيبر ، تمهيداً للغزو ، وحرماناً لليهود من زعيمين كبيرين لهما رأى وتدبير ، ولذلك كان اليهود على اتصال دائم بغطفان ، وكان هؤلاء حلفاء دائمين لهم كحلف قريش مع الأحابيش ، ولذلك استعانوا بهم أول ما تراءى إليهم اعتزام محمد غزوهم . ولكن النبي كان سريعاً إلى الحيلولة دون اتصال غطفان باليهود . فقد سارعت جيوش المسلمين ، فحالت بين غطفان وبين خيبر . كما أن النبي وعد الغطفانيين بشيء من الغنائم إن تم له النصر على اليهود . على أن غطفان كانت قد بدأت تعيد النظر في مرقفها من عداء محمد بعد الأحزاب وبعد أن تأكد لديها أن الموقف قد تحول إلى جانبه وبخاصة بعد الحديبية حيث سالمته قريش . فلم يكن زعماء غطفان جادين في معاونة خيبر ، ولم يعودوا حريصين على الارتباط بها ، كذلك كانت القبائل العربية كلها فى منطقة الحجاز ونجد قد بدأت تنظر إلى الموقف نظرة جديدة ، وكان موقفها فى غزوة خيبر موقف تربص وانتظار لما تسفر عنه نتيجة المعركة ، فلقد انتصر محمد على قريش وثبت لها ولكل حلفائها ، وأجبرها آخر الأمر على قبول الأمر الواقع وتوقيع صلح الحديبية . ومهما بدت قريش فى ثوب من العزة بأن حالت بين محمد وبين دخول مكة ، فإنها قد انكشفت حين اشترطت على نفسها أن تخلى له مكة من العام القادم ثلاثة أيام يطوف بالبيت فيها ، ولم يبق من عدو شديد البأس غير خيبر ذات الحصون المنيعة .

كانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف الإسرائيلية بأساً وأوفرها مالاً ، وأكثرها سلاحاً ، وأعظمها دربة على القتال . لذلك وقفت شبه الجزيرة كلها متطلعة إلى هذه الغزوة ، حتى لقد كان من

قريش مَنْ يتراهنون على نتائجها ، ولمن يتم الغلب فيها ، وكان كثيرون يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين : لما عرف من قوة حصون خيبر وقيامها على الصخور والجبال ، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال ، وكان المسلمون يدركون هذا الموقف تمام الإدراك ، ويقدّرون نتائجه حق التقدير . لذلك ذهبوا مستقتلين لا يعرف التردّد سبيلاً إلى نفوسهم وكان النبي يدرك أنه لو فشل أمام خيبر فسيتغيّر ميزان القوى من جديد وربما حدثت نكسة أعادت لأعدائه قوتهم وحماستهم لقتاله والهجوم عليه ثم إنه كان يدرك أنه ما بقيت لليهود شوكة فى شبه جزيرة العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلاً دون تمام الغلب له ، وحائلاً دون تمام الوحدة التى يعمل لها ويسعى لإقرارها . ومن أجل ذلك حرص على ألا يدخل فى صفوفه رجل يخشى أن ينخذل أو يشيع الضعف فى نفوس المسلمين ، ومع أنه كان يستطيع أن يزيد عدد جيشه لو أباح لراغبى الغنيمة من الأعراب أن ينضمّوا إلى صفوفه ، فقد كان فتح خيبر يبشر بمغنم كبير ، لكنه ما كان يهتم بكثرة العدد الذى لا غناء فيه ، وإنما كان يريد جيشاً مؤمناً بأهدافه مقدّراً للظروف ، موطّناً النفس على الصبر والشدة ؛ يريد سيوفاً تحركها قوة النفس وتمنعها عزة الإيمان أن تغمد أو تنتصر . ولا يريد سيوفاً يسلها جشع النفس ، ثم يغمدها الحرص على الحياة .

وكان جيش محمد كما أراد ، قليلاً بعدده ، كثيراً بإيمان رجاله وثبات نفوسهم وتصميمهم على الوصول لأهدافهم .

وكانت خيبر مكوّنة من ثلاث مناطق حربية ، منطقة الوطيح والسلالم وفيها أدخل اليهود أموالهم وعيالهم ، ومنطقة الكتيبة وأدخلوا

فيها ذخائرهم ، ومنطقة النطاة وفيها دخل المقاتلة ورجال الحرب وحولها دار القتال الأول .

استبسل اليهود استبسالاً عظيماً فى القتال ، ولم يرتدُّوا عن شبر من الأرض إلا بعد قتال شديد عنيف ، واستمر القتال أيَّاماً عديدة حتى قلَّت المؤونة عند المسلمين وأجهدوا إجهاداً شديداً ، مما جعل النبى يتجه إلى الحصون التى بها الأموال والمؤن ؛ وفى هجمات قوية استطاع أن يوفر لرجاله ما هم فى حاجة شديدة إليه من التموين بفتح بعض الحصون مثل حصن الصعب بن معاذ ، فقد وجدوا فيه كثيراً من التموينات ، أغنت المسلمين ومكَّنتهم من مواصلة القتال .

وبعد قتال عنيف سقطت حصون خيبر وسلمت منطقة الكتيبة منها دون قتال ، ووقع كثير من السبى والغنائم فى أيدى المسلمين .

لم يُجْل النبى أهل خيبر عنها بل أبقاهم للقيام على زراعة أرضها مناصفة ، لأنه لم يكن لديه من العمال الزراعيين من يقوم على زراعة أرضها ، وكانت منطقة غنية خصيبة . ولا شك أن اليهود أقدر على زراعتها والقيام على استثمارها ، ثم إن النبى كان فى حاجة إلى رجاله ؛ لأن الدولة ما زالت تحوطها المخاطر وهى فى أشد الحاجة إلى كل قادر على حمل السلاح . كما أنه لا يصح أن تترك مثل هذه الأرض الخصبه بدون استغلال ، بينما الدولة فى حاجة إلى المؤونة والمال . ثم إن قوة اليهود قد قضى عليها بعد هذا النصر ؛ ولم تعد لهم شوكة يخاف منها . فقد سلم يهود فدك ، ويهود وادى القرى ، على ما سلم عليه يهود خيبر أما يهود تيماء فقد أذعنوا وقبلوا دفع الجزية بدون قتال . وبذلك دانت

اليهود كلها لسلطان النبي . وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى ش الجزيرة(١) .

وبانتهاء سلطان اليهود تغيّر الموقف تغيّراً نهائيًّا فى جزيرة العرب لصالح المسلمين ، وأتم النبي خطّته لإحكام الحصار حول مكة ، والحقيقة أن مكة بعد غزوة خيبر أصبحت كالثمرة الناضجة تستعد للسقوط .

* * *

(١) انظر عن غزوة خيبر : ابن هشام ٣٧٨/٣ – ٤١٠ . الواقدى ٣١٢ – ٣٢٠ ، ابن سعد ١٥٢/٢ – ١٦٣ . إمتاع ٣١٠/١ – ٣٢٢ .

الفصل الثالث

الصراع بين المدينة والقبائل العربية

لم يبد من القبائل العربية أى نشاط ضد المدينة فى السنتين الأوليين من الهجرة ، وكان نشاط النبى فى هذه الفترة متجهاً نحو القبائل التى كانت تقيم إلى جنبات طريق التجارة المار بغربى المدينة ، فاتجهت السرايا الأولى التى أرسلها النبى أو قام هو على رأسها إلى هذه الجهات ، وقد استطاع فى خلال هذه المدة أن يعقد محالفات مع بعض هذه القبائل فوادعته بنو ضمرة وهم فرع من بنى بكر بن عبد مناة(١) ، وبنو مدلج وهم بطن من كنانة (٢) كانوا حلفاء لبنى ضمرة(٣) ، كما وادع جهينة وكانت جهينة حليفة للخزرج من أهل المدينة فى الجاهلية كما كانت حليفة لقريش ، وقد استمرت جهينة على موادعتها للطرفين طوال مدة الصراع بين مكة والمدينة ، وبقيت على الحياد(٤) حتى تحولت إلى جانب المسلمين نهائياً بعد موقعة الأحزاب . وبدخول هذه القبائل فى حلف النبى ، أصبح عامة أهل الساحل فى موادعة معه(٥) . كما كانت خزاعة معه ، وكانت عيبة لرسول الله مسلمها ومشركها لا تكتم عنه شيئاً من أمر عدوه ، كما كانت دائماً تكتب له بخبر قريش وما تبيت له

(١) جمهرة أنساب العرب ١٧٥ .

(٢) نهاية الأرب ٤١٦ .

(٣) ابن سعد ٣/٤٦ — ٤٧ .

(٤) نفسه ٣/٤٤ .

(٥) الواقدى ١٥٥ .

حتى إذا كان صلح الحديبية أعلنت انضمامها إليه نهائيًّا ، كما رأينا من قبل .. لكن موقف القبائل تجاه المدينة قد بدأ يتغير بعد موقعة بدر وانتصار المسلمين ، فقد أحسّت القبائل بعد انتصار النبى على قريش وأخذه طريق التجارة إلى الشام وإلى العراق عليها ، ومنع قوافلها من المرور ، بأن مصالحها الاقتصادية معرضة للضرر ، وكانت القبائل التى تعيش بين مكة والمدينة وعلى جنبات الطرق التجارية تستفيد من التعامل مع قوافل قريش ، كما كانت تشارك فيها بنصيب . إذ عملت قريش على خلق شبكة اقتصادية منها ومن قبائل الحجاز ونجد وسيطرت بذلك على قوافل التجارة المارة بين الشمال والجنوب ، كما أنها نظمت الأسواق التجارية حول مكة ، وكانت القبائل تجد فى هذه الأسواق مجالاً لتصريف حاصلاتها ، كما كانت تتزود منها بما تحتاج إليه ، كما أوضحنا ذلك فى فصل الحياة الاقتصادية فى مكة . وكان توقف قوافل قريش يؤدى إلى الإضرار بمصالح هذه القبائل ، كما تؤدى حالة الحرب بين مكة والمدينة إلى إرباك قريش ، وهذا يؤدى بدوره إلى إضعاف النشاط التجارى فى الأسواق الموسمية حول مكة . من أجل ذلك وقفت القبائل العربية التى كانت تعيش إلى شمالى مكة فى منطقة الحجاز ومنطقة نجد الغربية موقفاً عدائياً من الدولة اليثربية واعتبرت وجودها ضاراً بمصالحها .. وحتى القبائل التى كانت على صلات وديّة بيثرب قبل الإسلام كسليم ومزينة وغطفان ، تحوّلت إلى موقف العداء لها ، وأخذت تناوئها وحاولت شن الغارات عليها .

وحفلت الفترة ما بين أحد وبدر بتحرشات هذه القبائل ضد المدينة ولذلك اتجهت سرايا النبى كلها فى هذه الفترة إلى منطقة سليم

وغطفان تضرب على أيدى هذه القبائل ، وتفرق كل اجتماع منها لغزو المدينة أو النيْل من أطرافها(١) .

وبعد أحُد اشتد نشاط القبائل ضد المدينة واتسعت دائرته ، وتنوعت وسائله ، فقد تجرّأت القبائل على حرب المدينة والنيل من المسلمين بعد هزيمتهم فى أحد أمام قريش ، وكانت بدر قد أوجدت الرعب فى قلوبهم . لكنهم بعد أحد بدأوا يستعيدون شجاعتهم ويكيدون للمدينة ويستعدون لضربها ، لكن النبى كان حذراً دائماً يبث عيونه فى منطقة القبائل فتأتيه بأخبار تحركاتها وتجمعاتها ، فيُسرع فى إرسال سراياه لضربها قبل أن تكمل استعدادها ويشتد جمعها ، وعلى الرغم من قلة رجال السرايا التى كان يرسلها النبى إلا أنها كانت تفاجىء القبائل وتدهمها على غرّة منها فتشتت تجمعاتها ، وتستولى على إبلها وأغنامها وتوقع بمن تصل إليه من رجالها .

وكان أول ما بلغ النبى بعد شهرين من أحد أن طليحة وسلمة ابنى خريلد ، وكانا على رأس بنى أسد ، يحرضان قومهما ومن أطاعهما يريدان مهاجمة المدينة ليصيبوا من أطرافها ، وليغنموا من نَعِمّ المسلمين التى ترعى الزروع المحيطة بمدينتهم ، وإنما شجّعهم على ذلك اعتقادهم أن المسلمين لا يزالون مضعضعين من أثر أحد ، فما كاد هذا الخبر يبلغ مسامع النبى حتى عقد لأحد رجاله سلمة بن عبد الأسد - لواء سرية تبلغ عدتها مائة وخمسين رجلاً منهم كثير من كبار المسلمين وشجعانهم ، وأمرهم أن يسيروا ليلا ويكمنوا نهاراً وأن يسلكوا طريقاً غير مطروق حتى لا يطلع أحد على خبرهم ، فيفجأوا العدو بالإغارة

---

(١) ابن هشام ٢/٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ . ابن سعد ٣/٧٠ - ٧٤ .

عليه على غرة منه . ونفذ رجال السرية هذه التعليمات وباغتوا الأعداء على حين غفلة فأوقعوا بهم هزيمة سريعة ألجأتهم إلى الفرار ، فطاردوهم وظفروا بما معهم غنيمة للمسلمين(١) .

كذلك اتصل بالنبي بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن نبيح اللحيانى الهذلى ، زعيم بنى لحيان من هذيل مقيم بنخلة أو بعُرنة – من أرض هذيل – وأنه يجمع الجموع ليغزوه . فدعا النبي إليه أحد رجاله – عبد الله بن أنيس – ممن اشتهروا بالفطنة والشجاعة . وبعثه يتجسس حتى يقف على جلية الخبر ، وسار عبد الله حتى التقى بخالد ، واستطاع أن يوهمه بأنه سمع تجمعه لمحمد ، فجاء ينضم إليه .. فلما تأكد من صحة ما علم المسلمون ، غافله حتى إذا وجد منه غرة قتله .. وعاد إلى المدينة فأخبر النبي ؛ وهدأت بنو لحيان بعد موت زعيمها زمناً ، عادت بعده تفكر فى الثأر عن طريق الحيلة والغدر .

ثم دبّروا أمر الثأر عن طريق رهط من عَضَل والقارَة من بنى الهُان ابن خُزيمة ، وهى قبيلة تجاور بنى لحيان ، قدموا على النبي يقولون له : إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفراً من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن .. وكان النبي يبعث من أصحابه كلّما دُعى إلى ذلك ، ليؤدّوا هذه المهمة الدينية السامية ، وليكونوا دعاة له ، وفى الوقت نفسه يكونون عيوناً للدولة على خصومها . لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط ، حتى إذا بلغوا ماء لهذيل بناحية تدعى الرَّجيع ، غدروا بهم ، واستصرخوا هذيلاً عليهم ، ولم يَرع هؤلاء الرجال الستة وهم فى رحالهم إلا الرجال وبأيديهم السيوف قد غشوهم . ودافع المسلمون

(١) الواقدى ٢٦٤ – ٢٦٨ .

عن أنفسهم حتى قتل منهم ثلاثة واستأسر الثلاثة الآخرون . فأما أحدهم فتخلص من قيده ودافع عن نفسه حتى قتل.. وأما الآخران فقد باعتهما هذيل إلى قريش فقتلتهما غدراً ، ثأراً بمن قتل من رجالها يوم بدر(١) .

ولم يكن حزن المسلمين قد خف على مَنْ قُتل من أصحابهم يوم الرجيع ، ولم تكن أشعار حسان بن ثابت يرسلها فى رثاء هؤلاء الرجال قد خفتت أنغامها الحزينة ، حين فوجىء المسلمون بحادث هو أنكى عليهم من غدر هذيل ، وأشد ألماً للمسلمين وإثارة لعواطفهم ، ذلك هو غدر بنى عامر بوفد آخر من المسلمين بلغت عدته أربعين رجلاً ، وقتلهم فى بئر معونة ، وهى مكان على طرف حرة بنى سليم بينهم وبين بلاد بنى عامر .

فقد قدم على المدينة أحد سادات بنى عامر ، هو أبو براء عامر ابن مالك ملاعب الأسنة ، فعرض عليه النبى الإسلام ، فلم يسلم ولكنه لم يظهر للإسلام عداوة .. وقال : يا محمد « لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك » . وخاف النبي على أصحابه من أهل نجد وخشى أن يغدروا بهم كما غدرت هذيل ، لكن أبا براء قال : « أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا بأمرك » .. وكان أبو براء رجلا مسموع الكلمة فى قومه لا يخشى أحد أجاره أن يعتدى عليه ، ولم يعرف عنه الغدر ولا الخيانة ولا إخفار الذمة . وكان صادقاً فى وعده ، لكن سيداً آخر من سادات بنى عامر هو عامر بن الطفيل ابن أخيه أخفر عمه ، واستعدى على وفد المسلمين بطوناً من بنى سُليم ، بعد أن رفضت بنو عامر إخفار عمه ، فأحاطوا

---

(١) ابن هشام ٣/١٦٠ — ١٨٣ ، ابن سعد ٣/٩٦ — ٩٨ .

بالمسلمين وقتلوهم إلا رجلاً منهم هو عمرو بن أمية الضمرى أسره عامر بن الطفيل ثم خلى عنه حين علم أنه من كنانة(١) ..

كان لهذين الحادثين وقع أليم فى نفس النبى ، دعاه إلى زيادة الحيطة والحذر فى معاملة القبائل ، واتخاذ الشدة معها . إذ أن مثل هذه الأمور لو تكررت ، استخفت العرب بشأن المسلمين وتجرأت القبائل عليهم ، وعند ذلك يرفع النفاق رأسه فى المدينة ، ويجد اليهود لهم مجالاً لإيقاع الفتنة والائتمار بالنبى وبالمسلمين ، وربما جرّ ذلك إلى تكتل أعدائهم عليهم فى الخارج ، نتيجة لروح الاستخفاف التى تثيرها أمثال هذه الجرأة على المسلمين . وقد كاد هذا يتم فعلاً ، فقد تآمر المنافقون واليهود فى المدينة على حياة الرسول وإثارة الحرب الداخلية فى المدينة مما أدى إلى إجلاء بنى النضير كما قدمنا .

ولهذا فإنه حين ذهب بعد ذلك إلى وادى بدر تنفيذاً لوعد أبى سفيان بالحرب يوم أحد ، ورأى من بنى ضمرة شيئاً من التردد فى الاستمرار فى حلفهم معه ، أظهر لهم الشدة والقوة ، فقد جاءه مَخْشِىُّ بن عمْرُو الضمرىّ — وهو الذى وادعه من قبل على بنى ضمرة — وهو منتظر قدوم قريش فقال : « يا محمد .. أجئت القاء قريش على هذا الماء ؟ » وأدرك النبى ما وراء هذا التساؤل ، فقال : « نعم يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك » . وأعاد هذا الرد إلى الرجل صوابه ، ورأى ما فى هذا الإنذار من تصميم من النبى على إقرار هيبة المسلمين . فقال : « لا والله يا محمد ، ما لنا بذلك منك من حاجة » (٢) .

---

(١) ابن هشام ٣/١٨٣ .   (٢) ابن هشام ٣/٢٢٢ .

كذلك اتصل بالنبي بعد عودته إلى المدينة أن جماعة من غطفان يجمعون له يريدون حربه ، فخرج بنفسه على رأس أربعمائة من أصحابه إلى محالهم بمكان يقال له ذات الرقاع - وهو موضع فى وادى القرى على طريق تبوك - ففرّ الأعراب من وجهة ، فاستاق ما وجد من أموالهم ونسائهم وعاد إلى المدينة(١) .

وما كاد يستقر بالمدينة حتى علم أن القبائل الضاربة على تخوم الشام تتحرك ، وأنها تتحرش بتجارة المسلمين التى أخذت تتجه نحو الشمال بعد أن أصبحت تجارة قريش نحو هذه الجهة فى حكم المتوقفة لذلك خرج فى ألف من رجاله إلى دومة الجندل وهى واحة على الحدود بين الحجاز والشام ، وتقطع على الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربى ، وبينها وبين دمشق ثمانى مراحل (حوالى مائة ميل) . ولم يقاتل النبى القبائل التى خرج لقتالها ؛ لأنها ما كادت تسمع باقترابه حتى فرّت تاركة للمسلمين غنائم من أموالها حملها المسلمون إلى يثرب(٢) .

وبعد خمسة أشهر من خروجه لدومة الجندل ، تجمع بنو المصطلق وهم حى من خزاعة . كانوا حلفاء لبنى مدلج ، وكانوا ينزلون على ماء لهم يقال له المُريع فى ناحية قُديد إلى الساحل(٣) ، وكانوا بطناً من البطون التى تكون حلف الأحابيش مع قريش . فخرج إليهم النبى فى قوة كبيرة من رجاله ، واستطاع أن يحيط بهم ؛ فلم يقاتلوا طويلاً حتى قتل منهم عشرة ووقع سائرهم فى الأسر ، وسبى النبى نساءهم وذراريهم وغنم أموالهم .. لكنه رأى أن يصطنعهم ليوهن حلف الأحابيش

(١) ابن سعد ٣/١٠٢ - ١٠٣ .
(٢) نفسه ٣/١٠٣ - ١٠٤ .
(٣) ياقوت ١٧/١١٨ .

ويحرم قريشاً من هذه القوة التى تستعين بها دائماً فى حروبها ، فخلّى عن أسراهم ورد لهم نساءهم وذراريهم ، ثم أصهر إليهم بأن تزوّج جويرية بنت زعيمهم الحارث بن أبى ضرار ، وبذلك ضمن ولاءهم له وحرمان قريش من عونهم(١) .

من كل ذلك نرى مقدار ما وصل إليه نفوذ المسلمين ، وما بلغ إليه سلطانهم وخوف القبائل إياهم : ونلاحظ هنا أن نفوذ الدولة امتد كثيراً إلى الشمال حتى قارب تخوم الشام ، كما نلاحظ أن قوات المسلمين التى كانت تتجه إلى هذه المنطقة كانت أكثر عدداً وأكبر من أن تكون سرايا عادية ، وذلك لأن هذه القوات كانت تقترب من حدود بلاد تخضع لنفوذ دولة قوية هى دولة الروم ، وأنه من المحتمل أن تشتبك مع قوات الغساسنة فى بادية الشام .

عجزت القبائل منفردة أن تنال شيئاً من المدينة ولم تستطع أن تواجه سراياها وقواتها التى كانت تخرج لقتالها ، فقد كان المسلمون يقاتلون على نظام وتعبئة بينما كانت القبائل تقاتل على غير نظام ؛ وكانت قوات المسلمين تملك ناصية المبادأة دائماً فلم تترك لعدوها فرصة لتنظيم نفسه ، لكن خصوم المدينة ما لبثوا أن اتحدوا جميعاً لسحقها ، فتجمعت قوات الأحزاب من قريش وغطفان وأشجع وسليم وأسد وغيرها ، فهاجمت المدينة فى جولة نهائية ، ولكنها ارتدت عنها ، وقد ازدادت فرقة وازدادت إدراكاً بعدم إمكانها القضاء عليها ، كما أوضحنا ذلك فى غزوة الأحزاب . واضطرت مكة إلى توقيع صلح الحديبية بعد ذلك . فأتاح ذلك للنبي فرصة القضاء على قوة اليهود

---

(١) ابن سعد ٣/١٠٥ — ١٠٦ .

نهائياً فى خيبر ، وبذلك تغير الموقف نهائياً لصالح الدولة اليثربية ، فبدأت القبائل تميل مع مصالحها ، ولم يكد يمضى عام على فتح خيبر حتى كانت القبائل التى كانت تعادى المدينة ، قد انضمت إليها ، وبنفس الروح التى قاتلت بها يثرب ، اتجهت إلى مكة ، فكان جيش النبى فى فتح مكة يضم أكثر من ثمانية آلاف مقاتل من رجال هذه القبائل .

اطمأن النبى إلى أن الموقف السياسى فى جزيرة العرب قد تحول نهائياً إلى جانبه ، بعد أن أمن جناح الدولة اليثربية الجنوبى بعقد صلح الحديبية مع قريش ، وأمن جناحها الشمالى بالقضاء نهائياً على قوة اليهود فى غزوة خيبر . . وانفسح أمامه المجال ليعمل فى هدوء واطمئنان لتوسيع نشاط دعوته ، والخروج بها إلى طورها العام بعد أن مرت بالطور الخاص فى مكة ثم فى المحيط العربى .

والحق أن الدعوة الإسلامية كانت قد بلغت يومئذ من النضج ما يجعلها دين الناس كافة ، فهى لم تقف عند التوحيد وما يقتضيه من عبادات ، بل انفرج ميدانها وتناولت من صور النشاط الاجتماعى ، ما يوازى بينها وبين سمو فكرة التوحيد ، وما يجعل صاحبها أدنى إلى بلوغ مراتب الكمال الإنسانى ، وإلى تحقيق المثل الأعلى للحياة ، فقد نزل كثير من الأحكام الاجتماعية ، وبدأت تظهر واضحة صورة المجتمع الإنسانى الذى يريده صاحب الرسالة ، مجتمعاً فاضلاً تقوم العلاقات فيه على أساس المساواة والعدالة والإخاء ، فرسم التشريع فى حدود هذه المثل العلاقات العامة والخاصة فى الجماعة الإنسانية ؛ فقدرت الحقوق والواجبات ، ونظمت الأسرة ، وحددت المسئوليات ،

وطبقت القواعد تطبيقاً عمليًّا . وظهرت شخصية المجتمع الجديد مشرقة بما أمر الإسلام من البر والرحمة وما دعا إليه من عمل الخير ، وما فى عباداته من رياضة النفس والطبع وقتل غرور القلب ، بما جعله الكمال الطبيعى للأديان التى سبقت وجعل الدعوة إليه للناس كافة .

من أجل ذلك فكر النبى فى إرسال رسله إلى ملوك العالم المحيط بالجزيرة العربية يدعوهم وشعوبهم إلى رسالة الإسلام ، وفى مقدمة هؤلاء الملوك هرقل قيصر الروم وكسرى ملك الفرس .

أرسل رسله تحمل كتبه إلى كسرى ، وإلى النجاشى ، وإلى ملكى عمان وملك اليمامة وملك البحرين والحارث الحميرى ملك اليمن ، وإلى هرقل قيصر الروم ، والحارث الغسانى ملك تخوم الشام ، والمقوقس حاكم مصر .. وانطلق هؤلاء الرسل كل إلى وجهته ، فأوصلوا هذه الكتب إلى من أرسلت إليهم ، فمنهم من قَبل الدعوة وأسلم كأمير البحرين ، ومنهم من رد ردًا حسنًا دون أن يسلم ، وكان هؤلاء هم الأكثرية . ومنهم من غضب ومزّق الكتاب مثل كسرى الذى أرسل إلى باذان عامله على اليمن أن يأتيه بهذا الرجل الذى ظهر فى الحجاز ، لكن باذان ما كاد يتصل بالنبي حتى أسلم وأبقاه النبى على منصبه على أن يكون عامله على اليمن . وعاد رسل النبى جميعاً إليه سالمين إلا من أرسل إلى حاكم بُصرى فإن شرحبيل بن عمرو الجذامى عامل الروم على البلقاء عدا عليه فقتله(١) .

---

(١) ابن سعد ٢/٢٢ – ٢٩ ، ١٧٤ .

غزوة مؤتة :

كانت ناحية الشام وهذه الجهات الشمالية متجه أنظار النبي بعد أن أمن الجنوب بعهده مع قريش ، وبإسلام باذان عامل الفرس على اليمن ، وقد استطاع النبي بعد غزوة خيبر وإخضاع يهود وادى القرى وتيماء أن يمد نفوذه نحو الشمال ، وكان يرى أن هذه الجهة المتاخمة لحدود دولته هي المنفذ الطبيعي لانتشار الدعوة إلى الإسلام إذا أريد خروجها عن حدود الجزيرة العربية ، فالارتباط بين هذه الجهة والجزيرة العربية ارتباط طبيعي وقديم ، وبها من العرب ما يقتضى توحيد العرب جميعاً ضمهم إلى الدولة العربية وإدخالهم فى نطاقها ، والغساسنة أمراء العرب وإن كانوا قد قاتلوا فى صفوف الروم ، وإن كانوا قد خضعوا لهم ، فإن هذا الخضوع ليس لمصلحة العرب وإنما هو لمصلحة الروم فى المقام الأول ، ولقد بدا ذلك واضحاً حين غير الروم سياستهم نحو هذه المملكة العربية حين لم يعودوا فى حاجة شديدة إلى خدماتها ، وإذا كان أمراء الغساسنة يصانعون الروم لمصلحتهم كأمراء فإنه يجب التفرقة بين مصالح الأمراء ومصالح الشعوب إذا فضّل الأمراء مصالحهم ، ولقد أظهر الحارث الغسانى من الحماس ما لم يظهره هرقل نفسه حين أرسل النبي كتابه إليه ؛ كما أن الروم قتلوا الأمير الغسانى الذى أسلم . وقتل شرحبيل بن عمرو حاكم البلقاء رسول النبي الذى أرسله إلى بُصرى ؛ لذلك رأى النبي أن يؤدِّب من غدر بدعاته ، وفى الوقت نفسه يشعر العرب فى هذه الجهات بقوة المسلمين ، قوة تحفزهم على الانضمام إليهم بدافع العروبة ، فجهَّز حملة من ثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم مولاه زيد بن حارثة ، فإن

قُتل فالقيادة لجعفر بن أبي طالب ، فإن قُتِل فعبد الله بن رواحة الأنصارى ، وخرج فى الجيش خالد بن الوليد متطوعاً ، وسارت الحملة إلى غايتها على حدود الشام ، وقد خرج الناس يودعون الجيش ومشى النبي نفسه معه حتى ظاهر المدينة ، يوصى قواده ألا يقتلوا النساء ولا الشيوخ ولا الصبيان ، وألا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار .

وكانت خطة الجيش أن يأخذ الأعداء على غرة ، لكن أنباء مسيره كانت قد سبقته ، فقام عمال هرقل بجمع القبائل للتصدى للمسلمين ، وأمدّهم هرقل بقوات من عنده ؛ وتذهب بعض الروايات إلى أنه تقدم بقواته التى يبلغ عددها مائة ألف من الروم حتى نزل مُآب من أرض البلقاء ، ليكون قريباً من جيوش أمرائه ليمدها بالمعونة إذا لزم الأمر .

وتقدر المصادر العربية قوة الجيوش التى اشتبكت مع المسلمين بمائة ألف . وهذا رقم كبير ، لا يمكن الموافقة عليه ، وكل ما يمكن تصوره أن قوة العدو كانت أكبر من قوة المسلمين أو أنها كانت أضعافها .. فإن الحملة الإسلامية كانت مكونة من ثلاثة آلاف وأن أنباء مسيرها كانت معروفة ، فلا يمكن أن يوجه إليها الروم مثل هذا العدد الحاشد من الجيوش ، على أن هذه الأعداد الضخمة لم تستخدمها بيزنطة فى قتالها مع الفرس وهم أقوى من العرب والصراع معهم كان صراعاً كبيراً وخطيراً ، ولم يستخدم الروم هذه الأعداد إلا فيما بعد ، عندما اشتبكوا مع الدولة الإسلامية اشتباكاً حقيقيًّا خطيراً .. ثم إن عدد قتلى المسلمين كان قليلا مما يظهر عدم كبر قوة العدو .

على كل حال تقدم الجيش الإسلامى حتى بلغ مُعان ، وهناك علم

المسلمون بجموع العرب والروم لهم ، فترددوا فى الإقدام أو الانتظار حتى يكتبوا إلى النبى ، فإما أن يمدهم بالرجال وإما أن يأمرهم بأمره فيمضون له ، وكاد هذا الرأى يسود لولا أن تقدم عبد الله بن رواحة ، وكان إلى جانب شجاعته وفروسيته شاعراً ، فقال : يا قوم !! والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون .. الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة . ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا .. فإنما هى إحدى الحسْنَيَيْن : إما ظهور ، وإما شهادة .

وامتدت عدوى النخوة من الشاعر المؤمن الشجاع إلى الجيش كله . فقال الناس : صدق ابن رواحة .. ومضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع العرب والروم بقرية يقال لها مشارف . فلما دنا العدو انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة لأنهم رأوها خيراً من مشارف لحصانتها ، وعند مؤتة حدث المعركة التى أبدى فيها المسلمون غاية الشجاعة .

ما من شك فى أن قوة العدو كانت أضخم كثيراً من قوة الجيش الإسلامى ، وإن لم تبلغ العدد الذى ذكره الإخباريون . وكان التكافؤ منعدما بين القوتين من حيث العدد ومن حيث عدة الحرب ، ومع ذلك فقد أبدى المسلمون من الشجاعة وقوة الإيمان ما أذهل العدو نفسه وحال بينه وبين الالتفاف بالمسلمين وسحقهم ، وإلا فأين يقع الآلاف الثلاثة من الجند من الخمسين ألفاً أو الستين أو حتى العشرين .

حمل زيد براية النبى حملة صادقة واندفع فى صدر العدو . وهو موقن بأن ليس من موته مفر . ولكنه موقن بأن الموت هو الشهادة فى سبيل الله ، وأن الشهادة هى الجنة . وليس الاستشهاد ودخول الجنة دون الظفر والنصر مكاناً ، وحارب زيد حرب المستميت حتى مزقته

رماح الأعداء . فتناول الراية جعفر بن أبي طالب . وهو فتى في الثالثة والثلاثين ، تعدل وسامته شجاعته ؛ واندفع في غمار العدو . حتى إذا أحيط به نزل عن فرسه فعقرها وقاتل راجلاً ، ولكن للشجاعة مهما عظمت حدوداً بالنسبة للكثرة الساحقة . وخرّ جعفر بعد أن قطعت يداه وقُدّ نصفين دون أن يسلّم الراية ؛ فتناولها عبد الله بن رواحة ثم تقدم بها وهو على فرسه . فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتُكْرهنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالى أراك تكرهين الجنة

ثم نزل فتقدم فقاتل فقُتل .

ثم تناول الراية ثابت بن أرقم الأنصارى فقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت ! . قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد .. فأخذ الراية خالد وكان الموقف يحتاج حقًّا إلى مواقف خالدية . لقد كان خالد قائداً ماهراً ومحرّكاً للجيوش لا نظير له . ألهم القيادة إلهاماً ؛ فهو يستعين في مواقفها بكل ما عرفت الحرب من فن؛ يستخدمه على السليقة وعلى البصيرة الملهمة . فدار بالجيش دورة ضم بها صفوفه . ثم قاتل به في غير اندفاع ومع ذلك في غير تراجع ؛ وكان بذاته قدوة صالحة . حتى لقد تكسر في يده تسعة سيوف . ومع ذلك لم يعرض رجاله لرماح العدو ولا لسيوفه تحيط بهم وتعمل فيهم . واستطاع أن يحتفظ بتوازن المعركة حتى جاء الليل . وفى الصباح عدّل جيشه تعديلاً جديداً ، فجعل الميمنة ميسرة وجعل الميسرة ميمنة . وجعل المقدمة ساقة . والساقة

مقدمة . ووضع فى خلف الجيش عدداً من الرجال بالجمال والخيول يحدثون جلبة شديدة ويثيرون النقع ليوهم العدو أن مدداً قد جاءه . وأصبح الروم على تعبئتهم السابقة يرون وجوهاً غير الوجوه . ويرون خلف الجيش الإسلامى نقعاً ينبىء عن مدد جديد سوف يدخل المعركة .

وإذا كان المسلمون على قلتهم قد فعلوا ما فعلوا بالأمس : فكيف هم اليوم وقد جاءهم المدد وازداد العدد . لقد أحجم الروم عن الهجوم ؛ وكذلك لم يهاجمهم خالد فقد كان يريد أن يخرج من المعركة غير المتكافئة بجيشه سليما . ويرعب العدو حتى لا يلاحقه فى تراجعه ، فلمّا اطمأن إلى نجاح خطته تراجع بقواته وبعُدَ بها حتى صارت فى مأمن ، ثم عاد بالجيش سليماً إلى المدينة (١) .

استنكر المسلمون على الجيش أن يعود من غير أن ينتصر . وعيّروا رجاله حتى أحرجوا بعضهم . وقالوا لهم : يا فُرَّار .. فررتم فى سبيل الله ؟ ولكن النبى القائد البصير الذى يدرك معنى النصر الحقيقى . وافى الجيش وردَّ تعيير المسلمين وقال « بل هم الكرار إن شاء الله » . ومع ذلك فقد وجِدَ على أصحابه أشد الوجد . وكان عليه أن يعيد للمسلمين كرامتهم فى هذه البلاد ، فبعث عمراً بن العاص إلى قبائل الشمال يستنفرها إلى الشام ، وذلك أن أمه كانت من قبائل تلك النواحى فكان من اليسير عليه أن يتألفهم . ثم أتبعه النبى بالمدد فيه كبار المهاجرين عليهم أبو عبيدة ومعه أبو بكر وعمر . واستطاع عمرو

(١) ابن هشام ٣/٤٧٧ - ٤٣٩ . ابن سعد ٣/١٧٤ - ١٧٢ .

أن يشتت جموع قبائل تخوم الشام ويرد للمسلمين هيبتهم فى تلك الناحية(١) .

أحدثت كل هذه الأعمال أثرها ، فبدأت القبائل المجاورة للمدينة والتى فى شمالها تبعث وفودها للنبى تعلن طاعتها وإذعانها . وإنه لكذلك إذا حدث ما كان مقدمة لفتح مكة ، ولاستقرار الإسلام بها استقراراً كان له أثر بالغ فى إسلام العرب ، وفيما أسبغ على مكة بعد ذلك من قدسية فاقت ما كان لها فى الجاهلية وظلت خالدة على الزمان .

(١) ابن سعد ٣/١٧٧ - ١٧٩ .

الخاتمة

فتح مكة وتوحيد الجزيرة العربية

فتح مكة

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مؤتة لا منتصراً ولا منهزماً ، وترك انسحابه أثراً مختلفاً عند المسلمين بالمدينة ، وعند الروم ، وعند قريش بمكة .

فأما أثره بالمدينة فقد كان المسلمون يرجون أن يحقق الجيش نصراً كالانتصارات التى حققها من قبل ، وساءهم أن ينسحب من أمام الروم دون أن يلحق بهم هزيمة ، ولم يشفع لرجال الجيش عندهم أن كان العدو أضعافهم كثرة وسلاحاً ، واتهموهم بالفرار فى سبيل الله(١) وبالغ شباب المسلمين المتحمس فى هذا الاتهام حتى أرهقوا كبار رجال الجيش حتى ليلزم أحدهم بيته . كى لا يؤذيه صبيان المسلمين وشبابهم بتهمة الفرار . لكن النبى وهو القائد البصير كان يدرك أن الانسحاب السليم أمام العدو المتفوق نصر لا يقل قيمة عن دحر العدو فى ميدان القتال ، ولعله قدر لخالد بن الوليد ضبطه نفسه وتغليبه الحكمة والحذر على الاندفاع والمغامرة فى قتال قد يهلك الجيش ويؤدى إلى كارثة شديدة الأثر على موقف المسلمين . ولذلك رد على إتهام المسلمين بقوله : « بل هم الكرار إن شاء الله »(٢) . ثم تلافى الموقف – كما ذكرنا من قبل – بما حفظ على المسلمين هيبتهم فى الجبهة الشمالية وثبت سلطانهم .

---

(١) ابن كثير ٢٥٢/٤ . ابن هشام ٤٣٩/٢ .

(٢) ابن كثير ٢٥٣/٤ . ابن هشام ٤٣٨/٢ .

وأما أثر الانسحاب عند الروم ، فإنهم فرحوا بانسحاب المسلمين وحمدوا الله أن لم يطل القتال بينهم ، مع أن جيش الروم كان أضعاف جيش المسلمين ، وسواء أكان فرح الروم راجعاً إلى ما أبداه خالد من الاستماتة فى الدفاع والقوة فى الهجوم ، أم كان راجعاً إلى مهارته فى توزيع جنوده وإيهام الروم بأن مدداً جاءه من المدينه ، سواء أكان هذا أمْ ذاك فإن القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت إلى فعال المسلمين بإعجاب شديد ، حتى لقد أعلن أحد زعماء القبائل وهو فروة بن عمرو الجذامى(١) — وكان قائداً لفرقة من جيش الروم — إسلامه فقبض عليه بتهمة الخيانة ، وحوكم ، ولم يقبل عند محاكمته أن يرجع عن إسلامه فأُعدم ، وكان لهذا أثره فى ازدياد انتشار الإسلام بين قبائل نجد المتاخمة للعراق والشام ، فدخل فى الإسلام ألوف من سليم وأشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة ، فكأن غزوة مؤتة كانت باباً دخل منه الإسلام إلى قلوب هؤلاء الذين كانوا من قبل يناصبون المسلمين العداء .

أما أثر مؤتة فى قريش فكان أن اعتبرها بعضهم هزيمة قضت على سلطان المسلمين ، ولذلك يجب أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل عهد الحديبية ، ولتعد قريش حرباً على المسلمين ومن فى عهدهم دون أن تخشى قصاص محمد .

وكانت خزاعة قد دخلت فى عهد النبى ودخلت بنو بكر فى عهد قريش ، وكان بين خزاعة وبنى بكر ثارات قديمة ، سكنت بعد صلح الحديبية ، فلما كانت مؤتة وخيل لقريش وحلفائها أن المسلمين قد قضى عليهم ، ظن بنو بكر أن الفرصة سانحة ليصيبوا ثأرهم من

---

(١) ابن هشام ٤/٢٦١ — ٢٦٢ .

خزاعة . وحرّضهم على ذلك رجال من شباب قريش لم يقدّروا الموقف تقديراً صحيحاً ، منهم عكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش ، وأمدّوهم بالسلاح . وبيتت بنو بكر خزاعة ذات ليلة وهم على ماء لهم يسمى الوتير ، فقتلوا منهم ، وهزموهم حتى ألجأوهم إلى الحرم ، وإلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعى بمكة (١) .

وخرج عمرو بن سالم الخزاعى إلى المدينة حتى وقف على النبي وهو بالمسجد ، فقص عليه نقض بنى بكر وقريش العهد ، وشكا إليه ما أصاب قومه ، واستنصره بالعهد ، فقال النبي : « نصرت يا عمرو ابن سالم »(٢) .

ثم خرج بديل بن ورقاء فى جماعة من خزاعة حتى قدموا المدينة فأخبروا النبي بما أصابهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم(٣) ، وعند ذلك رأى النبي أن ما قامت به قريش من نقض العهد ، لا مقابل له إلا فتح مكة ، وأنها فرصة لا يجب أن تفوت ، فقد كان فتح مكة هدفاً يعمل النبي لتحقيقه منذ أمد بعيد ، ويهيىء له فى أناة وصبر ، ولذلك أرسل إلى المسلمين فى أنحاء الجزيرة ليكونوا على أهبة الإجابة لندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء .

أما رجال الملأ من قريش فقد أدركوا ما عرضهم له عكرمة ومن معه من الشباب من خطر ، فهذا صلح الحديبية قد نقض ، وهذا سلطان محمد فى شبه الجزيرة يزداد بأساً وقوة ، وقد انضمت إليه القبائل التى كانت تقاتل فى صفوف قريش من قبل ، وإنه إن فكر فى الانتصار

---

(١) ابن هشام ٤/٤ ، ٥ . ابن كثير ٤/٢٧٨ .

(٢) ابن هشام ٤/١٠ – ١٢ . (٣) نفسه ٤/١٢ .

لخزاعة من أهل مكة تعرَّضت مكة لأشد الخطر . لذلك أوفدوا أبا سفيان ابن حرب قائدهم وحكيمهم إلى المدينة ليثبت العقد وليزيد فى المدة ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشراً . ولقى أبو سفيان بُدَيْلاً ابن ورقاء فى الطريق ، وبالرغم من أن بُديْلاً أنكر أنه لقى محمداً ، فإن أبا سفيان عرف أنه كان بالمدينة ، ومن أجل ذلك آثر ألا يكون محمد أول من يلقى ، فجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج النبى .

ولم تستقبله ابنته استقبالا حسنا ، ولما لقى النبىَ وكلَّمه فى العقد وإطالة مدته لم يرد النبى عليه ، ورفض كبار الصحابة من المهاجرين : أبو بكر وعمر وعلىّ أن يساعدوه ، بل لقد أغلظ له عمر الجواب وقال : « أنا أشفع لكم إلى رسول الله !! فو الله لو لم أجد إلا الذَّر لجاهدتكم به »

فانصرف محنقاً يفيض أبىً مما لقى من هوان ، وعاد إلى مكة يحمل لقومه نتيجة سفارته الفاشلة(١) . وقد أدرك أن الموقف تحول نهائيًّا إلى غير صالح مكة ، وأخذ ورجال مكة يتناقشون فى موقف أصبح ميئوساً منه . .

أما النبى فلم ير أن يترك لهم فرصة حتى يتجهَّزوا للقائه ، لذلك أمر فنادى بالتجهُّز ، فاحتشد له جيش قوى لم تشهد الجزيرة مثله من قبل عدَّة ونظاماً ، فلقد بلغت عدَّته أكثر من عشرة آلاف ، وبلغت قوة الفرسان فيه أكثر من ألفين(٢) ، وإذا كان جيش الأحزاب فى موقعة الخندق قد بلغ مثل هذا العدد أو نحوه فإنه كان مفكَّك القيادة متنازع الأهواء ، أما هذا الجيش فكان تحت قيادة موحدة

---

(١) ابن هشام ٣/١٢ – ١٤ . ابن كثير ٤/٢٨٠ – ٢٨١ .
(٢) إمتاع ١/٣٦٤ ، ٣٧٣ .

حازمة . وكان هدفه واضحاً محدَّداً . ولم تكن القبائل التى اشتركت فيه مدفوعة بالكسب المادى مأجورة كما كانت حال غطفان فى يوم الخندق . ولما اكتملت عدة الجيش أعلن النَّبى أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف من سيرهم على نبأ (١) .

وتحرَّك الجيش الكبير فى عدَّته التى لم تشهدها الجزيرة من قبل عدَّة وسلاحًا ونظامًا وحسن طاعة ، يملأ نفوسَ رجاله الإيمان بأن لا غالب لهم من دون الله ، وسار محمد على رأس هذا الجيش وكل تفكيره أن يدخل البلد الحرام من غير أن يريق قطرة دم واحدة . وبلغ مَرّ الظهران — على أربعة فراسخ من مكة — دون أن يحس أى استعداد من قريش للقائه ، فهل عميَت الأخبار على قريش حقيقة ؟ .. أم أنها كانت غافلة غير متوقعة قدوم محمّد لغزوها ، أم تراها كانت فى اضطراب لا تستطيع معه أن تحسم أمرها .. ؟ ! .. إننا إذا تتبعنا الحوادث فربما يمكن الوصول إلى تقرير الأمر تقريراً صحيحاً .

وأول ما يطالعنا فى هذا الشان أن العباس بن عبد المطلب لقى النبى بالجحفة ومعه أهله قد خرج إلى المدينة(٢) . وحين لقى النبى أرسل أهله إلى المدينة وعاد مع جيش المسلمين .. ثم إن الأمر لم يقف عند العباس وحده . وإنما خرج رجال من بنى هاشم منهم من كان يعادى الإسلام عداءً شديداً من أمثال أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فلقوا النبىّ فى الطريق وأخذوا منه الأمان لأنفسهم(٣) .

---

(١) ابن هشام ٤/١٤ . (٢) ابن كثير ٤/٢٨٧ . إمتاع ١/٣٦٧ .
(٣) ابن هشام ٤/١٨ . إمتاع ١/٢٦٩ . ابن كثير ٤/٢٨٧ .

والأمر الثانى هو أن أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل ابن ورقاء قد خرجوا من مكة والتقوا بالعباس الذى أوصل أبا سفيان للنبي بعد أن أجاره ، فأسلم أبو سفيان(١) . وأعلن النبى أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

والأمر الثالث هو أن بعض رجال مكة قد استعدوا للقتال وجمعوا قوتهم فى مدخل من مداخل مكة واشتبكوا مع قوات المسلمين . حتى هُزموا وفرُّوا (٢).

ونحن إذا بحثنا هذه الأمور الثلاثة أمكننا أن نخرج برأى ؛ فأما العباس بن عبد المطلب فقد دَرَج على أن يكتب للنبى دائماً يعلمه كل تحركات قريش ضده . فقد كتب له حين استعدت قريش لغزوه فى موقعة أُحُد . وكتب بشأن استعدادها لغزوة الأحزاب وتتحدث بعض المصادر أنه استاذن النبى فى الهجرة بعد أُحُد وأن النبى أمره بالبقاء فى مكة ، فإن بقاءه فى مكة أكثر فائدة للمسلمين(٣) .

ثم ها هو يخرج للمدينة والجيش متجه إلى مكة لفتحها ، مما يوحى بأن مهمته فى البقاء بمكة قد انتهت . ثم إن العباس كان صديقاً شخصياً لأبي سفيان بن حرب وبينهما من الود ما يسمح بالتكاشف بين الرجلين إذا استقر رأى أبي سفيان على التسليم . وقد عرف عن العباس دائماً البر بقومه والحرص على مصلحة قريش . ولذلك كان اهتمامه كبيراً بأن يأخذ الأمان لقريش .. ثم هل كان خروج بنى هاشم إلى لقاء النبى حين قدومه محض صدفة ؟ .. أم أنهم كانوا على علم

(١) ابن هشام ١٨/٤ - ٢١ . إمتاع ٣٦٨/١ - ٣٧١ .
(٢) ابن هشام ٢٦/٤ - ٢٧ . (٣) أسد الغابة ١١٠/٣ .

بنوايا النبي نحو مكة وخروجه لفتحها ؟ .. وإذا كانوا على علم فهل خفى هذا الأمر على قريش ؟؟ .. ثم خروج الزعماء الثلاثة إلى حيث لقوا العباس .. كان هل صدفة كما تصوره الروايات .. ؟ .

إننا إذا درسنا شخصيات هؤلاء الثلاثة نقطع بعدم الصدفة فى هذا الخروج ، فأبوا سفيان كان قد أدرك الموقف حين ذهب إلى المدينة وفشلت سفارته فى تأكيد العقد وزيادة المدة ، وهو كقائد لقريش فى صراعها قد أدرك أن الموقف فى غير صالح مكة ، ثم إن خروج قائد مثله للتجسس أمر فيه خطورة . إذ من المحتمل أن يقع فى يد العدو ثم هى مغامرة لا مبرر لها إلا أن تكون لأمر مقصود . ولقاؤه مع العباس فى مكان معين غادر العباس الجيش وذهب إليه فى الليل أمر يوحى بتدبير متفق عليه . وحين لقى أبو سفيان العباس ركب معه مباشرة إلى النبي ولم يلبث أن أسلم وقبل أن يكون داعية سلام .

وحكيم بن حزام رجل اشتهر منذ معركة بدر بأنه ضد الحرب (١) وكان حريصاً على ألاّ يقع الاشتباك الأول بين المسلمين وقريش ، وهو من قبل كان يعطف على موقف بنى هاشم حتى كان يمدهم بالطعام حين كانوا محصورين بالشعب فى مكة ، ثم كان ضمن العاملين على نقض صحيفة المقاطعة ، ثم هو ابن أخى خديجة زوجة النبي ، فهو يرتبط به برابطة الصهر فوق رابطة القرابة .

ثم إن بُديل بن ورقاء الخزاعى قد خرج يستنصر النبى على قريش وهو لابد عالم بنية النبي فى غزو مكة ، وأبو سفيان كان يعلم عنه خروجه إلى النبي ، فاستصحابه فى هذه الليلة لا يمكن أن يكون للتجسس

---

(١) الواقدى ٤٥ — ٤٧ .

إذ كيف يتجسس بديل وقد طلب من النبي النصرة ؟ .. وإذن فلاسبب لخروجه مع أبي سفيان غير تسهيل الاتصال بالنبي .

إذا تأملنا كل هذا قطعنا بأن قريشاً كانت تتوقع الغزو ، وأنها لم تستطع أن تعدّ قوة كافية لمواجهة المسلمين ، وأنها كانت على خلاف من أمرها . بدليل أن بعض رجالها استعد للمقاومة ، وقام بها فعلاً ، ويعزز هذا ما روته بعض المصادر من أن قريشاً « بعثت أبا سفيان يَتَحَسَّسُ الأخبار ، وإن لقى محمداً يأخذ لهم منه جواراً ، فإن رأى رقة من أصحابه آذنه بالحرب »(١) .

وقد كان كبار الزعماء فى قريش يرون التسليم دون قتال ، وكان على رأيهم أكثرية قريش . والدليل على ذلك أن الذين اشتبكوا مع قوات المسلمين كانوا قلة وكان على رأسهم بعض الشباب وهم الذين أعانوا بنى بكر من قبل . ولذلك فإن الثلاثة الذين خرجوا لابد أنهم كانوا وفد التسليم ، وكانوا على اتفاق سابق مع العباس الذى خرج من مكة ليمهد لهذا اللقاء . وكان النبي على علم بهذا الأمر ، ولذلك قال لأصحابه وهم بالجحفة : « ذهب كَلَبُهم وأقبل دَرُّهم ، هم سائلوكم بأرحامكم . وأنتم لاقون بعضهم : فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه » (٢) الأمر الذى يقطع بأن العباس أعلم النبي بنية أبى سفيان والاتفاق معه .

ومع ذلك فقد اتخذ النبي لدخول مكة أهبته وأعد للنصر كل عدته فقسّم قواته إلى عدة فرق وأمرها أن تدخل مكة من كل مداخلها ، وأمر رجاله بعدم القتال إلا إذا أكرهوا ، وحين بدا من بعض القادة

---

(١) إمتاع ١/٣٦٨ .　　(٢) نفسه .

ميل إلى العنف من أمثال سعد بن عبادة الأنصارى عزله عن القيادة وأحل ابنه محلّه(١) : ودخلت قوات المسلمين مكة دون حرب ، إلا ما كان من فرقة خالد بن الوليد التى تعرض لها من أجمعوا على القتال بقيادة عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو . الذين ما لبثوا أن تفرقوا بعد مناوشات بسيطة(٢) ، وبدخول جيش النبى مكة سقط معقل المقاومة الأكبر وعفا النبى عن قريش عفواً تاماً(٣) ، وحتى الذين منع عنهم الأمان لشدة خصومتهم ولؤم نكايتهم ما لبث أن منحهم إياه حين أعلنوا الطاعة .

وهكذا استطاع النبى أن يكسب أكبر معركة فى تاريخ الدعوة الإسلامية بغير حرب وبغير إراقة دماء .

وكان لفتح مكة صدى بعيد الأثر فى الجزيرة العربية وآثار بعيدة المدى من الناحيتين الدينية والسياسية على السواء .

فأما من الناحية الدينية فإن النبى حين تم له دخول البلد الحرام بدأ بالكعبة فطاف بها سبعاً . ثم أمر فحطمت الأصنام المقامة جميعاً . ثم دخل الكعبة فأزال ما بها من صور وتماثيل(٤) . وبهذا قضى على الوثنية فى معقلها الأكبر قضاء رسمياً . ثم إنه تتبع بيوت الأصنام فى الحجاز وفى الجزيرة العربية كلها يرسل إليها من يحطمها ويعلن للقبائل جميعاً انتهاء عهد الوثنية(٥) . ولم تقاوم القبائل هذا العمل

---

(١) ابن هشام ٤/٢٦ . ابن كثير ٤/٢٩٢ . إمتاع ١/٣٧٥ .

(٢) ابن هشام : نفسه . (٣) نفسه ٣٢ .

(٤) ابن هشام ٤/٢٢ — ٢٧ . إمتاع ١/٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٥) ابن هشام ٤/٦٤ ، ١٩٨ .

وكان سكوتها يعني إقراراً منها بزوال عهد الوثنية . بل إن كثيراً من القبائل تولَّت تحطيم أصنامها بنفسها . . وقريش التي كانت في موضع الزعامة الدينية في الجزيرة العربية . لم تلبث أن اعتنقت الإسلام بعد دخول جيوش النبي مكة . واستمسكت به ونصرته حين بدأت كثير من القبائل العربية ترتد عن الإسلام بعد وفاة الرسول .

أما الآثار السياسية فمنها القريب ومنها البعيد : فأما الآثار القريبة فقد حدثت بسرعة كبيرة لا تزيد على الأسبوعين عداً . وذلك أن قبائل ثقيف وهوازن وهي القبائل التي تقيم قريباً من مكة وتملك مدينة الطائف قد رأت في فتح مكة ضربه موجهة لها واعتقدت أن دورها قريب . فقد كانت الطائف مرتبطة بمكة ارتباطاً شديداً في الجاهلية ، ومن أجل ذلك تجمعت قبائل الطائف وقبائل هوازن واستعدت لضرب المسلمين ، ولم يستطع رجال ثقيف وهوازن أن يدركوا أن مكة حين ألقت لواء المعارضة إنما ألقته بعد أن آمنت بأن معارضاتها قد استنفدت كل إمكانياتها ، وأن أهل مكة قد فتحت نفوسهم للإسلام قبل أن تفتح مدينتهم أبوابها لجيوش المسلمين . وأن الفتح لم يكن حربياً إلا في ظاهره . ومن أجل ذلك خرجت قوات مكة إلى جانب قوات النبي للوقوف في وجه ثقيف وهوازن في معركة حُنين(١) . ثم في حصار الطائف بعد هزيمتها في حنين(٢) .

أما الآثار البعيدة فإن قريشاً بعد أن ألقت لواء المعارضة لم يكن يوجد بين قبائل العرب من يستطيع حمله . فإن مكة كانت تمثل النظام

---

(١) ابن هشام ٤/٦٨ — ٩٢ . ابن كثير ٤/٣٢٢ — ٣٤٠ .

(٢) ابن هشام ٤/١٢٢ — ١٣١ . ابن كثير ٤/٣٤٥ — ٣٥٢ .

القديم فى نظر الناس فى الجزيرة العربية كلها ، وهذه الزعامة القرشية كانت زعامة حقيقية قبل الإسلام ، فإن الأمم فى هذه العصور القديمة كانت تركز جميع مشاعرها القومية فى الدين ، وتجعله رمزاً لشخصيتها وعنواناً على ثقافتها العامة وتقاليدها ، فالدين الوثنى الذى كانت قريش تحميه كان عنواناً للقومية العربية ورمزاً لها ، ولهذا كان تسليم قريش وتحولها إلى الإسلام أمراً بالغ الأهمية ، والنبى كان يحس بهذا تمام الإحساس حين مال إلى السلم وتجنب أن يريق دماء المكيين مهاجماً ومعتدياً ، بل إنه حين انتصر على قريش لم يتبع معها ما يتبع عادة مع المغلوبين ، بل قبل القرشيين فى صفوفه دون شرط ، وعفا عنهم وسماهم « الطلقاء » ومنحهم أعطيات من غنائم حنين وأراد بهذا أن يتألف قلوبهم فسموا « بالمؤلفة قلوبهم » وهاتان التسميتان تدلان دلالة ظاهرة على سياسة النبى .

فلما انضمت مكة فى العام الثامن الهجرى إلى معسكر النبى اقترن هذا التسليم بتحطيم الأصنام — كما قلنا — وهذا التحطيم فى ذاته عمل له معنى خطير ، فهو تحطيم الدين القديم والنظام القديم . وتسامع الناس بهذا الفتح وهذا التحطيم ، وتحدثوا به ؛ وكان لهذا نتائج بعيدة المدى ، كانوا يتسامعون أن قريشاً مالت إلى النبى وأصبحت من حزبه . وأصبح الحجاز كله بذلك لرجل واحد ، وعرفت القبائل أن تغييراً سياسياً قد طرأ على النظام القديم ؛ وتسامعت فى نفس الوقت بأن هذا النبى الجديد قد حطم الآلهة ولم ينله أذى ، فكان بقاؤه بعد تحطيم الأصنام يحمل فى ذاته نوعاً من الدليل على صدق النبوة فى نظر هؤلاء الوثنيين ، ولهذا سارعت القبائل المختلفة إلى الاتصال السياسى بهذا النظام الجديد

وسعى بعضها إلى الاتصال السياسى والدينى فى نفس الوقت بهذا الرجل الذى ظهر فى الحجاز : وخالوه ملكاً ظهر على صورة نبىّ ، فتوافدت الرسل ممثلة للقبائل على يثرب فى العام الثامن والتاسع وبعض العاشر ، حتى لم تبق قبيلة إلا أرسلت للنبى وفداً يعقد معه عهداً(١) . هذه الوفود هى الصدى الملموس لنهاية الصراع بين النبى ومكّة على هذا النحو السعيد .

ثم إن هذه الخطوة الجديدة التى تحققت بقدم الوفود أتاحت للنبى أن يتجه لتحقيق خطوة أخرى كبيرة ، فقد بدأ النبى يتّجه إلى ما وراء الحجاز ، إلى شبه الجزيرة العربية كلها ، وكان هذا التحوّل مقروناً بالصدى الهائل الذى تجاوب فى جزيرة العرب بعد فتح مكة .

وبفتح مكة خرجت الدولة الإسلامية من نطاق المدينة — الدولة اليثربية — إلى نظام الدول الكبيرة الموحدة . فقد أصبحت الدولة الإسلامية العربية تتكون من المدينة ومكة والطائف وما بينها وحولها من قبائل ، وأصبح هدف النبى فى توحيد العرب أمراً محقّقاً . وكان فتح مكة خطوة كبيرة نحو هذا الهدف ، تلتها خطوة أخرى لإقرار هذا التوحيد وتثبيت دعائمه ، وهى أن النبى أصدر فى نهاية العام التاسع بياناً سُمّى « بيان براءة » .

بيان براءة :

كان هدف النبى فى صراعه مع مكة توحيد العرب فى دولة واحدة تحت راية الإسلام ، وكان فتح مكة خطوة نحو تحقيق هذا الهدف ، فبعد أن ألقت مكة لواء المعارضة لم يكن فى الجزيرة العربية قوة أخرى

---

(١) ابن سعد : ٢ — ٥٦ — ١٢١ .

تستطيع حمل هذا اللواء ؛ ذلك لأن قريشاً كانت قد وصلت إلى مركز الزعامة الحقيقية فى الجزيرة العربية من الناحية الاجتماعية والأدبية والدينية ؛ وكانت فى مركز التشريع للعرب .. فكان دخولها فى الإسلام وانضمامها إلى معسكر النظام الجديد يعنى نهاية عهد معيّن هو عهد الوثنية كما كان ابتداء لاتجاه نظر النبى إلى ما وراء مكة إلى شبه الجزيرة العربية كلها ، ولم يكد هذا الفصل من حياة الدعوة الإسلامية يتم حتى اتصلت القبائل كلها بهذه الحكومة اليثربية الحجازية ، فكأن النبى قد تحول من مجال ضيق إلى مجال أوسع ، وهذا التحول كان مقروناً بالصدى الهائل الذى تجاوب فى جزيرة العرب بعد فتح مكة ، هذا الصدى الذى أظهر العرب على أن الحكومة الجديدة صاحبة الدين الجديد قوة يجب الاتصال بها ؛ فتتالت وفود القبائل فى العام التاسع للهجرة ؛ إلى أن رأى النبى فى آخر هذا العام الذى سُمّى بعام الوفود أن يقوم بعمل حاسم فيه استكمال لشىء ضرورىّ للوضع الجديد . ذلك أنه وإن أرسلت القبائل وفودها تعلن إسلامها وخضوعها . إلا أنه بقيت أقلية لم تتصل بالمدينة ، وبقى من بين رجال القبائل أُناس لم يدخلوا فى الإسلام ، وكان الوضع يقتضى أن تحدِّد هذه القبائل موقفها ، فإما أن تدخل فى النظام الجديد ؛ وإما أن تعتبر منفصلة عنه . والنظام الجديد دين ودولة ، أو هو دولة قائمة على أساس الدين . والدخول فى هذا النظام له ناحيتان :

بالنسبة للوثنيين من العرب يجب عليهم أن يعتنقوا الإسلام كمظهر لدخولهم فى النظام الجديد وإقرارهم بالوحدة العربية .

وبالنسبة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يجب أن يعلنوا

ارتباطهم بالدولة الجديدة عن طريق الخضوع لها ودفع الجزية ،
الجزية ضريبة مالية يدفعها الرجال البالغون القادرون على الكسب
ويعفى منها النساء والأطفال ، على أن تقوم الدولة بكفالة الحماية
لهؤلاء الناس وإعطائهم حقوق الرعوية ، وتنفيذ القانون عليهم .
مع إعفائهم من الخدمة العسكرية . وقد استمر هذا النظام بعد ذلك
بالنسبة للبلاد التى فتحها المسلمون والتى كان أهلها يدينون بدين كتابى .

ولتحقيق ضم هذه الفئة القليلة التى أشرنا إليها وتحديد موقفها ،
أصدر النبى فى نهاية العام التاسع للهجرة بياناً عُرف ببيان براءة .
وكان هذا البيان وحيًا ، ولم يكن من كلام النبى لأنه جاء فى آيات
قرآنية فى سورة من سور القرآن الكريم هى سورة التوبة ، وقد بُدِئت
بكلمة براءة فسُمى هذا البيان « بيان براءة » ، وقد أذاعه النبى فى
مناسبة عامة يحضرها العرب من كافة أنحاء الجزيرة العربية ، وفى
يوم مشهود هو يوم الحجّ الأكبر ، حيث يجتمع الحجيج كلهم فى
صعيد واحد عند جبل عرفات . وكان على الحج فى هذا العام أبو بكر
الصدّيق ، لكن النبى أرسل مندوباً خاصاً هو على بن أبى طالب ،
وإرسال علىّ لهذا الغرض يعطى أهمية خاصّة للموضوع ، إذ أنه يعتبر
مندوباً خاصاً لإذاعة حالة خاصة ، ولم يكلَّف بذلك أبو بكر حتى
لا يعتبر البيان مندرجاً فى حالة عامة هى حالة الحج ، ثم إن البيان
كان نبذاً لعهود بين النبى وبين بعض القبائل ، وكان العُرف يقضى
بأن يقوم بنبذ العهد صاحب العهد نفسه أو رجل من عُصبته شديد
القرابة به ، ولذلك أرسل عليا لتلاوة هذا البيان وإعلان الناس به :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ . كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ

مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ

فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ . إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

أعلن البيان أن الله برىء من المشركين . وأنه لا عهود بينهم وبين الدولة الإسلامية . وأن الذين سبقت لهم عهود محدودة بأجل معلوم فلم ينقصوها شيئاً ولم يعينوا على المسلمين أحداً ، توفى إليهم عهودهم إلى مدتهم ثم لا تجدد ، ثم أجل المشركين فرصة أربعة أشهر ليفكروا فى وضعهم ، فإما أن يعلنوا إسلامهم وينضموا للدولة الجديدة وإما يُعتبروا خارجين عليها متمردين على نظامها .

ووجود فئة لا تدين بمبادىء الدولة ولا تخضع لقوانينها أمر بالغ الخطورة فى كيان الدولة الداخلى ، وكان لابد أن يخضع هؤلاء الناس لنظام الدولة أو يحارَبوا ، بمعنى أن يوضعوا فى حكم الأعداء ، ولكنهم أعداء داخليون يترتب على عداوتهم خطر كبير على كيان الدولة ، ومن هنا لم يقبل الإسلام منهم إلا الدخول فيه والخضوع له ، وليس للمشركين ديانة تحترم ولا مُثُل تفرض هذا الاحترام كأصحاب الديانات السماوية الأخرى ، فالإسلام قد اعترف بالديانات السماوية واعتبر الدين وحدة واحدة ، وأن رسالة الإسلام إنما جاءت لتأكيد هذه الوحدة وتطهيرها مما علق بها ، وتأكيد وحدانية الله التى جاءت بها ، لذلك اعتبر أهل الكتاب داخلين فى وحدة الدولة إذا ما أعلنوا خضوعهم لها ووفوا بالتزاماتهم نحوها . وكان على هذه الفئة القليلة من المشركين

وأهل الكتاب أن تحدِّد موقفها فإما إسلام وخضوع للدولة وإما تعرض للحرب الشاملة .

ثم أعلن البيان أن مكة بيتها وحرمها مكاناً إسلامياً خالصاً لا يجوز أنْ يدخله مشرك . وأن الحج أصبح حجًّا إسلاميًّا بعد أن برئت الكعبة من الأصنام ، ولذلك فيجب ألاّ يحج مشرك وألا يقرب المسجد الحرام . وإذا كانت الدولة قد حرصت على وحدتها بإعلان براءتها من المشركين ، فهى كذلك لم تعد فى حاجة إلى الذين دخلوا فيها من قبل بمظهرهم دون قلوبهم وهم الذين عرفوا بالمنافقين ، وكان النبى مضطرًّا إلى مداراتهم حرصاً على الترابط الداخلى فى دولته الناشئة : لأن سلطان العصبية كان قويًّا ، فلو أنه قتلهم أو عاقبهم لربما جرّ ذلك إلى انتصار عشائرهم لهم ، وبذلك يحدث تخلخل فى صفوف الدولة ، أما وقد رسخت أقدام الدولة واستقرّت المبادىء فى نفوس المسلمين وأصبحت بسلطانها أقوى من العصبية ، فلم تعد هناك ضرورة للمداراة ، ولذلك استمر البيان بعد ذلك يفضح المنافقين ويندد بهم تنديداً شديداً . وينذرهم بالعقاب الشديد فى الدنيا والآخرة . ويحذر المسلمين من مصانعتهم وودّهم ، ويعتبرهم عنصراً ضارًّا فى الدولة مفسداً فيها . يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، وإذا كانوا فى مظهرهم يبدون من المسلمين لكنهم فى حقيقتهم ليسوا منهم . وحتى لو أكدوا هذا وحلفوا عليه فإنما ذلك يكون منهم فَرَقًا حتى إذا ما وجدوا فرصة انتقضوا وكانوا عونًا على الدولة لا عوناً لها . ولذلك أنذرهم بأنهم إن أرادوا أن يكونوا مع المسلمين فى توادهم وتراحمهم فعليهم أن يطهّروا أنفسهم من النفاق وهو الكفر الباطن (١) .

---

(١) التوبة ٤٢ – ١١٠ .

والبيان فى هذا الشأن يشرك الشعب فى تصفية المجتمع ، فإن الدولة لا تستطيع بأجهزتها مهما بلغت من الدقة أن تكشف عن خفايا نفوس الناس وأن تعرفهم معرفة مباشرة . وإنما يعرف الأفراد بعضهم بعضاً بالمخالطة والمكاشفة ، والمجتمع السليم هو الذى يوجد فيه أفراد يشاركون الدولة مسئوليتها فى تطهير المجتمع من الفئات الضارة المنحرفة المتغلغلة فيه . ولذلك استعدى البيان المسلمين المؤمنين على هذه الفئة المنافقة ليشعرها بالعزل الاجتماعى حتى تندرج بكليتها فى النظام الجديد أو تحس بوحدتها وانعزالها .

وقد آتى هذا البيان ثمرته ، فإن النبى قد حج فى العام العاشر حجته الأخيرة : وهى الحجة التى حجها على النظام الإسلامى الكامل ، وحج معه فيها حوالى مائة ألف حاج من العرب (١) لم يكن من بينهم مشرك واحد . ومعنى هذا أن البيان أحدث تأثيره المطلوب .

وفى الفترة التى تقع بين إعلان براءة ووفاة النبى طبق الرسول قانون براءة فى حذر شديد وكياسة سياسية بارعة ، وتجنب الاصطدام بالقبائل وإلا جرح كبرياءها وأثار عصبيتها . ولذلك كان يكتفى من وفودها بإعلان إسلامهم وإعلان انضمامهم إلى حكومته . ويرسل معهم عند عودتهم معلمين يعلمونهم الإسلام فى بلادهم ، وهؤلاء المعلمون هم أول صنف من الدعاة وأول صنف من الولاة والعمال فى الدولة الإسلامية ، وعلى أيديهم دخلت القبائل فى الإسلام وجمعت الصدقات من كافة القبائل ووزعت على الفقراء توزيعاً محلياً ولم يرسل إلى يثرب إلا الفائض (٢) . وهؤلاء الولاة الجباة المعلمون الأولون لم يشلوا

(١) إمتاع ١/٥١٢ .

(٢) ابن هشام ٤/٢٧١ .

يد رؤساء القبائل حين وقفوا إلى جوارهم بل كانوا يتعاونون معهم تعاوناً تامًّا ، وفى بعض الأحيان كانوا يضعون أنفسهم فى حمايتهم .

وبدخول القبائل فى الإسلام على هذا النحو أصبحت الجزيرة العربية كلها تحت سلطان دولة واحدة ؛ ولأول مرة فى تاريخ الجزيرة يتوحَّد العرب تحت سلطان دولة عربية واحدة . ولم يخرج على نفوذ الدولة من قبائل العرب إلا ما كان منها تحت نفوذ الدول الكبرى على حدود الجزيرة فى بادية العراق والشام . والحد الذى كان يشغل بال النبى هو الحد المتاخم لدولة الروم ، وقد حدث من جانب عرب الغساسنة والقبائل الموالية للدولة الرومية ما استدعى من النبى أن يوجه بعض الحملات الحربية : لتوطيد سلطان دولته وتأديب القبائل التى تهدد حدودها الشماليه . وقبل وفاته قام بحملة كبيرة اشتركت فيها معظم قبائل العرب وبلغت عدة رجالها ثلاثين ألفاً (١) ، إذ قد وصل إلى سمعه إشاعة حشد الروم على حدود الدولة العربية ، لكن النبى حين وصل إلى تبوك لم يجد هذه الحشود المزعومة ، فوادع المدن والقبائل على الحدود . وكان أمر هذه الحدود يشغله طيلة الفترة الأخيرة من حياته حتى أعد بعثاً عسكريًّا إلى هذه الجهة لم ينفذ إلا بعد وفاته .

وتوفى النبى فى أول العام الحادى عشر بعد أن حج بنفسه فى نهاية

---

(١) ابن هشام ٤/١٦٩ — ١٨٤ .

العام العاشر حجَّته الإسلامية الوحيدة التى سميَت فيما بعد بحجة الوداع وفيها أقرَّ النبى المبادىء العليا ، وبيَّن للناس أن الإسلام كرسالة وكمبادىء قد اكتمل ؛ وأن به قد أكمل الله على الناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته .. « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيت لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا »(١) .

---

(١) المائدة ٣ . ابن هشام ٤/٢٧٥ - ٢٧٨ .

الخلافة الإسلامية وتثبيت دعائم الوحدة

كان موت النبي دون أن يترك وصية عن طريق الحكم بعده أمراً أثار كثيراً من الخلاف . فكانت مشكلة النظام الذى يجب أن يقوم بعد وفاة النبي أول مشكلة واجهها المسلمون . والمشكلة الثانية متّصلة بالأولى وهى هل يستمر النظام الجديد كما كان أيام النبي .. ؟ . . وهل يستمر العرب الذين انضموا إلى يثرب على الطاعة والحلف كما كانوا ، أم يعودون إلى ما كانوا عليه من قبل قبائل مستقلة ومدناً متفرقة على شكل دول قبلية ومدنية ؟ .. وبحل هاتين المشكلتين تقررت الخلافة وتدعّمت الوحدة واستقر النظام الجديد .

مشكلة الخلافة :

اختلف الناس عندما علموا بموت النبي ، واستسلموا إلى جميع الدوافع الغريزية التلقائية ، فمنهم مكذِّب بموته ، ومنهم هلع ، ومنهم حريص على انتهاز الفرصة .

أما من لم يصدق الخبر فهو عمر بن الخطاب حتى همَّ أن يقتل من كان يروى الخبر ، وأما من هلع فهو على بن أبى طالب وأهل بيت النبي الأقربون ، وأما المنتهزون للفرصة فهم الأنصار ، حملتهم العصبية على أن سارعوا إلى الاجتماع فى إحدى السقائف المسماة سقيفة بنى ساعدة ، وقد كان لكل بطن من بطون القبيلة مكان أو سقيفة يجتمعون عندها ، إلا أن سقيفة بنى ساعدة اشتهرت لاجتماع الأنصار عندها فى هذا اليوم .

وشرع الأنصار يختارون واحداً منهم ، وانتشر الخبر بالمدينة حتى بلغ الصحابة ، فسارع ثلاثة منهم هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فى عدد من الصحابة وأرادوا أن يعالجوا الموقف الذى خلقه الأنصار بتسرعهم وتصرفهم المفاجىء دون أن يتفاهموا مع الأطراف الأخرى بالمدينة . ولم يلجأ الصحابة إلا إلى الحجة ، ونجحوا فى الحيلولة بين الأنصار وبين انفرادهم بأمر تقرير النظام الجديد . ولو تم للأنصار ما أرادوا لتعرضت الجماعة كلها لفتنة كبرى ، والواقع أن تسرع الأنصار يومئذ كان مريباً ، وكان جنوحاً إلى العصبية . وقد سهل الأمر على الصحابة الثلاثة أن الأنصار كانوا منقسمين إلى عصبيات مختلفة وأن هذه العصبيات عملت عملها فى هذا الموقف الحاسم . أما هذا الثالوث من الصحابة فكان صفًّا واحدًا يتبع رأيًا واحدًا ، ولهذا انتهى الأمر بمناقشة بين الأطراف المجتمعة حول نظام الحكم ، وفى أثناء المناقشة عرضت آراء كثيرة ، فبعد أن كان الانصار يريدون أن يولوا واحداً منهم ، اقترحوا أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، ولو تم هذا الاقتراح لكان من الواجب أن يتولى الخلافة اثنان ، إلا أن الثلاثة رفضوا هذا الرأى فى كياسة ذاكرين للأنصار فضلهم ، واقترحوا رأيًا جديدًا وسارعوا بأخذ الأصوات عليه – وهذا التعبير حديث بل الأصح أن نقول سارعوا إلى أخذ البيعة عليه – وسارع الناس إلى مد أيديهم وإلى مبايعة أبى بكر . وكان هذا الحل كما أرجف بعض الناس حلاً جاء عفوًا دون تدبير وأنه جاء فلتة ، وكان من الممكن أن يفضى إلى فتنة إلا أن الله وقى شرها . ومهما تختلف المذاهب الإسلامية فى أمر هذه البيعة وفى الحكم على الثلاثة الذين تداركوا

الموقف ، وفى الأنصار الذين أرادوا أن يستبدوا بالأمر . فإن السقيفة قررت أمر الخلافة تقريراً نهائياً وأصبحت سابقة قابلة للتطبيق ، وحرص الناس على اتباعها ولو من الوجهه الشكلية إلى أن دالت الخلافة.

وهذا الحل الذى سارع الناس إلى الرضاء به يدل على أنهم كانوا يسلمون ضمناً بأن النظام الجديد واجب البقاء ، وأن النبى وإن مات فإنه خلف فيهم ديناً وكتاباً يسيرون على هديه ، وأن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . فرضاء الناس يومئذ يعبر عن إرادة الاستمرار فى ظل النظام الذى أنشأه النبى .

الردة :

ولم يكد المسلمون ينتهون من هذه الأزمة حتى واجهوا أزمة أخرى أشد ، فالأولى لم تكن تتطلب إلا شيئاً من الكياسة وحسن الرأى والوقوع على الحل الصحيح ، أما الثانية وهى الردة ، فإنها كانت تتطلب إعداد الجيوش وتعبئة قوة المدينة الحربية والمعنوية . وفى أثناء هذه الأزمة ظهرت بطولة أبى بكر حتى كان ابنه محمد يقول مفاخراً فيما بعد بأنه ابن فاقىء الردة ، وحتى قال بعض الناس إنه لم ير أحداً بعد الرسول الله أملأ بالحرب من أبى بكر . والسبب المباشر فى هذه الأزمة هو موت النبى ، فقد سبق إلى ظن الناس أنه لن يقوم مقامه أحد ، وأن الفراغ الذى تركه أكبر من أن يُسد ، وأن النظام الجديد لا يمكن أن يدوم بعده ، وأن الخطوة الجبارة التى خطاها الرسول بالعرب خطوة كانت تحتاج إلى دوام صاحبها ، ولهذا سارع العرب برغم إعجابهم بالروح القومى الذى بعثه النبى فيهم إلى انتهاز الفرصة والعودة إلى النظام

القديم ، فطردت بعض القبائل عمال النبي ، وقلدت القبائل بعضها بعضاً ، وانتشر الارتداد فى كل مكان حتى لم تبق قبيلة إلا وفيها جماعة كبيرة مرتدة وغالى بعض القبائل فأرادت أن يكون لها ما لقريش بمعنى أن يكون منها نبيّ كما كان من قريش نبي ، وأن تجتمع العرب إلى زعامتها كما اجتمعت إلى قريش ، ولم يثبت على النظام الجديد إلا مثلث المدينة ومكة والطائف ، غير أن المرتدين بطبيعة حركتهم ولحسن حظ يثرب لم يكونوا ليتضامنوا فيما بينهم فالأزمة فى الواقع ترجع إلى النزوع إلى الاستقلال وإلى رفض التضامن . وكانت الهزيمة التى أصابت المرتدين آخر الأمر دليلاً على أن النظام الجديد قد أصبح قوياً جارفاً ، وعلى أن حركة الردة برغم عنفها وشمولها لم تستطع أن تنال من النظام الجديد شيئاً ، ولولا أن المدينة كانت تمثل فكرة جديدة وتمثل ما انطوت عليه فى الحقيقة نفوس العرب ، ولولا أنها كانت تمثل القومية التى كانت حائرة غامضة فى الجاهلية ، ولولا أن جيش المدينة كان أقوى من كل قبيلة أو قبيلتين على حدة .. لكانت تلك الأزمة نهاية للنظام اليثربى النبوى .

واستطاعت جيوش المدينة أن تظهر عزمها على تأييد النظام الجديد وأن ترد القبائل إلى الطاعة ، بل إن جيوش المدينة قامت إلى جانب قمع المرتدين بعمل آخر إضافى فى نفس الوقت ، هو تطبيق قانون براءة تطبيقاً تاماً ، أو هو بحسب اللفظ الوارد فى المصادر استبراء رسمى من الدين الوثنى . وكان الاستبراء هدفاً هاماً من الأهداف التى وضعتها جيوش الردة لنفسها ، فالمدينه كانت تعلم أن جيوشها لم تطأ من قبل من أقاليم الجزيرة إلا الحجاز ، وأن نفوذها فيما وراء ذلك سطحى ،

وأن معظم القبائل لم تتصل بالمدينة إلا عن طريق المواثيق التى أبرمتها فى عام الوفود وعن طريق عمال الصدقات الفقهاء الدعاة الجباة ، فكانت الردة فى الحقيقة فرصة لتطبيق الاستبراء تطبيقاً فعلياً وإظهار قوة الجيوش اليثربية ، ولم تكن المدينة قد أوتيت تلك الفرصة من قبل ، فقد كانت عاجزة عن مثل ذلك وإلا وقعت فى حرج وظهرت بمظهر المعتدى وجرحت كبرياء القبائل

ونحن إذا قرأنا الكتب التى كتبها أبو بكر وزود بها جيوش الردة . وجدنا فيها نية الاستبراء ظاهرة ووجدنا فيها لفظ الاستبراء الدال على أن أبا بكر كان يريد أن يطبق إعلان براءة فلا يصح أن نهمل الصلة بين لفظ الاستبراء الوارد فى كتب أبى بكر وبين لفظ براءة الوارد فى سورة براءة ، ثم إننا نجد بعض زعماء الردة يحتجون على المدينة حين حاربتهم بأنهم لم يكونوا دخلوا الإسلام من قبل حتى يعدوا مرتدين ، ويطلبون لذلك أن يطبق عليهم قانون الاستبراء لا قانون الردة فإذا نظرنا إلى الردة من هذه الناحية عرفنا أنها كانت أزمة ضارة نافعة . ثم إن مهمة المدينة أثناءها كانت يسيرة إلى حد ما ؛ لتفرق الأعداء وعدم تضامنهم إطلاقا ، ولوجود جماعة فى كل قبيلة موالية للمدينة فهذه الأزمة لم تكن تحتاج فى الواقع إلا إلى قدر من الإيمان وكان أبو بكر كفؤا لها من هذه الناحية .

وقد استغرقت الردة وقمعها نحو عام ، فلما استهل العام الثانى عشر للهجرة كانت الوحدة العربية قد عادت أقوى مما كانت ، وكان المجال فى بدء هذا العام فسيحاً أمام النظام الجديد . وكانت القلوب يقظى قد استهوتها المبادىء الجديدة بما فيها من قومية ودين . وتكاد القومية

تكون دافعاً أقوى من الدين على تحريك الشعوب وإنهاضها ، فمن الشعوب من غيَّر دينه أكثر من مرة وظل مع ذلك محتفظاً بقوميته . وكان إحساس العرب بوحدتهم وقوميتهم على يد الحكومة اليثربية أمراً لم يتح لهم من قبل ، وبهذا تمت الفكرة التى بدأها النبى وحققها ، فتأيدت وتدعمت على يدى أبى بكر . وتحقق للعرب إلى وحدة اللغة وتجانس النسب ووحدة الدم وحدة الدين ووحدة الدولة . وكان ذلك حدثاً خطيراً وخطوة جبارة تكاد تكون معجزة أقوى من المعجزة التى تلتها وهى معجزة الفتوح .

* * *

ثبت المصادر والمراجع

(١) العربية

القرآن الكريم .

الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) .

كتب الحديث :

البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن بردزبة الجعفي) :

— صحيح البخاري : مطبعة بولاق ١٣١٤ هـ .

مالك (أبو مالك بن أنس الأصبحي) :

— موطأ الإمام مالك : تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٢ .

مسلم (الإمام الحافظ أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشان النيسابوري) :

— صحيح مسلم : طبعة مصر سنة ١٣٢٧ هـ .

كتب التفسير :

الخازن (علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي) :

— لباب التأويل في معاني التنزيل : مطبعة التقدم بمصر ١٣٣١ هـ .

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) :

— تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف بمصر .

ابن كثير القرشي (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر) :

— تفسير القرآن العظيم : المطبعة التجارية بمصر ١٣٥٦ هـ .

النسفي (أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود) :

— مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، المطبعة الحسينية المصرية ١٣٤٤ هـ

الواحدي (أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري) :

— أسباب النزول ، طبعة إبراهيم بن عمر الكعبرى ، القاهرة .

إبراهيم الإبيارى :

— معاوية : المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر .

ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد عبد الكريم الشيبانى الجزرى الملقب بعز الدين) :

— الكامل فى التاريخ ، المطبعة المنيرية ، سنة ١٣٤٨ هـ .

— أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، جمعية المعارف بمصر ١٢٨٥ هـ .

أحمد أمين :

— فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية .

أحمد بدوى (دكتور) :

— فى موكب الشمس ، الجزء الثانى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

أحمد زكى صفوت :

— جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة ، مطبعة الحلبى ، (١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م) .

الأزرق : (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة ابن الأزرق الغسانى) :

— أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، المطبعة الماجدية بمكة .

الإصطخرى (أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسى — المعروف بالكرخى) :

— مسالك الممالك ، طبعة القاهرة .

الأصمعى (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك) :

— الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ م .

الألوسى (السيد محمود شكرى البغدادى) :

— بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، الطبعة الثالثة دار الكتاب العربى .

البكرى (أبو عبد الله بن عبد العزيز بن أبى مصعب) :

— معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٥٤ م .
البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى) :
— فتوح البلدان ، مطبعة الموسوعات بمصر ١٩٠١ م .
— أنساب الأشراف . تحقيق محمد حميد الله . طبعة دار المعارف ؛
بودلى :
— الرسول (حياة محمد) . ترجمة عبد الحميد جودة السحار ، القاهرة ١٩٤٧ م .
أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى) :
— ديوان الحماسة ، المكتبة الأزهرية ١٩٢٧ م .
الجاحظ (عمرو بن بحر) :
— البيان والتبيين ، تحقيق السندوبى ، القاهرة ١٩٢٦ م .
— الحيوان . القاهرة ، (١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م) .
— المحاسن والأضداد . القاهرة . (١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م) .
جورجى زيدان :
— العرب قبل الإسلام . تعليق حسين مؤنس (دكتور) ، دار الهلال .
جماعة من الأساتذة :
— الإسلام الصراط المستقيم ، بإشراف كينيث و. مورغان ، وترجمة محمود عبد الله يعقوب ، مؤسسة فرانكلين ، ١٩٦١ م .
جواد على (دكتور) :
— تاريخ العرب قبل الإسلام ، مطبوعات المجمع العلمى العراقى .
جورج فضلو حورانى :
— العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى . ترجمة السيد يعقوب بكر . مطبعة الأنجلو بمصر .
حافظ وهبه :
— جزيرة العرب فى القرن العشرين ، القاهرة ، سنة ١٩٤٦ م ؛

حتى (فيليب خورى) :
– تاريخ العرب . ترجمة محمد مبروك نافع ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠م
حسن إبراهيم (دكتور) :
– تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى . القاهرة ، سنة ١٩٤٨ م
ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) :
– جوامع السيرة . تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد – دار المعارف
– جمهرة أنساب العرب . تحقيق ليفى بروفنسال . دار المعارف .
الحلبى (على بن برهان الدين) :
– السيرة الحلبية . طبعة القاهرة . ١٣٤٩ هـ .
الحميمى (الحسن بن أحمد) :
– سيرة الحبشة . تحقيق د. مراد كامل . المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٨ م .
الخزاعى (أبو الحسن على بن ذى الوزارتين محمد بن أحمد بن موسى) :
– الدلالات السمعية على ما كان فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية . مخطوط بدار الكتب المصرية . تاريخ – تيمور ٦٣٨ .
ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربى) :
– المقدمة . المطبعة الشرقية . سنة ١٣٢٧ هـ .
– كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . مطبعة بولاق . سنة ١٢٨٣ هـ .
دائرة المعارف الإسلامية :
درمنجم (إميل) :
– حياة محمد . ترجمة عادل زعيتر . القاهرة . سنة ١٩٤٥ م .
الديار بكرى (حسين بن محمد بن الحسن) :
– تاريخ الخميس . المطبعة الوهبية ، بالقاهرة .
دواوين الشعر :
– ديوان الأعشى . مكتبة الآداب . القاهرة . ١٩٥٠ م .
– ديوان امرىء القيس : طبع المعارف . سنة ١٩٥٨ م .

— ديوان زهـــير . طبعة دار الكتب المصرية .
— ديوان طرفة بن العبد ، طبعة بيروت . سنة ١٩٥٣ م .
— ديوان عروة بن الورد . طبعة بيروت . سنة ١٩٥٣ م .

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) :
— سيرة أعلام النبلاء . تحقيق صلاح المنجد . دار المعارف .

الزوزني (أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين) :
— شرح المعلقات السبع . مطبعة صبيح . القـــاهرة .

سديو (ل . أ) :
— تاريخ العرب العـــام . ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ١٩٤٨ م .

ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع القرشي الهاشمي البصري البغدادي)
— الطبقات الكبرى . لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

السمهودي (نور الدين علي بن جمال الدين أبو المحاسن عبد الله بن شهاب الدين)
— وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . مطبعة الآداب والمؤيد . القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

السهيلي (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي) :
— كتاب الروض الأنف وبهامشه السيرة النبوية لابن هشام : مطبعة الجمالية بمصر (١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م) .

ابن سيد الناس (فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن يحيى الأندلسي الأشبيلي المصري) :
— عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، نشر مكتبة القدسي . سنة ١٣٥٦ هـ .

شكري فيصل :
— المجتمعات الإسلامية في القرن الأول . القاهرة ، سنة ١٩٥٢ م .

شوقي ضيف (دكتور) :
— العصر الجاهلي . دار المعارف . سنة ١٩٦٠ م .

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) :
— تاريخ الأمم والملوك ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة (١٣٥٧ هـ — ١٩٣٩)
طه حسين (دكتور) :
— على هامش السيرة . دار المعارف . القاهرة ، سنة ١٩٤٦ م .
عباس محمود العقاد :
— عبقرية محمد : مطبعة الاستقامة ، القاهرة .
— مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية ، دار الهلال بمصر .
— أبو الشهداء الحسين بن على : دار الهلال بمصر .
— معاوية بن أبى سفيان فى الميزان ، دار الهلال بمصر .
— ذو النورين عثمان بن عفان ، دار الهلال ، بمصر .
بن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد) :
— الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، تحقيق على محمد البجاوى ، مكتبة نهضة مصر .
عبد الحميد العبادى :
— صور من التاريخ الإسلامى ، مكتبة الآداب بالإسكندرية ١٩٤٨ م .
ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسى) :
— العقد الفريد : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٤٠ م .
عبد القدوس الأنصارى :
— آثار المدينة المنورة : مطبعة الترقى بدمشق ، سنة ١٩٣٥ م .
عبد الوهاب عزام :
— موقع عكاظ ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٥٠ م .
على حسنى الخربوطلى (دكتور) :
— المختار الثقفى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بالقاهرة .
الفاسى (السيد عبد الحى بن عبد الكريم الحسنى الكتانى الإدريسى) :
— التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى

كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية فى المدينة المنورة ، مطبعة الرباط ، سنة ١٣٤٦ هـ .

أبو الفرج الأصفهانى :

— الأغانى . دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م ، ومطبعة التقدم بمصر .

فلهوزن (يوليوس) :

— تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة (دكتور) إدارة الثقافة ، سنة ١٩٥٨ م.

ابن قتيبة الدينورى :

المعارف . القاهرة . سنه ١٩٣٤ م .

القلقشندى (أبو العباس أحمد) :

— نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الإبيارى . الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

— صبح الأعشى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٩١٤ م .

كارل بركلمان :

— تاريخ الأدب العربى . ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف .

— تاريخ الشعوب الإسلامية . ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت .

ابن كثير القرشى (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر) :

— البداية والنهاية فى التاريخ ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .

الكلبى (هشام بن محمد) :

— الأصنام ، تحقيق أحمد زكى ، دار الكتب ، سنة ١٩٢٤ م .

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) :

— الكامل ، تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة نهضة مصر .

محمد بن حبيب (أبو جعفر) :

— المحبر ، طبعة حيدر أباد ، سنة ١٩٤٢ م .

محمد حسين هيكل (دكتور) :
— حياة محمد ، مطبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٣٥٤ هـ .
— فى منزل الوحى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٣٥٦ هـ .
محمد الخضرى :
— محاضرات فى تاريخ الأمم والشعوب الإسلامية ، المكتبة التجارية ، القاهرة .
محمد عزة دروزة :
— عصر النبى عليه السلام ، مطبعة اليقظة العربية ، دمشق . سنة ١٣٦٥هـ
محمد لبيب البتنونى :
— الرحلة الحجازية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، سنة ١٣٢٩ هـ .
محمد مختار (باشا) :
— التوفيقات الإلهامية . مطبعة بولاق ، سنة ١٣٣١١ هـ .
المصعب الزبيرى (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله) :
— نسب قريش ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٣ م .
المفضل الضبى :
— المفضليات : تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . مطبعة المعارف ، سنة ١٣٦١ هـ .
المقريزى (تقى الدين أبو محمد أحمد بن على) :
— النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم ، طبعة ليدن ١٨٨٨ م .
— إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والأتباع ، تحقيق محمود شاكر ، القاهرة ، سنة ١٩٤١ م .
النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) :
— نهاية الأرب فى فنون الأدب ، دار الكتب ، سنة ١٩٤٣ م .
ابن هشام (أبو هشام عبد الملك الجعافرى الحميرى البصرى) :
— سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، راجع أصولها وعلق عليها محمد

محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازى بالقاهرة .
الهمذانى (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يعقوب بن يوسف ابن داود - المعروف بابن الحائك) :
- صفة جزيرة العرب ، تصحيح محمد عبد الله النجدى ، مطبعة السعادة ، سنة ١٩٥٣ م .
الواسعى (عبد الواسع بن يحيى اليمانى) :
- تاريخ اليمن ، القــاهرة ، سنة ١٣٤٦ هـ .
الواقدى (أبو عبد الله محمد بن عمر) :
- مغازى رسول الله ، جماعة نشر الكتب القديمة ، سنة ١٩٤٨ م .
ولفنسون (إسرائيل - أبو ذؤيب) :
- تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، مطبعة الاعتماد بمصر ، سنة ١٩٢٧ م .
ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى)
- معجم البلدان ، مطبعة بيروت ، سنة ١٩٥٧ م .
- معجم الأدباء ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة .

(٢) الأوربيـــة

De Gaury, Gerald : Rulers of Mecca. London George G. Harrap & Co. Lid.

Doughty, Ch. M : Travels in Arabia Desert, 2 vols, London, 19.

Fishel, W. B. : The Middle East, London 1936.

Herodotus : Book II (L.C.L.)

Huzayyin. ; S. A. : Arabia and the Far East. Cairo 1942.

Lammens : La Mecque à la veille de l'Hegire. Bayrouth 1924.

La Republique Marchand de la Mecque.

Les Abèch et l'organisation militaire de la Mecque au ecls / a de l'Hegire J. A. 1916. p. 425-482.

Muir, William : The lifeof Mahomet & History of Islam to the Era of the Hegira. London, 1858.

O'leary, De Lacy, D.D. Arabia before Muhammad, London 1927.

Ptoemy : Geography, (L.G.L.).

Smith, W. Robertson : Kinship & Marriage in Early Arabia. London, 1903.

Twitchell, K. S. : Saudi Arabia with an Account, of Development of its Natural Resources, Princeton, 1953.

Watt. W. Montgomery : Muhammad at Mecca.

Muhammad at Medina.

Oxford, 1956.

الفهرس الكشاف

الاعلام

(أ)

الدول والقبائل والبطون والعشائر

(أ)

(غ)

(ف)

(ق)

المواضع

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

الحروب والغزوات والوقائع

المحتــويات

الصفحة

الصفحة

الفصل السابع

الفصل الثـامن

الباب الثالث

مدينة يثرب

الفصل الأول

الفصل الثـانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الصفحة

الصفحة

خـــاتمة

رقم الإيداع بدار الكتب القومية

٢٧٦٥ لسنة ١٩٨٥

ترقيم دولى : ٨ - ٠١٤١ - ١٠ - ٩٧٧

